السلسلة الجامعية

النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس

"مضامينه وأشكاله"

تأليف

علي بن محمد

أستاذ بجامعة الجزائر

الجزء الأول



دار الغرب الإسلامي

النثر الأدبي الأندلسي

في القرن الخامس

الجزء الأول

النثر الأدبي الأندلسي
في القرن الخامس
"مضامينه وأشكاله"

تأليف

علي بن محمد

أستاذ بجامعة الجزائر



الجزء الأول





الطبعة الأولى

1990

دار الغرب الإسلامي

ص. ب: 5787 - 113

بيروت . لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـداء

إلى زوجتي

فقد قاسَمَتني أعباءَ هذا العمل، وشاركتني هُمومَه في كل مرحلة من مراحله الطويلة، وكانت لي أعظمَ حافز، وأكبرَ سَنَد يُجدِّدان لي إرادةَ الاستمرار فيه كُلَّما أَوْشَكَتْ أن تَصْرفني عنه، وتُزَهِّدَني فيه صِعَابٌ كثيرة، وعِقَابٌ شديدة، في مرحلة من العُمر تتميز بتجربة مريرة، وظروف نفسية خانقة.

إلى مروان وأميّة

وَلَدَيَّ الكبيرين اللذَيْن كنتُ أَسْتَمِدّ من فرحتهما بتَقَدُّم والدهما في عمله عناصرَ القُوَّة، ودواعي الشجاعة الأدبية التي تُحتّم عليّ أن أُبدي أمَامَهُمَا من مظاهر الصبر والاحتمال ما لم أزَلْ أرْجو أن يكون لهما درساً في الحياة يحثهما باستمرار على الإدراك الواعي العميق لقيم التمسك بالمبادىء، وجَعْل كرامة النفس فوق كل الاعتبارات، والاستهانة من أجلها بأنواع المكاره، وضروب الأذى.

إلى بهيّـة

بنتي الصغيرة، التي أُريدُها أن تتذكر دائماً كيْف كانت حَرْباً على هذا العمل، وخَصْماً لَدُوداً له، لا تأنس مني التفاتةً إليه، أو اشتغالاً بجانب من جوانبه، في الأوقات القليلة التي أنجحُ في اختلاسها منها، إلا بادرتني بأساليب المقاومة الشاملة التي لا تهدأ ولا تتوقف إلا إذا صَدَّتْني عنه، وأنْسَتْني إيّاه.

إليها، فلولاها لما احتاج هذا العمل إلى كل هذه المدّة لإنجازه.

إليهم جميعاً

أشقاء روحي، وقُرّة عيني، وبهجة حياتي، أهدي هذا العمل تحيةً وذكرى...

علي

المقـدّمـة

بسم الله. والحمد لله. والصلاة والسلام على رسول الله.

عرفت الدراسات الأندلسيّة، في العقود الأخيرة، بعض التطوّر لدى الباحثين العرب، بعد أن كادت تكون، مدّة طويلة من الزّمن، حكراً على المستشرقين. وقد جاء هذا التطوّر في ركاب نوع من الاهتمام العامّ ببلاد المغرب والعناية بتاريخها القديم والحديث. وكان من أبرز آيات هذه العناية المستجدّة إقبال عدد متزايد من طلبة الجامعات العربية المشرقية بالذّات، على اختيار موضوعات لبحوثهم تتصل بتاريخ المغرب والأندلس وآدابهما.

على أن الذي يستلفت الانتباه أن الباحثين في الميادين الأدبية منهم كانوا ميّالين كلّ الميل إلى إيثار الشعر والشعراء على النثر وأهليه، وهم يفضلون منهم، على الأخصّ، جماعة الأعلام المشاهير من أمثال ابن دراج، وابن خفاجة، وابن زيدون، والمعتمد بن عباد، ولسان الدّين بن الخطيب، ومن إليهم. وقد أظهروا أيضاً نوعاً من العناية بأصحاب الموشحات والأزجال.

وكأنّما استقرّت في أذهان الباحثين صورة للأدب الأندلسي ذات ملامح «رومنسية» تتصل بجمال الطبيعة، ووصفها، والتغنّي بها، ومكاشفتها.. فجاء إقبالهم الواضح على الشعر امتداداً لعنايتهم بتلك الصورة، فهم عاكفون على تدقيق رسمها، وتحقيق المزيد من نعوتها.

أمّا النثر فكان، وما زال، قليل الحظّ من هذه العناية، لم ينل ما هو أهل له من الاهتمام، لا في مؤلفات التاريخ العامّ للأدب حيث نجده يحتل دائماً

الصفحات القليلة الأخيرة منها[1]، ولا في كتب الدراسات الإفرادية إذ لا نجد إلّا القليل النّادر منها يتناول النثر وأعلامه. ولعلّ أكثر هؤلاء حظّاً، وأوفرهم نصيباً من الدرس هم أولائك الذين أبدت كتب التراجم المشرقية القديمة عناية بهم من أمثال ابن زيدون[2] أَوْ أولئك الذين كان لعملهم وقع ما على الحياة الأدبية، كابن شُهَيْد الذي ثار من الجدل ما ثار حول رائعته «رسالة التوابع والزوابع» حين ظُنّ متأثراً فيها بتحفة أبي العلاء المعرّي: «رسالة الغفران». ثم استقر الرأي بصفة نهائية، على أن أبا عامر كان أسبق إلى تأليف رسالته من أبي العلاء وأنه تقدمه إليها بسنوات طويلة.. وربما أضفنا إلى كل ذلك نوعاً من العناية بالأديب الفقيه أبي محمد بن حزم، لما له من منزلة في سياق الدراسات الإسلامية، ولمكانته من المذهب الظاهري بالذات الذي كان أحد أقطابه في الأندلس.

ولقد كان يحيّرنا دائماً سؤال ممض هو: أليس للأندلس من الأدب النثري إلّا هذه النماذج اليسيرة التي ذكرنا بعض أصحابها؟ وهل يعقل أن لا تكون فيها حركة أدبية نثرية نامية توازي الحركة الشعرية وتواكبها؟.

ثم أتيح لنا أن نشتغل بأبي الحسن بن بسام منذ أكثر من عشر سنوات، وأن ندرس عمله ومنهجه في كتابه الضّخم «الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة»، فإذا بنا نكتشف أن الأدباء الأندلسيين قد أنشأوا نثراً كثيراً، غزير

---

(1) من ذلك مثلاً كتاب: «تاريخ الأدب الأندلسي» (عصر الطوائف والمرابطين) لإحسان عباس حيث نجد الحديث عن النثر يستغرق نحو 46 صفحة من كتاب في 397 صفحة (من 280 إلى 326) ومنه أيضاً كتاب عبد العزيز عتيق «الأدب العربي في الأندلس» الذي لم يستغرق فيه الحديث عن النثر، في جميع عهود التأريخ الأندلسي إلّا 72 صفحة من مجموع 500. (من 429 إلى 499).

(2) وقد بلغ من عنايتهم بابن زيدون مثلاً أن شرح رسالتيه عَالِمان من علماء القرن الثامن، فإن صلاح الدين الصفدي المتوفّى سنة 764 هـ، قد شرح «الرسالة الجدية وسمّاها: «تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون» وابن نباتة المصري المتوفّى سنة 768 هـ، شرح «الرسالة الهزلية»، التي سخر فيها ابن زيدون من غريمه في ولادة: ابن عيدوس، وسمّاها: «سرح العيون في رسالة ابن زيدون».

المادة، في قرن واحد، هو القرن الخامس، وأنه لا يقل في أغراضه، ولا في تنوع أشكاله، ولا في عمق معانيه، ولا في جمال مبانيه عما نظمه الشعراء من القريض. ولما كانت طبيعة مباحثنا وقتئذٍ لا تقوى على الاتّساع لتشمل هذه الاهتمامات، فقد كنّا نمنّي النفس بالتفرغ ذات يوم لدراسة ذلك النثر دراسة تفصيليّة، والوقوف بتأنٍّ عندما يَتَيَسَّر لنامن حقائقه، إلى أن منّ الله بذلك، ويسّر لنا أن نعيش هذه السنوات الخمس في صحبة أولئك الفضلاء النابهين من أعلامه ونوابغه، وكانت، والحمد لله، صحبة ممتعة للغاية...

ولقد أدرنا هذا البحث على ثلاثة أبواب جاءت كما يلي:

الباب الأول منها: أفردناه للحديث عن الحياة السياسية والثقافية، وقد درسنا في البداية الظروف التاريخية التي عصفت بالبلاد الأندلسية في سنوات قليلة، ونقلت أهلها من القوّة والعزّة والتئام الشمل، إلى الضعف، والمذلة، والشّتات والخضوع لأعدائهم من النصارى الإسبان وحلفائهم من الأوربيّين. وقد درسنا المسيرة التي سلكتها الأحداث الجسام التي انتهت إلى انفراط عقد الجماعة، وقيام الكيانات السياسية الهزيلة التي حكمها من عرفوا «بملوك الطوائف». ثم درسنا في الفصل الثاني من هذا الباب الحياة الثقافية في أندلس القرن الخامس، وحاولنا أن نبيّن على الأخصّ، مفعول الواقع السياسي وآثاره في الحركة الأدبية. وختمنا هذا الباب بفصل قصرناه على مسيرة النثر الأندلسي منذ الفتح إلى مطالع القرن الخامس، وكان لا بدّ لنا أن نعرف إلى أين انتهى النثر الأدبي في تطوّره عبر القرون، قبل أن نأخذ في بيان الملامح التي اكتسبها في القرن الخامس، الذي هو موضوع هذا البحث.

والبابان التاليان جعلنا كلًّا منهما ميداناً لدراسة تطبيقية موسّعة. فقصرنا أحدهما على دراسة المضامين، وقصرنا الآخر على دراسة الأشكال الفنية. وقد واجهتنا في الحالتين مشكلة استعمال المصطلحات. وهي التي تنطوي في الواقع على مسائل ترجع إلى المنهج، وطرائق الدراسة، أكثر من مجرّد استخدام هذه الكلمة أو تلك... فكان علينا أن نختار بين اعتماد الشائع منها، الذائع

الاستعمال، مع التضحية بدلالات منهجية ذات أثر بعيد في فهم الفنّ الأدبي وتقويمه، وبين التشبّث بتلك الدلالات مع التفريط في خطّة دأب الدّارسون على التزامها، والسير في دروبها. وباختصار شديد، فقد كان علينا: إمّا أن لا نرى في الأغراض الأدبية المتنوعة التي غطّاها النثر الأندلسي في هذا القرن، إلاّ الجانب الديواني، والجانب الإخواني، كما اعتاد الدّارسون أن يفعلوا عندما يعرضون لأدب الأندلس أو غيرها.. وإمّا أن ننطلق من فكرة التصنيف الدقيق للمضامين حسب وظائفها ومراميها، وإن أدّى بنا ذاك إلى مجافاة التقسيم الشائع. وقد اخترنا، بلا تردّد، الأسلوب الثاني في العمل، لأنه هو الذي يتيح لنا إحداث وحدات من الأغراض منسجمة المصادر والموارد.

وهكذا كان لنا في الباب الثاني أربعة فصول، دار كلّ واحد منها على مجموعة محاور تؤلّف فيما بينها وحدات فرعية، وأغراض ثانوية، تتّسم بنفس الانسجام الذي توفّر لأصولها.

من ذلك أن الفصل الأوّل هو الذي خصّصناه لدراسة الإنشاء الديواني الرسمي، الصادر عن السلطة الحاكمة، وقد تبيّن لنا أنه تناول التعبير عن أنواع من العلاقات التي يقيمها الحكّام مع الأطراف المتعاملة معهم. منها العلاقات السلطانية وهي التي تشبه ما يعرف اليوم بالاتصالات السياسية والدبلوماسية، ثم العلاقات الإدارية وهي التي تتناول الجانب الإداري، والتنظيمي، والتشريعي، ثم العلاقات الشعبية وهي التي تمّ التعبير عنها بأضرب من العهود، والعقود والبلاغات وما إلى ذلك.

ودرسنا في الفصل الثّاني المبادلات الاجتماعيّة، وهي التي ينصبّ الأدب الذي أُنشىء فيها على المجاملات، وما يكون بين أفراد المجتمع البشري من ألوان التضامن، والتعاضد المعنويين، مما تلوح بعض مظاهره في الصداقة، وتبادل الهدايا، وتقديم التهاني والتعازي، والتعبير عن السخط أو الغضب عند التقصير في تلك المجاملات، أو عدم الوفاء برسومها التقليدية، ممّا قد ينشأ عنه العتاب الذي قد يتطوّر إلى أنواع من الهجاء...

ثم درسنا في الفصل الثالث ما سمّيناه الأدب التوسلي، وهو ضرب من الإنشاء، متميّز الخصائص، غزير المادّة، متّسع الأبعاد، تلتقي نماذجه كلّها عند معنى من معاني الاستعطاف، والتقرب من الموسرين: حكاماً وأعيان جاه وثروة، والاستشفاع لديهم. وقد تجلّت في نصوص هذا الأدب الظروف الخانقة التي كانت تكتنف حياة الناس، والانقلابات الهائلة التي تحدُث في أوضاعهم، فينتقلون بين عشية وضحاها، من اليسار والنعمة والرخاء، إلى العسر، والضيق، وألوان من الكآبة والبؤس، وقد فرّوا تاركين وراءهم كل مظاهر عيشهم الرغيد، عندما كانت تتهاوى مدن الأندلس وحواضر ملوكها، الواحدة بعد الأخرى، كما تأفل النجوم في أخريات الليل البهيم. . .

وختمنا هذا الباب بأنواع من النثر، متباينة المحتوى، ولكنها ذات وظائف متقاربة، يُوحِّد بينها، في هذا المساق، طابَعُها الاستعراضي الذي يعكس الكثير من الاهتمامات الفكرية، والدينية، والسياسية، لأدباء هذا العصر، ويمثل مظهراً من مظاهر جنوح النثر إلى تجاوز أغراضه التقليدية، والنهوض بوظائفه التعبيرية الجديدة.

ثم أخذنا في إجراء الدراسة التطبيقية، لأشكال النثر، وقوالبه الفنية، وقد صادفنا فيه من أمر التمييز بين أجناسه، واستعمال المصطلحات المناسبة له، ما صادفنا في الباب الأول، وكنّا مخيّرين - مرة أخرى - بين أن نقف عند حدود الظاهر السطحي، فلا نرى في جلّ ذلك النثر إلاّ شكلاً متكرّراً من الرسائل، والصيغ الترسُّليَّة، وبين أن نخترقها إلى ما وراءها من الأشكال التي تدلّ عليها أساليبُها وفنيّاتها الواضحة فيها. وقد كان ميلنا بطبيعة الحال إلى الطريقة الثانية؛ فبدا لنا أن النثر في هذا العصر ينقسم إلى قسمين رئيسين أحدهما يجمع بين طوائف من النثر التخاطبي، والثاني تتدرج فيه كل الأجناس ذات الطابع القصصي. وهكذا كان لنا الفصلان الأوّلان من هذا الباب، وقد تناولنا في الأوّل منهما الصيغ التي يهدف أصحابها إلى نقل الانفعالات، أو بسط الآراء، أو شرح المواقف، أو ردود الفعل. . . وكان لنا من أشكالها: الرسالة، والمقالة،

والتقرير والإعلان، والمراجعة، والمعارضة والمناقضة. وقد ساعدتنا هذه المصطلحات ـ وبعضها قديم كما هو واضح ـ على دراسة خصائصها ومميزاتها الفنية. وفي الفصل الثاني فعلنا مثل ذلك مع الأشكال ذات الطابع القصصي فميزنا فيها بين المقامة، والحوارية، والدعابة، والحكاية الرّمزية والأحدوثة... وقد حاولنا أن نبيّن بناءها الروائي وقيمتها القصصية.

وأخيراً، وبعد الدراسة العمودية للشكل الفني، التي مكنتنا من معرفة الخصائص الفردية لكلّ جنس من هذه الأجناس، أدرنا الفصل الأخير على مبادىء الدراسة الأفقية التي نستجلي بواسطتها طبيعة النسيج الفني، الذي يرتكز عليه النثر الأدبي، بقطع النظر عن الشعبة التي ينتمي إليها، فوقفنا عند الكثير من خصائصه التعبيرية، ودرسنا طبيعة تراكيبه، وجوانبها الموسيقية، وأَبعاد الصورة فيها، وختمنا كلّ ذلك بوقفة قصيرة عند نموذجٍ من الآراء التي أبى فيها أصحابها أن يروا في الأدب الأندلسي كلّه، إلاَّ تَرَسُّماً لخُطى أدباء المشرق، ومحاكاة لما يصدر عنهم. وقد حاولنا أن نبيّن أن التساؤل عن الأصالة الأندلسية من هذه الزاوية، عمل غير منهجي، لأن الأندلس جزء من ذلك الكلّ الذي لا حقيقة لوجوده إلا بأجزائه كلها. فلماذا نحصر هذا المعنى المشبوه للأصالة في الأندلس وحدها؟ وهي التي حملت أعظم معالم هذه الأصالة إلى أبعد نقطة في الغرب، حتى إذا قُضي عليها سرت نفحاتها المُعَطَّرة تغزو لغةَ القوم المتغلبين، وآدابَهم، وعلومَهم، وكثرةً كثيرةً من أنماطِ معيشتِهم، وأساليبِ حياتهم.

وبعد، هذه خُطوات عملنا في هذا البحث، وتلك دعائمه التي أقمنا عليها بناءه، وقد ظلّ يلازمنا فيه إحساس غامر بأننا نرتاد طريقاً لم تعبِّده أقدام السالكين، ولم تمهد لنا السير فيه تجارب السابقين، فكان علينا، في أغلب الأحوال، أن لا نعول إلاّ على النصوص الأدبية، نشدّد في استنطاقها، لنستخرج منها كل ما تنطوي عليه من الأسرار. ولعلّ الذي باحت لنا به منها يصلح أن يكون علامات بارزة على هذا الدّرب الطّويل تغري بالسير فيه، وتستفز الباحثين إلى مزيد من السعي للكشف عن كنوز فردوسنا المفقود.

نسأل الله أن يجعل هذا العمل نافعاً، وأن يوفقنا إلى مزيد من العمل الصالح، إنه لا يضيع الأجر لديه.

علي بن محمّد

الجزائر في *18* فبراير *1986*.

توضيح

اعتمدنا اعتماداً أساسياً، في بحثنا هذا، على النصوص النثرية الواردة في كتاب «الذخيرة» لأبي الحسن بن بسّام، وهو أعظم وأجل ديوان لمنشور الأندلسيين ومنظومهم في القرن الخامس. على أن ذلك لم يحل بيننا وبين الاستفادة من المصادر الأخرى، أندلسية كانت أو مشرقية، كلما استطاعت أن تمدنا بالنماذج اللازمة لهذا البحث، والمندرجة في منهجه، مما ليس في كتاب «الذخيرة».

والذي قوّى من ميلنا إلى تسبيقه على غيره، بالإضافة إلى ما ذكرناه، أنه ينطبق تماماً، من الناحية الزمنية، على الفترة التي اخترناها موضوعاً للدراسة؛ ففي «الذخيرة» نص صريح مفاده أن المؤلف فرغ من تأليف الأقسام الثلاثة الأولى من كتابه ـ وهي التي تعنينا دون غيرها ـ سنة 503 هـ[1]، فجاز لنا أن نعتبر حينئذٍ أنّ النصوص الواردة فيه من إنتاج القرن الخامس، ولو أن بعض أصحابها عاشوا معظم أعمارهم في القرن السادس.

---

(1) انظر كتابنا «ابن بسام وكتاب الذخيرة» نشر «المؤسسة الوطنية للكتاب»، الجزائر 1989، حيث درسنا المسائل المتصلة بتاريخ تأليفه.

البَابُ الأوّل

الحيَاة السِّيَاسيّة وَالثقَـافيّة

الفصل الأوّل

البِيئَة السِّياسِيّة في الأنْدَلس

(كبريات الأحداث التي أدت إلى اندلاع الفتنة، وانهيار الخلافة الأموية، ثم إلى قيام ممالك الطوائف، وعبور المرابطين).

اعتبارات منهجيـة:

لعله يحسن بنا قبل الدخول في صميم الموضوع ـ أن نشير إلى أننا نريد أن نتناول الحديث عن كبريات القضايا السياسية، التي كان لها أكبر الأثر فـي مجرى الحياة العمومية، من أواخر القرن الرابع إلى أواخر القرن الخامس، في ضوء ثلاثة اعتبارات منهجية، نوضحها فيما يلي:

أ ـ الاعتبار الأول: أنه ليس من شأننا في هذا الفصل أن نؤرخ للأحداث السياسية كما يفعل الدراس المتخصص في التاريخ، ولا أن نقف عند التفاصيل وقفة من يريد أن يستقصي الحوادث أولاً بـأوّل، ويسرد أنباء الوقائع الحربية، والفتن، والمؤامرات، ويفحص علل كل ذلك، وأسبابـه، ونتائجـه القريبـة والبعيدة. وإنما قصدنا في سوق ما نسوق من أخبار التاريخ هو التمهيد لدراستنا الأدبية، بمدخل عام، كافٍ، نستجلي من خلاله ملامح الصورة التي يستقيم لنا من مجموعها منظر تام الأجزاء، مكتمل المراحل.

إننا بعبارة أخرى، نريد أن نسلسل الحوادث التي تصلح أن تكوّن لنا «خلفية» حية، للفنون الأدبية التي ازدهرت في هذا العصر الذي نؤرخ له، فتضيء لنا جوانب محيطها العام، وتجلو لنا سياقها الظرفي وترشدنا إلى معرفة إنتماءات أصحابها، وتعيننا في النهاية على فهم كثير من الحوافز النفسية، وتفسير بعض الظواهر الأدبية، وكل ذلـك ذو قيمة مؤكـدة في ربط الإنتاج الأدبي بملابسات محيطه التي أملته، أو تدخلت في توجيهه، ولا سيما في هذه المرحلة

الحاسمة، التي عرفت فيها الأندلس تحولات عظمى كانت لها ـ في كل الميادين ـ أعمق الآثار وأخطر النتائج.

ب ـ **الاعتبار الثاني**: إننا نجد أنفسنا مضطرين إلى العناية بهذه الجوانب التاريخية، ليس لصلة الأدب عموماً بمحيطه السياسي فحسب، بل لأن جزءاً معتبراً من الفنون النثرية ـ التي هي موضوع هذا البحث ـ إنما نشأ في أحضان السياسة، ونمى في ظلّها، واتخذ من حوادثها الكبرى مواقف متباينة، اتسمت تارة بالتضامن والتأييد، وتارة أخرى بالمعارضة والرفض.

ولعلّنا لسنا في حاجة الآن إلى التطويل في بيان أبعاد هذه الحقيقة، ما دمنا سنتناولها في مكانها بالتفصيل، ويكفي أن نذكّر منذ الآن، بأن معظم أعلام النثر في أندلس القرن الخامس، وعدداً من ألمع ممثليه، كانوا ممن يفعلون الأحداث السياسية وينفعلون بها، لأنهم كانوا ينزلون من سلم السلطة آنئذٍ في أعلى درجاته، فكانوا الوزراء المقدمين في البلاطات، والسادة المتحكمين في دواوين الدولة، حتى لقد أتى على البلاد حين من الدهر لا يرى فيها ملك يستوزر إلا من طار له صيت في الكتابة، ولا يرى رجل يطمح إلى الوزارة، ويمني نفسه ببلوغ مراتبها العليّة ما لم يكن وافر السهم في التمرس بأساليب الكتابة، ماهر التصرف في شتّى فنونها.

جـ ـ **الاعتبار الثالث**: أن ما يعتور المجتمعات الإنسانية من تغير وتحول، في هذا الميدان أو في ذاك، لا يكون، في الغالب، إلا وليد سلسلة طويلة من الحوادث، بعضها بارز، تسهل معاينته وبعضها الآخر كامن، خفي، تستعصي ملاحظته، فلا يلمح إلا وقد اكتملت عدته، ونضجت مسيرته عبر الأحقاب والسنين. وهكذا فإن الحادثة البارزة التي تبلغ حجماً يستلفت الانتباه في تاريخ معين، لا تفهم وجوه حقائقها إلا بالرجوع سنوات عديدة إلى الوراء، حيث يعثر الباحث المتأني على بذورها الأولى، وأسبابها الدفينة.

من هذا المنطلق، فإننا نرى أنفسنا مضطرين ـ في هذا الفصل ـ إلى بدء الحديث من أخريات القرن الرابع، وبالتحديد من ثلثه الأخير، لنلم بأهمّ

التصرفات السياسية الخطيرة، التي كانت ذات وقع حاسم في توجيه الظروف نحو الانفجار الهائل الذي وقع في السنتين الأخيرتين من القرن الرابع، والذي كانت أدنى نتائجه المباشرة أن تغيرت خريطة الأندلس السياسية تغيراً جذرياً شاملاً، منذ بدايات القرن الخامس.

إنطلاقاً من هذه الاعتبارات، وحرصاً على التقيد ببلورة أمهات الأحداث السياسية في الفترة المؤرخة، فإننا ندير هذا الفصل على المحاور التالية:

1 ـ مسيرة القضاء على رسم الخلافة الأموية في الأندلس.
2 ـ إندلاع الفتنة، وتصدع وحدة الجماعة.
3 ـ دوامة الاضطرابات التي أدّت إلى انهيار السلطة المركزية.
4 ـ قيام الكيانات الإقليمية تحت سلطة «ملوك الطوائف».
5 ـ تعاظم النفوذ المسيحي ووعي المسلمين بالخطر الداهم.
6 ـ عبور المرابطين والقضاء على السيادة الأندلسية.

* * *

أوّلاً: مسيرة القضاء على رسم الخلافة

من أعجب مفارقات التاريخ أن واحداً من أحسن خدام الدولة الأموية، وأذكى رجالها، وأعظم قادتها، الذي بلغت الأندلس في أيامه من العز والسؤدد مبلغاً لم يسبق له نظير، ووصلت راية الإسلام في عهده إلى حيث لم تصل قبل ذلك أبداً، قد اختاره القدر ليكون أول زارع لبذور انهيار تلك الدولة، وزوال معالم ذلك المجد. إنه المنصور ابن أبي عامر[1] الذي ما لبثت البلاد ـ بعيد وفاته ـ أن جنت من تصرفاته شر الثمار، فانهار ملك بني أمية، وتصدعت وحدة الجماعة، وانقلبت حال المسلمين، في ظرف وجيز، من نصر إلى انهزام، ومن قوة إلى ضعف، ومن عزّ إلى مذلّة. فكيف انقلبت الأوضاع على هذا النحو، من النقيض إلى النقيض؟.

لقد مرّت مسيرة القضاء على هيبة الخلافة الأموية، بفعل تصرفات حجاب الدولة بثلاثة أدوار:

1 ـ الدور الأول: عهد المنصور ابن أبي عامر:

عندما توفي الحكم الثاني (المستنصر)[2] عام 366، كان وليّ عهده، وولده الوحيد: هشامْ، في الحادية عشرة من عمره. وقد فكر الصقلبيان جـؤذر وفائـق[3]

---

(1) المنصور ابن أبي عامر: حاجب الخليفة هشام المؤيد الذي انفرد بالحكم دونه، وتصرف في الدولة تصرف الملك الحقيقي. وفيما يلي حديث مفصل عنه وعن دولته وولديه.

(2) الحكم المستنصر وهو الحكم الثاني: ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر، حكم من 350 إلى 366 هـ. وانظر ما كتبناه عنه في الفصل الثاني من هذا الباب.

(3) صقلبيان من أقرب خدام الخليفة الحكم الثاني إلى نفسه، وأوسعهم نفوذاً في دولته.

ـ وهما أقرب الخدم إلى الخليفة الحكم، حتى أنه مات بين أيديهما، فلم يعلم أحد غيرهما بوفاته ـ فكرا في تولية المغيرة، أخي الحكم الثاني، الخلافة، على أن يستبقي هشاماً في ولاية العهد، ويمهد له السبيل ليخلفه بعد وفاته ولم يكن هذا التدبير كيداً لهشام، ولا تآمراً عليه، وإنما كان ذلك إشفاقاً عليه، وخوفاً من أن يغدو لعبة ـ وهو الطفل الصغير ـ في أيدي كبار الوزراء، يمضون باسمه ما يشاؤون من الأمور.

وكان أكبر خوفهما على ابن سيدهما من الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي[1]. ولذلك جنحا في الأول إلى استدعائه واغتياله، ثم فضلا أن يعرضا الأمر عليه فلعله يباركه ويزكيه.

جاء المصحفي إلى القصر، فأعلم بوفاة الخليفة، واستمع إلى خطّة الصّقلبيّين بدهشة كبيرة استطاع أن يخفيها عليهما، وأظهر لهما مطلق التأييد والموافقة على الرأي الذي ذهبا إليه. ولكنه ما إن خرج من القصر حتى دعا وزراءه وأنصاره إلى اجتماع عاجل، أخبرهم فيه بما يدبّر من تولية المغيرة، وذكّرهم بأن هذا الرجل يكرههم، وأنهم لن يحافظوا في عهده على مناصبهم، وربما تعرضت حياتهم للأذى. وما هو إلاّ أخذ وردّ حتى وقع الإجماع على حسم الشر بقتل المغيرة. ولكن لم يتطوع من الحاضرين للقيام بهذه المهمة إلا رجل لم يعرف بسابقة اشتغال بالحرب، ولا عناية بشؤون السلاح. كان المتطوع الوحيد هو ذلك الفتى الذي اسمه محمد بن أبي عامر، والذي بدأ نجمه يلوح في الأفق، منذ أن اقترحه الحاجب المصحفي على الخليفة الحكم ليكون مصرّفاً لأموال ابنه عبد الرحمن[2] ثم تدرج في المراتب الإدارية حتى عين على دار السكة، ثم ظل بعد ذلك يتسع نفوذه ويعلو شأنه، منذ أن ربط علاقة حميمة بالسيدة صبح زوجة الخليفة، وأم ولي عهده.

---

(1) جعفر بن عثمان المصحفي حاجب الخليفة الحكم وقد قضى عليه المنصور ابن أبي عامر كما سيأتي بيانه.

(2) عبد الرحمن: هو أخو هشام الأكبر، وقد توفي في الخامسة من عمره.

ذهب ابن أبي عامر في ثلة من الرجال إلى دار المغيرة فوجده لا علم له بموت الخليفة، ولا بخطة جؤذر وفائق، فعز على ابن أبي عامر أن يقتل فتى بريئاً في السابعة والعشرين من عمره، يبدي أتمّ الاستعداد للدخول في الطاعة، فراسل المصحفي في هذا الموضوع، ولكن جوابه له كان: إما أن تقتله، وإما أن نرسل إليه من يقتله غيرك. فلم يكن بد من قتله[3]...

ربح المصحفي هذه الجولة الأولى في الصراع على الحكم، فبويع هشام الصغير بالخلافة، ولقب المؤيد[2]، وصدر عنه في اليوم التالي قرار بإبقاء المصحفي حاجباً لدولته، كما صدر عنه ـ بتحريض من أمه صبح ـ قرار بتعيين ابن أبي عامر وزيراً.

كان المصحفي شخصية ضعيفة، كثيرة التردد، تخشى مواجهة الصعاب، فكان وزيره ابن أبي عامر هو الحاجب الحقيقي، وهو المدبر لكل شؤون المملكة. وكان قد بدأ يقوى عليه شيئاً فشيئاً بما أوتي من دهاء، وبما له من علاقة مع صبح التي كانت الوصية الفعلية على الخليفة الصغير.

ما هي إلا سنة مضت على بيعة هشام حتى كان المصحفي قد بلغ غاية الضعف من تغلب ابن أبي عامر عليه. ولم يكن هذا عاجزاً عن تنحيته وإنما كان يريد أن يجمع له كل ما يستطيع من ضروب الإهانة، وكان يريد أن يصرف عنه كل من يشفق أو يعطف عليه من أنصاره السابقين وصنائعه الذين أوصلهم إلى أعلى مراتب الوزارة. وما إن تهيأ له ذلك حتى استصدر من الخليفة الصغير أمراً بتنحية كل آل المصحفي عن مناصبهم في الدولة واستصفاء أموالهم. وآلت الحجابة إلى ابن أبي عامر، فتلقب بالمنصور، وشرع في إدارة المملكة بيد من حديد. وقد بدأ بإذاقة المصحفي أفظع أنواع الإهانة، فأودعه السجن الرهيب الذي يعرف «بالمطبق»، ثم حاكمه في مجلس الوزراء الذين مالوا عنه وتنكروا له

---

(1) تفاصيل هذه الحوادث في الذخيرة لابن بسام 1/4 ص 59 وما بعدها والبيان المغرب لابن عذاري ج 2، ص 260.

(2) كانت بيعة هشام المؤيد في الرابع من صفر سنة 366.

منذ أن بدت لهم علامات نهايته، فوجهت إليه تهمة الخيانة وتبذير الأموال، وأعيد إلى «المطبق»، وكان نزوله في «دار البراغيث» منه، وبقي فيه إلى أن مات[1] وقيل أن المنصور قد كلف من دسّ له السم في شرابه، وقيل بل اغتيل خنقاً[2]. . .

وهكذا انتهى الشوط الأول من مسيرة المنصور نحو التفرّد بالحكم. وقد حاول جماعة من أنصار المصحفي أن يثوروا عليه، وأن يبايعوا عبد الرحمن بن عبيد الله ـ من أحفاد عبد الرحمن الناصر ـ بالخلافة بعد أن يقتلوا هشاماً المؤيد، ولكن المنصور كشف المؤامرة، فقبض على المتآمرين وقتلهم جميعاً.

لم يبقَ للمنصور من يستشعر منه الخطر إلا هشام الصغير. وعلى الرغم من أنه مطمئن إلى أنه لن يصدر عنه ما يمكن التخوف منه، ما دامت أمه صبح في القصر، فإنه مع ذلك بدأ في تنفيذ الشطر الثاني من مخططه وهو الذي ينطوي على البذور التي تؤدي شيئاً فشيئاً إلى إهدار حرمة الخلافة وتفضي في النهاية إلى تمزيق البلاد شرّ ممزّق.

اغتصاب السلطة، وسجن الخليفة في قصره:

أحكم المنصور ضرب العزلة على هشام المؤيد، فأقصاه عن جميع شؤون الدولة، وجرّده من جميع مراسم السلطة، وأبقاه في قصره سجيناً لا ينفذ له أمر حتى على خدامه وأهل بيته. ولم يعد شيء يذكّر بوجود أمير المؤمنين إلا اسمه المضروب على السكة، والدعاء له على المنابر. وقد كان المنصور يحرص كلّ الحرص على أن لا تكون لأيّ إنسان صلة بالخليفة، فبث العملاء والجواسيس في قصره، فكانوا يوافونه بكل ما جلّ ودق من تحركاته. بل أنه قد اتخذ من الاحتياطات ما لا يخطر على بال، إذ حصّن منافذ القصر، وأحاطه بسور، وأدار

---

(1) مات المصحفي سنة 367، أي بعد نحو سنة من موت الحكم الثاني ومبايعة ابنه هشام.

(2) انظر المزيد من تفاصيل محنة المصحفي، وما قال فيها من شعر، وكيفية موته في «البيان المغرب» لابن عذاري 370/2.

عليه خندقاً من جانبيه، ورتب عليه الحراس والسمار والمناوبين، حتى غدا القصر قلعة حصينة لا طمع في الظفر بها[1].

وقد سعى المنصور إلى اكتساب عطف العامة بشيئين: أولهما الأمن الذي نشر أسبابه حين بالغ في عقاب كل من يمدّ يده إلى الناس بسرقة أو بإجرام، وثانيهما توفير أسباب الانتصار لراية الإسلام على الأعداء التقليديين في الشمال المسيحي، فكان يقود بنفسه حملتين في العام: حملة الشتاء، وحملة الصيف، فيتوغل في أقصى أراضي النصارى، فيخرب عمرانها، ويتلف مزروعاتها، ويعود جيشه الظافر محملاً بالغنائم ثم تتبعه جحافل الأسرى والسبايا. ولقد قاد المنصور سبعاً وخمسين غزوة من الصوائف والشواتي، وانتصر فيها كلها. «وبلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله»[2]. ولذلك أضحى المنصور في عيون الناس بطلاً فذّاً من أبطال الإسلام. وكان هو يجني من هذا الإجلال والتقدير مزيداً من التوسع في اغتصاب السلطة.

وهكذا، بعد أربع عشرة سنة من توليه الحجابة، عيّن ابنه عبد الملك[3] حاجباً، وتخلّى له عن كلّ ألقاب الحجابة التي كانت تعرف له، كالقيادة العليا للجيش، وعين ابنه الثاني عبد الرحمن[4] وزيراً، وكل ذلك سنة إحدى وثمانين بعد المائة الثالثة (381).

إن المعنى الوحيد لهذه التصرفات أن المنصور لم يعد يرى في الحجابة لقباً ولا وظيفة مناسبين لمقامه، وهو بتعيين من يحجبه قد رقّى نفسه إلى مرتبة الملك بدون جدال. وقد كان له من حسن التقدير لهذه التدابير السياسية ما جعله يهيىء نفوس الناس للخطوات التالية بحيث أقر في أذهانهم أنه في مرتبة الملوك، وإن لم يتقلب بعد بهذا اللقب. وقد أقبل فعلاً على شيء من هذا

---

(1) راجع تفاصيل ذلك في «البيان المغرب. .» 378/2.

(2) راجع تفاصيل ذلك في «البيان المغرب. .» 296/2.

(3) عبد الملك هذا هو الذي سيخلف أباه ويتلقب بالمظفر بالله.

(4) عبد الرحمن هو الابن الثاني للمنصور، وسيخلف أخاه المظفر، وفي عهده تندلع الفتنة.

القبيل حين أمر الناس سنة 386 بـ «تسويده من بين الناس كافة» أي بقصر لقب «السيد» عليه «وخوطب هذا الوقت بالملك الكريم، واستبلغ في تكريمه وتعظيمه» وكـان الناس يمولونه»[1] ويقبلون يده، كما تقبل يد الملوك، لا يأنف من فعل ذلك حتى أمراء البيت الأموي وشيوخه[2].

وخلاصة القول أن المنصور بدأ في عهد هشام وزيراً ملحقاً بالحاجب المصحفي، وانتهى ملكاً له حاجبه في ظل خليفة لا وجود له ولا سلطة، ولكنه مع ذلك لم يلغِ رمز الخلافة من الناحية الشكلية، فكتب النصر، بعد غزو النصارى، توجه إلى الخليفة وتقرأ على الملإ، وهشام أمير المؤمنين يدعى له على المنابر. بيد أن ما استبقى عليه المنصور من هذا الرمز الشكلي لا يغير شيئاً في أنه كان أول من وجّه الظروف بقوة نحو ذلك الانفجار الذي وقع في عهد ابنه عبد الرحمن. ولكن الدور الثاني في هذه المسيرة قد كان في عهد ابنه الأول: عبد الملك.

2 ـ الدور الثاني: عهد عبد الملك المظفّر.

توفي المنصور بن أبي عامر سنة 392، فلم يحتج ابنه إلى مراسم خاصة لتولي منصب الحجابة، خلفاً لأبيه، إذ كان قد عينه فيه ـ كما رأينا ـ قبل ذلك بسنوات طويلة. وإنما اتخذ اللقب الرسمي فعرف بالمظفّر بالله.

كان المظفر رجلاً حازماً، حسن التدبير، سار سيرة أبيه فتمكنت هيبته من النفوس، وقد فهم أن جانباً كبيراً من تقدير الناس لأبيه، وإجلالهم إياه، جاءه من انتصاراته الكثيرة على النصارى. ولذلك، فما أن مضت على موت أبيه شهور قليلة حتى تجهز للغزو، فتوغل في أقاصي بلاد برشلونة، وانساحت فيها جيوشه تدك الحصون وتثخن في العدو وقد وصلت إلى «أرض لم ترَ الإسلام قط»[3]، فكانت

---

(1) يمولونه أي يدعونه «يا مولاي».

(2) تفاصيل ذلك في «البيان المغرب. . .» 294/2.

(3) انظر أخبار غزواته في البيان المغرب، الجزء الثالث، من ص 3 إلى ص 37.

بعد ذلك تأتيه ملوك النصارى خاضعة طائعة، بل تعرض عليه خلافاتها، وترضى بحكمه فيها[1].

ولعلّ أهم ما حفظه عن أبيه: التدرج بالناس على طريق إعدادهم لتقبل القرارات التي تحدث تغييراً لما ألفوه. وهكذا عمل على توطيد صورة البطل الإسلامي في أذهان الناس ثم أحب أن يتخذ من الألقاب ما يميزه عن كل الحجّاب الذين سبقوه ومنهم والده المنصور. فبعد أكثر من خمس سنوات من تلقبه بالمظفر، عقب موت أبيه، اتخذ لقباً ثانياً هو «سيف الدولة» فصارت مخاطبته الرسمية هي: «المظفّر سيف الدولة»، ثم لم يكتفِ بمنصب وزير لابنه الغلام: محمد، بل عينه في منصب ذي الوزارتين.

ولم يتغير شيء في معاملة هشام المؤيد، المحبوس في قصره. وظل عبد الملك شديد الإصغاء إلى كل ما يرد من حراس القصر عما يكون به من التحرك. أما العامة فكانت تزداد حقداً على بني عامر وكرهاً لهم كلّما تذكرت المصير المفروض على أمير المؤمنين. وقد تمت محاولة ثورة في هذا العهد، وذلك حين خطط وزير الدولة: عيسى بن سعيد، للقيام بقلب دولة بني عامر، وبايع بالخلافة أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، وهو هشام بن عبد الجبّار، وتبعه نفر من أصحابه في ذلك. وربما كان يطمح إلى أن يكون حاجباً له إذا نجح الانقلاب. ولكن المظفر علم بالمؤامرة، فقتل وزيره عيسى بن سعيد وأصحابه، وألقى هشاماً بن عبد الجبّار في السجن، ثم لم يعلم أحد بعد ذلك بخبر عنه، مما يدل على أنه ربما اغتيل في سجنه[2].

وبينما كان المظفر يستعد للخروج إلى بلاد النصارى في غزوته السابعة، وهي شاتية عام 399، بدأته الأوجاع، وما أن ابتعد عن قرطبة يوماً واحداً حتى أدركته منيته، فأعيد إليها ميتاً. وقد عجب الناس من سرعة موته في مثل سنه، فراجت الشائعات بأن أخاه عبد الرحمن قد دسّ له ـ بواسطة أحد الخدام ـ شراباً

---

(1) انظر خبر احتكامها إليه في البيان المغرب 10/3.

(2) أخبار ذلك في البيان المغرب، ج 3، ص 27.

مسموماً، فقضى به عليه. وكيفما كانت حقيقة موته، فإن هذه الشائعة، قد كان لها - فيما يبدو - أثرها الهام في توجيه الحوادث في المستقبل.

الدور الثالث: عهد عبد الرحمن «المأمون».

جلس عبد الرحمن على كرسي الحجابة إثر موت أخيه المظفر عام 399، فأسرع إلى جمع الألقاب فسمّي نفسه «الحاجب الأعلى» ولم تكن توصف الحجابة بنعت قبله، واختار لنفسه لقبين هما «المأمون» و«ناصر الدولة». وليست الألقاب مضرة في حدّ ذاتها لو لم تنبىء عن تفاهة من لا يستطيع التحلي بما تدل عليه. على أن اللقب الذي اشتهر به بين المؤرخين إنما هو: «شنجول»[1].

والواقع أن عبد الرحمن رجل قليل الهمة، معروف لدى معاصريه ومن أرّخوا له بانحراف السيرة، وسوء الأخلاق. كان مستغرقاً في طلب الملذات لا يكاد يصحو من سكر، ولا يفيق من غواية. وكان قد أثقل كواهل الشعب بالضرائب والمغارم، وبذر أموال الدولة بإسرافه في الانفاق لتحصيل ما يشتهي من ضروب الملذّات.

على أن أكبر حماقة ارتكبها هي أنه رمي إلى اجتثاث ذلك الرمز المعنوي المتمثل في الخلافة الأموية، والذي أبقى عليه أبوه وأخوه، وإن استفرغاه من كل محتوياته، وظل الناس، على هزاله، يأوون إليه ويستندون إلى ذكريات أمجاده. فلقد أراد عبد الرحمن أن يصرف الخلافة عن ورّاثها الشرعيين من بني أمية، إلى نفسه وأولاده، فلم يمضِ إلا شهر ونصف من توليه الحجابة حتى استصدر كتاباً من الخليفة هشام المغلوب على أمره، بتعيينه ولياً للعهد، بحيث يكون عبد الرحمن هو الخليفة أمير المؤمنين بعد موت هشام[2]. ووجد من الناس من

---

(1) شنجول هو تصغير باللغة الإسبانية لاسم (شانجه)، فمعناه شانجه الصغير. ويقال إن شانجه هو والد السيدة عبدة زوجة المنصور، وإنها إستأذنته لتدعو ابنها بهذا الاسم التصغيري لتتذكر به أباها. وانظر البيان 38/3.

(2) كتاب توليه العهد في الذخيرة 1/1، 104. وفي البيان المغرب 44/3 وغيرهما.

لا يتورعون عن ركوب المحال، فكان من هؤلاء كاتب العهد ابن برد[1] الذي أفتى في ما كتب بأنه جاء في الأثر عن النبي ﷺ «لا تقوم الساعة حتى يخرج من قحطان رجل يسوق العرب بعصاه»[2]، وهذا القحطاني هو عبد الرحمن! ، ووجد منهم من يشهد على هذا العمل الآثم ويوقعه ومنهم القاضي ابن ذكوان، قاضي الجماعة بقرطبة[3].

ومنذ ذلك الحين، بدأ عبد الرحمن يتصرف كما لو كان خليفة بالفعل، فعين ابنه الطفل عبد العزيز حاجباً وتفرغ لعبثه ومجونه. ثم ظن أنه يستطيع أن يضيف إلى مجد الألقاب وولاية العهد، مجد البطولة بتحقيق الظفر لراية الإسلام. فتجهز لقيادة حملة على النصارى، ولكن طبيعته كانت أميل إلى الخلاعة والمجون منها إلى الجهاد[4].

وهكذا لم يترك عبد الرحمن شيئاً يغيظ الناس إلا فعله، وكان فتيان الأمويين يتطلعون بلهفة إلى لحظة الانتقام من دولة اغتصبت منهم السلطة. وقد اجتمعت الآن كل ظروف الانفجار: الحاجب أخرق لا بصر له بالأمور، والرجال الذين خلفهم لتسيير شؤون البلاد، أثناء غيابه، منغمسون في الملاهي، والعامة مستعدة لمناصرة كل صوت يدعو إلى الثورة، والجيش بعيد خارج العاصمة . . . لم تبقَ إلا اليد التي تقدم الشرارة الأولى لتضطرم النار في الهشيم، وكانت هذه اليد لأمير أموي من أحفاد الناصر، اسمه: محمد بن هشام بن عبد الجبّار.

* * *

(1) أخبار أبي حفص بن برد الأكبر في الذخيرة 1/1، 103، توفي عام 418 وقد جاوز الثمانين.
(2) راجع كتاب تولية العهد المذكور أعلاه.
(3) انظر أخبار ابن ذكوان في تاريخ قضاة الأندلس، لأبي الحسن النباهي ص: 84 - 87.
(4) انظر بعض أخبار ذلك في البيان 39/3، و 47.

ثانياً: الفتنة المفرّقة لشمل الجماعة

تزعّم حركة الإطاحة بعبد الرحمن، ومن خلاله بالدولة العامرية، محمد بن هشام بن عبد الجبّار. وقد وضعت الأيام مهمة الثأر لأكثر من طرف بين يديه:

- فهو أولاً يثأر لأبيه هشام الذي ذكرنا، في الصفحات الماضية، أن أحد وزراء المظفر، واسمه عيسى بن سعيد قد تآمر معه ليولّيه الخلافة، فقتلهما الحاجب المظفر مع جملة من أصحابهما. ولم يكن هشام هذا إلا والد محمد الذي سيتزعم الثورة. فثورته من بعض وجوهها انتقام لأبيه من قتلته.

- وهو بعد ذلك أمير يجري في عروقه الدم الأموي. ونحن نعلم مقدار الحقد الذي في نفوس الأمويين - أبدوه أو كتموه - على كل من ينتمي إلى بني عامر بسبب ما صنعوه بهشام وبالخلافة كلّها. وقد قطع عبد الرحمن، بتوليه العهد، شعرة الأمل الباقية في أن يرث الخلافة عن هشام المؤيد ذات يوم، أمويّ يعيد الحق إلى أصحابه، ويستعيد للخلافة حرمتها. فلم يبقَ لهم حينئذٍ إلا الثورة.

وقد شاءت سخرية الأقدار، ثالثاً، أن تساعد يد من البيت العامري، على الإطاحة بهم. وذلك أن أمّ عبد الملك المظفر قد صدّقت - فيما يبدو - الشائعة التي راجت من أن عبد الرحمن قد دسّ السمّ لأخيه[1] فظلت تبحث عمن ينتقم ممن تعتقد أنه قاتله، حتى دُلّت على هذا الشاب الذي اشتهر بالجرأة وحبّ المغامرة، فأغدقت عليه الأموال، ومهدت له كل سبيل إلى الإحاطة بعبد الرحمن.

---

(1) من الواضح أن أمهما ليست واحدة.

الانقلاب السهل:

تهيأ محمد بن هشام بن عبد الجبار للانقضاض على الدولة العامرية، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً مأمون العواقب ما دام الجيش في قرطبة. ولذلك، فما أن ابتعد عنها في غزوة لبلاد النصارى حتى داهم قصر الحجابة في مجموعة قليلة من أصحابه، فدخله بدون مشقة تذكر، ووجد عبد الله بن عمر، الذي استخلفه عبد الرحمن مدّة غيابه، عاقداً مجلس لهوه «مترنحاً بين قينتين تغنيانه»[1] فضرب عنقه، وأمر برفع رأسه على رمح والتجول به في الأسواق، فانضمت العامة بسرعة إلى الثورة، وكان أكثر المنضمين من أصحاب الحرف «عنازين وجزارين... وغوغاء الأسواق..»[2].

توجهت هذه الجموع إلى «سجن العامة» فكسّرت أبوابه وأفرج عمن فيه من اللصوص والمجرمين، وهب الجميع إلى التسلح بكل ما استطاعت أيديهم أن تصل إليه، واتجهوا صوب القصور ينهبون ما تمتلىء به من النفائس والذخائر «حتى اقتلعت الأبواب الوثاق والخشب الضخم، وغير ذلك مما حوته..»[3] ثم أحاطت هذه الجموع الثائرة بقصر الخليفة، فلم يغنِ عنه السور ولا الخندق اللذان أقامهما الحاجب المنصور حوله، بل نقبت الأسوار، ودقت الأبواب، فأسرع هشام المؤيد إلى مراسلة ابن عمه الثائر يعرض عليه نقل ولاية العهد إليه، ولكن محمد بن هشام بن عبد الجبّار لم يقم بهذه الثورة، ولم يواته الحظ فيها ليرضى بولاية العهد. إنما كان يريد الخلافة بالذات.

محمد بن هشام بن عبد الجبّار: الخليفة «المهدي».

دخل محمد القصر بالقوة في تلك الليلة نفسها[4] وتربع على عرش الخلافة في قاعة المجلس، وأرسل إلى هشام المؤيد أحد خدمه يبلغه أوامره

(1) البيان المغرب. 55/3.

(2) نفسه ـ 56/3.

(3) نفسه ـ 61/3.

(4) وتاريخها: 16 جمادى الآخرة عام 399.

بخلع نفسه فوراً عن الخلافة فاستجاب هشام، وبعث إليه بهدايا على الفور، منها خلع سلطانية لبسها محمد في الحين ليبدو في مظهر يليق بالمرتبة التي وضع نفسه فيها. ثم استدعى الوزراء والفقهاء وشيوخ بني أمية، فأشهدهم على خلع هشام نفسه، وعرض عليهم في مجلسه ذاك بيعته، فبايعوه، وقد تلقب بالمهدي. وكان أول ما بدأ به مكافأة أصحابه، فكفاهم مؤونة الشغل، حتى «مضت بالناس أيام لم يوجد فيها حجّام، ولا كناف، ولا ذو مهنة ذليلة»[1] فقد التحقوا جميعاً بالجيش الفتي، فصار منهم جنوده، ومنهم ضباطه.

أما عبد الرحمن فكان جيشه يقارع النصارى في شمال إسبانيا حين بلغه نبأ الانقلاب في قرطبة، فقفل راجعاً مع جنوده يطوي المراحل طياً. لكن بوادر الخيبة أخذت تسري كالوباء في صفوف عسكره، وشرعوا يتهامسون بعيوبه، وكأنما هم يكتشفونها لأول مرة، فيذكرون زندقته، واستهتاره بالدين والأخلاق، حتى إن قاضيه ابن ذكوان ـ الذي كان أول من شهد على ولاية عهده لهشام، يتهلل وجهه بِشْراً عندما يسرّ أحد القادة في أذنه بأن المغاربة ـ الذين منهم معظم الجند ـ لن يحاربوا من أجل دخول عبد الرحمن قرطبة ظافراً.

انتقل العصيان في جيش عبد الرحمن من السر إلى الجهر، فحاول أن يذكرهم ببيعتهم إياه، بل حاول أن يجدد لنفسه البيعة مع التخلي عن ولاية العهد والاكتفاء بالحجابة، ولكن قائد الجيش أخبره بصراحة، بأن جنود زناتة لن يحاربوا معه، وإذا لم يحارب الزناتيون لم يحارب الباقون. وما هي إلا لحظات قصيرة حتى رأى عبد الرحمن الجنود يتفرقون من حوله، فلا يبقى معه إلا عدد قليل للغاية من خاصة خدمه. فاحتواه اليأس، واستسلم للبكاء، ثم مال إلى دير قريب على مشارف قرطبة يقضي فيه ليلته، وما أن نزل به حتى أحاطت به كوكبة من فرسان الثوار. وبعد إهانته بالشتم، وأمره بتقبيل حوافر الخيل، انهالوا عليه بسيوفهم يضربونه في كل مكان حتى مات، فاحتزوا رأسه، وبعثوا به إلى زعيمهم الخليفة الجديد المهدي.

---

(1) البيان. 61/3.

بهذه النهاية الأليمة انتهت دولة بني عامر التي شيدها المنصور، وبدأ فصل من فصول الفتنة الكثيرة. وهكذا تمت في نصف شهر تحولات كبرى[1] خلع خليفة، وبويع خليفة آخر، وقتل «الحاجب الأعلى ووليّ العهد» ودانت قرطبة بالطاعة لسادتها الجدد، ودمرت أحياء وقصور كانت آية من آيات الفن، ومعلماً بارزاً من معالم الترف الحضاري، وترقى أصحاب المهن البسطاء، إلى مراتب الضباط والقادة، وأطيح بأهل القلم والسيف من ذوي البيوتات وأعيان الأرستقراطية القرطبية، وخلفهم في مراتبهم العليا، ومناصبهم الوزارية رجال «تقتحمهم العين هجنة وقماءة»[2]، وقد تم كل هذا، وفي المدة التي ذكرناها، على يد «بضعة عشر رجلاً من أراذل العامة: حجّامين، وخرّازين، وكنّافين، وزبّالين. . .»[3].

ويبدو أن المهدي قد اطمأن إلى نتائج ثورته، فلم يبقَ له، فيما قدر شيء يمكن أن ينغّص عليه راحته، ويكدر صفوه إلا ذلك الرجل المسكين: هشام المخلوع، فكان لا بد أن يناله ضرب من ضروب الموت، ليبلغ المهدي في الاطمئنان غايته ومداه. فأخفاه عند أحد وزرائه وأشاع موته. . . وصلى ابن ذكوان على جثة رجل يهودي مات في ذلك الوقت، على أنها جثة هشام. وفي هذا مثال على رداءة تفكير المهدي.

* * *

(1) من 15 جمادى الآخرة إلى نهايتها من عام 399.

(2) البيان المغرب. 74/3.

(3) نفسه.

ثالثاً: دوامة الاضطرابات المتلاحقة والفوضى الشاملة

كان المنصور بن أبي عامر قد فطن إلى أنه لا يستطيع أن يعوّل على الصقالبة الذين كان هواهم مع بني أمية سادتهم وأولياء نعمتهم. وقد سعى إلى إحداث توازن جديد في الدولة، فاستقدم أعداداً غفيرة من المغاربة، دربهم، واستخدمهم في جيشه، وفي حراسته الخاصة، ودوخ بهم بلاد النصارى زهاء ربع قرن. ولا بد أن موقع هؤلاء المغاربة من الجند وقياداته، ومكانتهم في الدولة، ومنزلتهم عند المنصور قد دفعت بعضهم إلى تصرفات لم تكن حميدة، فكان فيها ما يؤذي كرامة الأندلسيين. وكان هؤلاء لا يرون في المغاربة إلا برابرة أجلافاً، ودخلاء مرتزقين، ينعمون بخيرات البلاد، ويؤذون أهلها.

فلما جاء المهدي، كان من الرداءة في تقويم الأمور، وفهم حقائقها البعيدة، بحيث غابت عنه مثل هذه الحسابات، فتصدى بغباوة لا نظير لها يناوىء القوة الضاربة في المجتمع، بدون إعداد عدّة، ولا تفكير في بديل يرجح به ميزان القوة لصالحه. ومن هذه التصرفات الحمقاء أنه ضاعف إهانة المغاربة، وأوصد أبوابه في وجوه زعمائهم، وحدث بعض أصحابه بأنه سيقتل عشرة من قادتهم وأعيانهم. فلم يبقَ لهؤلاء إلا أن يبادروه بالشر قبل أن يبادرهم به.

وباختصار شديد فإن المهدي لم يترك عملاً يسيء إلى حكمه إلا قام به. وقد ارتكب في ظرف واحد ثلاثة أخطاء قاتلة:

- عين واحداً من أبناء عمومته، واسمه سليمان، ولياً للعهد ثم ألقى به في السجن بعد قليل.

ـ وسـرّح سبعة آلاف من جنود العامة الذين كانوا عماد ثورته وانتصاره.

ـ وبالغ في إهانة زعماء المغاربة، وتجاوز ذلك إلى التصريح بتأهبه لقتل عشرة منهم.

لم يبقَ لهذه العناصر الساخـطة إلا أن تجتمع في جبهـة واسعة من المعارضين، ثم تنهض للإطاحة بالمهدي. وذلك ما تم بالفعل حين تحرك أحد أولاد سليمان، ولي العهد السجين، واسمه هشام؛ فانحاز إليه أكثر تلك الآلاف المسرحة من الجيش، وانضم إليهم المغاربة، فبايعوه خليفـة وتلقب بالرشيد. وهاجموا المهدي في قصره. إلا أن هذه الحركة لم تنجح، لأنها لم تستوف ما يلزمها من شروط الإعداد والتخطيط، فألقي القبض على هشام، وأعدم هو وأبوه سليمان.

رأى المهدي الفرصة سانحـة للتودد إلى عـامة الأنـدلسيين باضـطهاد المغاربة، فأباح لهم نهب دورهم، واستصفاء أملاكهم، بل لقد أرسل إلى الأسواق من ينادي: فيها: «من أتى برأس بربري فله كذا...»[1] فقتل كثير من المغاربة، منهم أبرياء لا علاقة لهم بالصراع، ومنهم رجال صالحون منقطعون للعبادة، ومنهم مجاهدون جاؤوا من أقصى بلادهم متطوعين في سبيل نشر الإسلام ونصر رايته. فتسابق المغاربة إلى الفرار والخروج من قرطبة طلباً للنجاة[2].

كان من بين الفارين أيضاً بعض الذين يخشون عقاب المهدي لمشاركتهم في الثورة التي قادها هشام المتلقب بالرشيد، وكان من بين هؤلاء ابن أخيه واسمه: سليمان ابن الحكم. فاجتمع المغاربة حوله، وبايعوه خليفة، وأقسموا على الانتقام من أهل قرطبة. وقد بلغ من حقدهم أن تحالفوا مع القومس النصراني «ابن مامه» على أن يساعدهم لدخول قرطبة ويسلموه لقاء ذلك العون عدداً من الحصون والمدن الإسلامية.

---

(1) انظر تفاصيل هذه الفظائع في تاريخ مسلمي إسبانيا لدوزي 300/2، والبيان المغرب 81/3.

(2) نفسهما.

توجه الحلفاء: مسلمين ونصارى، إلى مشارف قرطبة، فلم يصمد لهم جيش قرطبة الهزيل، وهو المؤلف من أصحاب المهن الذين لا علم لهم بالحرب، وكان ضباطهم من الأطباء والوكلاء... وقد أدرك المهدي خطر الموقف عليه، فأبرز هشاماً المؤيد الذي كان أخفاه وزعم أنه قد مات، وأجلسه أمام الناس، وأرسل إلى المغاربة القاضي ابن ذكوان يخبرهم بأن هشاماً حيّ، وأنه هو ـ المهدي ـ ليس إلا نائباً وحاجباً له. فسخروا من القاضي وذكروه بأنه هو الذي أمّ صلاة جنازته! ثم هجم سليمان بن الحكم بجنوده، ففر المهدي، ودخل سليمان القصر، فبويع بالخلافة في 17 ربيع الأول عام 400 ولقب بالمستعين.

وتحالف المهدي بعد فراره، مع نصارى آخرين، مقابل تسليمهم الحصون والمدن، فعاد إلى قرطبة بمعاونتهم، بعد سبعة أشهر من فراره، فجددت له البيعة، وكان هشام المؤيد أول من جدّدها له. وقد عيّن المهدي أحد قادة الثغور الذي عاونه على العودة إلى القصر، حاجباً له واسمه: واضح فتآمر عليه بعد حين، واصطنع من عبيد القصر من قاموا بقتله. وساءت أحوال البلاد. وانتشرت فيها المجاعة والأوبئة، وخاف واضح على نفسه، وبينما كان يستعد للفرار من قرطبة تسلل إليه بعض جنوده وقتلوه.

وفي هذه الأثناء، كان سليمان المستعين قد أعاد تنظيم جيشه، وضبط تحالفه مع النصارى فجاء إلى مشارف قرطبة يهدد باكتساحها وذلك عام 402. وكان القرطبيون رافضين لفكرة الصلح حتى أنهم كانوا يقتلون كل من يدعو إليه. فلما رأوا جيش المستعين، راسلوه على الصلح فلم يقبل، ودخل المدينة عنوة، فبويع بالخلافة من جديد في شوال عام 403. وبعد هذا التاريخ اختفى هشام المؤيد فلم يعرف أحد ما الذي آل إليه مصيره[1].

وزع المستعين مناصب الحكم على قادة المغاربة الذين عادوا إلى إذلال

---

(1) سيزعم القاضي ابن عباد في إشبيلية أنه وجده، ويطلب من ملوك الطوائف الدخول في طاعته. وقد اعتبر نفسه حاجباً له. وما ذلك إلا لبسط نفوذه بهذه الأكذوبة، على أقرانه من الطوائف. أما حقيقة مصير هشام فقيل: رحل إلى المشرق ومات بمكة. وقيل غير ذلك.

أهل قرطبة والانتقام منهم، وتولى جماعة منهم حكم الأقاليم، وممن سيكون له شأن من هؤلاء الحكام علي بن حمّود الذي ولّي على سبتة بالمغرب.

وخرج خلق كثير من قرطبة خشية أذى المغاربة، وكان من الخارجين منها عدد من الصقالبة الذين ارتحلوا إلى شرق البلاد، واستقلوا هنالك بإمارات صغيرة. فكانت هذه الإمارات باكورة الكيانات التي ستعرف بممالك الطوائف.

ولم تدم ولاية المستعين طويلاً، فقد ثار عليه علي بن حمود[1] ـ حاكم سبتة ـ عام 403 فتحالف مع الصقالبة، واستمال بعض المغاربة الذين تحولوا عن المستعين، ثم وقعت الحرب بين الرجلين، فانتصر علي بن حمـود، وظفر بالمستعين وقتله عام 407.

النهاية الأولى للخلافة الأموية.

بايع الناس علي بن حمود، فتلقب بالناصر لدين الله، وخرج الحكم من أيدي الأمويين خروجه الأول. وكان خيران العامري الصقلبي[2] قد تحالف مع علي بن حمود، ثم ساءت العلاقة بينهما فبايع أميراً أموياً بالخلافة، اسمه عبد الرحمن بن محمد، وعرف بلقب «المرتضى»، وتحالف الصقلبي مع نصارى برشلونة وجاء يهدد خلافة ابن حمود، ولكنه انهزم، وفرق علي بن حمود جيشه، وكاد «خليفته» المرتضى يقع في الأسر. فسعى خيران إلى الدسيسة حتى وجد من عبيد علي بن حمود الصقالبة من ينفذون له خطته، فاغتالوا علي بن حمود في حمامه، وقد اختلف المغاربة على من يخلفه: فريق يؤيد أخاه القاسم بن حمود، وفريق يؤيد ابنه يحيـى، وتغلب في النهاية أنصار الأول فبويع بالخلافة ولقب بالمأمون. ولكن ابن أخيه يحيـى ظل يؤلب الناس عليه ويسعى إلى تحقيق البيعة لنفسه، حتى تمكن من الإطاحة به عام 412، ففر القاسم إلى إشبيلية، ودخل

---

(1) علي بن حمود عربي الأصل، من أدارسة المغرب. وانظر أخباره مع المستعين في الذخيرة لابن بسام 1/1، 35، وما ينقله عن ابن حيان ص 37 وما بعدها.

(2) قائد صقلبي، استقل هو وزميله زهير بالمرية وأقاما فيها دولتهما. خيران حكم فيها من 405 إلى 419.

يحيى قرطبة ظافراً حيث بويع بالخلافة وتلقب بالمعتلي بالله. وما هي إلا سنة حتى وقعت الثورة على يحيى، ففر من قرطبة مستخفياً، وعاد إليها عمّه القاسم «المأمون» فجددت له البيعة، وذلك سنة 413 هـ.

كانت عودة القاسم نصراً كبيراً للمغاربة، فاشتطوا في إيذاء أهل قرطبة واضطهادهم، حتى جمعوا كلمتهم على قتالهم، فاستماتوا في المقاومة والكفاح، واستطاعوا أخيراً أن يطردوا من مدينتهم القاسم بن حمود ورجاله المغاربة وذلك في رمضان عام 414.

وهكذا انتهت في قرطبة خلافة بني حمود، وكانت فترة معترضة في عهد الخلافة الأموية. وقد ظل الأندلسيون يحنون إلى حكم الأمويين أثناء عزهم وقوة سلطانهم، ففي تلك الأيام كان الأمن مستتباً، والرخاء منتشراً، وراية الإسلام عزيزة منتصرة في كل مكان. ولذلك، فما إن طردوا المغاربة مع «خليفتهم» من قرطبة حتى أجمع أعيانها على إعادة الخلافة إلى الأمويين بالبحث عن كل رجالهم الذين يصلحون للقيام بها، على أن تكون بصفة «إنتخابية» يعرض المرشحون على الشعب، وهو يختار أصلح من يراه لها وبذلك تكون الخلافة الأموية شورى بين الناس.

عودة الخلافة إلى الأمويين:

بعد البحث والتشاور اهتدى الناس إلى ثلاثة رجال أمويين وهم:

1 ـ سليمان بن عبد الرحمن المرتضى[1].
2 ـ عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبّار[2].
3 ـ محمد بن العراقي[3].

كانت قلوب الناس مع سليمان بن عبد الرحمن، حتى إن كتّاب البيعة

---

(1) هذا هو ابن عبد الرحمن الذي بايعه رجال خيران الصقلبي ولقبوه المرتضى.
(2) هو أحد إخوة الخليفة «المهدي» محمد بن هشام بن عبد الجبّار.
(3) من أحفاد عبد الرحمن الناصر أيضاً.

أعدوا العهد باسمه، ولكن عبد الرحمن بن هشام دخل المسجد الجامع دخولاً مسرحياً، وأنصاره يهتفون له، فانساق الناس إلى الهتاف باسمه، فبويع بالخلافة ولقب بالمستظهر بالله. وقد بدأ بإعادة الثقة إلى أعيان قرطبة بتعيين مجموعة منهم في المناصب الوزارية[1]، ثم بدأ يخشى من ابنَيْ عُمومته اللَّذَيْن كانا مُرشَّحَيْن معه للخلافة، ففرض عليهما الإقامة الإجبارية. وقد أعاد إلى جيشه قسماً من المغاربة الذين طردهم أهل قرطبة، فغضب الناس لذلك. وفي هذا الجو من السخط تحرك أحد الأمويين، واسمه محمد، وكان خامل الذكر، لا يعرفه أحد، فاستعان بآلاف العمال العاطلين[2] وداهم بهم القصر فقتل المستظهر بالله في ذي القعدة من سنة 414، وبويع بالخلافة تحت لقب «المستكفي بالله».
كان هذا الرجل أسوأ وأتفه من جلس على العرش في أيام هذه الفتن. كان مجرداً من كل صفات القيادة، مكبّاً على شهواته الدنية، حتى قامت ثورة علي بن يحيى بن حمود الذي كان قد تولى الخلافة مرة أولى ولقب بالمعتلي بالله، ففر المستكفي، ولكن ألقي القبض عليه، وقتل في رمضان عام 416، وتولى المعتلي الخلافة. ولما كان يخشى تقلب الأوضاع، غادر قرطبة بعد أسابيع قليلة، وترك فيها أحد قادته من المغاربة، واسمه أحمد بن موسى نائباً عنه، واغتنم القائدان الصقلبيان: خيران ومجاهد، فرصة غياب الخليفة الحمودي، فهاجما قرطبة وقتلا أحمد بن موسى، ثم لم يتفقا فيما بينهما، وخشي كل منهما سوء العاقبة، فانسحبا إلى إمارتيهما بشرقي الأندلس.

آخر أيـام الأمويـين:

بقيت قرطبة بعد ذلك بدون خليفة، فاجتمع أهل الرأي فيها يتدبرون الأمور، وقد تناهى إليهم أنّ فتى أموياً اسمه هشام بن محمد[3]، كان يدعو إلى

---

(1) من بينهم حاجبه علي بن حزم. ومن الوزراء عبد الوهاب بن حزم (ابن عم الأول)، وأبو عامر بن شهيد.

(2) وذلك لكساد الأسواق، بعد أن اضطربت مسالك التجارة بكثرة الثورات والفتن وقلة الأمن.

(3) هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر. وهشام هذا هو أخو عبد الرحمن المرتضى.

نفسه في شرق الأندلس، وقد بويع هنالك بالخلافة، وتلقب بالمعتدّ بالله، فاتفقوا على الدخول في طاعته، واستقدموه، فأتى إلى قرطبة وبويع فيها سنة 420. إلا أنهم سرعان ما تبينوا أنهم أخطأوا في الاختيار مرّة أخرى حين رأوه رجلاً تافهاً لا همّ له إلا في الأكل والشرب، وزادهم سخطاً عليه أنه عين صديقاً له اسمه «حكم بن سعيد» في منصب الحجابة، وكان لا ماضي له إذ كان يشتغل بالغزل والحياكة في الأسواق، ثم التحق بالجيش حين التحق به ذوو «المهن الذليلة» في أيام المهدي، ولذلك عرف عندهم بحكم بن سعيد الحائك[1]. وكان لا يمنح المناصب الوزراية، والمراتب العليا في الدولة إلا لمعارفه ممن كانوا يحترفون هذه المهن المحتقرة في المجتمع آنذاك. ولذلك ثاروا على الحاجب وقتلوه سنة 422.

كان مدبر الثورة على حكم بن سعيد، أمير أموي اسمه: أمية بن عبد الرحمن[2]، وكان من ذوي الجهالة والمغامرة والطيش، إذ يبدو أنه لم يعد يطمح للخلافة إلا من كان ينتمي إلى هذه الفئة من الأمويين. ويبدو أن بعض أعيان قرطبة هم الذين كانوا يحرضونه على الثورة لخطة دبروها، ومن بين هؤلاء أبو الحزم بن جهور الذي كان يرأس مجلساً استشارياً منذ بداية الفتنة. أما أمية فلم يكن يريد أن يتوقف عند مجرد تخليص أعيان قرطبة من رجل يحتقرونه ويكرهونه، ولذلك أسرع إلى القصر ليأخذ فيه البيعة لنفسه. ولكن أولائك الأعيان كانوا قد ملوا ناعورة التعاقب على الخلافة من قبل الحقراء والتافهين، فداهموا القصر، وقد خلا الآن من مدبره الحكم بن سعيد، فأعلنوا خلع المعتد بالله، وحذروا أمية من نقمة الناس عليه وقتله إذا أصرّ على أخذ البيعة لنفسه، وبادروا إلى إرسال من يعلن في الأسواق والشوارع أن الخلافة قد ألغيت، فلا خليفة في قرطبة بعد اليوم.

---

(1) هكذا يسميه ابن بسام، انظر الذخيرة 1/1 ص 28. أما صاحب البيان المغرب فيسميه «حكم بن سعيد القزاز»: 146/3.

(2) هو أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر.

وهكذا، بعد فتنة مـاحقـة، وحوادث مدمرة، استمرت أربعاً وعشرين سنة، وبعد محاولات متكررة لإرجاع بني أمية إلى الحكم ومبايعتهم بالخلافة، انهارت خلافة الجماعة نهائياً، وانتهت هذه الفترة المظلمة من تاريخ الأندلس إلى نتيجة أولى هائلة الأبعاد والعواقب، وبيلة الموارد والمصادر، كان أبرز مظاهرها الآن: تمزق المملكة بصفة رسمية، وانفراد كل طامح من القادة والولاة بالجهة التي تليه، وبدء العهد الذي عرف في التاريخ بعهد ملوك الطوائف.

* * *

رابعاً: قيام الكيانات الإقليمية المعروفة بممالك الطوائف

تحلل المجتمع الأندلسي إذن إلى عناصره الأساسية التي كان يأتلف منها، وانفرط ذلك العقد النظيم الذي عمل العظماء من بني أمية طوال قرون على إحكام نظمه وترتيبه، فتمايزت الأجناس، وتفرقت الأهواء، وسعى كل راغب في السلطة إلى إعلان استقلاله بالجهة التي تليه، فغدا لكل مقاطعة في البلاد الأندلسية، أمير، ومنبر...

ويمكن أن نلخص التجمعات البارزة في ثلاثة تكتلات. سماها المؤرخون أحياناً أحزاباً وهي على النحو التالي:

- حزب الصقالبة ومن انضم إليهم من موالي بني عامر وقد حكموا شرق البلاد.
- حزب المغاربة الذي يسمّى كذلك حزب البربر أو الأفارقة، وقد اقتسموا الجنوب.
- العرب، وهم أساساً بقايا الأرستقراطية الأندلسية، وقد حكموا قرطبة وإشبيلية.

ولعل الوقوف عند أخبار أهم الدول التي أقامتها هذه التجمعات الرئيسية تغنينا عن تتبع أخبار تلك الدويلات الصغيرة المتكاثرة التي كانت تزول بنفس السرعة التي تظهر بها[1].

---

(1) أورد دوزي في آخر الجزء الثالث من «تاريخ مسلمي إسبانيا» جرداً مفصلاً لها مع ذكر أعلامها وتواريخ حكمهم بها.

1 ـ الصقالبة ومن انضم إليهم من موالي العامريين:

1.1 ـ إمارة دانية والجزائر الشرقية[1]: مجاهد وأبناؤه.

استقل منذ بداية الفتنة مجاهد العامري، وهو من الفتيان الصقالبة، بالجزائر الشرقية الثلاث التي كان والياً عليها في دولة بني عامر[2] ثم خرج إلى مدينة دانية وجميع المناطق المتصلة بها. فأخضعها لسلطته، وضمها إلى إمارته. تسمّى مجاهد بالألقاب السلطانية، فاختار منها لقب «الموفق بالله» وقد كان على جانب كبير من الشجاعة والخبرة العسكرية، فانطلق على رأس أسطول قويّ لغزو السواحل الإيطالية ولا سيما جزيرة سرذانية التي استطاع أن يخضع أكثرها.

وكان مجاهد هذا، بالإضافة إلى شجاعته، وتوفيقه في صد الغزوات النصرانية، ونقله الحرب إلى الجزر الإيطالية نفسها، محباً للعلم والأدب، مقرباً لرجالهما. وقد حكم مدة ست وثلاثين سنة من 400 إلى 436.

وخلفه ابنه علي الذي اختار لقب «إقبال الدولة». وكان عليّ قد وقع أسيراً لدى المسيحيين في إحدى حملات أبيه على جزيرة سرذانية. ويبدو أن أسره قد طال حتى يئس أبوه من رجوعه إليه، فرشح لخلافته أخاه حسناً الملقب «سعد الدولة»، فلما تمكن مجاهد من افتدائه أرجع ولاية العهد إليه. ولما مات مجاهد تولّى عليّ عرش الإمارة فسعى أخوه إلى الدسّ عليه، والائتمار به، بالتعاون مع بني عباد، ملوك إشبيلية، فظلت حال هذه الإمارة تضعف حتى غزاها بنو هود وضموها إلى أملاكهم سنة 468.

2.1 ـ إمارة المريّة: خيران وزهير العامريان.

حكم هذه الإمارة صقلبيان شهيران وهما خيران وزهير. حكم خيران من 405 إلى 419، ثم خلفه بعد موته صاحبه زهير، وقد أدّى مرّة زيارة لحليفه باديس بن حبوس أمير غرناطة، ولكن الزيارة لم تلبث أن انقلبت حرباً قتل فيها زهير، وقتل فيها كاتبه الشهير ابن عباس وكثير من الجنود الذين كانوا يرافقون

---

(1) الجزائر الشرقية الثلاث هي: ميورقة، ومنورقة، ويابسة.

(2) كان المنصور بن أبي عامر هو الذي ولاه في البداية على مدينة دانية وأحوازها.

أميرهم، وذلك في خبر يطول شرحه[1] وكان مقتل زهير ووزيره الكاتب سنة 429.

بعد هذه الحادثة اجتمع أعيان المرية واتفقوا على ضم مقاطعتهم إلى إمارة بلنسية التي كان يحكمها وقتئذٍ عبد العزيز بن أبي عامر ـ وهو من أحفاد المنصور ـ فجاء إليهم، وقدموا له بيعة الولاء والانضمام، فولّى عليهم صهره أبا يحيى معن بن صمادح التجيبي، وعاد هو إلى قاعدة إمارته: بلنسية. وبعد سنوات قليلة، خرج ابن صمادح هذا عن طاعة عبد العزيز، وأعلن استقلاله بمدينة المرية وأحوازها عام 433.

3.1 ـ دولة بني صمادح في المرية:

حكم أبو يحيى معن بن صمادح المرية بوصفه أميراً مستقلاً لها من عام 433 إلى 443. ثم خلفه ابنه ووليّ عهده معز الدولة، وهو الذي اتخذ لنفسه لقبين ـ على عادة ملوك الطوائف في الاستكثار من هذه الألقاب ـ وهما: الواثق بفضل الله، والمعتصم بالله. وقد عرف، خاصة بهذا اللقب الثاني. وكان فتى شجاعاً يخوض الحروب ببسالة. وكان إلى ذلك محباً للعلماء، فنشطت الآداب في دولته حتى ضاهى في ذلك ملوك بني عباد في إشبيلية، فكان يستقدم الشعراء، ويجزل لهم العطاء. وقد بقي على رأس دولته مدة إحدى وأربعين سنة حتى أخذها منه المرابطون عام 484.

4.1 ـ دولة بني عامر في بلنسية:

عندما تشاور الموالي العامريون ـ المتكاثرون في ناحية بلنسية ـ في أمر تولية أمير عليهم، أجمعوا على اختيار أحد أبناء المنصور ابن أبي عامر، وقد آثروا منهم عبد العزيز بن عبد الرحمن[2] الذي كان يقيم وقتئذٍ في سرقسطة، عند

---

(1) تفاصيل هذا الخبر في «تاريخ مسلمي إسبانيا» لدوزي في الفصل 2 من الجزء 3 ـ والبيان المغرب لابن عذاري 169/3، وابن حيان في الذخيرة 2/1 من 656 وغيرهم.

(2) عبد الرحمن هذا هو ابن المنصور الثاني الذي ثار عليه ابن عبد الجبّار الذي تولّى الخلافة بعد ذلك تحت لقب «المهدي».

بني هود، وقد فضلوه على ابن عمه محمد بن عبد الملك المظفر[1].

تولى عبد العزيز هذه الإمارة،وأحسن فيها السيرة والسياسة، واجتمع في دولته أربعة من كبار الكتاب وهم: ابن طالوت، وابن عباس، وابن عبد العزيز، وابن التاكرنّي.

وقد استمرت إمارة عبد العزيز إلى حين وفاته سنة 452، فتولى العرش بعده ابنه عبد الملك بن عبد العزيز.

ثم حدثت أحداث، فانضمت بلنسية إلى مملكة طليطلة، ومن أشهر أحداثها بعد ذلك ثورة القاضي ابن جحاف بها عام 485. وفي سنة 488 أخذها منه السيد القنبيطور[2] وأحرقه فيها. ثم دخلتها جيوش المرابطين بقيادة مزدلي وأعادتها إلى الإسلام عام 495[3].

2 ـ دول المغاربة:

1.2 ـ مملكة بني زيري في غرناطة:

أسس هذه الدولة حبوس بن ماكسن، واتخذ غرناطة عاصمة لها. ثم وسعها بأن ضم إليها ما يتبعها من المدن المتناثرة حولها مثل قبرة، وجيان وغيرهما. وكان قد استوزر كاتباً يهودياً اسمه إسماعيل بن نغرالة[4]، ومات عام

---

(1) كان محمد يقيم في قرطبة، وهو ابن عبد الملك المظفر الذي خلف أباه المنصور في الحجابة.

(2) السيد القنبيطور، سنتحدث عنه بعد قليل عند ذكر دولة بني هود أصحاب سرقسطة.

(3) تفاصيل ذلك في تاريخ مجهول المؤلف، مبتور، طبع ملحقاً بكتاب البيان المغرب لابن عذاري 306/3.

(4) يقع اضطراب كبير في ضبط هذا الاسم. فيكتب تارة: نغريلة، وتارة نغديلة، وتارة نغريلي الخ. انظر ذ: 2/1 ص 766 وما بعدها، وعند ابن عذاري أنه ابن نغرالة. انظر: 2611/3، 265، 266 وغيرها.

428 فترك ولدين: أحدهما باديس، والآخر بلقين، وقد انقسم الناس في الانتصار لمن يخلفه، فبينما أيد اليهود باديساً، تحزب المسلمون لبلقين. وكادت تقع الحرب الأهلية بين الأخوين لولا أن تنازل بلقين لأخيه باديس.

كان باديس شديداً، حادّ المزاج، قاسياً إذا عاقب، شنّ حروباً كثيرة على جيرانه لتوسيع مملكته، أو لإذلال أعدائه منهم معتمداً على محاربيه الأشدّاء من المغاربة والسودان. وقد سبق لنا أن ذكرنا أنه قتل مجاهداً أمير المرية ووزيره الكاتب البليغ ابن عباس. وقد غزا ـ في جملة غزواته ـ مدينة مالقة التي كان بنو عباد يريدون ضمها لمملكتهم، فتغلب عليها، وجعل عليها واحداً من أبنائه يدعى المعز[1].

عرف باديس، بين المؤرخين، بأنه أعلى من شأن اليهود، ولا سيما في وزارة يوسف بن نغرالة الذي خلف أباه إسماعيل، إذ سلم له شؤون مملكته برمتها، فاستطال اليهود به على المسلمين إلى أن ثاروا عليه وقتلوه مع جماعة من قومه عام 459.

وعندما توفي باديس خلفه حفيد له يدعى عبد الله، وفي عهده أخذ المرابطون منه مدينة غرناطة، وقضوا على إمارته عام 484[2].

2.2 ـ دولة بني الأفطس في بطليوس:

عندما بدأت حركة الاستقلال بالولايات والمقاطعات الأندلسية، كان يحكم بطليوس وما ساقبها من مدن الغرب أحد عبيد الأمويين يسمّى: سابور الفارسي، وهو رجل محارب، ولكن لا علم له بتدبير الشؤون السياسية، فاستوزر رجلاً

---

(1) مالقة: كانت عاصمة بني حمود، وقد ضعف أمرهم في هذه الفترة، وكان خليفتهم آنئذٍ فيها صبياً اسمه يحيى بن إدريس بن علي، سموه المهدي وبايعوه أميراً للمؤمنين وخطبوا له على المنابر. وقد أزاحه باديس بن حبوس، وأرسله إلى قرطبة ليعيش فيها، نزولاً عند رغبته.

(2) الأمير عبد الله هذا هو آخر ملوك بني زيري الذي نحاه المرابطون عن الحكم. وهو صاحب المذكرات التي ألفها واتخذ لها عنوان «التبيان».

عرف عند الناس بالدهاء والحكمة يسمّى: عبد الله بن محمد بن مسلمة. فلما مات سابور ترك ولدين صغيرين، فدبر ابن مسلمة الأمور باسمهما، ثم أزالهما واستخلص الحكم لنفسه، وأخذ في توسيع حدود مملكته إلى معظم أقطار الغرب الأندلسي حتى توفي سنة 430.

خلفه ابنه محمد المشتهر بلقبه المظفر، وكان شاعراً، أديباً، له عناية بالعلوم والتأليف فيها، وهو صاحب كتاب «المظفري» في الأدب الذي يشتمل على أجزاء كثيرة[1]. وقد حاول توطيد أركان مملكته، ولكن المد النصراني كان قد استفحل، وأخذ في التعاظم، فاضطر المظفر إلى التفاوض مع فرذلند بن شانجه ملك الجلالقة[2] ودفع الجزية له.

خلفه ـ حين مات ـ ابنه عمر «المتوكل على الله» الذي كانت له أيضاً قدم راسخة في صناعة النظم والنثر، مع شجاعة وفروسية[3]. ثم غزا المرابطون مملكة بني الأفطس، وقتلوا المتوكل وابنيه الفضل والعباس سنة 485[4].

3.2 ـ دولة بني ذي النّون في طليطلة:

بنو ذي النون جماعة من المغاربة استخدمهم المنصور بن أبي عامر، ويقال أن في اسمهم تحريفاً لأنهم في الحقيقة، إنما ينسبون إلى جدهم: زنون[5] ثم غيرت الألسنة هذه التسمية بما يساير صيغ الألقاب العربية.

كانت طليطلة من ثغور المسلمين المطلة على بلاد النصارى. وكان يحكمها، زمن الفتنة، رجل من بني ذي النون اسمه عبد الرحمن بن منيوة،

---

(1) قيل أنه في عشرة مجلدات وقيل أكثر من ذلك، انظر ابن بسام في ذ: 2/2 ص 640 وقال ابن عذاري في نحو خمسين مجلداً. «البيان المغرب..» 237/3.

(2) هو فرناندو السادس.

(3) «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لعبد الواحد المراكشي ص 118.

(4) زعم بنو الأفطس أنهم عرب ينتسبون إلى قبيلة «تجيب» ولذلك ذكروا أحياناً باسم التجيبيين.

(5) انظر في ذلك «البيان المغرب» ج 3، ص: 276.

فاستقل بها على غرار ما صنعه سائر الولاة في مقاطعاتهم، ثم توفي، فخلفه ابنه عبد الملك، ولكن هذا الفتى أساء معاملة رعاياه، فثاروا عليه وعزلوه، فخرج من طليطلة.

ويبـدو أن أهل طليطلة لم يوفقوا في تولية من يرضونه، إذ بايعوا بعد عبد الملك هذا رجلين ثم خلعوهما الواحد بعد الآخر، ثم ارتأوا أن يستعيدوا أميرهم القديم: عبد الملك بن عبد الرحمن، فأرسل إليهم ابنه: إسماعيل.

سار إسماعيل سيرة حسنة أرضت الناس، فتمكن من أن يوطّد أركان مملكة طليطلة، فازدهرت في عهده. ثم مات فخلفه ابنه: يحيـى، وهو الملقب بالمأمون، وكان أشهر أمراء بني ذي النون.

خاض المأمون حروباً كثيرة مع جيرانه ولا سيما: بني هود أصحاب سرقسطة، وبني عباد أصحاب إشبيلية، وبني الأفطس أصحاب بطليوس. وقد اضطرته ظروف العداوة هذه إلى أن يتحالف أخيراً مع بني عباد، فاعترف بهشام المؤيد الذي زعم بنو عباد أنه عندهم[1]، فأمر بالخطبة له على المنابر، ووعده المعتضد ابن عباد بأن يساعده ـ لقاء ذلك ـ على امتلاك مدينة قرطبة التي كان يطمع في ضمها إلى أملاكه. ولكن ما أن توجهت جيوش المأمون إلى عاصمة الخلافة القديمة، حتى سبقته إليها جيوش المعتضد، فصدت ابن ذي النون عنها، وضمها ابن عباد إلى مملكته.

وقد لجأ كل من سليمان بن هود، ويحيـى بن ذي النون إلى فرذلند الملك الإسباني، يرجوان التحالف معه، فكان هو يستعين بهذا على ذاك، ويعيث في بلاد المسلمين فساداً، إلى أن اعتلى عرش طليطلة يحيـى القادر، وهو حفيد يحيـى الأول، فثار الناس عليه وخلعوه، فالتحق بألفونسو وأقام عنده راجياً منه العون لاسترجاع عرشه في طليطلة، ولكن ألفونسو كان يريد طليطلة لنفسه.

---

(1) انظر ما كتبناه عن هذه القصة في الفقرات المخصصة لدولة بني عباد.

4.2 ـ **بنو برزال الزناتيون في قرمونة:**

بنو برزال جماعة من المغاربة الزناتيين، أصلهم من مناطق المسيلة وسطيف وما جاورهما من وسط شرق البلاد الجزائرية الآن. جاؤوا إلى الأندلس في عهد الخليفة الأموي الحكم الثاني (المستنصر). فلما اندلعت الفتنة كان بنو برزال ينزلون مدن قرمونة واستجه. وكان يحكم قرمونة من قبل هشام المؤيد أبو عبد الله البرزالي. ودعا إلى نفسه، زمن الفتنة فبويع بها عام 404. ثم توفي عام 434، فخلفه ابنه عزيز بن محمد بن عبد الله بن برزال الملقب بالمستظهر.

اشتعلت الحرب بين بني برزال وبني عباد، فطال أمدها، واشتدت آثارها على أهل قرمونة، فارتأى أميرها، وكان يومئذٍ اسمه العز بن إسحاق، أن لا طاقة له في مصاولة جيرانه الأقوياء، فراسل المأمون يحيى بن ذي النون، صاحب طليطلة، يعرض عليه التنازل له عن قرمونة وتوابعها من الأملاك، مقابل منحه حصناً يقيم فيه مع أهله ويستريح. قبل المأمون هذا العرض المغري، وأعطاه من بلاده حصن المدوّر. ولكن المعتضد بن عباد كان مصراً على امتلاك قرمونة وأعمالها، لأنها ملاصقة لأراضي مملكته، فكتب إلى ابن ذي النون يعرض عليه التنازل له عنها مقابل مساعدته على امتلاك قرطبة، فتنازل له عنها، وكان من أمر قرطبة ما ذكرناه.

5.2 ـ **بنو رزين في شنتمرية الشرق:**

أسس هذه الإمارة هذيل بن خلف بن رزين من أهل المغرب. وقد بويع له في مدينة شنتمرية الشرق، المعروفة بالسهلة، عام 403. وقد ذكر عنه المؤرخ ابن حيان أنه كان «كَنَفاً للقُصّاد، ومَنْهلاً عَذباً مَعيناً لِلْوُرّاد» وقد لجّ في طلب أدوات الترف وأسبابه حتى اجتمع له من الجواري ما لم يجتمع لغيره[1].

مات هذيل بن خلف عام 486، فتولى بعده ابنه عبد الملك الملقب بجبر الدولة ذي الرئاستين. ويبدو أنه كان سيء السيرة، عديم المروءة، حتى قال عنه

---

(1) أخباره رواها ابن بسام، عن ابن حيان، في ذ: 1/3، ص: 109 وما بعدها. وانظر أيضاً ابن عذاري 308/3.

ابن حيان: «كان سيّئة الدهر، وعار العصر، جاهلاً لا متجاهلاً، وخاملاً لا متخاملاً، قليل النباهة، شديد الإعجـاب بنفسه»[1]. وكان إلى ذلك قاسياً، سريع الفتك، لا يأمن له أصدقاؤه وندمانـه جانباً، إذ كان كثيراً ما يفاجىء الناس بالانتقال من الإنعام إلى التنكيل.

وعندما توفي عبد الملك هذا سنة 496، خلفه ابنه يحيـى حسام الدولة، فسار سيرة أبيه في الخلاعة والمجون، وحاول التقرب بالعطايا والهدايا إلى ملوك النصارى، فلم ينل منهم إلا الإذلال والاحتقار، وظل على حاله تلك إلى أن خلعه المرابطون عام 497.

6.2 ـ بنو حمود في مالقة:

كان بنو حمود عرباً، يسميهم المؤرخون أحياناً «الأدارسة» وهم ينسبون إلى الإمام عليّ كرّم الله وجهه، وقد استوطنوا بلاد المغرب، واختلطوا بأهلها حتى أتقنوا الحديث بالبربرية، وصارت أسهل على ألسنة بعضهم من العربية. وقد كانت بطانتهم من المغاربة: هم جنودهم، وهم ولاتهم، وهم مُعتَمَدهم في الحرب والسلم.

كان جماعة منهم قد تولوا الخلافة، وبويعوا بإمارة المؤمنين، كما رأينا في الجزء الأول من هذا الفصل. وأول من بويع منهم في قرطبة علي بن حمود الناصر، ثم القاسم المأمون أخوه، ثم ابن الأول يحيـى بن علي المعتلي. وعندما خلع يحيـى في المرة الثانية من خلافته، توجه إلى مالقة وفيها بايعه أنصاره، فنهض لمحاربة عمه القاسم الذي كان قد استقر بمدينة شريش، فحاصره، وأسره، إلى أن مات في سجنه، وقيل دسّ له من خنقه فيه.

شملت مملكة يحيـى مالقة والجزيرة الخضراء، والمـرية، وشـريش، وسبتة، وقد أثار عليه مقتل عمه القاسم، أخاه إدريس. ولما مات يحيـى في إحدى معاركه الكثيرة مع بني عباد سنة 427، استطاع أخوه أن يخلفه، وقد تلقب بالمتأيد بالله.

---

(1) نقلاً عن «صفحات من تاريخ مبتور» لمؤلف مجهول، طبع ذيلاً للبيان المغرب 308/3.

كثرت الفتن والانقلابات في مملكة بني حمود حتى أنها ألقت غشاء كثيفاً من الاضطراب والتناقض على روايات المؤرخين الذين حاولوا أن يؤرخوا لهذه الدولة[1]، وأبرز ما يمكن استخلاصه من كل ذلك أن هذه الإمارة كانت في حرب طاحنة لا تنقطع مع بني عباد حكام إشبيلية، فكانوا يناصبونها العداء الشديد، ويكيدون لها بتدبير الفتن والثورات فيها. وكانت دول المغاربة، ولا سيما دولة بني زيري بغرناطة، تهب لمساعدتها، إلى أن ضعفت دولة بني حمود أتم الضعف، فتلاشت، واقتسمها الأقوياء آنئذٍ. وقد فاز منها باديس أمير غرناطة الزيري، بمالقة، إلى أن استولى عليها وعلى الجزيرة الخضراء ملك إشبيلية المعتمد بن عباد.

كانت دولة بني حمود ـ تقوم في أزمنة قوتها ـ بدور الزعامة الأدبية (الروحية) لدى معظم الدويلات المغربية التي قامت في الأندلس، ومنها كبيرتهم دولة الزيريين في غرناطة. وحتى عندما قوي أمر باديس فإنه لم يخلع أبداً الطاعة الشكلية لبني حمود حتى تلاشت قوتهم ولم يعد ما يسوّغ إعلان التبعية ـ ولو كانت شكلية ـ لهم.

3 ـ دول الأسر العربية الأندلسية وموالي بني أمية:

1.3 ـ بنو هود في سرقسطة:

أسس مملكة بني هود رجل منهم يسمّى سليمان بن محمد بن هود، وكان قبيل الفتنة ضابطاً في الجيش المكلف بحماية الثغر الأعلى: سرقسطة وما والاها. فلما نضجت الفتنة، نصّب نفسه على مدينة لاردة وأحوازها بعد أن قتل صاحبها: أبا المطرف التجيبي سنة 431.

وفي هذه الآونة ثار أهل سرقسطة على أميرهم عبد الله بن حكيم، فخرج منها فاراً، فاجتمع الأهالي على الدخول في طاعة سليمان بن محمد بن هود،

(1) انظر كتاب «تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين» ليوسف أشباخ، ترجمة عنان، ص: 29، والتعليق على ذلك في الحاشية.

فقدم إليهم، ونزل بدار الإمارة فبويع بها، وأصبح ملكاً لسرقسطة، ولاردة، وما بينهما من مدن وحصون، وتلقب بالمستعين بالله.

توفي سليمان المستعين هذا عام 438، وترك خمسة أولاد، كان قد قسم بينهم المملكة في حياته: فتولى أحمد مدينة سرقسطة، ويوسف مدينة لاردة، ومحمد قلعة أيوب، ولب مدينة وشقة، والمنذر مدينة تطيلة.

استقل كل واحد منهم بجهته، فتمزقت هذه الامارة الصغيرة إلى كل هذه الأقسام، وكان أحمد صاحب سرقسطة دائم السعي إلى توسيع مقاطعته، فدبّر المكائد لإخوته حتى خلع ثلاثة منهم، ولم يستعص عليه ـ بصفة خاصة ـ إلا أكبرهم وهو يوسف المسمى حسام الدولة، صاحب لاردة. ولم تطب نفوس الناس لما فعله أحمد بإخوته، فثاروا عليه، وبايعوا أخاه يوسف، وبذلك لم يبقَ له إلا مدينة سرقسطة، فتحالف مع صاحب المملكة النصرانية المجاورة له: ابن ردمير، فهزم يوسف، وقوي شأن أحمد، فصرف الناس إليه طاعتهم، فتوحدت المملكة تحت رايته، وتلقب بالمقتدر بالله.

في أيام أحمد المقتدر بالله كانت وقعة النورمانديين[1] على مدينة بربشتر. فقد حاصروها بآلاف الفرسان والرجالة حتى سقطت في أيديهم فانتهكوا الحرمات، وأذلوا الناس، وأكثروا فيهم القتل، وسبوا ما استطاعوا من النساء. وذلك عام 456. وتركوا حامية على المدينة، فعبأ المقتدر بالله الناس للجهاد واستردها سنة 457. وظل المقتدر في حرب مع جيرانه النصارى، تارة يحالفهم ويدفع لهم الجزية، وتارة يثور عليهم ويصارعهم، إلى أن توفي عام 474.

خلفه ابنه المؤتمن فلم يدم عهده إلا أربع سنوات إذ توفي عام 478، وخلفه ابنه أحمد المستعين الذي داهم النصارى بجيوشه، واضطرهم إلى دفع

---

(1) يسميهم المؤرخون القدامى «الأردمانيون» وأحياناً «المجوس» وهم أهل الشمال من سكان الأرض الإسكندنافية. راجع بسطة تاريخية موجزة عنهم وعن نشاطهم الحربي في تعليق لمحقق جزء من «المقتبس» لابن حيان ص 249 - 252.

الجزية له، ولكن النصارى كمنوا له في طريق عودته، ففرقوا جيشه، وقتلوه، وذلك في عام 503. وخلفه ابنه أحمد عماد الدولة، ولكن المرابطين كانوا قد انتشروا في معظم أصقاع الأندلس، فتسلموا منه سرقسطة وأعمالها.

بنو هود والسيد القنبيطور.

لا نترك الحديث عن بني هود دون الإشارة إلى أنهم هم الذين صنعوا البطل النصراني المعروف بـ «لذريق» تارة، وبـ «السيد القنبيطور» تارة أخرى. فقد نشأ ببلاط بني هود، وألم عندهم بمعرفة اللغة العربية. وكان مرتزقاً يوجهه أمراء بني هود إلى من شاؤوا من أعدائهم حتى بدأ الزحف المرابطي يهدد مولك الطوائف قاطبة، فسلط بنو هود «لذريق» على مدينة بلنسية، ليكون حاجزاً بينهم وبين المرابطين. ولكن «لذريق» استشعر قوته، فأحب أن يستخلص مدينة بلنسية لنفسه، فعاث فيها فساداً، وأحرق فيها القاضي ابن جحاف الذي كان قد ثار بها على ابن ذي النون. وبعد إحراقه القاضي، واشتداد تنكيله بالناس، استغاثوا بالمرابطين فجاؤوها، وفتحوها عام 495.

2.3 ـ بنو جهور في قرطبة[1]:

عندما خلع أهل قرطبة آخر خليفة لهم، وهو هشام المعتدّ، بعد مقتل حاجبه حكم بن سعيد الحائك عام 422، على نحو ما ذكرناه في آخر الجزء الأول من هذا الفصل، اجتمع أعيان المدينة وأعلنوا إلغاء الخلافة، واعتماد نظام حكم جديد، لا عهد للناس به. وهو حكم الجماعة، وقد سماه المستشرق دوزي «نظام الجمهورية»[2].

كان وراء فكرة إلغاء الخلافة أولاً، ثم وراء هذا النمط الجديد في الحكم

(1) يشير بعض المؤرخين، ومنهم ابن عذاري في «المغرب. . .» (185/3)، إلى أن الجهاورة من أصل فارسي، وأن جدهم بخت بن أبي عبدة كان مولى لعبد الملك بن مروان، وأن يوسف بن بخت هو الذي دخل الأندلس قبل دخول عبد الرحمن الأول إليها. وهذا لا يغير شيئاً في تصنيف دولتهم، فإن لم يكونوا عرباً بالاستعراب فهم من موالي بني أمية.

(2) دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا: الفصل الأول من الجزء الثالث.

أبو الحزم ابن جهور الذي كان رجل دين وثقة، وكانت له من الخصال والفضائل ما جعل الناس ينظرون إليه بعين الاحترام والتبجيل، ويشاورونه في أمهات قضاياهم.

وقد أشار على الناس بأن يكون الحكم جماعياً، بحيث تتولى جماعة من أهل الرأي قيادة البلاد برئاسة واحد منهم يسمّى «أمين الجماعة». فانتخبه الناس لهذا الأمر مع مجموعة من أفاضل قرطبة. وقد أحسن ابن جهور التصرف، وأجاد التحكم في تلك الفوضى المستشرية منذ ربع قرن. فنشطت التجارة في عهده بعد كساد، واستتب الأمن بعد الفزع والاضطراب حتى قال ابن حيان إن الناس لم يعودوا في حاجة إلى التظلم والتقاضي[1] على ما قد ينطوي عليه هذا القول من المبالغة.

التزم أبو الحزم بن جهور باستشارة أعضاء الجماعة، فكان لا يصدر أمراً إلا بالرجوع إليهم، وإذا ورد البريد عليه لم يفتحه إلا بحضور وزراء تلك الجماعة. وكان رجلاً متواضعاً، فأقام في داره المعتادة، ولم ينتقل إلى واحد من القصور الكثيرة المبثوثة في عاصمة الخلافة.

توفي هذا الرجل الحكيم عام 435، فخلفه ابنه أبو الوليد[2] الذي سار سيرة أبيه في سداد الرأي ونفاذ البصيرة، ولكنه خطا خطوة أخرى في نهج الابتعاد عن روح النظام الجماعي الجديد حين قسم الأمر في حياته بين ولديه: فكلف الأكبر، واسمه عبد الرحمن بالشؤون المدنية، من إدارة ومالية، وولّى الثاني، واسمه عبد الملك الشؤون العسكرية.

وتقدمت السن بأبي الوليد، فعجز عن متابعة أمور «الجماعة» بنفسه،

---

(1) ابن حيان، عن ابن بسام في الذخيرة: 2/1 ص 604، وأخبار بني جهور في هذا الكتاب من ص 604 إلى 611.

(2) وهكذا كان عمر هذه التجربة «الجمهورية» قصيراً، مما يدل على أن الناس قد غلبت عليهم عادة الملك الوراثي، ولو وجد المفكرون الذين يعمقون البحث في هذه النظرية، لكان للأندلس فكر سياسي متقدم على عصره. ولو أن الناس فهموا هذه الصيغة الطريفة وطبقوها بأمانة لجنبت البلاد كثيراً من الويلات...

فاستبد عبد الملك بالأمر دون أخيه، ولعله اشتط في الحذر منه، ففرض عليه الإقامة الإجبارية في بيته[1]. وقد أحاط عبد الملك نفسه ببطانة السوء، وكان يبدو أن جماعة منهم جواسيس وعملاء لبني عباد، أصحاب إشبيلية، الذين كانوا يتطلعون بلهفة إلى ذلك اليوم الذي يضمّون فيه قرطبة العظيمة إلى مملكتهم. بيد أنهم كانوا يخشون بأس وزير بني جهور المدعو: ابن السقاء المشتهر بحصافة الرأي، والقدرة على المبادرات الذكية. فظلوا يكيدون له عند عبد الملك ـ بواسطة عملائهم في قرطبة ـ حتى أوقع به وقتله.

وحانت فرصة بني عباد لتحقيق حلمهم القديم بمناسبة غزو المأمون بن ذي النون قرطبة عام 462 بجيش لا قبل لدولة قرطبة بمقاومته، فاستنجد عبد الملك بالمعتمد بن عباد، فأمده بجيش أحكم مع قادته خطة مدبرة. فلما رأى ابن ذي النون المدد يتوالى من إشبيلية لمساعدة أهل قرطبة، لا لمساعدته هو كما كان قد اتفق مع بني عباد[2] عاد منسحباً، فدخل جيش إشبيلية قرطبة، وتحركت جواسيس ابن عباد وأخذت تهتف بسقوط عبد الملك، وتطالب بالانضمام إلى إشبيلية. وفي غمرة هذه الفوضى والاضطراب اللذين سادا الناس، هجم ابن مرتين، قائد جيش الإشبيليين، على عبد الملك، وأخيه عبد الرحمن، وأبيهما الشيخ أبي الوليد، وسائر أنصارهم، فاعتقلوهم، ثم نفوهم إلى جزيرة شلطيش، وجاء المعتمد بن عباد إلى قرطبة فملكها وضمها إلى مملكته سنة 462. وبذلك انتهت دولة بني جهور، وفقدت قرطبة مركزها الحضاري، ودورها أو ما بقي لها من دورها الثقافي.

3.3 ـ دولة بني عباد في إشبيلية[3]:

يرجع بروز مؤسس هذه الدولة إلى العهد الأخير من سنوات الفتنة، وإلى

---

(1) انظر في هذا «البيان المغرب. . .» لابن عذاري: 258/3.

(2) كنا ألمحنا إلى ظروف هذا الاتفاق الذي لم يحترمه ابن عباد عند الحديث عن دولة بني ذي النون.

(3) بنو عباد عرب من حمص جاء جدهم مع جند الشام بقيادة بلج. وقيل إنهم لخميون من =

عام 414 على وجه التحديد. ففي هذه السنة، ثارت قرطبة مرّة أخرى على القاسم بن حمود في ولايته الثانية، فخرج من العاصمة بأنصاره وجيشه، ومعظمهم من المغاربة، ومر الخليفة المخلوع بإشبيلة يريد النزول بها مع من معه. ولكن أهل إشبيلية كانوا يخشون أذى المغاربة وانتقامهم، فسارعوا إلى إغلاق الأبواب دونه، واحتجزوا وَلَدَيْه: محمد والحسن اللذين هما ضمن كتيبة مغربية كان قد بعث بها القاسم بن حمود أيام ولايته الخلافة. وقد اشترط الإشبيليون عليه أن لا يردوا له ولديه إلا إذا صحّت منه النية على عدم دخول مدينتهم، والرحيل عن أحوازها. فوافق القاسم على ذلك.

كان القائم بهذه الاتصالات قاضي البلد محمد أبو القاسم بن عباد[1]. فلما انصرف المغاربة، وأحس الإشبيليون بابتعاد الخطر، عزم أهل الرأي على تولية القاضي أبي القاسم بن عباد أَمْرَ مدينتهم. ولكن القاضي كان رجلاً ذكياً، كثير الحسابات، لم يكن ليقبل تحمل المسؤولية المطلقة في مثل هذه الظروف العصيبة من تاريخ الأندلس، بالإضافة إلى أن عودة القاسم بجيش كبير من المغاربة، للانتقام من أهل إشبيلية، لم يكن أمراً بعيد الاحتمال. لذلك اشترط القاضي ـ لقبول هذه المسؤولية ـ أن يؤذن له وعيّن جماعة من أعيان البلدة يكونون له مستشارين ووزراء. فقبل الناس شرطه. فعيّن جماعة من أقاربه وأنصاره، منهم: الهوزني، وابن حجاج، وابن مريم، وأبو بكر الزبيدي النحوي... وما أن استقر له الأمر بعد قليل، ورتب أمور الجيش، وخفت حدة خشيته من مداهمة القاسم بن حمود، حتى انفرد بالأمر بعد أن أبعد أعضاء الجماعة، الذين كان قد اختارهم، واحداً، واحداً، بنفسه.

ومنذ ذلك الحين بدأ يفكر في توسيع مملكته، فغزا باجة، وتغلب على

= اليمن ثم أشاعوا ـ هم ـ بعد أن توطد ملكهم بأنهم من نسل المناذرة ملوك الحيرة قبل الإسلام.

(1) كان القاسم بن حمود نفسه هو الذي عين ـ أيام خلافته ـ أبا القاسم بن عباد قاضياً على إشبيلية.

جيش بني الأفطس أصحاب بطليوس، وأثار حيرة الناس وفضولهم بقضية هشام المؤيد.

قضية هشام المؤيد.

كان طموح القاضي ابن عباد أوسع من أن تكفيه إمارة ضيقة تقتصر على مدينة إشبيلية وبعض أحوازها. لذلك فكر في وسيلة يخضع بها سائر ملوك الطوائف لإرادته، وسائر إماراتهم لسلطانه، فاختلق أسطورة ظهور هشام المؤيد[1] عنده، وكان قد عثر على رجل يشبه هشاماً في خلقته، فأشاع في الناس أنه في القصر عنده بإشبيلية، وأنه يتولى الحجابة له. ثم أخذ يراسل ملوك الطوائف يطلب البيعة له. وانقسم الناس بين مصدق ومكذب، فجاء وفد من قرطبة للتحقيق في الأمر، فأجلسه لهم في ناحية مظلمة من القصر، بحيث لم يستطيعوا تمييز ملامحه بدقة ولكنهم سمعوه يتكلم.

لم تَنْطل هذه الحيلة على معظم أمراء الطوائف، فلم يخضعوا لرغبة ابن عباد ولم يعترف به منهم إلا ثلاثة لاعتبارات سياسية بحتة، وهم: عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، ومجاهد صاحب دانية والجزائر الشرقية، وأمير طرطوشة. وخطب له بنو جهور على المنابر حيناً.

وحاول القاضي ابن عباد أن يدخل مدينة قرطبة مع هشامه المزعوم، فأغلقت أبوابها دونه، فعاد خائباً إذ لم يكن له من قوة الجيش ما يتيح له أن يدخلها عنوة.

توفي القاضي أبو القاسم بن عباد سنة 431، فخلفه ابنه إسماعيل الذي

---

(1) كان هشام المؤيد (الذي بدأت محنته منذ وفاة أبيه الحكم المستنصر، وبلغت أوجها بعد أن انتصر محمد بن أبي عامر المنصور على المصحفي، واعتلى كرسي الحجابة، ثم استمرت به الحال كذلك في جميع العهود، ومع كل الثائرين الذين تسلموا السلطة في قرطبة) كان قد اختفى عندما عاد سليمان المستعين للمرة الثانية إلى السلطة عام 403، فلم يعرف أحد ما الذي آل إليه مصيره. وأغلب المؤرخين على أنه سار إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. ومات هنالك.

عرف بلقبه «المعتضد بالله»، وقد زعم أيضاً أنه حاجب لهشام. وكان المعتضد رجل حرب وصراع، عنيف التصرف، شديد المراس، لا تطرق الرحمة باب قلبه حين يتعلق الأمر بشؤون الحكم والسياسة. قضى معظم أيامه في حرب جيرانه: حارب باديس صاحب غرناطة، والقاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء، والمظفر بن الأفطس صاحب بطليوس... وكان في كلّ مرة يوسع حدود مملكته، ويزيد في هيبتها في الداخل والخارج. وعندما استقامت له الأمور، واستشعر القوة الكافية، أحب أن ينهي بنفسه أسطورة هشام المؤيد، فأعلن موته على الملإ.

توفي المعتضد سنة 461. وخلفه ابنه المعتمد على الله.

كان المعتمد قد تمرّس في حياة أبيه بكل ضروب السياسة والحرب فولي على المدن، وقاد الجيوش، وخاض الحروب، فكان نجم أسرة بني عباد وقد مكن لشهرته عند كل الذين درسوا التاريخ الأندلسي، عرباً ومستعربين، شيئان:

ـ أولهما: أنه كان شاعراً بارعاً، تلتقي في شعره صلابة الفارس الجريء، ورقة العاشق المولّه.

ـ وثانيهما: أنه آخر ملوك أسرته، إذ انتهت مملكتهم في عهده نهاية مأساوية حين قضى المرابطون على دولة إشبيلية عام 484 وساقوا زعيمها المعتمد أسيراً إلى بلاد المغرب، حيث مات في موضع منها يدعى أغمات عام 488، بعد أن ذاق في أسره مرارة الذل بعد العز، وشاهد بناته المدللات وأمهنّ الرميكية العزيزة على قلبه، يتقوتن بغزل الصوف للناس لقاء أجر زهيد. وقد أودع شعره نغمات حزينة ومؤثرة من هذا البؤس الكبير.

* * *

خامساً: تعاظم النفوذ المسيحي في الممالك الإسلامية ووعي المسلمين الخطر الداهم[1]

ظلت الممالك النصرانية، التي أقامها الإسبان في شمال الجزيرة الإيبرية، في القسم الذي لم يصل إليه الفتح الإسلامي، ظلت تتصارع فيما بينها، ويسطو بعضها على بعض. فكانت في عهدها الأول صورة من «ممالك الطوائف» من بعض الوجوه في فترة الضعف والتمزق من تاريخ المسلمين في الأندلس. وكانت تلك الممالك النصرانية، إذا بلغ من طموحها أن تهدد بعض أطراف المملكة الإسلامية، في أيام عزها، سارع إليها جنوْد الثغور بالانتقام والتأديب. بل لقد استطاعت الأندلس في تلك الآونة من قوتها أن تتحكم في هذه الدويلات، وأن توجه إرادتها بما يخدم مصالح المسلمين، فكان الخلفاء والحجاب يستعينون ببعضها على بعض، وكانت تعد نفسها سعيدة حين تحظى بقبول المسلمين ومحالفتهم.

بيد أن المسلمين لم يوفقوا أبداً، منذ الفتح إلى آخر مظاهر قوتهم زمن الموحدين، في إخضاع شبه الجزيرة الإسبانية كلها، والقضاء النهائي على الخطر الكامن في شمالها. وقد كانت صوائف المنصور وشواتيه، وكذلك بعض غزوات ابنه عبد الملك المظفر، تصل إلى أقصى أراضي هذه الإمارات، وتشيع فيها القتل والخراب، ولكنهما لم يعملا أبداً على أساس الفتح الاستيطاني لتلك

---

(1) اعتمدنا في هذا القسم اعتماداً أساسياً على دوزي «تاريخ مسلمي إسبانيا» 3/74 - 80 وأشباخ: «تاريخ الأندلس»، ترجمة عنان ابتداء من ص: 68.

الأراضي، وضمها إلى دولة الإسلام، بل كان كل منهما يكتفي بما يعود به من النصر المعنوي، والغنائم المتنوعة. . .

وهكذا ظلت هذه الجيوب المتناثرة في المسالك الجبلية، والمرتفعات الوعرة، تنتظر فرصة الانقضاض على المسلمين، واسترجاع ما أخذوه من بلادهم، حتى كانت الحرب الأهلية الطويلة، التي عرفت عند المؤرخين بالفتنة، وما صحبها وأعقبها من فوضى واضطراب وتمزق، وانهيار للسلطة المركزية، فوقع حينئذٍ انقلاب حاسم في موازين القوى، بين المسلمين وأعدائهم التقليديين من نصارى الشمال.

وليس عجيباً أن تصادف بداية هذا الانقلاب بداية الفتنة. فبعد اندلاعها بسنة، وفي عام 399 بالتحديد، التقى عند «سانشو» كنت قشتيليا[1] وفدان مسلمان، أحدهما أرسله الخليفة المهدي، محمد بن هشام بن عبد الجبّار، صانع الفتنة، والثاني أرسله سليمان بن الحكم، وهو الذي بايعه المغاربة بالخلافة وسيتولاها فعلاً في قرطبة بلقب المستعين. وكان كل منهما يطلب محالفة الكونت على الفريق الآخر، وكان وفد المهدي قد جاء يحمل الهدايا السنية والتحف الفاخرة، وقد وعده بتسليمه ما شاء من الحصون والمدن الإسلامية إذا خفّ لمساعدة المهدي، وعاونه على صد جيوش سليمان بن الحكم التي تستعد لغزو قرطبة.

وهكذا شُقّ طريق لَاحِبٌ إلى تساقط مدن الأندلس وقلاعها، الواحدة بعد الأخرى، في أيدي النصارى.

وافق الكونت على ما يعرضه وفد المهدي دون أن يغلق الباب في وجه وفد سليمان (المستعين)، ذلك أن الحصون التي يساوم عليها كانت تقع تحت سلطة الأول. فلما كانت سنة 401، بُعَيد مقتل المهدي[2]، بعث الكونت سانشو

(1) يسميه بعض المؤرخين العرب «القمط» وأحياناً «القومس» ابن مامة. انظر البيان المغرب 86/3.

(2) قتل المهدي (محمد بن هشام بن عبد الجبّار) في ذي الحجة سنة 400.

رسوله يستنجز تسليم الحصون التي تمّ الاتفاق عليها. فاجتمع عند واضح[1] نفر من الفقهاء والعدول، وحرروا وثيقة تسليم الحصون المطلوبة. وقد فاز الكونت النصراني، بلا حرب ولا خسارة بكل القلاع والحصون التي كان قد فتحها في الأرض التابعة له: الخليفة الحكم، والحاجب المنصور، وابنه عبد الملك المظفر[2].

رأى أمراء النصرانية هذه البادرة، فأخذوا يتسابقون إلى الفوز بحصون المسلمين بمجرد تهديد هذا الفريق أو ذاك، بأنهم سيحالفون عدوه إذا لم يتنازل لهم عن قائمة يضبطونها بالحصون والمدن المطلوبة. لقد بدأ أمر النصارى في القوة، وكانت هذه القوة نتيجة عاملين: الأول ضعف المسلمين وتمزقهم، والثاني وعي المسيحيين بأهمية وحدتهم.

وحدة الإمارات النصرانية:

عندما اتحدت مملكتا «ليون» و «قشتيليا» في كيان سياسي واحد، تعاظم الأمر، وأصبح ملكها فردناند متفرغاً لقتال المسلمين وإخضاعهم لإرادته طوعاً أو كرهاً. فانتزع من المظفر بن الأفطس موقع بازو، وعاث في أراضي طليطلة، وتقدم حتى وصل إلى القلعة، فجاءه أميرها المأمون يبدي الخضوع والطاعة، ويدفع الجزية. ثم فعل مثل فعله أميرا بطليوس وسرقسطة، ثم توجه إلى إشبيلية فدمّر قراها، وأحرق حقولها، فلم يجد المعتضد بن عباد بداً من أن يذهب بنفسه إلى معسكر النصارى، وأن يفاوض فردناند على أن يدفع له الجزية ويدخل في طاعته، مقابل الإبقاء على مملكته.

ثم كانت غزوة النرمانديين سنة 456 لقلعة بربشتر، فقتل فيها ما يقرب من ستة آلاف[3] من المسلمين، وارتكبت فيها من الجرائم والفظائع ما لا نظير له،

---

(1) واضح الفتى، قائد الثغر، استحجبه المهدي ومع ذلك اشترك في التآمر عليه وقتله فلما عاد الأمر إلى هشام المؤيد أقره على الحجابة.

(2) راجع خبر تسليم هذه الحصون في «البيان المغرب...» 103/3.

(3) بعض الروايات تتحدث عن خمسين ألفاً: وبعضها تزيد على ذلك. انظر ابن حيان الذخيرة: 1/3، ص: 182.

حتى إن النساء كن يفضحن أمام أزواجهن وأبنائهن وآبائهن المقيدين قبل قتل الجميع.

وانتشى الإسبان بهذه الانتصارات، ومن ورائهم النصرانية كلها، تلك التي كان البابا في روما يعبىء جنودها ويستنفر أبطالها لمدّ يد العون إلى إخوانهم في الدين، وقد أصبح الهدف المعلن هو إزالة الممالك الإسلامية، إذ وجدوا أنه لم يعد كافياً لا الدخول في طاعتهم، ولا دفع الجزية لهم.

ثم لمع نجم الفونسو السادس، الملك القشتالي[1] فسعى بعض المسلمين إلى التحالف معه. وكان المعتمد بن عباد في طليعة أولائك، وقد تعاهدا على التعاون لاحتلال طليطلة: عاصمة بني ذي النون.

وتمثل مدينة طليطلة رمزاً قومياً عظيم الأهمية في نظر النصارى الإسبان، لأنها كانت عاصمة القوط القديمة، قبل الفتح الإسلامي، كما كانت عاصمتهم الروحية لأنها مقر أسقف الكنيسة الإسبانية. ولذلك، فلقد ألحّ عليها ألفونسو حتى احتلها بعد نضال شديد، ومقاومة شرسة من أهلها بقيادة أميرهم «القادر». وقد حاول بنو الأفطس أصحاب بطليوس، كما حاول بنو هود أصحاب سرقسطة أن يعاونوا ملك بني ذي النون: «القادر» في محنته ومحنة المسلمين معه، ولكنهما كانا مشغولين بحروب جيرانهم المسلمين، فسقطت طليطلة في يد الفونسو السادس في 27 محرم سنة 478، وقد استردها النصارى بعد 372 عاماً من الحكم الإسلامي.

بعد هذه الانتصارات، أعلن ألفونسو السادس أنه يريد استرجاع كل بلاد الأندلس من يد المسلمين، وقد ضمّ إلى مملكته كل المدن والقلاع والحصون المجاورة لطليطلة، مثل: مجريط، ومقوده، ووادي الحجارة، وقلعة رباح... حتى أضحت مراكزه المتقدمة تهدد مدينة قرطبة بالذات. ثم أخذ يهاجم مدينة

---

(1) ابن فردينانـد الأول، وموحد مملكة النصارى القشتالية، وهازم ملوك الطوائف حتى هزمه يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة التي سيأتي ذكرها.

سرقسطة استعداداً للمعركة الفاصلة مع جيشها في عهد أميرها: أبي جعفر المستعين بالله.

وعي الخطر الداهم:

كان المعتمد بن عباد قد سارع إلى عقد التحالف مع الفونسو السادس إذ كان يخشى أن يسبقه أعداؤه إلى إبرام الحلف معه. وقد أمضى المعاهدة وزيره ابن عمّار، وكانت تنص على أن يعاون الملك القشتالي ملك إشبيلية ضد كل أعدائه من المسلمين، وأن يلتزم المعتمد بشيئين: دفع مبالغ كبيرة من المال للملك المسيحي، وعدم الاعتراض على احتلال مدينة طليطلة. فلما رأى ابن عباد تصرفات حليفه في سائر الأرض التي تلي طليطلة، وتأكد من أنه أضحى يهدّد مملكة إشبيلية بالذات وقرطبة منها، بعث إليه رسولاً يذكره بأن المعاهدة بينهما تقتصر على احتلال طليطلة دون غيرها، ولكن ألفونسو كان وقتئذٍ أقوى من أن يعبأ بملاحظات ابن عباد.

كان المسلمون قد اهتزوا، في كل أرجاء الأندلس، لسقوط مدينة طليطلة. وبات ملوك الطوائف كلهم على علم يقين بمدى الخطر الذي يهددهم، ويهدّد إماراتهم، وقد صاروا يرون رأي العين ما كان يتنبأ به الصالحون من الناس وهم يرون «ثوب الجزيرة» يتساقط خيطاً خيطاً. وإذ لم تعد تجدي الآن وحدتهم بعد أن خَبُّوا وأَوْضَعُوا في ميدان تفريق شمل المسلمين وتشتيت جمعهم، فقد بقي لديهم من القدرة على استشعار الخطر الداهم ما جعلهم يجمعون، بعد المشاورات والاتصالات فيما بينهم، على أنه لا ينقذ البلاد من الداء المستشري فيها إلّا الاستنجاد بدولة ناهضة، هناك وراء البحر، في بلاد المغرب، بدأت الألسن تَلْهج بقوتها، وصلاح أمرائها، وهي دولة المرابطين.

وهكذا قرروا أن يرسلوا عنهم وفداً إلى المغرب، يستصرخ المسلمين القائمين هناك، ويطلب الإسراع بعبور المضيق قبل فوات الأوان، وإلا كانت في الأندلس كارثة كبرى على الإسلام والمسلمين.

* * *

سادساً: عبور المرابطين: إنقاذ الأندلس، ثم القضاء على سيادتها

كانت دولة المرابطين في هذه الآونة قد استقام لها الأمر في المغرب[1] وبلغت أوج قوتها. فقد استطاع مؤسسها يوسف بن تاشفين أن يوحد بلاد المغرب كلها تحت رايته، وأن يتحكم في هذه الأرض المترامية ذات الطاقات البشرية الهائلة.

أما في الأندلس، فبعد أن تحمل المعتمد بن عباد القسط الأثقل من المسؤولية في سقوط طليطلة، بعقده ذلك الحلف المشين مع الفونسو السادس، بادر بالتحرك في اتجاه توحيد الكلمة بين ملوك الطوائف، وجمع شملهم، وغدا أكبر داعية لنبذ كل ما من شأنه أن يفرق، وسعى في الحث على استدعاء القوات المرابطية، وقد صارت في نظرهم المنقذ الوحيد لبلاد الأندلس من الضياع.

لكنّ ما كان ينغص على أمراء الطوائف استراحتهم إلى هذا الحل، ويعكر عليهم صفو الاطمئنان باللجوء إليه هو خشيتهم من أن يتصدى المرابطون للقضاء على ممالكهم بمجرد إبعاد الخطر النصراني. ولقد كان مستشاروهم ونصحاؤهم من ذوي العلم بالسياسة وتصرفات أحوالها متيقنين من أن يوسف بن تاشفين لن يستطيع مقاومة رغبته في استخلاص الأندلس لنفسه، وهو الذي أبدى

(1) انظر أخبار ذلك بالتفصيل في الجزء الرابع كله من البيان المغرب لابن عذاري ويراجع ما كتبه يوسف أشباخ في كتابه: «تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين» عن نشأة دولة المرابطين من ص 62 إلى ص 73. (ترجمة عنان).

تلك العزيمة التي لا تفل في توسيع مملكته حتى شملت أرجاء المغرب كله.

بيد أن ملوك الطوائف كانوا أمام اختيارين لا ثالث لهما، وقد آلت الأمور إلى ما آلت إليه: فإما أن يمسكوا عن استدعاء المرابطين ويتركوا البلاد تسقط كلها قريباً في يد النصارى، وإما أن يلوذوا بالمغاربة، وفي هذه الحالة تكون احتمالات القضاء عليهم وعلى ممالكهم أمراً لا مجال لتجاهله. على أن الفرق الجوهري بين الاختيارين هو أن في تغلب النصارى زوال الإسلام والمسلمين من البلاد، في حين أن في تغلب المرابطين زوالاً لممالكهم وحدها، ويبقى الإسلام في جميع الأحوال، وعلى هذه الصورة لم يبقَ لهم أي اختيار.

ولعل عبارة ابن عباد المشهورة تلخص الموقف أحسن تلخيص، وذلك حين ردّ على من كانوا يحذرونه من خطر استدعاء المغاربة بقوله: «رعي الجِمال خير من رعي الخنازير»[1] ثم ينبغي أن لا ننسى أن جماهير المسلمين الأندلسيين كانت تمارس على الحكام ضغطاً شديداً في اتجاه التعجيل باستدعاء المرابطين. وذلك ما لم يكن من السهل تجاهله، وأمراء الطوائف في الموقف الذي هم فيه من الضعف والحرج.

وهكذا اتفق ملوك الطوائف على تأليف الوفد الذي يذهب إلى أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ليقنعه بضرورة العبور السريع إلى الجزيرة المهددة. فكان يضم: أبا إسحاق بن مقانا قاضي بطليوس ممثلاً للمتوكل الأفطسي، وأبا جعفر القليعي قاضي غرناطة، ممثلاً للأمير عبد الله الزيري، ومَثَّلَ قرطبة قاضيها ابن أدهم، وعُين لرئاسة الوفد أبو بكر بن زيدون[2] وزير المعتمد.

قَبِل يوسف بن تاشفين مبدأ العبور، واشترط أن تسلم له الجزيرة الخضراء ليتخذ منها قاعدة أمينة لانسحاب جيوشه عند الضرورة، واشترط الوفد الأندلسي عليه أن لا يعزل ملوك الأندلس، وتمّ التفاهم والتراضي.

---

(1) يوجد اختلاف كبير بين المؤرخين حول العبارة التي نطق بها المعتمد. وانظر هامش عنان في تاريخ أشباخ، ص 73.

(2) ينبغي عدم الخلط بين أبي بكر هذا، وأبي الوليد بن زيدون صاحب ولّادة. فالأول هو ابن الثاني، وكان وزيراً للمعتمد بن عباد.

ما أن وصلت الجيوش المغربية إلى الجزيرة الخضراء، بعدتها وعتادها، حتى أدرك النصارى خطورة الموقف عليهم، فانسحبت جيوشهم من بلنسية، ورفعوا الحصار عن سرقسطة التي كانت وشيكة السقوط، وتقدموا للقاء الجيوش الإسلامية التي كانت قد استعدت غاية الاستعداد، ووزّعت فيها المسؤوليات والقيادات: جيوش الأندلسيين بقيادة المعتمد بن عباد، وجيوش المغاربة بقيادة يوسف بن تاشفين.

وعسكر الجيشان، فتراسل الطرفان لتحديد يوم القتال، فاقترح النصارى يوم الاثنين[1]، ولكن المعتمد كان يخشى غدر عدوّ يعرف مبلغ مكره، فظل على احتراس متحسباً لكل مفاجأة، وكان ما توقعه، إذ هجم النصارى يوم الجمعة أوان وقت صلاتها. فكان جيش الأندلسيين بقيادة المعتمد أول مصادم للجيش النصراني، ففوت عليهم فرصة المباغتة.

أبلى المسلمون بلاءً حسناً، فأبادوا جيش أعدائهم، ووصلوا إلى سرادق الملك فأَضْرَمُوا فيه النار، وأصابوه هو بجرح بليغ، ولم ينجه إلا الفرار في عدد قليل من الفرسان[2] هم كل ما بقي من ذلك الجيش العرمرم الذي عبأه لقتال المسلمين.

تعرف هذه المعركة الفاصلة بالزّلاقة، وقد جرت عام 479 حسب أوثق الروايات وعلى اختلاف أيضاً في اليوم والشهر. ويرجح المختصون يوم 12 رجب من السنة المذكورة[3].

---

(1) وقع الاتفاق يوم الخميس، وكان الفونسو هو الذي اقترح الإثنين، لأن الجمعة للمسلمين، والسبت لليهود وهم كثرة في جيشه، والأحد للنصارى. وإنما كان الملك القشتالي يضمر الخديعة.

(2) تختلف الروايات في تقديرهم ما بين: عشرين، وبضع مئات.

(3) لأنه هو الذي يطابق التواريخ المذكورة في المصادر النصرانية الإسبانية وهو: 23 أكتوبر 1086 م.

وانظر هامش المترجم في كتاب أشباخ «تاريخ الأندلس..» ص، 86.

ردت هذه المعركة الظافرة الثقة إلى أهل الأندلس، وانتشرت إثرها الفرحة في كل الأرجاء. وكان من الممكن أن تصير ذات أثر أبعد لو أن المسلمين واصلوا السير، وتعقبوا عدوهم المنهك، ولكن ذلك لم يتم لأن ملك المرابطين قد بلغه موت ابنه أبي بكر الذي تركه نائباً عنه في مراكش، فاضطر إلى العودة على عجل.

ومن العجيب أن المسلمين ظلوا يكررون في الأندلس. منذ الفتح، الخطأ نفسه، فلا يستأصلون جذور عدوهم كلما واتتهم الفرصة لصنع ذلك.

وهكذا تدفقت المتطوعة من كل أنحاء أوربا على الفونسو السادس الذي أضحى بطل النصرانية جمعاء. وكان الرجل، بكل إنصاف، محارباً عنيداً، وبطلاً مغواراً لا يعرف الفشل طريقاً إلى نفسه، فلم تمضِ إلا سنة بعد الهزيمة النكراء التي لحقت به في الزلاقة حتى استجمع قواه، وعاد من جديد إلى سيرته الأولى يهدد ملوك الطوائف، ومرة أخرى هرع هؤلاء إلى ابن تاشفين يستصرخونه، وقد سافر المعتمد نفسه إلى المغرب، وقابل ملك المرابطين، وألح عليه في أن يرسل الجيش ثانية إلى الأندلس لإنقاذها، وكان يودّ في نفسه لو اكتفى بإرسال الجيش ـ دون مجيئه بنفسه ـ وتأميره هو ـ المعتمد بن عباد ـ عليه لقيادته.

وعبر ابن تاشفين مرّة أخرى بجيوشه في بداية صيف 481، وتقدم لمنازلة النصارى في حصن لبّيط[1]، ولكن حملته لم تحقق من النصر ما يلفت النظر، أو يكون مضاهياً لمعركة الزلاقة.

بيد أن المهم في عبور ابن تاشفين هذه المرة، هو أنه وقف بنفسه على تفاهة ملوك الأندلس، ومكائدهم بعضهم لبعض، وعلم مقدار خوفهم من المرابطين على إماراتهم. وقيل إنّه علم بالاتصالات التي قام بها ابن عباد مع

(1) ويرسم أحياناً بالياء «لِيِّيط»، انظر الذخيرة: 1/2 ص 262.

حليفه القديم الفونسو السادس للتعاون معه على طرد المرابطين[1] وإبعاد خطرهم عن ولايته.

ودَعَت شؤون المغرب، مرة أخرى، يوسف إلى الاستعجال في العودة إلى مراكش، ولكنه كان مصمماً هذه المرة على إزالة ملوك الأندلس، والقضاء على إماراتهم في أقرب فرصة.

وبالفعل، عادت جيوش المرابطين، بدون يوسف هذه المرة، وما إن وطئت أرض الشاطىء الأندلسي حتى تـوزع الجيش مهمة تقـويض عروش الطوائف، فتوجه قسم منه بقيادة البطل المرابطي سير بن أبي بكر نحو مملكة إشبيلية، على أن يثنى بعدها بمملكة بني الأفطس في بطليوس، وسار قسم آخر بقيادة عبد الله بن الحجاج إلى قرطبة، وزحف قسم ثالث من الجيش على المرية بقيادة أبي زكرياء بن واسنو.

دخل المرابطون إشبيلية عنوة بعد قتال مرير قاد فيه المعتمد جيشه بنفسه، فاحتلوها في رجب من عام 484. واقتيد المعتمد وأهله جميعاً إلى المغرب، واستقر به مقام الأسر بعد التنقل، في أغمات حيث ظل يندب تقلب أيامه إلى أن مات عام 488[2].

وتوالى سقوط المدن والممالك الأندلسية، فسقطت المرية، ثم سقطت ممالك شرق الأندلس كلها وخضعت لقائد الجيش المرابطي داود بن عائشة، وسقطت مملكة بطليوس أمام جيش سير بن أبي بكر، وقد تسلم العاصمة صلحاً ومع ذلك جلد أميرها المتوكل ثم قتله مع ولديه. وحمل رأسه على الرمح، وذلك عام 487. وبذلك دانت الأندلس كلها للمرابطين باستثناء مملكة بني هود في سرقسطة التي ترك لها شبه استقلال داخلي لوقوعها على حدود النصارى.

---

(1) لماذا يتآمر على طردهم ساعتئذٍ، وهو بعد لم ينفض غبار السفر عنه من رحلته إلى المغرب حيث كان يتوسـل لملـك المرابطين أن يرضى بعبور جيشه ثانية إلى الأندلس؟.

(2) هناك خلاف في تاريخ وفاته، قيل عام 487 وقيل 488. وانظر كتاب «المعجب...» لعبد الواحد ص 208. وهامش محقق الكتاب (سعيد العريان) رقم 1 من الصفحة نفسها.

وهكذا زال ملوك الطوائف، وعادت قرطبة عاصمة الأندلس، وأنقذت الأندلس إلى حين، وظلت المعارك بين المسلمين والنصارى بين مدّ وجزر، تارة تسفر عن غلبة هؤلاء، وتارة عن غلبة أولائك، إلى أن تضمحل دولة المرابطين، ويدبّ في كيانها الضعف، وتعود الأندلس إلى مواجهة الخطر الماحق من جديد. وإذا كان هذا شأن الحكم والسياسة في هذه الفترة من تاريخ الأندلس، فكيف كانت أوضاعها الثقافية وقتئذٍ.

* * *

الفصل الثاني

البِيئَة الثَّقافيّة

عندما نذكر البيئة الثقافية، فإن هذا التعبير، بمفهومه الصحيح، يتجاوز بنا ذلك الجانب المحدود المتمثل في الإنتاج الأدبي، وما أنشأه الناس فيه من فنون النثر والشعر، إلى ميدان أرحب يستغرق كل مظاهر الإنتاج العقلي والفني، أي ما يصدر عن فكر الإنسان، ووجدانه، ومهارة يديه. وإذا كنا لا نطمح في هذه الصفحات القليلة إلى استقصاء كل هذه الجوانب، لاتساعها، وتمددها، وخروجها عن غرضنا المقصود، فإن الذي نحب أن نحاول القيام به هو الوقوف بإيجاز عند أهمّ ملامح الإنتاج الفكري، وظروف النشاط العلمي عموماً، مع الإلمام اليسير بجانب من الفنون يتصل بالغناء وما اقتضاه من تربية الجواري والقيان وتثقيفهن، وذلك لما لهذا الضرب من النشاط الفني من العلاقة الوطيدة بالأدب الذي هو موضوع الدراسة.

وواضح أن الأدب، بوصفه تعبيراً عن مظاهر الحياة بأوسع مدلولاتها، لا تتضح كل قيمه الفنية ما لم تستبن أبعاد البيئة الثقافية الواسعة التي ردّد الكثير من أصدائها، في مضامينه وأشكاله، وكان على كل حال صورة من صورها.

ولما كانت الثقافة ـ باعتبارها ظاهرة اجتماعية ـ لا تكاد تحدّ بعصر، لأنها سلسلة واحدة متصلة الحلقات، تضرب في أعماق الماضي، حتى حين تبدو بعض ملامحها جديدة مستحدثة، وتحمل كل حلقة منها سمات الحلقة التي تليها، فإنه يتعين علينا أن نستعرض ظروف نموها الأول، وأهم مراحل تطورها عبر القرون. فإذا وصلنا إلى القرن الخامس رصدنا فيه أهم الحوافز التي عملت على تنشيط الحياة الثقافية، وثمار هذا الدفع في أهم المجالات الفكرية.

أولاً: الثقافة الأندلسية قبل القرن الخامس

1 ـ في عصر الولاة:

إذا كان من المعلوم أن الثقافة، وهي من أبرز أركان الحضارة وأظهر مقوماتها، لا يمكن أن يعلو لها شأن، أو يرتفع لها بنيان إلا في ظل القدر الأكبر من الاستقرار ـ استقرار الأوضاع العامة، واستقرار النفوس بالاطمئنان ـ والنصيب الأوفر من الأمن والرخاء، فإنه من اليسير علينا أن نتصوّر كيف كان مستبعداً حقاً أن تنشأ ثقافة أندلسية حية، بعد الفتح مباشرة، وطَوال المرحلة التي تسمى عند المؤرخين «عهد الولاة»، وهي التي تستمر من فتح الأندلس سنة 92 هـ إلى تاريخ جلوس عبد الرحمن الداخل على كرسي الإمارة في عام 138.

ونحن إذا استثنينا بعض المقطوعات الشعرية، والفقرات النثرية التي هي في مجملها من الإنشاء الرسمي البسيط[1] فإننا لا نكاد نعثر طوال هذه الحقبة على شيء يمكن أن نسمّيه نشاطاً ثقافياً، أو دليلاً على وجود حياة فكرية بصورة من الصور. والواقع أن لا مجال للعجب من هذا الواقع، فالحضارة العربية الإسلامية كلها ـ في الشرق والغرب ـ لم تكن قد دخلت بعدُ مرحلة الإنتاج الفكري، وقد ظلت خلال ما يقرب من قرنين من الزمن، في حالة مخاض، تجمع عناصر ذلك الإنتاج، وتدون التراث الشفهي القديم الذي سيتمحور جانب من الإنتاج الأدبي حوله. أما الإنتاج الفكري الحقيقي الذي يحمل سمات النضج العقلي والحضاري فإن بواكيره لم تظهر إلا في بحر القرن الثالث.

(1) على أن هذه الفقرات إنما ترجع إلى آخر عصر الولاة زمان حروب عبد الرحمن الداخل. وسنتناول ذلك في الفصل القادم.

وما كانت الأندلس لتشذ عن حكم هذه الاعتبارات، حتى لو كانت إقليماً عادياً من أقاليم المملكة الإسلامية، فكيف وهي النائية المتطرفة، ذات الأوضاع الخاصة، والظروف الجغرافية والبشرية التي تجعلها تتميز عن باقي الأقاليم الإسلامية. فإذا نحن أضفنا إلى كل ذلك، أن الأندلس ما أن استقر بها فاتحوها، حتى دبت إليهم عقارب النزاع والفرقة، وعبثت بهم رياح العصبية القبلية العاصفة، فاضطرمت بينهم نار الفتنة، ووقع بين اليمنية منهم والقيسية صدامات عنيفة دامية، كادت تعرّض مكاسب الفتح كلها للخطر العظيم. وقد كان من نتائج هذا الصراع المحتدم أن لم تعرف الأندلس استقراراً في السلطة المسؤولة عن تسيير البلاد، حتى لقد تعاقب عليها أربعة وعشرون والياً في نيف وأربعين سنة. ولو أننا افترضنا فرضاً، ليس له في الواقع ما يسوغه أو يشجع عليه، أن هذه الفتن والقلاقل قد خلفت شعراً كثيراً، فإن المصادر التي بين أيدينا لم تحتفظ لنا منه إلا بقدر لا يصلح في كمه ولا في نوعه أن يدلنا على آثار حياة ثقافية جديرة بالذكر.

وهكذا يصبح الحديث عن بدء الثقافة العربية في الأندلس، يلتقي ويتحد بالحديث عن بدء الإمارة الأموية فيها. والواقع أن الأندلس أعطت بني أمية ـ وقد جاؤوها فارين، يلاحقهم شبح بني العباس في كل مكان ـ أشد ما كانوا في حاجة إليه: الأمن والسلطان، فأعطوها أشد ما كانت في حاجة إليه: الاستقرار والقوة، فكان في هذا العطاء المتبادل ميلاد الحضارة العربية الأندلسية بثقافتها الأصيلة، وفكرها المبدع.

2 ـ في عصري الإمارة والخلافة:

انصرف الأمراء الأمويون في عهدهم الأول بالأندلس إلى القضاء على الفتن والقلاقل التي هي من رواسب عهد الفوضى والاضطراب أثناء مرحلة الولاة، ولذلك لم نجد لهم في أول الأمر آثاراً في ميادين الثقافة تذكر، باستثناء النشاط الشعري التقليدي الذي كانوا هم أنفسهم في طليعة من يتعاطاه، في أوقات الفراغ، للتعبير عن حنينهم الدائم إلى أوطانهم وأهليهم في بلاد الشام، أي للتغني بأمجادهم القديمة والحديثة.

على أن الذي يبدو مؤكداً أنهم كانوا شديدي العناية ـ منذ السنوات الأولى من حكمهم ـ بالعلوم الإسلامية، لأنها وسيلتهم إلى إقرار نظم المجتمع وتشريعاته، انطلاقاً من أن الإسلام هو الجامع المشترك الأعظم بين الجماعات الأندلسية التي ترجع إلى أصول متباينة: منها العرب، ومنها البربر، ومنها المستعربون الذين هم أيضاً من أصول إسبانية مختلفة.

ولعل من أوائل ما قام به أمراء بني أمية من الأعمال ذات الطابع الثقافي، انحيازهم في وقت مبكر إلى مذهب الإمام مالك[1] في مجتمع كانت أغلبية أفراده على مذهب الإمام الأوزاعي[2]. وأيًّاما كان تفسير الدارسين لهذا الانحياز[3]، فإن الذي لا شك فيه أنهم أخذوا يعينون قضاتهم وأئمتهم في قرطبة وفي عواصم الأقاليم ومدنها المهمة من بين أتباع الإمام مالك. فغدا بذلك، هذا المذهب مذهباً رسمياً للدولة يرعاه الأمراء، ويشجعون على الإقبال عليه، ويختارون رجال المراتب الدينية في الدولة من أنصاره المتمسكين به.

وإذا كنا اليوم لا نملك تفاصيل محددة عن الطرائق والأساليب التي استخدمت لترويج هذا المذهب، فإننا لا نتصور مع ذلك أن انقلاباً من هذا النوع، في ميدان على هذه الدرجة من الحساسية التي نعلمها لكل المسائل الدينية، في المجتمع الأندلسي بوجه خاص، قد تمّ بدون أدنى صراع فكري، يكون فيه للخصام والجدل ميدان فسيح، تحاول أثناءه كل فئة أن تدافع عن مذهبها، وترد على خصومها، بكل ما يسعها من الحجج والبراهين. وكان ذلك يتم على الأرجح، مشافهة، في الدروس التي تلقى في المساجد، والمناظرات، ولذلك لم تنقل إلينا المصادر التي أبقت عليها الحوادث، شيئاً منه. وعادة مثل

(1) الإمام مالك بن آنس، من أهل المدينة، توفي سنة 178 هـ.

(2) الإمام الأوزاعي: عبد الرحمن بن عمرو (88 ـ 157 هـ)، إمام البلاد الشامية في الفقه والزهد، وكان شأنه بها عظيماً حتى قيل: «كان أمره فيهم (يعني أهل الشام) أعز من أمر السلطان». عن الاعلام.

(3) انظر في ذلك رأي صاحب تاريخ الفكر الأندلسي، ص: 411، وما ينقله من آراء ابن خلدون.

هذا الجدل أن يتطلب تعمقاً في النصوص، وحشداً للأدلة، وتأويلاً للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بما يخدم الهدف المنشود، ويحقق بلوغ الغرض المقصود. وكل ذلك ينقل العلم ـ عادة ـ نقلة عظيمة من الاقتناع بالسطح إلى الغوص في الأعماق، ومن الاكتفاء بظاهر الأمور إلى طلب عللها الأصلية ومراميها البعيدة، وتلك هي السبل إلى كل نهضة فكرية حقيقية.

وربما كان من المؤسف أن نرى الأمراء الأمويين يختصرون مرحلة الخلاف، بتدخلهم الرسمي، وانحيازهم إلى مالك، ويقضون سريعاً على إمكانيات الصراع المذهبي الذي كان كفيلاً بأن يتطور إلى التدوين والكتابة، فيغني الحياة الفكرية، ويخصب حقول الحياة الثقافية، ويخرج الناس من دائرة العصبيات التي تدور على التحزب للزعماء والقبائل والأحياء، إلى دائرة التحزب الإيجابي للآراء والأفكار والمدارس النظرية.

بيد أن الحكام الأمويين كانوا ـ من بعض الوجوه ـ معذورين في تصرفهم، لأنهم كانوا حريصين على وحدة البلاد التي يهددها خطر الفرقة من الداخل، وخطر الغزو من الخارج، فكان انضواء معظم الفكر الديني في البلاد تحت لواء المذهب المالكي، بسلفيته وصرامته، عاملاً قوياً من عوامل الوحدة المنشودة، وضابطاً يعصم الناس من زيغ الفرقة، وآفة الانقسام على المذاهب والنحل. ومن في الناس أعلم من بني أمية بما يجره مثل هذا الانقسام من ويلات على الدولة والمجتمع، وهم الذين انقسم المسلمون منذ أيام مؤسس دولتهم إلى فرق ظل بعضها يقوى ويتسع نفوذه حتى انهارت مملكتهم تحت ضربات واحدة منها.

وحتى عندما اطمأنت أمور المملكة، ولم يعد هاجس الفرقة يروّع حكامها في القرن الرابع، فإننا نجد بعض الأئمة الذين هدتهم اجتهاداتهم إلى أفكار بعيدة عن الإمام مالك ومذهبه، يفرقون في عملهم الرسمي بين اقتناعاتهم الخاصة، وبين ضرورات التعامل في المجتمع على أساس المذهب الرسمي[1].

---

(1) منهم منذر بن سعيد البلوطي، قاضي عبد الرحمن الناصر ثم ابنه الحكم، الذي «غلب =

الاستعانة بالثقافة المشرقية:

ما إن استقرت دعائم المملكة الناشئة على أرض الأندلس، واستتب فيها النظام، حتى أخذ أمراؤها يتطلعون إلى المشرق، وإلى البلاط العباسي بالذات - والثقافة ترف الملوك عند نضج الحضارة - يريدون أن يكون لهم في قرطبة مثل ما لبني العباس في بغداد، من مظاهر الأبهة، ومقومات المدنية المزدهرة.

وإذا كانت معالم الازدهار المادي: من قصور، وبساتين ونحوهما، ميسورة نوعاً ما لمن يقوى على دفع ثمنها بالدينار والدرهم، فإن الحصول على ثمار الحضارة الفكرية منها والفنية، لا يتصور إلا بعد مرور مراحل طويلة من الغرس، والعناية الدائبة، والتعهد المستمر. ولذلك رأى أُولَئِك الأمراء أنه لا شيء يحول بينهم وبين استقدام عدد من أقطاب الثقافة العربية المشرقية، يكونون في الأندلس أئمة ومعلمين، ويكون ما عندهم من العلم والصنعة نموذجاً يحتذى به ويقاس عليه.

مدت الأندلس يدها إلى المشرق تأخذ منه من تريد من رجال الفكر، وتستورد منه ما تشاء من الآثار الأدبية والعلمية والفنية، وتدفع في مقابل ذلك: المال الكثير، والمنزلة الاجتماعية المرموقة، والحظوة البالغة عند رجال السياسة والحكم. فكان من أوائل من وفدوا على الأندلس من أعلام المشرق: المغني الشهير زرياب، وهو تلميذ لامع لإسحاق الموصلي، مغني هارون الرشيد الأثير.

كان الحكم الربضي[1] هو الذي رحب بمقدم زرياب إلى الأندلس، حين

= عليه التفقه بمذهب أبي سليمان بن داود بن علي الأصبهاني المعروف بالظاهري، فكان يؤثر مذهبه، ويجمع كتبه، ويحتج بمقالته، ويأخذ بها لنفسه، فإذا جلس مجلس الحكومة، قضى بمذهب مالك بن أنس وأصحابه، الذي عليه العمل في بلده، ولم يعدل عنه». عن تاريخ قضاة الأندلس، لأبي الحسن النباهي ص 74 و75. والقاضي البلوطي بقي في قضاء الجماعة بقرطبة إلى أن توفي سنة 355 في عهد الحكم المستنصر.

(1) الحكم الربضي: ابن هشام بن عبد الرحمن الناصر. في عهده كانت ثورة الربض بتحريض من الفقهاء، حكمه من 180 إلى 206 هـ.

ضاقت به بغداد، وخشي من عواقب غيرة أستاذه منه لما بلغه من جودة اللحن وصفاء الصوت.

ولكن ما إن اجتاز زرياب البحر، ووطئت قدماه الأندلس على شاطىء الجزيرة الخضراء، حتى علم بموت الحكم. ولعله ظن وقتئذٍ أن وفاة الأمير ستفسد عليه كل خططه، ولكن عبد الرحمن بن الحكم[1] الذي خلف أباه، استقبله بحفاوة بالغة، وأرجع إليه طمأنينة قلبه. وقد فرض له راتباً شهرياً مقداره مائتا دينار، وعلاوة سنوية مقدارها ستة آلاف دينار، يتقاضى نصفها في عيد الفطر، ونصفها الثاني في عيد الأضحى. هذا بالإضافة إلى ما وهبه من القصور والمزارع والبساتين[2].

لقد قدر لهذا الرجل الفنان أن يؤدي دوراً حضارياً ممتازاً في بلاد الأندلس، ليس لأنه نقل تقاليد الموسيقى الشرقية إلى المغرب، وأشاع فيه تذوقها، وصهر على تقلينها تلاميذه فحسب، بل لأن تأثيره شمل كل أنماط السلوك الحضاري الناعم، فتفنّن في تعليم أفراد الطبقة الحاكمة طرائق لا عهد لهم بها في المآكل، والمشرب وترتيب الأطعمة على الموائد، وتبادل المجاملات، وتنظيم الملبس، وتصفيف الشعر، وما إلى ذلك من مظاهر ليونة العيش ورقة الحضارة.

والواقع أن زرياباً لم يكن فناناً موسيقياً فحسب، وإنما كان يمثل نموذج الثقافة المشرقية الحديثة التي انصهرت فيها الثقافات العالمية القديمة، والتي أينعت ثمارها في بلاط بني العباس. كان الرجل شاعراً، وكان عارفاً بالشعر ناقداً له حسن البصيرة فيه، وكان إلى ذلك ذا علم بالجغرافية، والتنجيم، والطبيعة،

---

(1) هو عبد الرحمن الثاني، ويعرف أيضاً بعبد الرحمن الأوسط: حكم من 206 إلى 238. وهو ابن الحكم بن هشام.

(2) انظر أخبار زرياب في: نفح الطيب ج 3 ص 122، وصفحات أخرى، والجزء 1 ص 344. توفي زرياب سنة 238 هـ. وانظر أخباره أيضاً في تاريخ الفكر الأندلسي ص 52 وما بعدها.

والسياسة، فقام وحده بمهمة حضارية تنوء بها الجماعة الكثيرة. وكما كان متوقعاً فإن ما أصابه من نعمة وجاه لدى الحكام قد عرضه لغيرة أعيان الأدب الأندلسي وحسدهم، حتى اضطر الأمير عبد الرحمن إلى أن يردعهم بشدة، فعاقب بالنفي واحداً من أحب الناس إليه، وأقربهم عنده، وهو الشاعر السفير يحيى الغزال. وكان قد هجا زرياباً هجاءً مقذعاً.

هذه خصلة تعد من مآثر عبد الرحمن الثاني حين أكمل خطة أبيه في زرياب، وقد عاجلته المنية قبل لقائه، والخصلة الثانية أنه وعى ما للمشرق من سبق في ميدان تأليف الكتب وترجمتها، وأدرك أثرها في النهوض بالثقافة الأندلسية، وتحقيق الرقي الحضاري الذي تنافس به الأندلس حضارة بني العباس، وقد كان ذلك كما رأينا واحداً من اهتمامات حكام الأندلس الرئيسية. فعمل، قبل أن يجلس على كرسي الإمارة، على استجلاب خيرة ما كتبه علماء العراق وما ترجموه من كتب اليونان والفرس. وبعث في هذه المهمة رجلاً يطوف له بلاد المشرق، وينتخب له أحسن ما ظهر فيها من مطلوبه[1]، وكان هذا الرجل شاعراً معروفاً في بلاده، واسمه عباس بن ناصح[2].

يخلص لنا مما تقدم أن الأندلس قد استطاعت، بفضل وعي أمرائها لقيمة العمل الثقافي، أن تستفيد منذ عصر الإمارة المبكر من السبق الذي أحرزته بغداد، فلم يبق لها بعد ذلك إلى أن تواصل السير على هذا المنهج في زمن الخلافة، إلى أن تنهض الثقافة المحلية الأصيلة على قدم وساق.

عبد الرحمن الناصر: عهد القوة والتسامح.

كان عبد الرحمن الناصر (300 - 350) من الرجال الأفذاذ الذين قدّر لهم

---

(1) انظر في ذلك مزيداً من التفصيلات عند ليفي بروفنسال «الغرب الإسلامي والحضارة الأندلسية» النص الأصلي، ص 65.

(2) عباس بن ناصح الثقفي الجزيري قاضي الجزيرة الخضراء، وكان له اشتغال بالأدب والشعر. انظر أخباره مع يحيى الغزال في حلقة العلم بقرطبة في النفح ج 2، ص 261.

أن يطبعوا الأندلس بطابعهم المميز على مدى حقب طويلة. وقد جسّد طوال نصف قرن الصورة المثلى للحكم الأموي في الأندلس، حتى لكأنه بلغ في أيامه الذروة التي لن يبلغها بعد ذلك قط. وكان من أبرز ما تجلى في عهده أنه لم يعد يرضى لبلاده أن تظل صورة باهتة للمشرق، بل أحب أن تكون منافساً قوياً له في[3] السياسة وفي شتى فنون العلم والأدب. وقد دشن عصر القوة سنة 316 حين أعلن فيها ارتقاء الحكم الأندلسي من الإمارة إلى الخلافة، وتسمّى بأمير المؤمنين، وشرع في إحاطة نفسه بكل مظاهر الأبهة التي تنسجم مع هذا الوضع الجديد.

على أن هذه الإرادة في منافسة المشرق لم تؤل به أبداً إلى قطع العلاقات الثقافية به. بل أنه ضاعفها، ووجهها، فكثرت الرحلة العلمية في أيامه إلى المشرق، وكانت تعود بحصاد وفير من الأفكار والكتب. واستقبل العلماء المشارقة الوافدين على البلاد فكان من أبرزهم أبو علي القالي[1]، وقد اختاره عندما اطمأن إلى كفايته العلمية، ليكون مؤدباً لابنه وولي عهده الحكم المستنصر. وقد قام أبو علي بدور لا يستهان به في بث الثقافة المشرقية، فنشر في حلقات تلاميذه آخر ما وصل إليه علماء الكوفة والبصرة وبغداد من العلم بالشعر والنحو واللغة. وكان من أبرز تلاميذه أبو بكر الزبيدي الذي كان شاعراً، ونحوياً، ولغوياً من أصحاب المعاجم[2]، وقد ولاه الحكم المستنصر مهمة تأديب ابنه وولي عهده هشام المؤيد.

وبالجملة فإن البذور التي زرعها الأمراء الأوائل لبعث الثقافة الأندلسية، والدفع الذي تمَّ في عهد عبد الرحمن الناصر لارتقاء الفكر، بالإضافة إلى ما وفره حكمه الحازم من أسباب القوة العسكرية، والرخاء الاقتصادي، وانتشار الأمن، قد أثمر كله انطلاقة علمية وأدبية معتبرة، ستنقل البلاد كلها بعد

---

(1) أبو علي القالي: (288 - 356 هـ) وفد على الأندلس سنة 330 هـ. وهو صاحب كتاب: «الأمالي» الذي أهداه إلى عبد الرحمن الناصر.

(2) أبو بكر الزبيدي: أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله الزبيدي (306 - 379 هـ) من مؤدبي الخليفة هشام المؤيد.

قليل، في الميدان الثقافي، من طور إلى طور، وتحقق للأندلس تلك النهضة الشاملة التي تعاقب أمراؤها على تنمية غرسها، وتعهده بالرعاية والعناية.

وكان من آثار هذا الجهد المتصل أن ازدانت مجالس الخليفة في قرطبة بشعراء مجيدين منهم الوزير ابن أبي عبدة[1]، وابن هانىء[2] وعبيد الله بن يحيى[5] وابن عبد ربه[4] وغيرهم... ولعل خيرة من يمثل هذا الازدهار الأدبي ابن عبد ربه الذي جمع بين الشعر والنثر، وكان من أوائل من ألّف في الثقافة الأدبية بإخراجه كتابه الشهير: العقد الفريد. وهو يدل دلالة صريحة على أن المغاربة في هذا العهد قد تمثلوا الثقافة المشرقية تمثلاً صحيحاً واستوعبوها عن فهم وأخذوا يؤلفون فيها ما جمعوه متفرقاً منها.

وبدأت بوادر النشاط العقلي على يد رجل مفكر اسمه ابن مسرة، وقد أحاط نفسه بجماعة من التلاميذ وأخذوا يدرسون علوم الأوائل التي كان عبد الرحمن الناصر مهتماً بجانب منها فيما يبدو، أو ذلك ما نفهمه حين نراه يقيم علاقات ثقافية مع قسطنطين السابع ملك بيزنطة، واستطاع أن يحصل منه على بعض المخطوطات اليونانية القديمة مثل كتاب ديوسقوريديس في الطب. ولم يكتفِ الخليفة بالكتاب، بل أرسل إلى الملك البيزنطي يطلب منه رجلاً عالماً باللغتين اليونانية واللاتينية، فانتدب له الراهب نيقولا الذي حلَّ بالأندلس عام 340، والتحقت به جماعة كبيرة من الأطباء والنباتيين الأندلسيين، وأخذوا

(1) هو أبو الحزم جهور بن أبي عبدة. شاعر، من وزراء الخليفة عبد الرحمن الناصر. وانظر بعض أخباره في الحلة السيراء، ج 1، 245 - 251.

(2) ابن هانىء: شاعر مجيد، اتصل بالقائد جوهر ببلاد المغرب، وأقام عند ولاة المسيلة ومدحهم، وقدم بعد ذلك إلى المعز الفاطمي فمدحه، وشيعه وهو مسافر بجيشه إلى مصر. توفي 362.

(3) عبيد الله بن يحيى: قال عنه صاحب الجذوة: «الوزير أبو عثمان عبد الله بن يحيى، كان وافر الأدب، كثير الشعر جليلاً في أيام عبد الرحمن الناصر.» الترجمة رقم 582).

(4) ابن عبد ربه: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (240 - 328 هـ). من أدباء الأندلس المشهورين. صاحب العقد الفريد.

يصنفون الأعشاب، ويتعرفون على خصائصها، ويقارنون بينها وبين ما جاء في كتب اليونان..

لا نريد أن نأخذ في سرد تفاصيل هذا النشاط الفكري الخصب الذي شهدته الأندلس في عصر الخلافة، بوجه خاص، منذ عهد عبد الرحمن الناصر، ولكن الذي تجدر الإشارة إليه أن مجموعة من العوامل قد تضافرت في البلاد، منها: الرحلة التي لم تنقطع إلى المشرق للدراسة والطلب، وكثيراً ما كانت تبدأ أو تنتهي بأداء فريضة الحج، ومنها وفادة المثقفين المشارقة التي لم تتوَقَّف، ومنها التفتح على الثقافة الأجنبية والسعي إلى الحصول على بعض المخطوطات المؤلفة فيها بلغتها الأصلية، وطلب انتداب خبيـر بها، وباللغة اللاتينية التي يكثر في البلاد من يتقنها من النصارى واليهود، قلنا أن هذه العوامل وغيرها قد توافرت في جو عام من الاستقرار السياسي، ومناخ شامل من الأمن والازدهار، فتهيأ للصرح الثقافي الأندلسي أن يعلو على دعائم ثابتة وأُسٍ متين. وكان من حسن حظ الأندلس أن خَلَف عبدَ الرحمن الناصر واحدٌ من أبنائه أعلى صرح أبيه وتفانى في تشييده: إنه الحَكَم المستنصر[1].

خليفة عالم: الحكم المستنصر:

كان الحكم بن عبد الرحم الناصر مثقفاً بأوسع وأدق مدلولات هذا التعبير، وقد كان تلميذاً نجيباً لأستاذه الكبير أبي علي القالي، ثم أضاف إلى ذلك منذ صغره حباً للعلم بجميع أنواعه، واتصالاً وثيقاً بأهله، وقد صادف منه كل ذلك ذهناً متوقداً، فانصرف إلى تحصيل المعارف المتنوعة، وحفز النشاط الفكري في بلاده، وهو بعد ولي للعهد في ظل عرش أبيه. وهو قد أسدى من الخدمات الجليلة للثقافة العربية في الأندلس، ومهد لها من سبل الارتقاء، ما لا يستطيع أحد أن يغفل مكانته المتميزة في معرض التأْريخ للنشاط الفكري والحياة الثقافية في الأندلس.

نتبه أولاً إلـى قيمة التعليم في رفع المستوى الثقافي العام، والتعجيل

(1) الحكم المستنصر حكم من 350 إلى 366.

بالنضج الحضاري، فجعل دخل حوانيت السراجين وقفاً يجري في صورة رواتب قارة ودائمة على المعلمين الذين يؤدبون أولاد الفقراء[1].

ثم هو أدرك مدى ما يمكن توظيفه من جهد المشارقة في تشييد صرح الفكر، فلم يقنع بما كان يصنعه أجداده من إرسال رجل أو أكثر، إلى بلاد المشرق، من حين إلى حين، لاقتناء عيون المؤلفات والمترجمات التي تظهر هناك، بل ارتأى أن يكون له رجال علماء متفرغون للطواف في عواصم المشرق، ولا سيما بغداد، لموافاته منها بأحسن ما تنتجه القرائح في ديار الإسلام، وما تترجمه أقلام الخبراء من تراث الحضارات القديمة، ولا سيما فارس واليونان.

ويحدثنا صاعد الطليطلي «أن الحكم المستنصر قد استجلب من بغداد ومصر وغيرها من بلدان المشرق أندر الكتب، وأعظمها في العلوم القديمة والحديثة وجمع منها مثلما جمعه أمراء بني العباس، في وقت أقصر»[2].

وكانت هذه الرغبة العارمة في جمع أقصى قدر ممكن من الكتب وليدة اطلاع حقيقي، وتتبع دقيق لأخبار النشاط العلمي في المشرق، حتى أنه كان يعلم بالكتب الجديدة قبل أن يذيعها أصحابها في الناس. فكان من هذا القبيل معرفته بالعمل الذي كان أبو الفرج الأصبهاني عاكفاً عليه، فأرسل إليه ألف دينار من الذهب العين للحصول على النسخة الأولى من كتاب الأغاني، فوافاه بها أبو الفرج قبل أن يخرجها للناس في بغداد.

وقد شفع كل هذا بتحرر فكري واسع أتاح لجميع العلوم العقلية، التي كانت شبه محرمة، أن تظهر، فتعاطاها أصحابها في وضح النهار، وذلك على الرغم من العداوة الشديدة التي كانت تقابل بها من علماء الدين والفقهاء، ذوي النفوذ. وهكذا تحرر الرياضيون والفلكيون من القيود التي كانت ترهقهم، وبدأت تذيع في البلاد كتب الفلسفة، ككتاب «رسائل إخوان الصفاء»[3] الذي دخل

---

(1) عن البيان المغرب 265/2.

(2) انظر ليفي بروفنسال: الحضارة العربية في إسبانيا، ص: 94.

(3) رسائل إخوان الصفاء: إخوان الصفاء جماعة من الفلاسفة كونوا في بغداد، أواسط =

الأندلس في هذه الفترة، وجاهر أتباع المعتزلة بآرائهم، بعد أن كانوا يبالغون في الحيطة والتستر حتى لا يرموا بالزندقة والإلحاد. وكان الخليفة يعقد المجالس العلمية التي يحضرها أصحاب هذه التيارات الفكرية المتباينة، فيدافعون عن مذاهبهم، ويتمسكون بآرائهم، دون أن يكون عليهم في ذلك أدنى حرج.

على أن واحدة من أكبر مآثر الحكم المستنصر هي إقامته تلك المكتبة العظمى في قصره، والتي يقدر ما كانت تحويه من الكتب في كل فن وعلم، بنحو أربعمائة ألف كتاب، يبالغ بعض المؤرخين فيقولون إنّه قرأها كلها وعلق على معظمها[1] مما يستحيل أن يكون على وجه من الوجوه، لأن عمراً واحداً لا يكفي لمجرد قراءتها إلا أن يقرأ منها نحو سبعة عشر كتاباً في اليوم منذ أن ولد إلى أن مات. والذي هو أقرب إلى المنطق أنه كان كثير القراءة والعناية بما يقرأ حتى إنه كان يعلق على ظهور الصفحات بما توحي به إليه مطالعاته.

وكان من حسن حظ العلوم والآداب ـ والناس على دين ملوكهم ـ أن أثرياء القوم وذوي اليسار منهم قد تابعوا الخليفة على ميله إلى الكتب، فتباروا في اقتنائها، وإقامة المكتبات الخاصة في دورهم وقصورهم.

لقد أثبت التاريخ في عدد لا يحصى من المرات أن الفكر لا تتفتّح أكمامه، ولا تبرعم أشجاره، إلا في مناخ من التسامح والحرية. وكان من شقاء هذا الفكر، وسوء طالعه، أنه لم يقدَّر للأندلس أن تسير فيها الأمور على النهج الذي سارت فيه أيام الحكم المستنصر، ولو أتيح لها ذلك، لكانت ربما تسلمت مشعل الثقافة العلمية الرصينة من المشرق، وواصلت به السير إلى قمم عالية من الخلق والإبداع. ولكن الظروف السياسية قد أتت بغير ذلك، بعد موت الحكم عام 366.

= القرن الرابع هـ، جمعية سرية للتباحث في شؤون الفكر الفلسفي وقد وصلوا إلى نتيجة أن الكمال في العقل يحصل بالديانة المحمدية ومناهج الفلسفة اليونانية.

(1) انظر ما نقله صاحب: تاريخ الفكر الأندلسي، ص: 10، عن ثقافة الحكم وعلمه.

دولة المنصور: تقريب الأدباء والفقهاء، وتحريم العلوم والفلسفة.

بويع بعد الحكم ابنه هشام المؤيد، على نحو ما رأيناه في الفصل السابق. وكان غلاماً صغيراً لا يقوى على فرض إرادته في أي ميدان، ولا أن يكون له رأي مستقل في أي مجال من المجالات. فانفرد الحاجب المنصور بن أبي عامر بأمره، وتصرف في المملكة كما شاء. فكان ذلك أول عهد الأندلس باغتصاب السلطة من الخلفاء. وكانت مسيرة طموح هذا الرجل تفرض عليه أن يتقرب من دوائر النفوذ الشعبي في المملكة. وكان الفقهاء، ورجال المراتب الدينية عموماً، يقفون على الدرجات العليا من سلم هذا النفوذ. ولذلك ارتأى أن يتزلف إليهم، وإلى من ورائهم من العامة، بإحراق أنفس وأندر الكتب العلمية والفلسفية التي كانت تتهم ببعدها عن روح الإسلام ومنهجه، وهي من جملة المؤلفات التي رأينا أي جهد، ومال، وعناية أنفق الحكم المستنصر في سبيل اقتنائها وجمعها من أقصى الآفاق.

يحدثنا المؤرخ ابن عذاري عن هذه الحادثة فيقول: «وكان المنصور أشد الناس في التغير على من عُلم عنده شيء من الفلسفة والجدل في الاعتقاد، والتكلم في شيء من قضايا النجوم وأدلتها، والاستخفاف بشيء من أمور الشريعة، وأحرق ما كان في خزائن الحكم من كتب الدهرية والفلاسفة بمحضر كبار العلماء منهم الأصيلي[1]. وابن ذكوان[2]، والزبيدي[3]، وغيرهم، واستولى على حرق جميعها بيده»[4].

مرة أخرى يذهب العلم ضحية المطامح السياسية، وتعود الغلبة إلى

---

(1) الأصيلي: لم نعثر له على ترجمة، وإنما المذكور هو أبو عامر بن الأصيلي في ذ: 2/3، ص: 857 - 867.

(2) ابن ذكوان: القاضي أبو العباس بن ذكوان، تقدم الحديث عنه في الفصل الأول من هذا الباب.

(3) الزبيدي: سبق التعريف به في بدايات هذا الفصل: نحوي، لغوي، توفي سنة 379 هـ.

(4) عن البيان المغرب، 293/2.

التعصب على التسامح، فتخنق تلك الانطلاقة العلمية التحررية الرائعة، وتقضي حركة بسيطة من الحاجب المنصور على جهود بذلها خليفة عالم طوال عقود من السنين. وأعجب ما في الأمر أن المنصور لم يفعل ما فعله عن اقتناع، لأنه كان، قبل الحجابة، ممن يميلون إلى النظر في المسائل الفلسفية، ولكنه رأى، وهو الداهية المحنك، الساعي إلى الاستبداد بالسلطة كيفما كان الثمن الذي يدفعه في سبيلها، أنه يستطيع التضحية بميوله الفكرية، واتجاهاته الثقافية، من أجل الحصول على رضى الفقهاء، والظفر بتأييد العامة.

لقد أدى عمل المنصور هذا، وما يحمل في طواياه من معاني التضييق على الفكر، وإسدال حجب الرهبة عليه، إلى تقهقر الإنتاج العلمي في البلاد، وانطفاء جذوته المتوقدة، ولن تستعيد تلك الشعلة وهجها، وتنبعث منها أنوارها إلا في زمن الموحدين، ولكن نجم الأندلس وقتئذٍ يكون قد بدأ في الانحدار، مؤذناً بأفوله المحتوم.

على أن ما قام به المنصور بن أبي عامر في حق مكتبة الحكم لا يعني أنه فرط في تشجيع مظاهر الثقافة الأخرى التي لم تكن تلاقي من الفقهاء المقاومة والاعتراض. وآية ذلك أنه كان حريصاً على الاجتماع بالمثقفين، ومبادلتهم الحديث في شؤون الفكر، حتى إنّه أكسب هذا اللقاء طابعاً نظامياً موقوتاً حين جعله يتم مرة في كل أسبوع، وهذا ما يفهم صراحة من كلام عبد الواحد المراكشي [1] حين يقول: «وكان له مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته، ما كان مقيماً بقرطبة» [2].

فلئن قسا ابن أبي عامر على العلماء والفلاسفة، فقد كان واسع العناية بالأدباء من أصحاب الشعر والنثر وعلوم العربية، وهو الذي استحدث تنظيماً

---

(1) عبد الواحد المراكشي: ولد في مراكش عام 581، أثناء حكم الموحدين، ورحل إلى الأندلس ثم إلى المشرق عام 614 هـ.

(2) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، للمراكشي، ص 83، وانظر مثالاً على هذه المجالس في الذخيرة: 1/4، ص: 14.

إدارياً خاصاً سماه «ديوان الندماء» مهمته «ترتيب الشعراء طبقات، وبذل العطاء لهم على أقدارهم في الشعر، وكان على رأس هذا الديوان واحد من كبار نقدة الأدب»[1].

وهو الذي كان يصطحب الشعراء أثناء غزواته الكثيرة في بلاد النصارى، ليعلوا من شأنه، ويذيعوا في الناس أمجاده بصفته بطلاً فذّاً تنتصر به راية الإسلام حيثما حلّ. وكان من ألمع الشعراء الذين انقطعوا له، وكتبوا في ديوان إنشائه: ابن دراج القسطلي[2]. وكان من أوثق الناس صلة به الكاتب المشرقي الذي وفد على الأندلس: أبو العلاء صاعد البغدادي[3] وهو الذي كان يريد أن يكون له في اللغة والنحو والأخبار دور شبيه بما كان لأبي علي القالي، فألف للمنصور عدة مؤلفات منها كتاب «الفصوص» على نحو كتاب «الأمالي» للقالي. ويبدو أنه شغل بنوع خاص من التأليف هو الذي يجمع فيه ألواناً من الحكايات المسلّية، والخرافات المستطرفة، التي استمدها من التراث العربي القديم. من ذلك أنه ألف للمنصور «كتاب الهجفجف بن غدقان...» وكتاباً آخر، يبدو أنه على منواله سماه «الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء»، ويصف لنا عبد الواحد المراكشي هذا التأليف فيقول: «وهو كتاب مليح جداً انخرم أيام الفتن بالأندلس، فنقصت منه أوراق لم توجد بعد»، ثم يضيف صاحب المعجب وهو ما يعنينا أكثر في السياق الذي نحن فيه: «وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب، أعني الجواس، حتى رتب له من يخرجه أمامه كل ليلة»[4].

---

(1) عن تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة مؤنس، ص: 65.

(2) ابن دراج القسطلي: 347 - 422. كاتب شاعر مدح المنصور بن أبي عامر وكان من كتابه.

(3) أبو العلاء صاعد البغدادي: أديب، نحوي، مؤرخ، وفد من بغداد على قرطبة في نحو سنة 380، فأكرمه المنصور بن أبي عامر. توفي سنة 417.

(4) المعجب، لعبد الواحد المراكشي، ص: 78. ولسنا ندري ما هو المعنى الدقيق الذي يجب أن نفهمه من عبارة «يخرجه أمامه كل ليلة»؟ لعلّه كان يمثل أمامه تمثيلاً، كما تمثل المسرحيات اليوم؟ أم هي مجرد قراءة له، ولكن بطريقة «تعبيرية» تساعد على تصور المواقف المختلفة؟...

ولعل الإلمام ببعض أسماء الذين اختارهم المنصور أعواناً له، ووزراء في دولته يدلنا أكثر من غيره على تقديره للأدباء والمثقفين، وثقته فيهم، منهم الزبيدي[1] الذي ولاه قيادة الشرطة، وهو من أخطر المناصب في الأندلس، ومنهم ابن دراج القسطلي الذي رأينا أنه كان من كتابه، ومنهم وزيره عبد الملك بن إدريس الجزيري الذي كان كاتباً وشاعراً مشهوراً[2]. وكان من أشهر كتابه المؤرخ الكبير ابن حيان[3].

وقد نبغ في عصره جماعة من كبار العلماء والمثقفين الذين رسخت شهرتهم في الفنون التي تناولوها، فهم مذكورون فيها إلى اليوم. ومنهم:

- ابن أبي زمنين[4] الذي اشتهر بغزارة علمه في الفقه وألف كتاباً شهيراً فيه سماه «المدونة».

- وأحمد بن سعيد الهمداني[5] وهو فقيه كبير أيضاً، ظهر في عصر المنصور، واشتهر بصفة خاصة في علم الوثائق والعقود.

ونبغ من المؤرخين وكتاب التراجم محمد بن نصر القرطبي المعروف بابن الفرضي[6] وهو صاحب ذلك المعجم الرصين في تاريخ رجال الأندلس وأخبارهم، وقد سماه «تاريخ علماء الأندلس».

---

(1) الزبيدي: تقدم التعريف به منذ قليل.

(2) الجزيري: أبو مروان عبد الملك، وزير المنصور وابنه المظفر مجيد في الشعر والنثر. تغير عليه المظفر وقتله سنة 394 في خبر طويل ذكره صاحب الذخيرة ـ نقلاً عن ابن حيان ـ 4 :1، ص: 50 - 52.

(3) ابن حيان: أبو مروان حيان بن خلف (توفي سنة 469 هـ) أكبر مؤرخ أنجبته الأندلس في القرن الخامس. وانظر الذخيرة، 2/1 ص: 573.

(4) ابن أبي زمنين: (324 - 398) وهو أيضاً من الشعراء المذكورين في عهد المنصور. انظر تاريخ الفكر الأندلسي، ص: 71.

(5) يعرف بابن الهندي: 320 - 399، اشتهر ذكره بكتاب «الديوان» وفيه قدر كبير من الأخبار، والنوادر والحكم والأمثال.

(6) ابن الفرضي: وله أيضاً شعر ديني الطابع. توفي عام 404 هـ.

أما عهد ولدي المنصور: عبد الملك المظفر، وعبد الرحمن «شنجول» فلم يطل ليتسنى لنا تكوين صورة واضحة عن حال الفكر والثقافة فيه. وإنما نستطيع أن نقدر ـ بناءً على ما نعرفه من شخصيتهما ـ أن عبد الملك المظفر لم يغير شيئاً في سيرة والده، وموقفه من المسائل الثقافية، فالذي كان عليه الإقبال في زمانه، استمر على ذلك في أيامه، والذي كان محرماً ممنوعاً، كتعاطي الفلسفة وعلوم الأوائل لم يتغير موقفه منه. أما عبد الرحمن فكانت ملاهيه الدنية تغنيه عن التفرغ لتشجيع أنواع الثقافة الرصينة، والآداب الرفيعة.

ثم تتابعت الحوادث على النحو الذي ذكرناه في الفصل السابق، وظل بنو عامر يتدرجون في سلم اغتصاب السلطة من الخليفة الشرعي، حتى وجد بعض أمراء بني أمية المُهْمَلِين فرصة سانحة، فانقض على دولة العامريين، فقامت الثورة. ولم تكن من صنع سياسيين مهرة يدبرون لها بإحكام مداخلها ومخارجها ويحسنون التصرف في انعكاساتها، وإنما كانت من تدبير مغامرين ليس لديهم من برنامج سياسي إلا الإطاحة بالعامريين، فانقلبت الثورة إلى فتنة مبيرة، قضت على مجد الأندلس، ووضعتها، بين عشية وضحاها، تحت رحمة أعدائها. فما الذي يمكن أن نتصوره من حال الفكر والثقافة في جو تسوده الفتن، وتخيم عليه المؤامرات، وما يكون دائماً في ركابها من انعدام للأمن، والرخاء، والاستقرار؟.

3 ـ في زمن الفتنة:

مما لا ريب فيه أن المناخ الذي ساد بلاد الأندلس، وقرطبة عاصمتها بوجه خاص، منذ أن اندلعت فيها الفتنة، وانقلبت الثورة إلى حرب أهلية، لم يكن يتيح أي نوع من الخلق الفني أو الإبداع العلمي. وليس ذلك يعني أن الأدباء والمثقفين الذين كانوا يشيعون ألواناً من النشاط الفكري والفني، وتزدان بهم مجالس المنصور ابن أبي عامر الأسبوعية، قد بانوا فجأة عن البلاد، ولكن المحقق أن أكثرهم قد لاذ بالصمت، وانطوى على نفسه، حذار ما قد يعرض له من المكاره، نتيجة لرأي يبديه، أو فكرة يناصرها، فيكون من ورائهما ما لا

تحمد عقباه، في وقت من الفوضى كانت فيه أرواح البشر أرخص ما يباع ويشترى.

وكانت فئة أخرى من رجال الثقافة قد صدمتهم وقائع الفتنة المروعة، وأصابتهم نوبة من الاكتئاب العميق لما حلّ بالأمة من الشر العميم، فذهلوا عن كل شيء، ورموا جانباً بالصحف والأقلام، وصاموا عن الكلام. وأي شيء أفصح وأبلغ من إضرابهم عن كل قول في تلك الظروف القاسية. ولعل ما حدث لمؤرخ الأندلس الكبير أبي مروان بن حيان ينطبق على الكثير من أضرابه، ويعبر عن موقفهم حين قال: «وأنسأتني المدة إلى أن لحقت بيدي منبعث هذه الفتنة البربرية الشنعاء، المدلهمة، المفرقة للجماعة، الهادمة للمملكة المؤثلة، المغربة الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية، ففاضت أهوالها تعاظماً أَدْلَهني عن تقييدها، ووهمني أن لا مخلص منها[1].

ووقع شيء من هذا القبيل للإمام ابن حزم[2] الذي طوف في بلدان كثيرة، واستوطن، شطراً من حياته، مدينة شاطبة، فأتيح له فيها أن يؤلف بعض كتبه.

وقد ذهب فريق من العلماء ضحية الفتن المتلاحقة، فماتوا في إبانها، وهذا ما وقع لابن الفرضي[3] الذي قتل أيام اقتحام المغاربة مدينة قرطبة عام 403.

ولعل إشارة واحدة إلى المصير المؤلم، الذي كان من نصيب مكتبة الحكم المستنصر العظيمة، تصلح وحدها رمزاً للدلالة على ما كانت تعانيه الثقافة من المحن. ذلك أن واضحاً[4] الذي كان حاجباً للدولة في مرحلة من

---

(1) ابن حيان، عن الذخيرة، 2/1، ص: 576.

(2) أبو محمد علي بن حزم القرطبي، من ألمع رجال الفكر والثقافة في هذا العصر. له مشاركة في كل فنّ. (323 - 454 هـ).

(3) ابن الفرضي: سبق التعريف به.

(4) واضح: من قادة الثغور، عينه الخليفة المهدي حاجباً له. انظر ما كتبناه عنه في الفصل الأول من هذا الباب.

مراحل الفتنة، قد نظر في الخزينة العامة فوجدها خالية من المال ليس فيها ما يكفي لسد النفقات اللازمة، وفكر في شيء ينقذ به الموقف الحرج، فلم يجد إلا مكتبة الحكم، أو ما بقي منها، إذ لا بد أنها تعرضت للأذى عندما كانت القصور عرضة للنهب، فباع ما كان فيها من المجلدات لكل من استطاع أن يدفع فيها الثمن المطلوب. وبذلك قُضِي نهائياً على واحد من المعالم الشامخة في تاريخ الثقافة الأندلسية، وأُعدِمَ رمز باهر من رموز الجهد العلمي الخالص، والعزيمة الصادقة في تحقيق التطور الحضاري[1].

ثم فقدت بعد ذلك قرطبة ميزتها بوصفها حاضرة ثقافية كما لم تعد قاعدة للملك، طوال عصر ملوك الطوائف. إلا أنها لم تفقد، فيما يبدو، غرامها القديم بالكتب، وحرص أغنيائها على العناية بمكتباتهم الخاصة، حتى استطاع العالم الكبير ابن رشد[2] ـ وقد عاش زمن الموحدين ـ أن يقول: «إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلته حملت إلى إشبيلية»[3].

وبعد، فلعله تبين لنا من خلال هذا العرض السريع لأحوال الفكر الأندلسي في هذه الفترة التي تمتد على نحو ثلاثة قرون، من الفتح إلى سقوط الخلافة عام 422، أن قواعده الأولى قد أرسيت منذ بدايات الإمارة الأموية، وأن الحياة الثقافية قد نمت بعد ذلك باضطراد، في ظل رغبة سياسية واضحة المقاصد: تريد أن لا يقل البلاط الأموي رونقاً وتألقاً في مجالات الأدب والعلم عن البلاط العباسي في بغداد. ولقد اتّسع مدلول الثقافة نفسها في أذهان الحكام، حين فهموا في عهودهم المتأخرة مدلولها الإنساني الشامل

---

(1) عثر المستشرق ليفي بروفنسال على واحد من الكتب التي كانت في مكتبة الحكم، انظر مقالة في مجلة «هيسبيريس» Hesperis-I 250.

وخبر بيع الكتب في زمن واضح ذكره النفح في النسخة الأوربية، ج 1، ص 250.

(2) أبو الوليد محمد بن رشد: 526 - 595، عالم أندلسي اشتغل خاصة بالتوفيق بين الدين والفلسفة.

(3) عن نفح الطيب، ج 1، ص: 155.

الذي يجعل دائرتها تمتد إلى ألوان من النشاط العقلي كالطب، والفلك، والفلسفة، والنبات. . بَلْهَ محاورها العربية التقليدية من شعر، ونثر، ولغة، ونحو، وتاريخ الخ. .

ثم ما إن أعلنت الخلافة في قرطبة سنة 316، وتسمى عبد الرحمن الثالث بأمير المؤمنين، وتلقب بالناصر، حتى سمت نفسه إلى جعل قرطبة دار إقامة كريمة لكل الذين ضاقت بهم بلاد المشرق من العلماء. وقد نشأت حركة كبيرة للتبادل الثقافي مع المشرق: الأندلسيون يؤمون العواصم المشرقية لسماع العلماء بها، والاستزادة من المعارف التي لهم بها عناية، والمشارقة يفدون على الأندلس، فيلقون فيها الترحيب من الحكام، ويتصدرون في مساجدها حلقات التدريس. بل ينتدبون لتأديب أبناء الملوك وأولياء عهدهم[1]، ومن خلال هٰذه الحركة كان تنقل الأفكار والمذاهب، وكانت الكتب هي أهم زاد يفد به أهل المشرق. وأهم بضاعة يعود بها العائدون من الرحلة المشرقية سواء كانوا حجاجاً أو طلاّباً. وقد بلغ هذا التبادل أوجه في أيام الحكم المستنصر الذي كان جمع الكتب وقراءتها من أبرز اهتماماته، دون أن يتسبب ذلك في إهمالٍ لشؤون المملكة التي دبرها بكل حكمة وكفاية.

وربما كانت مكتبة هذا الخليفة هي النواة الضرورية لنشاط علمي كثيف، متعدد الجوانب يؤدي إلى بعث «أكاديمية» أو شيءٍ على غرار دار الحكمة، يكون أكثر منها تأثيراً، وأعمق منها أثراً في مسيرة الحضارة الإنسانية لِمَا لموقع الأندلس من تَميُّز باعتبارها بوابةً لأوربا. . . لكن الاعتبارات السياسية التي طغت زمن المنصور بن أبي عامر شلّت هذه الحركة المباركة، وقضت على انطلاقة الفكر في البلاد.

---

(1) من أشهر أولائك أبو علي القالي: 288 - 356 هـ. من علماء بغداد، وكان صاحب لغة ونحو وشعر على طريقة البصريين. وقد قدم إلى الأندلس عام 330، في عهد عبد الرحمن الناصر، فقعد لتدريس اللغة والنحو والحديث، وقد بلغ من شأنه أن انتدبه الخليفة لتأديب ابنه ووليّ عهده: الحكم الذي يعرف بالمستنصر.

ثم كان ما كان من اندلاع الفتنة وتفرق الجماعة، فنشأت تلك الكيانات القزمية التي حكمت الأندلس نحو ثمانية عقود من الزمن. ولقد كان قيامها كارثة حقيقية من الناحية السياسية، ويكفي أن تكون من بنات الفتنة. أما من الناحية الأدبية والعلمية فلقد فتحت للفكر منافذ متعددة أتاحت له أن يبلغ شأواً لا بأس به في بعض المجالات، ولا سيما إذا جرت مقارنةٌ بين الحالة التي كانت عليها أيام دولة بني عامر، والمستوى الذي بلغه في أخريات القرن الخامس.

والسؤال الذي ينبغي أن يطرح هو: كيف استطاعت البلاد أن تتميز بنوع من الصحة الثقافية، والقوة الفكرية، في مرحلة من تاريخها كان أبرز ما يميزها فيه من الناحية السياسية: الضعف، والتخاذل أمام العدو المتحدي، والخضوع شبه الكامل لإرادته؟.

* * *

ثانياً: الأحوال الثقافية في عهد ملوك الطوائف

لمحاولة الإجابة عن السؤال المطروح، ينبغي أن نلاحظ في البداية أنه ليس بدعاً في التاريخ عامة، وفي التاريخ العربي الإسلامي خاصة أن تصادف مرحلة الإزدهار الثقافي فترة الانحصار السياسي، والضعف الشامل في وسائل القوة العسكرية. ولعله يكفي لبيان ذلك أن نذكر بما جرى في المشرق العربي. ففي القرن الرابع الهجري انقسمت المملكة المترامية الأطراف إلى دويلات صغيرة متناحرة فيما بينها، لا تكاد تصمد أمام الأعداء المطلين عليها، وفيه فقدت الخلافة كل هيبة لها، وبلغت سلطة العرب ما بلغت من الانحطاط والتدهور، وفيه اجترأ طوائف الخدم والعبيد على أسيادهم، واغتصبوا منهم منابر السيادة... ومع ذلك كان هذا القرن بالذات هو الذي اكتمل فيه النضج الحضاري، وأثمرت فيه شجرة الفكر عدداً من النوابغ في العلوم والآداب.

على نحو قريب من هذا كانت الأمور في الأندلس بعد أن سقطت الخلافة. فقد هدأت الفتنة، واستقل كل سيد وكل قائد أو حاكم بالمقاطعة التي كان له أمرها. وكأن تلك السلسلة الطويلة من الانقلابات، التي كثيراً ما تؤدي إلى اغتيال المتربع على العرش في قرطبة، قد انتهت إلى إقناع كل الطامحين فيها بأنه لا أمل في الاحتفاظ بها، وتمهيد وراثتها للأبناء والأحفاد، وأنه من الأليق والأسهل إعلان الاستقلال في جهة محدودة، تكون فرص الدوام فيها أكثر، مع تعرض أقل للتقلبات والمصائب.

وهكذا فإن السؤال في نظرنا لا يكون بالتعجب من نشاط الحياة الثقافية

لأن نشاطها إنما هو في الواقع من جراء الدفع الذي حظيت به في الفترات السابقة، ولكن الأجدى هو التساؤل عن العوامل التي أتاحت هذا الازدهار في هذا الوقت بالذات.

إذا شئنا أن نلخص غاية التلخيص عوامل الازدهار الثقافي، فإننا نجدها أربعة أساسية، كان لها، إما منفردة، وإما مجتمعة، حيثما سمحت الظروف بها، أثرٌ فعلي وحاسم في عملية الدفع التي ارتقت بالآداب والعلوم إلى المستوى الذي يحظى اليوم بتقدير الدارسين. وهذه العوامل الأربعة الأساسية هي:

- تعدد الحواضر الثقافية.
- إقبال الحكام على المساهمة في الإنتاج الفكري.
- بذل التشجيع المادي والأدبي لرجال الفكر والأدب.
- انتشار روح التسامح التي أدّت إلى تحرير العلماء من الضغوط.

1 ـ تعدد الحواضر الثقافية:

كان من نتائج الفتنة، كما رأينا، سقوط الحكم المركزي، وتفتت الكيان السياسي الواحد إلى أجزاء عديدة متناثرة. بيد أن هذا الواقع السياسي المؤلم أنتج ظرفاً ثقافياً جديداً، كان فيه الخير للحياة الثقافية، إذ تميز بنوع من «اللامركزية» كما نقول اليوم، تعددت بموجبها مراكز النشاط الثقافي، وتنوعت بيئاته. وهكذا لم تعد قرطبة وحدها عاصمة العلم والثقافة، بل أصبحت كل حاضرة من حواضر ملوك الطوائف عاصمة ثقافية وفكرية، يؤمها الشعراء لنيل جوائز الأمراء، وتنمو فيها فنون الكتابة لحاجة الدولة إليها في المراسلات، وتزدهر فيها أنواع من العلوم بحسب جهود الأمير، ومُيُوله، ومبلغ تسامحه.

وكان من الانعكاسات الفورية لهذا الواقع الجديد، أن لمعت في ميدان العلوم والآداب مدن وأقاليم لم تكن ذات مجد يذكر في عصري الإمارة والخلافة من أمثال دانية، والمرية، وبلنسية، ومرسية، وبطليوس، وسرقسطة، وطليطلة، وغيرها...

ومن المفارقات العجيبة أن قرطبة المزدهرة، عاصمة الأمجاد الماضية،

وأفق النجوم الساطعة، قد صوّح زهرها، وذوى نبتها حين ازدهرت هذه المدن التي لم تكن تذكر إلى جانبها أيام عزها المنصرم، فلم يعد فيها من العلماء والأدباء من تنافس به هذه الحواضر الناشئة. بل أن الذين أتيح لهم أن ينبغوا فيها، ويبدعوا في فنّ من الفنون قد جذبتهم أنوار تلك الحواضر فأسرعوا إليها ينشدون شعرهم في تمجيد ملوكها ويقدمون مؤلفاتهم هدايا إلى سادتها.

والذي لا شك فيه أن هذا التعدد في المراكز الثقافية قد أتاح لأعماق البلاد أن تعبر عن ذاتها، بعد أن كانت عاصمة البلاد توشك أن تحتكر هذا التعبير لنفسها. وربما استطاعت الدراسة التدقيقية المتعمقة لإنتاج هذا العصر أن تكشف عن بعض خصائص تلك البيئات المحلية، والدور الذي ربما لعبته العوامل البشرية، والجغرافية الإقليمية في إكساب العلوم والآداب التي نشأت أو ازدهرت فيها طوابع خاصة، تلائم طبائع البشر المحلية، وتستجيب لمقتضيات البيئة وما ترسب فيها من شتى التأثيرات القديمة التي تناهت إليها بفعل الأصل العرقي، والجوار، والتقاليد الشعبية، والمعتقدات الدينية الغابرة. وما إلى ذلك...

ثم كان لهذا التعدد فائدة أخرى، وهي أن المشتغلين بالعلم والأدب كانوا يستطيعون أن يختاروا من بين هذه الحواضر المختلفة أقربها إلى نفوسهم، أو أحبّ ملوكها إليهم، حتى إذا تغيرت الأحوال عليهم في واحدة منها، أسرعوا بتركها إلى غيرها. وشتّان بين المنتجين في بلد موحد، تحت سلطة واحدة لها الكلمة العليا في تحديد ما ينبغي أن يتناولوه، وما ينبغي أن يدعوه، وبين الذين يعيشون منهم وسط كثرة من الممالك والملوك، فإذا نَبَا بهم منزل تحولوا إلى غيره، وإذا سخط عليهم حاكم وجدوا عند غيره القبول والرضى.

على أن عامل تعدد الحواضر الثقافية، مع ماله من أهمية مؤكدة، ما كان يقوى وحده على إحداث نشاط فكري واسع في الأقاليم الأندلسية، لو لم تقدر له عناية فائقة شمله بها ملوك البلاد وأمراؤها طوال عهد الطوائف. فمن المعلوم أنه لم يكن بوسع العلماء والأدباء والفنانين، في المراحل السابقة من تاريخ

البشرية في كل مكان، أن يثمروا شيئاً ذا بال، أو يحققوا أي نوع من التأثير في مجرى الأحداث، إذا ناصبهم الحكام العداء، أو أهملوهم وتركوهم ينمون على هامش اهتمامات القصر الذي كان المحور الرئيسي لكل مظاهر الحياة العامة. ولذلك فإنه يبدو من المهم بمكان، في سياق إحصاء العوامل الرئيسية التي ساعدت على ازدهار الحياة الثقافية في القرن الخامس، أن نقف قليلاً عند بعض الجوانب المتصلة بدور الملوك والأمراء في هذا الازدهار. ولعلنا لن نفهم حقيقة هذا الدور إلا إذا تبيّن لنا موقعهم من عالم الفكر بالذات، ومدى حظهم من العلم والأدب.

2 ـ إقبال الحكام على المساهمة في الإنتاج الفكري:

كان من حسن حظ الثقافة الأندلسية أن ملوك البلاد لم يكونوا في الغالب يكتفون بتقريب أهلها، والإنعام عليهم، بل كان عدد لا بأس به منهم موصوفاً بالعلم منتسباً إلى رجاله، بالمعنى الواسع للكلمة، يتابع شؤونه عن كثب، ويجلس للعلماء فيناقشهم مذاهبهم في الرأي، ومنازعهم في التكفير، وربما تجاوز بعضهم هذه المظاهر من العناية والاهتمام إلى الإسهام الفعلي في الحركة العلمية بالتأليف في فنّ من فنونها.

فإذا تحدثنا عن الأدب وجدنا أن واحداً من أبرز الملوك الذين كانت لهم مشاركة في التأليف هو المظفر أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن الأفطس[1]، فقد اشتهر بين مؤرخيه بالأدب والتصنيف فيه حتى قال عنه صاحب الذخيرة: «أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع، وله التصنيف الرائق، والتأليف الفائق المترجم بالتذكرة والمشتهر اسمه أيضاً بكتاب «المظفر»[2] في

---

(1) محمد بن عبد الله بن مسلمة هو جد بني الأفطس الذي استقل بجهة الغرب من الأندلس، وأسس فيها الإمارة المنسوبة إلى بني الأفطس عام 437، وقد اتخذ بطليوس عاصمة لها. ثم خلفه من بعده ابنه المظفر.

(2) المشهور أنه «كتاب المظفَّري» بياء النسبة إلى صاحبه المظفر، كما يدل على ذلك أيضاً نص ابن عذاري الذي نورده بعد حين.

خمسين مجلدة، يشتمل على علوم وفنون من مغازٍ وسير، ومثل وخبر، وجميع ما يختص به علم الأدب، أبقاه في الناس خالداً»[1].

وذكر ابن عذاري أيضاً هذا الملك وكتابه فقال: «كان شاعراً أديباً وعالماً لبيباً، وبطلاً شجاعاً، وله التأليف الأكبر المسمّى «بالمظفري» ألفه بخاصة نفسه ولم يستعن فيه بأحد من العلماء إلا بكاتبه أبي عثمان سعيد بن خيرة. واحتوى هذا الكتاب على الأخبار والسير، والآداب المتخيرة، والطرف المستملحة، والنكت البديعة، والغرائب الملوكية، واللغات الغريبة. قيل أنه اختصر فيه خزائنه الفائقة، لا يكاد يوجد له نظير، يكون في نحو خمسين مجلد (كذا) فتصرف فيه تصرفاً بديعاً، ولكبره لا يتمكن كل الناس من اكتسابه، فإنه لا يصلح إلا لخزائن الملوك»[2].

فها هو ذا ملك لا تشغله شؤون المملكة، في تلك الفترات الحرجة من تاريخها عن التصدي للمسائل الأدبية، واستفراغ الجهد العظيم في تأليف هذا الكتاب الضخم. ولعل زيادة ابن عذاري على ما ذكره ابن بسام، والتي أشار فيها إلى أنه لم يستعن في تصنيفه إلا بكاتبه ابن خيرة، لا تترك لدينا مجالاً للشك في أن الرجل كان أديباً حقاً، وأن الكتاب ليس من النوع الذي يؤلفه الرجال المتخصصون باسم الأمراء والحكام، فلا يكون لهم من فضل فيه إلا وضع أسمائهم عليه، وإجزال العطايا لكاتبه الحقيقي.

ثم إن المظفر هذا كان، بالإضافة إلى ما عرفنا من عنايته بالتأليف، ذا رأي متميز في الشعر، إذ كان ينكره على قائله[3]، أو لعله كان لا يحب إلا شعراً من نوع معين في جودته الفنية، وفي أغراضه الحماسية أو الفلسفية، فقد روى ابن بسام أنه كان يقول: «من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو شعر المعرّي، فليسكت»[4].

---

(1) الذخيرة، 2/2 - 640.

(2) البيان المغرب، 236/3 - 237.

(3) النص في الذخيرة، 2/2 - 641.

(4) نفسه.

فهذا موقف يدل على انحياز كامل إلى الشعر الجيد، ذي الأغراض الجادة، كما يدل على مثالية في الحكم تجعل صاحبها يطالب ممن لا يرقون إلى مستواها بالصمت.

ثم ورث عن المظفر ابنه المتوكل[1]، هذه العناية بشؤون الأدب. وهو وإن لم يؤثر عنه تأليف خاص فقد عرف بحسن تصرفه في فنون الشعر والنثر، وقد أثبت له ابن بسام مختارات قليلة من أشعاره ورسائله تدل على ذوق صحيح وتمكن حقيقي. وقد كان يُكبِر في نفسه قيمة عكوفه على العلم، فقال في مقطوعته مفتخراً بدرس غرائب العلوم:

فَكيفَ وَراحِي دَرسُ كـلِّ غـريبـه ووردالتُّقَى شَمِّي، وحرب العِدَا نقلي[2]

ومن الأمراء الذين اشتهروا عند أصحاب المصادر القديمة بأدبهم أبو عبد الرحمن بن طاهر[3] صاحب مرسية، الذي «ارتقى من رياسة الأقلام إلى سياسة الأقاليم... وكان يكتب عن نفسه بهذا الأفق، كالصاحب ابن عباد[4] بالمشرق، وله رسائل تشهد بفضله، وتدل على نبله، لا سيما إذا هزل، فإنه يتقدم على الجماعة ويستولي على ميدان الصناعة»[5]. وقد بلغ من إعجاب ابن بسام بهذه الرسائل أن جمعها في تأليف مفرد سماه «سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر»[6].

---

(1) المتوكل: هو عمر بن المظفر، أمير بطليوس الذي حاصره المرابطون فيها وقتلوه منع ابنيه سنة 487 هـ. وانظر ما كتبناه عن هذه الإمارة في الفصل الأول. أورد ابن بسام بعض مقاطع من أدب المتوكل، 2/2، ص: 646.

(2) الذخيرة، 2/2 - 649.

(3) أبو عبد الرحمن بن طاهر: محمد بن أحمد بن إسحاق بن طاهر، أمير مرسية. أخباره وأدبه في الذخيرة، 1/3، ص: 24.

(4) الصاحب بن عباد: وزير في دولة بني بويه، كاتب شهير من طبقة ابن العميد، وبديع الزمان. توفي 385 هـ.

(5) الذخيرة: 1/3 - 25.

(6) نفسه.

وكان من أمراء الأندلس من شغل نفسه بالدراسات اللغوية والدينية، وعلى رأس هؤلاء: مجاهد الصقلبي أمير دانية، وهو أيضاً لم يذكر له تأليف محدد، وإن قال عنه المؤرخ ابن حيان: «فتى أمراء دهره، وأديب ملوك عصره، لمشاركته في علم اللسان، وتفوقه في علم القرآن، عُنِي بذلك منذ صباه وابتداء حاله، إلى حين اكتهاله، ولم يشغله عن التزيد عظيم ما مارسه من الحروب بـرّاً وبحـراً، حتى صار في المعرفة نسيج وحده»[1].

وسواء ألف مجاهد في هذه العلوم التي كان يميل إليها أو لم يؤلف، فإن الثابت أنه كان من كبار مثقفي عصره، فكان محباً للعلم، جماعة لكتبه، مدنياً لأربابه. وقد أشار المؤرخ ابن حيان إلى هذه الحقائق كلها فقال عنه: «وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة، وكانت دولته أكثر الدول خاصة، وأسراها صحابة، لانتحاله الفهم والعلم، فأمه جملة من العلماء، وأنسوا بمكانه، وخيّموا في سلطانه، واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة وغيرها جملة وافرة، وحلبة ظاهرة»[2].

والطريف في أمر هذا الأمير العالم أن له موقفاً شبيهاً بموقف المظفر الأفطسي في إنكار الشعر، والتشديد على قائله، فقد كان على حد قول المؤرخ المتقدم ذكره «من أزهد الناس في الشعر، وأحرمهم لأهله، وأنكرهم على منشده، لا يزال يتعقبه كلمة كلمة، كاشفاً لما زاغ فيه من لفظة وسرقة. . .»[3].

كانت هذه نماذج من اشتغال الأمراء في هذا العصر بالأدب وما يلحق به من لغة وعلوم قريبة منهما. وكان فيهم الشعراء، ولعل أكثرهم قال أو حاول أن يقول الشعر، ويكفي لتبين ذلك أن نتصفح كتاب الذخيرة أو كتاب الحلة السيراء لنرى مبلغ مساهمتهم في هذا اللون من النشاط الأدبي[4]، ولا عجب في ذلك

(1) نقلاً عن ابن حيان في الذخيرة: 1/3 ص: 23.

(2) ابن حيان في الذخيرة: 1/3، ص: 23.

(3) نفسه.

(4) انظر كتاب الذخيرة في بداية الحديث عن الممالك الأندلسية، وكتاب الحلة في الجزء الثاني، القسم الخاص برجال المائة الخامسة.

فإن الشعر هو هواية معظم الملوك العرب في مشرق بلادهم ومغربها، في تلك العصور. غير أن واحداً من ملوك الأندلس يستحق أن يشار إليه بالبنان في هذا المجال وهو المعتمد بن عباد. فقد تجاوز اشتغاله بالشعر المقدار المألوف عند أضرابه من الملوك حتى كان فيه من المجَلّين المكثرين. ولعل محنته أثناء اعتقاله بالمغرب، وما قال فيها من شعر رقيق، يعبر عن تلك الفترات العصيبة مِن حياة مَنْ تنكرت له الدنيا وأذاقته صنوف الذل والمهانة بعد العز والسلطان، هي التي أضفت على إنتاجه الشعري طابعاً متميزاً أنزله هذه المنزلة الأدبية المرموقة عند العرب والمستعربين[1].

إذا كان هذا هو شأن ملوك الأندلس في المجالات الأدبية الخالصة، فإن الذي يستوقف الدارس حقاً هو أن بعضهم قد سمت به همته إلى نيل نصيب من المعرفة العلمية التي كانت تسمى علوم الأوائل، والمشاركة فيها بتآليفات متخصصة. وهذا بدون شك لون جديد من النشاط الثقافي، لم يكن من عادة الملوك العرب أن يأخذوا أنفسهم به. ولعل خير من يمثل هذا الاتجاه أمراء سرقسطة من بني هود[2]. فقد كان المقتدر بالله بن هود[3] وابنه يوسف المؤتمن[4] أميرا سرقسطة، من أكبر المعنيين بهذه العلوم. فأما الأب ـ المقتدر بالله ـ فقد تعاطى الفلسفة والرياضيات والفلك. وأما الابن ـ المؤتمن ـ فقد ألف كتاب «الاستكمال» في الفلك[5]. وقد نال هذا التأليف شهرة لدى العلماء المختصين في ذلك الزمان، حتى إن واحداً من أشهر رجال الفكر الأندلسيين، في القرن

(1) كل الذين تحدثوا عن الشعر الأندلسي من العرب خصوا المعتمد بمكانة مرموقة. أما المستشرقون، فانظر دوزي: تاريخ مسلمي إسبانيا، دولة بني عباد في القسم الثالث. وتاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة مؤنس، ص: 98 - 107.

(2) انظر ما كتبناه عن بني هود في الفصل الأول من هذه الدراسة.

(3) المقتدر بالله بن هود: حكم من 438 إلى 473.

(4) المؤتمن يوسف بن المقتدر: حكم من 473 إلى 477.

(5) عن تاريخ الفكر الأندلسي، ص: 454.

السادس، واسمه موسى بن ميمون[1] قد درسه، ووضع شرحاً له، ورأى أنه «جدير بأن يدرس بنفس العناية التي تدرس بها كتابات إقليدس[2] وكتاب المجسطي لبطليموس»[3][4].

ليس من غرضنا أن نحصي إحصاءً دقيقاً كل من عالج أو حاول أن يعالج التأليف في لون من ألوان الفكر. ولعل النماذج السابقة، والأسماء التي ذكرناها من ملوك الأندلس أثناء عصر الطوائف تكفي للدلالة على ما أردنا أن نبينه من ثقافتهم، ومجاوزتهم مجرد تعهدها ورعاية أهلها إلى المشاركة بالتأليف في بعض جوانبها. وهذا جزء مضيء في واقع سياسي مظلم.

فمن الطبيعي، إذن، أن تكون بلاطات مثل هؤلاء الملوك العلماء مقصداً لرجال الفكر يشدون إليها الرحال لما نتصورهم يجدونه لديهم من أصناف التشجيع المادي والأدبي. ولهذا وجب علينا أن نتوقف قليلاً لنلم بطبيعة هذا التشجيع المزدوج ومداه، فقد كنا عددناه واحداً من الحوافز الرئيسية التي ساعدت على تنشيط الحياة الثقافية.

3 ـ بذل التشجيع المادي والأدبي لرجال الفكر:

من المؤكد أن الاعتبارات الثقافية لم تكن وحدها تقرر أنواع التشجيع التي سنعرض طرفاً منها، ذلك أن الاعتبارات السياسية لم تكن أبداً غائبة، ولا كانت ثانوية في الترتيب. لقد رأينا في الفصل الأول من هذه الدراسة كيف كانت العلاقات بين ملوك الطوائف تتصف بالتوتر الدائم، وأن الحرب فيما بينهم لم تكن تضع أوزارها لفترة ما إلّا لتبعث بعد ذلك بقليل على أشد ما تكون ضراوة وعنفاً. وكان التنافس بينهم قائماً في كل المجالات، ومن بينها مجال الآداب والعلوم.

---

(1) موسى بن ميمون، يهودي من أهل قرطبة (529 - 600)، ألف بالعربية وبالعبرية. تأثر بابن رشد فَشُغِل بالتوفيق بين الدين والفلسفة.

(2) إقليدس: عالم يوناني، من رجال القرن الثالث ق ـ م. اشتهر بالهندسة.

(3) بطليموس: فلكي وجغرافي يوناني. أشهر مؤلفاته المجسطي.

(4) عن تاريخ الفكر الأندلسي، ص: 454.

لقد رسخ في أذهان الملوك العرب جيلاً بعد جيل، منذ أقدم العصور، أن الحاكم القوي، والأمير اللامع هو الذي يكثر المدّاح لدى بابه، وتزدان حلقات سمره بجماعات من رجال الأدب والفن والعلم. وهكذا أصبح معظم ملوك الطوائف يتبارون في هذه الحلبة، يروم كل واحد منهم أن يكون المجلّي، وحائز قصب السبق بالسعي إلى تجميع أكبر عدد ممكن من الشعراء والأدباء حوله. ولم يكن ذلك يتيسر له إلا إذا كان قادراً على دفع نفقته، وهي كثيرة، بأنواع العطايا والجوائز.

فهذا مجاهد[1] الفتى العامري يستقطب جماعة من أهل قرطبة حين ضاقت بهم أحوالها أثناء الفتنة. فقد ذكر صاحب الذخيرة «أن إليه كانت هجرة أولي البقية، وذوي الحرية، من هذه الطبقة الأدبية القرطبية، لِلِين جنابه، وذكاء شهابه». ثم يورد نقلاً عن ابن حيان قوله: «أمّه جملة العلماء، وأنسوا بمكانه، وخيّموا في ظل سلطانه، واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة وغيرها جملة وافرة، وحلبة ظاهرة»[2].

ولعل صاحب «البيان المغرب» كان أدق الجميع حين تحدث بصراحة عن المكافآت المالية التي كان مجاهد العامري يمنحها قصّاده من العلماء فقد ذكر أنه: «قصده العلماء من المشرق والمغرب، وألفوا له تواليف مفيدة في سائر العلوم، فأجزل صلاتهم على ذلك بآلاف الدنانير، ومضى على ذلك طول عمره، إلى أن حانت وفاته بمدينة دانية...»[3].

وقد ضم بلاط هذا الأمير ثلة من الأدباء والعلماء منهم أبو عمرو المقرئي، وابن عبد البرّ، وابن معمر اللغوي، وكان أشهرهم جميعاً ابن سيده اللغوي الضرير، صاحب التآليف المعجمية الشهيرة. وقد ألف لهذا الأمير أشهر كتبه «المحكم» و«المخصص».

---

(1) مجاهد الصقلبي أمير دانية، انظر ما كتبناه عنه وعن إمارته في الفصل الأول.

(2) الذخيرة، 1/3 - 22 و 23.

(3) البيان المغرب، 156/3.

ولم يكن من المستغرب أن تسري عدوى حب الثقافة وتقريب رجالها في أعوانه وولاته، ورجال دولته. فقد كان ولّى على جزيرة ميورقة رجلاً ذا علم ووقار هو أبو العباس أحمد بن رشيق الذي «شارك في سائر العلوم، ومال إلى الفقه والحديث»[1] وقد اشتهر ابن رشيق هذا بجمع العلماء والصالحين، وإيثاره إياهم. وقد آوى إلى قصره جماعة من رجال الفكر الأفاضل منهم على سبيل المثال:

أبو الوليد الباجي[2]، وأبو محمد بن حزم الظاهري[3]، ذلك الذي ثقل وطأ الفتنة عليه في قرطبة، فانسحب إلى هذا المكان البعيد بغية التفرغ للصلاة والتأليف.

فإذا تركنا مجاهداً العامري إلى غيره وجدنا رجلاً مقصوداً كذلك من أمراء الطوائف وهو أبو عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية، وهو كما أسلفنا من الكتاب البارعين. وقد أثنت كتب الأدب والتاريخ عليه، لما عرف عنه من جود وسخاء على منتجعيه من رجال الفكر. وقد كان على حد قول ابن الأبار[4]: «جواداً مُمَدَّحاً، ينتجعه الشعراء، ويقصده الأدباء»[5]. وكان من أشهر هؤلاء الشاعر ابن عمار وزير المعتمد بن عباد فيما بعد.

وفي طليطلة أحاط بنو ذي النون أنفسهم بمجموعة فاضلة من رجال العلم بوجه خاص. وكأنما أصبح لكل مملكة نوع من النشاط الفكري يغلب عليها تبعاً لهوايات الملك وميوله. فقد عاش في أكناف هؤلاء الزرقالي وهو من أبرع من

---

(1) أخباره في الحلة السيراء، 123/2.

(2) أبو الوليد الباجي: سليمان بن خلف، معاصر أبي محمد بن حزم ومنافسه، توفي سنة 474 هـ.

(3) أبو محمد بن حزم: إمام الأندلس، وأديب لامع فيها. سبق أن ترجمنا له.

(4) ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار. (595 - 652) من كتبه، الحلة السيراء.

(5) الحلة السيراء لابن الأبار، 119/2.

أنجبت الأندلس من علماء الفلك، وابن البغونش، الفيلسوف الرياضي، وابن وافد الطبيب الذائع الصيت. وممن عاش قريباً من بلاط بني ذي النون أيضاً النحوي المعروف: أبو الوليد الوقشي، والمؤرخان: صاعد الطليطلي، والحجاري.

وفي بطليوس عاصمة دولة بني الأفطس: اشتهر المتوكل[1] خاصة بكرمه، فوصف بأنه رحب الجناب للوافدين. وقد لمع في هذه الدولة جماعة من الشعراء والكتاب منهم: عبد المجيد بن عبدون[2] وابن البين البطليوسي[3]، وأبو بكر عبد العزيز بن سعيد[4] وأبو بكر بن قزمان الأكبر[5]، ومحمد بن أيمن[6].

وفي سرقسطة كان أميرها منذر بن يحيى رجلاً لا شيء يؤهله لأن يعد في أهل الثقافة المكرِّمين لأهلها، إذ كان واحداً من الجنود البسطاء، ولم يصل إلى رتبة من رتب القيادة إلا في أواخر دولة المنصور بن أبي عامر[7]. ولكنه ما إن استقل بحكم مقاطعة سرقسطة حتى ساير التيار العام المتمثل في الإقبال على الفنون، وتجميع رجال الفكر والأدب في بلاطه، بل إنه رام أن يشارك الأدباء

(1) المتوكل: عمر المتوكل بن المظفر الأفطسي. راجع ما كتبناه عنه في الفصل الأول من هذا الباب.

(2) عبد المجيد بن عبدون: من كبار كتّاب الأندلس ووزرائها. أخباره وأدبه في ذ: 2/2، ص: 663 وما بعدها.

(3) ابن البين البطليوسي: هو أبو عبد الله محمد، من شعراء الغرب الأندلسي. انظر ذ: 2/2 ص 99.

(4) أبو بكر عبد العزيز بن سعيد: أديب وزير من غرناطة. انظر تاريخ الفكر الأندلسي، ص: 185.

(5) أبو بكر بن قزمان الأكبر: شاعر، ووزير للمتوكل الأفطسي صاحب بطليوس، توفي عام 507 هـ. وهو عمّ ابن قزمان الأصغر صاحب الأزجال المشهورة.

(6) محمد بن أيمن: من كبار المحدثين بالأندلس، وكان كتب زمناً للمتوكل بن الأفطس. ثم وزره له. وانظر ذ: 2/2، ص: 653.

(7) هذه المعلومات عن البيان المغرب: 176/3.

تعاطي فن الإنشاء، فكان «يتمسك بطرف من الكتابة الساذجة»[1]. غير أن الذي يعنينا في السياق الذي نحن فيه شهادة من أرخوا له بأنه «كان كريماً، وهب لقُصّاده مالاً عظيماً، فوفدوا عليه وعمرت لذلك حضرته سرقسطة، فحسنت أيامه، وهتف المداح بذكره»[2].

وفي المرية كان أبو يحيى بن معن بن صمادح التجيبي الملقب بالمعتصم بالله الواثق بفضل الله، ممن عمل كل ما في وسعه لاستقطاب أهل الشعر والأدب، فكان ـ على حد قول ابن عذاري في بيانه ـ «لأهل الشعر عنده سوق نافقة، فقصده جمع منهم»[3]. وقد أثنى عليه ابن بسام، وأقر له بهذا الفضل حين وصفه بأنه «كان رحب الفناء، جزيل العطاء، حليماً عن الدماء والدّهماء، طافت به الآمال، واتسع في وصفه المقال، وأعملت إلى حضرته الرحال، ولزمه فحول من شعراء الوقت كأبي عبد الله بن الحداد[4]، وابن عبادة[5]، وابن الشهيد[6]، وغيرهم» [7].

ومما يستلفت الانتباه في تقاليد أبي يحيى بن صمادح أنه كان يعقد في قصره مجلساً أسبوعياً يجلس فيه للفقهاء وغيرهم من المثقفين يفسرون القرآن والحديث، ويتناظرون في مختلف شؤون الفكر، مما لا بد أن يجرهم إليه ذلك التفسير[8].

---

(1) البيان المغرب: 176/3.

(2) نفسه.

(3) نفسه، 175/3.

(4) أبو عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي. اختص به معن بن صمادح فقال فيه مدحاً كثيراً. توفي عام 480.

(5) ابن عبادة: أبو عبد الله بن عبادة المعروف بالقزّاز. ذكره ابن بسام في فصل طويل. انظر الذخيرة، 2/1، ص: 801.

(6) ابن الشهيد: أبو حفص عمر بن الشهيد كاتب شاعر من أدباء بلاط ابن صمادح. انظر ذ: 2/1، ص: 670 وما بعدها، وعرف بالموشحات.

(7) الذخيرة، 2/1، ص: 733.

(8) الحلة السيراء، 82/2.

على أن دولة الأدب في الأندلس قاطبة، في هذه الفترة، إنما عقدت رايتها في إشبيلية عاصمة بني عباد، وبلغت فيها المنزلة التي لم تبلغها في أيّ إقليم آخر، ولا سيما في عهد المعتضد وابنه المعتمد. في هذه الدولة كاد أن يكون كل من فيها شاعراً أو يمت إلى الشعر والأدب بسبب من الأسباب، يستوى في ذلك النساء والرجال، الوزراء والقادة، الخدام والجواري... وكان قائد المسيرة الشعرية في هذا البلاط المترف: المعتضد بن عباد أولاً، ثم ابنه المعتمد أثناء ولايته للعهد، ثم لما جلس على كرسي الإمارة.

ومما يدل على هذه العناية الفائقة بالشعر والشعراء أنه أحدث ديواناً خاصاً، ضمن دواوين الدولة، مهمته متابعة شؤونهم، وترتيب أوقات إنشادهم. وكان للمعتضد دار خاصة بالشعراء، ويوم محدد لدخولهم عليه فيه. وكان هذا الرجل، على ما عرف به من شدة وقسوة شَدِيدَ الإتلاف للمال، كثير التبرع على الشعراء. وقد ورث عنه ابنه المعتمد هذه الخصال، بل لعله تجاوزه فيها إذ كان لا يكاد يجالس أو ينادم إلا الشعراء حتى قيل أنه كان لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات. فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله[1].

ولو أننا ذهبنا نحصي كل الذين اتصلوا ببلاط بني عباد، واختصوا بهم، ونالوا جوائزهم الكثيرة لطال بنا الإحصاء والعد، ويكفي أن نقول أن من بين أشهرهم: ابن عمار[2] وابن زيدون[3]، وابن اللبانة[4]. وابن حمديس

---

(1) وانظر المعجب في أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشي، ص 162 وما بعدها. والحلة السيراء، ج 2، ص: 52.

(2) ابن عمار: ذو الوزارتين أبو بكر، أديب لامع، وزير المعتمد قتله بعد المودة الكبيرة بينهما. الذخيرة، 1/2، 363.

(3) ابن زيدون: أبو الوليد، الأديب القرطبي الكبير، صاحب ولادة. وقد تقدم التعريف به.

(4) ابن اللبانة: أبو بكر الداني المعروف بابن اللبّانة. انقطع إلى بني عباد فمدحهم ثم رثاهم عند زوال دولتهم توفي 507 هـ.

الصقلي[1]. وكـان يتردد على بـلاطهم بوجـه خاص معـظم شعراء الغـرب الأندلسي، وشعراء المغرب.

على أنه يحسن بنا أن أن نلاحظ أن هذه الصورة اللامعة لإقبال ملوك الطوائف على العلماء والأدباء، وبذل أنواع من التشجيع المالي والمعنوي لهم، لم تكن من العموم والشمول بحيث لا نجد ملكاً منهم إلا وهذه صفته. والحق أنه وجد منهم من شذ عن القاعدة. وذكرت لنا كتب التاريخ جماعة منهم عرفت بالبخل وقلة العناية بالأدباء، ونقلت لنا كثيراً من الأخبار والوقائع التي تشهد على ذلك.

فهذه طليطلة لتي ذكرنا آنفاً أمجادها في استقطاب العلماء والأدباء قد حكمها في بداية الأمر أمير: هو إسماعيل بن ذي النون[2] وصمه المؤرخون بالشح، وذكروا أنه كان مغلول الكف «لم يرغب في صنيعة، ولا سارع إلى حسنة، فما أُعمِلت إليه مطية، ولا استُخرِج من يده درهم في حق ولا باطل»[3]. وكان ابنه المأمون[4] هو الذي عالج هذه النقيصة في دولته حين ولي الحكم، إذ تذكر المصادر أنه استقدم أبا الفضل البغدادي[5] «فأجزل قراه، وتوسع له ولعبيده في البر، وأجرى له ستين مثقالاً في الشهر»[6].

ومن هذه الفئة الشحيحة عبد الملك بن هذيل[7] صاحب السهلة. فقد

---

(1) ابن حمديس الصقلي: عبد الجبّار بن حمديس: من شعراء بلاط بني عباد، في وقت المعتمد. خرج من بلاده صقلية بعد أن احتلها النرمان. ثم رحل إلى إفريقيا فمدح ملوكها، ومات بها.

(2) إسماعيل بن ذى النون: انظر الفصل الأول من هذا البـاب، وأخبار دولة بين ذى النون في ابن عذارى: 276/3.

(3) انظر ما قاله ابن حيان في ذ: /1، ص: 143.

(4) المأمون: هو ابن إسماعيل المتقدم الذكر. أخباره أيضاً عند ابن عذارى: 277/3.

(5) أبو الفضل البغدادي: أخباره في ذ: 1/4، ص: 87. وهو من المشارقة الوافدين على الأندلس.

(6) الذخيرة، 1/4، ص: 89.

(7) عبد الملك بن هذيل: هو حسام الدولة بن رزين، أحد أمراء بني رزين أصحاب السهلة. انظر البيان المغرب، 181/3.

ذكروا عنه أنه كان «متعسفاً على الشعراء متعسراً بمطلوبهم من ميسور العطاء»[1].

وكان بنو هود الذين رأينا مقدار احتالفهم بالعلماء، ورعايتهم لهم، ممن اعرضوا أيضاً عن الشعراء حتى لقد لاحظ بعض المؤرخين أنهم «قبضوا أيديهم فقلت أمداحهم، وترك الشعراء انتجاعهم، إلا في الغِبّ والنادر، على سعة مملكتهم، ووفور جبايتهم»[2].

ويبدو من هذه الشهادات أن إعراض عدد من الممالك عن الشعراء لم يكن عن ضيق يد أو شح، وإنما كان نتيجةً لموقف مبدئي من الشعر والشعراء، هو الذي كان يدفعهم إلى مثل هذه التصرفات مع الشعراء خاصة، وإلا فكيف نفسر سر هذا الإعراض، وهذه العلاقة الفاترة بالشعراء لدى أمراء أعطوا الدليل القاطع على أنهم رجال فكر وأدب، انتسبوا إلى رجالهما، وجمعوهم حولهم، وأكرموا وفادتهم عليهم وإقامتهم بينهم. هذا مع ما يمثله الشعر من أداة دعائية فريدة في تلك العصور.

والظاهر أنه موقف أخلاقي، حين لا يكون صادراً عن بخل صُراح، أو ضيق ذات اليد. فقد بدأ في الأندلس، تيار، ظهر بارزاً عند بعض أدباء القرن الخامس أنفسهم، يتميز بالتبرم بالشعر، والضيق بما فيه من ختل وكذب ونفاق، مما تشمئز له النفوس الطاهرة ذات الأخلاق الفاضلة[3].

وبعد فلعله استبان لنا بقدر كافٍ مبلغ رواج الأنماط الثقافية كلها عند الأندلسيين، وانقسام ملوكهم في اختيار اللّون الذي يَنفُق لديهم، ويجد أصحابه عندهم التكريم والتشجيع.

* * *

---

(1) الحلة السيراء: ج 2، ص: 110.

(2) نفسه، ص: 246.

(3) من أبرز من يمثل هذا الموقف ابن بسام صاحب الذخيرة. وانظر رأيه في الشعر في مقدمة الذخيرة حيث يقول: «ومع أن الشعر لم أرضه مركباً، ولا اتخذته مكسباً، ولا ألفته مثوى ولا منقلباً. . .» ص: 18.

4 ـ انتشار روح التسامح مع المشتغلين بعلوم الأوائل:

كان انهيار الخلافة الأموية في قرطبة إيذاناً بانتهاء عهد من عهود النفوذ الكبير الذي كان للفقهاء وسائر علماء الدين الإسلامي لدى الملوك والأمراء. فلقد كان حكام بني أمية يحرصون على تقريبهم، واستشارتهم، وقبول نصائحهم، إدراكاً منهم، في أول الأمر، لفعالية العامل الديني ـ وهو الجامع الأعظم للفئات المتباينة التي يتألف منها المجتمع الأندلسي ـ في الحفاظ على وحدة الأمة، وتعبئتها للدفاع عن عقيدتها وقيمها في تلك «الجزيرة» التي يحيط بها الأعداء من أكثر جهاتها، فكان في إجلال علماء الدين إجلال للدين الإسلامي ذاته، وتعميق لهيبته في النفوس. ثم اكتسب الفقهاء من جرّاء هذه المعاملة الخاصة، قدراً من القوة، والنفوذ في أوساط العامة جعل الحكام بعد ذلك يتوددون إليهم، ويسعون إلى استمالتهم، خوفاً من ثورة الجماهير التي كان أولئك العلماء يحسنون تأليبها على من يسخطون عليه، من الملوك ورجال دولتهم، لهذا السبب أو لذاك.

ولعلّ نفوذ علماء الدين، وسلطانهم على رجال السياسة والحكم، لم يظهرا واضحين، جليّين، في ميدان ما، كما ظهرا في مجال معاداتهم للفلسفة خاصة، ولسائر العلوم القديمة بوجه عام. ذلك أنه بدا لهم في جميع العهود، أن في الاشتغال بهذه العلوم، وفي طليعتها الفلسفة وفروعها، خطراً فادحاً على العقيدة الإسلامية، يهدد جوهرها، ويشجع على زيغ الشباب المسلم وانحرافه. بل إن هذه العداوة ستبلغ أوجها حين تمتد فتشمل بأذاها علماء الدين الإسلامي أنفسهم الذين درسوا الثقافة اليونانية القديمة، وحاولوا تطبيق بعض مناهجها على ما تصدّوا لمعالجته من مسائل الشريعة الإسلامية وأسسها الاعتقادية[1].

وهكذا تأخرت الدراسات الفلسفية في الأندلس، وكادت تخلو الحياة الثقافية

(1) من أشهر من يصلح مثالاً لذلك: أندلسي وهو ابن حزم الظاهري، ومشرقي وهو أبو حامد الغزالي، وكلاهما أحرقت كتبه وناله سخط الفقهاء ونقمتهم العارمة، حتى هدد كل من يوجد عنده شيء من مؤلفات هذين الإمامين بالويل والثبور.

فيها من آثار الدراسات العقلية التي كانت قائمة في المشرق على قدم وساق.

وإذا كان الحكم المستنصر قد حاول ـ كما رأينا ـ أن يحدث بيئة ملائمة لهذا النشاط بسعيه الحثيث إلى جلب معظم ما ألف وترجم منها في بلاد المشرق، فإنه ما إن مات حتى قوي ضغط الفقهاء على المنصور بن أبي عامر، فاستجاب لهم، بإباحة مكتبة الحكم لهم، يستخرجون منها كل ما تشتم منه رائحة الفلسفة وما يَتَّصل بها من علوم الأوائل، ثم يلقون به في النار ذات الوقود.

وقد رأينا في أول هذا الفصل أن المنصور نفسه كان محباً للفلسفة، يشتغل ببعض مسائلها في أوقات فراغه. ولكنه أدرك أن معاداة علماء الدين له إذا لم يستجب لمطالبهم بإتلاف تلك الكتب، سيثير عليه العامة، وهو آنئذٍ في أشدّ الحاجة إلى مسالمتها لبلوغ أهدافه السياسية. فهادن الفقهاء وضحى بالعلوم، لنيل رضاهم.

ولسائل أن يتساءل: كيف نال الفقهاء من المنصور بن أبي عامر ـ وهو القادر على الفتك، السريع إلى سفك الدماء، ذو الحيل الواسعة والدهاء العظيم ـ ما لم ينالوه من الحَكَم المستنصر؟ فهو وإن لم يكن خليفة ضعيفاً واهناً، لم يشتهر على كل حال بالعنف والضراوة. والجواب في رأينا أن تلك الضغوط التي أشرنا إلى صدورها عن الفقهاء، كانت في غالب الأحيان تأتي في قالب مساومة، أي أن علماء الدين يهددون الحاكم بشيء يكون في كشفه للعامة ما يستثير غضبها إذا لم يصالحهم على ما يريدون سواء في ذلك صرحوا بهذه المساومة أو أحسها الحاكم، من تلقاء نفسه. ونحن إذا درسنا أوضاع الخليفة الحكم، وسياق عهده، لم نجد فيها ما يمكن أن يُضغط به عليه: كان خليفة شرعياً معترفاً به، ولم يكن لا في البيت الأموي ولا خارجه من ينكر عليه ذلك. ثم أنه لم يكن يُهَيِّء لمشروع سياسي كبير، خارج عن نطاق الأمور العادية، حتى يحتاج إلى مسالمة العامة، واسترضاء القادرين على إثارتها.

أما الحاجب المنصور فكان كل ما في أوضاعه يجعله في موقف شديد الاختلاف عن الحكم المستنصر. وقد اجتمع في تلك الأوضاع كل ما يسخط العامة وفئات كثيرة من الأعيان الذين يتحينون الفرص لتَزَعُّم ثورتها: فهو أباد

كل أعدائه بدءاً بالحاجب المصحفي وكل الذين انتدبهم للانتصار ببعضهم على بعض[1]، وهو قد اغتصب الحكم، وأبعد الخليفة الشرعي، وشدّد عليه السجن في قصره، وهو يرتبط مع السيدة صبح زوجة الحكم، وأم الخليفة «المسجون» بعلاقات مشبوهة لم يكن يَخفى أمرها على المتتبعين لسقطاته. وهو مع ذلك كله يمهد لانقلاب سياسي عميق يؤدي شيئاً فشيئاً إلى صرف الحكم في قرطبة من البيت الأموي إلى بيت آل عامر. فكيف لا يوافق من كان هذا واقع أمره، وذاك مشروعه في المستقبل، على التضحية بالفلسفة وغيرها من العلوم؟ وكيف لا يفطن علماء الدين إلى مواطن الضعف هذه، وإلى مدى قدرتهم على استغلالها في المساومة؟.

ثم وقعت الفتنة، وانتثر عقد الجماعة، فانهار عامل أساسي كان يحث على تقريب الفقهاء، وهو كما رأينا المحافظة على وحدة البلاد والمجتمع، وكأنما بدا للناس أن من كانوا في نظرهم شبه «ضامنين» لهذه الوحدة، لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً غير التفرج على نارها وهي تحرق الجميع. فالفتنة قد انتهت إلى تجريدهم من دور أساسي كان يعتقد أنهم القائمون به، والمحافظون عليه.

ونشأت الدويلات المستقلة تحت حكم من عرفوا بملوك الطوائف. فكانت نشأتها عاملاً آخر ساعد على تجريد علماء الدين من النفوذ الذي كانوا يمارسونه. فمن العلوم أن ألمع علماء الشريعة الإسلامية، وأشهر ذوي المراتب منهم في سُلّم وظائف الدولة كانوا يقيمون بقرطبة عاصمة الخلافة. فلما نشأت ممالك الطوائف، نشأت بعيدة عنهم: لم يشهدوا ميلادها، ولم يكن لهم أيّ دور يذكر في قيامها.

وهكذا نستطيع أن ننتهي إلى أن ظروف الفتنة أولاً، وظروف قيام ممالك الطوائف بعد ذلك، قد أفقدت الفقهاء معظم نفوذهم على الحكام[2]، فكان ذلك

(1) انظر تفاصيل ذلك في «البيان المغرب»، ج 2، ص: 278 - 279.

(2) سيعود علماء الدين إلى سابق نفوذهم، بل يتجاوزونه، في أيام المرابطين بالأندلس والمغرب.

عاملاً حاسماً أتاح للعلوم التي كانت قَبْلُ مُحرَّمة أن تنتعش، وتَمَكَّن المشتغلون بها من تعاطيها جهراً بعد أن كان الواحد منهم لا يجرؤ على تناول شيءٍ منها إلا في مُعْتَزل بعيد عن الناس. وقد أحاط نفسه بكثير من اليقظة والحذر[1].

كان لا بدّ لنا من أن نستعرض هذا الجانب من المسائل التي أ دت في مرحلة أولى إلى معاداة العلوم العقلية، وأدت في المرحلة الثانية إلى فك إسارها وأتاحت فرص الانتعاش لها. وقد حاولنا أن نتجاوز الاكتفاء بملاحظة الواقع التاريخي الذي تعرض له الناس قديماً وحديثاً، إلى البحث عن تفسيرات يمكن أن يطمئن لها الإنسان، وأن يقيم الجسور بينها وبين ظروف الأندلس أثناء الخلافة وبعدها.

وسواء صحت هذه التفسيرات كلها، أو صح بعضها، فإن الذي لا شكّ فيه أن من أرخوا للحياة الثقافية قد فطنوا إلى التغييرات التي أدخلت على واقع الحياة الفكرية، ورصدوا لنا بكل دقة وأمانة هذا التحول.

ولعل صاعداً الطليطلي[2] كان من أوائل مؤلفي هذا العهد الذين تناولوا هذه المسألة، وبسطوا بعض جوانب القول فيها. قال: «لم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها (الحكمة وعلوم الأوائل)، ويظهرون ما تُجُوِّزَ لهم فيه من الحساب والفرائض، والطب، وما أشبه ذلك، إلى أن انقرضت دولة بني أمية من الأندلس، وافترق الملك بين المنتزين عليهم، في صدر المائة الخامسة من الهجرة، وصاروا طوائف، واقتعد كل ملك قاعدة من أمهات البلاد، فاشتغل بهم ملوك الحاضرة العظمى: قرطبة عن امتحان الناس والتعقب عليهم واضطرتهم الفتنة إلى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من

---

(1) انظر ما كتبه مؤلف «تاريخ الفكر الأندلسي» ترجمة مؤنس، عن ابن مسرّة (269 - 318 هـ) وجماعته السرية، ص: 330 وما يليها.

(2) صاعد الطليطلي: (420 - 462 هـ) هو أبو القاسم صاعد بن أحمد ولد بالمرية وسكن قرطبة وتولى قضاء طليطلة. وهو مشهور بكتاب في تاريخ البشر والأجناس عنوانه: «طبقات الأمم».

الكتب وسائر المتاع، فبيع بأوكس ثمن وأتفه قيمة، وانتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس، ووجد في خلالها أعلاق من الكتب القديمة، كانت أَفْلَتَتْ من أيدي الممتحنين بحركة الحَكَم أيام المنصور بن أبي عامر، وأظهر أيضاً كل من كان عنده من الرعية شيء منها، ما كان لديه منها.

«فلم تزل الرغبة ترتفع من حين في طلب العلم القديم شيئاً فشيئاً وقواعد الطوائف تتمصر قليلاً قليلاً إلى وقتنا هذا. فالحال بحمد الله أفضل مما كانت بالأندلس في إباحة تلك العلوم، والإعراض عن تحجير طلبها، إلى أن زهد الملوك في هذه العلوم وغيرها. لكنَّ اشتغال الخواطر بما دهم الثغور من تغلب المشركين عاماً فعاماً (وانتقاصهم) أطرافها، وَضَعْفَ أهلها عن مدافعتهم عنها، قلّل طلاب العلم، وصَيَّرَهُم أفراداً بالأندلس»[1].

وهكذا لخص لنا صاعد الطليطلي بأحسن العبارات وأدقها كيف انتعش الاهتمام بالدراسات العقلية، وكيف انتقلت الحال بها من الامتحان والتعقب والتحجير إلى الإباحة والتحرر، حتى إن الناس الذين كانوا يخفون ما عندهم من كتبها اطمأنوا إلى إخراجها وإظهارها، إذ لم يعودوا يخشون عقاباً.

ومن الطريف أن يلاحظ الكاتب أن بعض مؤلفات مكتبة الحكم لم تصل إليها أيدي المُمَتحنين، فلما جاءت الفتنة، وبيعت الكتب الملكية لتحصيل ثمنها الذي كانت الدولة آنئذٍ في أشدّ الحاجة إليه، استطاعت هذه الكتب أن تخرج إلى النور. وهكذا ساهمت الأزمة الاقتصادية المستفحلة في فك الآسار عن كتب العلوم القديمة، فانتشرت في الناس، وعاد إليها اهتمامهم بها.

لقد هبت نسائم حرية الفكر على الأندلس في عهد ملوك الطوائف، فانفتحت أبواب كانت موصدة أمام الطاقات العلمية، وظهر في البلاد عدد من

---

(1) النص مأخوذ عن «تاريخ الفكر الأندلسي»، ص: 332 - 333.

المشتغلين بعلوم الأوائل، في زمن قصير، برهنوا على بـراعتهم، واستطاع بعضهم أن يكتسب شهرة تجاوزت آفاق بلادهم[1].

فعند بني رزين أصحاب السهلة: ظهر ابن السيد البَطَلْيَوْسي، عبد الله بن محمد (344 - 521) الذي تولّـى الكتابة لعبد الملك بن رزين وكان له في دولته «مجال ممتد، ومكان معتد» أو هو «إمام الأوان، وحامل لواء الإحسان» كما يقول ابن بسام[2]. وقد كان له كذلك اتصال بأمراء طليطلة، وبلنسية، وسرقسطية. ويبدو أنه اعتنى خاصة بتبسيط المسائل الفلسفية لِعَامّـة المثقفين في مؤلفه الذي سماه «كتاب الحدائق».

وفي بلاط بني ذي النون بطليطلة: اشتهر الزرقالي وهو أبو إبراهيم بن يحيـى النقاش وهو يعتبر اليوم من أعظم فَلَكِيّي العصور القديمة كلها، لما شارك به في هذا العلم من مؤلفات، واختراع الآلات الفلكية الدقيقة التي عرفها الغرب ودخلت مصطلحاتها في لغته[3].

وفي دولة بني رزين أيضاً ظهر ابن البغونش، واسمه أبو عثمان سعيد بن محمد. وقد توفي سنة 444 هـ، وهو فيلسوف رياضي نال حظوة كبيرة لدى أمير طليطلة وقتئذٍ، وهو إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون الملقب بالظافر، حتى قال عنه صاعد الطيلطلي إنه «كان أحد مدبري دولته»[4]. وقد اشتغل ابن البغونش بالطب أيضاً، ثم ترك العلم جملة في أواخر حياته، وانقطع للعيادة وقراءة القرآن حتى توفي عن عمر يناهز الخامسة والسبعين.

وفي بلاط بني هود بسرقسطة: ظهر أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني الذي توفي عام 485، وكان في شبابه قد رحل إلى المشرق. وأخذ عن

---

(1) معظم المعلومات في الفقرات التالية، مأخوذة عن «تاريخ الفكر الأندلسي»، وقد ذكرت مواضعها فيه.

(2) انظر الذخيرة: 2/3، ص: 890 وما بعدها.

(3) منها الزرقالية، ومنها الصفيحة التي يسميها الإسبان والغربيون عموماً: ASAFEA.

(4) نقلاً عن «تاريخ الفكر الأندلسي»، ص: 454.

كبار العلماء فيه: الهندسة والطب ومسائل في المنطق والحساب. ويذكر صاعد الطليطلي أنه أوّل من أدخل إلى الأندلس «رسائل إخوان الصفاء»[1].

وممن عاشوا في كنف أمراء هذه الدولة أيضاً الفيلسوف الشهير ابن باجه وهو أبو بكر محمد بن يحيى المتوفى نحو عام 522 أو 532، وقد عاش في أيام المستعين آخر أمراء بني هود[2]. ولما استولى المرابطون على سرقسطة نال ابن باجه ثقة قائد المرابطين أبي بكر بن تيفلويت ولازَمَه، وبعد موت هذا القائد، طاف الفيلسوف بجنوب الأندلس، واجتاز في الأخير البحر إلى المغرب، واستقر بمدينة فاس، وفيها مات مسموماً.

ألف ابن باجه مؤلفات كثيرة، واعتنى بشرح كُتب أرسطو، وكُتب الفارابي، ومن مصنفاته: «رسالة الوداع» وكتاب «تدبير المتوحد» وغيرهما.

وعند بني زيري في غرناطة: عاش أبو القاسم أصبغ بن محمد المهري (توفي عام 426) وكان نابغة في الرياضة مع شغف بالطب، وهو واحد من تلاميذ مسْلَمة المجريطي، وتظهر آثار الثقافة الفلسفية واضحة عند آخر ملوك بني زيري بغرناطة وهو «الأمير عبد الله» كما يتجلى ذلك في كتابه «التبيان» المعروف «بمذكرات الأمير عبد الله»[3].

وفي بلاط دانية، عند صاحبها مجاهد العامري: اشتهر أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن الصغار بعلم الرياضيات والنجوم، وقد ألف كتباً عديدة، منها كتاب في العمل بالأسطرلاب.

هذه مجموعة من العلماء، لمعت أسماؤهم في عدة أقاليم أندلسية، واشتهروا بتعاطي شيء من علوم الأوائل، والتأليف فيها. ونحن لو تعمقنا في أمر

---

(1) وقيل إنما قام هذا بنشرها، وكان الذي أدخلها أيام الحكم المستنصر هو مسلمة المجريطي المتوفَّى عام: 394 هـ.

(2) توفي المستعين عام 503 هـ.

(3) نشره ليفي بروفنسال في مصر ـ دار المعارف ـ عام 1955.

هؤلاء لما وجدنا عندهم ما يمكن أن يسمّى ازدهاراً ـ بأتـمّ معنى الكلمة ـ للفلسفة وفروعها وتوابعها من علوم الأوائل. لأننا إذا استثنينا ابن باجه الذي امتدت به الحياة إلى أواخر عهد المرابطين لم نعثر بين من ذكرنا على عَلَم بارز من أعلام الفلسفة يكون إبداعه قد أتاح له أن يخترق القرون الطويلة، فتكون شهرته بيننا اليوم كشهرة ابن طفيل: أو ابن رشد وغيرهما من عظماء المفكرين في العصور القديمة بالأندلس والمغرب.

ويمكن أن يُردَّ التفسير المـلائم لما تـردد عند الـدارسين من ازدهار الدراسات العقلية وشيوع تعاطي الفلسفة، إلى الجو الجديد الذي ارتفع فيه الحجر على المفكرين، فاستطاعوا الخوض في المسائل الممنوعة التي كانوا لا يقوون على الخوض فيها إلاَّ سرّاً ومن وراء حجاب ومع ذلك فإنه يكفي هذا العهد فخراً أن أطلع هؤلاء المفكرين، وهم إن كانوا لا يمثلون ازدهار الدراسات الفلسفية، فهم بكل تأكيد يمثلون فترة رئيسية من فترات انطلاقها. وهم الذين زرعوا البذور التي ستؤتي أكلها في عهد الموحدين بعد مرحلة اعتراضية تصاب فيها بالامتحان والتعقب، والانكماش والتقلص في عهد المرابطين، وهو العهد الذي عاد فيه علماء الدين إلى سابق نفوذهم وتضييقهم الخناق على دراسة علوم الأوائل في الأندلس والمغرب.

وهكذا نخلص إلى أن ملوك الطوائف قد خدموا الثقافة الأندلسية خدمة جليلة حين اتخذوا منها ميداناً للتنافس بينهم يتبارون على اجتذاب خيرة ممثليها إلى بلاطاتهم، ويبذلون لهم أصنافاً من التشجيع والتكريم. إن الصراع الذي ألمعنا، فيما مضى، إلى جانبه السياسي والعسكري، قد امتد بكل قوة إلى هذه الجوانب العلمية والأدبية التي فرغنا الآن من دراسة بعض مظاهرها.

لكن صورة هذا النشاط الثقافي الغزير تبقى ناقصة مبتروة إذا لم نستكملها بجانب آخر له قيمته، لأنه جزء من الثقافة بمدلولها الواسع، ولأنه غدا أيضاً واحـداً من ميادين الصراع والتنافس بين الأمراء، وهو أحد ميادين الفنّ الخالص، ونعني به الغناء وما يتصل به من تربية القيان والجواري.

بعض مظاهر النشاط الفني عند ملوك الطوائف:

كانت القيان والجواري الفنانات، في جل عصور التاريخ العربي الإسلامي، في المشرق والمغرب، من متممات أبهة الملك، يحرص الملوك والأمراء على اقتناء العشرات والمئات منهن ليطربن مجالسهم ويحدثن فيها ذلك الجو الذي يلهو فيه الحاكم، ويتخفف به من أعباء السياسة والحرب.

وكان للغناء شأن عظيم بالأندلس منذ أن حرص أمراء بني أمية على استجلاب الجواري المثقفات من المشرق، ثم بلغ فيها أوجه بعد أن هاجر إليها المغني الشهير زرياب، في عهد عبد الرحمن الأوسط[1]، فرسخت تقاليد حبّ الموسيقى في البلاد حتى كانت العامة، بَلْهَ الخاصة، تعقد مجالس الطرب، وتنتشر في الحدائق والمروج، وعلى ضفاف الأنهار، وفي المُتنزَّهات، تشرب النبيذ وتصغي إلى غناء الجواري وعزف الموسيقيين[2].

ومن المعلوم أن عملية «تكوين» الجواري كانت تمر بمراحل معقدة من التربية والتثقيف، وهي مهنة كان يقوم على شؤونها تجار محترفون، يبذلون في سبيل إيصال الجواري إلى المستوى الفني المطلوب، والمهارة المنشودة، كثيراً من الوقت والجهد. وكانت هذه المهنة تدرُّ عليهم، لقاء ذلك، أرباحاً طائلة.

كان من أهل هذه الصناعة، في هذا العصر، رجل يسمّى محمد بن الكتّاني المتطبب، عرّفه صاحب الذخيرة بقوله: «فرد أوانه، وباقعة زمانه، منفقاً لسوق قيانه، يعلمهن الكتاب والإعراب، وغير ذلك من فنون الآداب»[3].

وأهم من ذلك، أن المؤلف المذكور، يورد لابن الكتاني هذا فصلاً من رقعة ـ كما يقول ـ يتحدث فيه عن مهنته تلك، مفتخراً بمهارته في القيام بها.

---

(1) تحدثنا في بداية هذا الفصل عن زرياب وعن آثاره في بلاد الأندلس.

(2) تمتلىءِ كتب الأندلسيين الأدبية بذكر هذه المجالس وما يكون فيها من أدب. ومنها بوجه خاص كتاب «الذخيرة» لابن بسام، وكتاب «طوق الحمامة» لابن حزم. وسندرس في الباب الثاني بعض هذه المظاهر.

(3) الذخيرة: 1/3 - 319 وما بعدها.

وسنرى من خلال هذه الرقعة أنه كان رجلاً مثقفاً متأدباً، يُحسن الإنشاء البليغ وفق أساليب الزخرفة الشائعة آنئذٍ، مما يدل على أنه لم يكن يتعاطى هذه التجارة سوقة الناس. قال ابن الكتاني:

«فأنا منبه الحجارة، فضلاً عن أهل الجهالة والفدامة، واعتبر ذلك بأن في ملكي الآن أربع روميات، كن بالأمس جاهلات، وهن الآن عالمات حكيمات، منطقيات فلسفيات، هندسيات موسيقاويات، أسطرلابيات، معدلات، نجوميات، عروضيات، أدبيَات، خطاطيات[1]، تدل على ذلك، لمن جهلهن، الدواوين الكبار التي ظهرت بخطوطهن في معاني القرآن وغريبه، وغير ذلك من فنونه، وعلوم العرب من الأنواء، والأعاريض والأنحاء، وكتب المنطق والهندسة، وسائر أنواع الفلسفة.

«وهن يتعاطين إعراب كل ما ينسخنه، ويضبطنه فهماً لمعانيه، ولكثرة تكرارهن فيه. وفي هذا أعظم الشهود بأني واحد عصري، ونسيج وحدي، وأنني أفنيت الزمان تجربة، والدهر تبصرة. فاعـرف ـ أعزك الله ـ قـدري، ووفني قسطي، ولا تطمع أن تظفر بعالم مثلي، أو متفرغ فضولي شبهي، ولو طفت الآفاق، وساءلت الرفاق، ومشيت العراق من زقاق إلى زقاق»[2].

ونحن ميالون إلى أن لا نرى في هذا القول إلا نوعاً من تبجح دلاّلي الرقيق وتجاره» على حد قول دارس حديث[3]. ذلك أننا نجد المؤرخ الكبير: ابن حيان[4]، وهو رجل ثقة، وشاهد معاصر، يتحدث عن إحدى جواري ابن الكتاني هذا، وكانت لأحد أمراء السهلة من بني رزين، فيصفها بقوله:

«كانت واحدة القيان في وقتها، لا نظير لها في معناها، لم يُر أخفّ منها روحاً، ولا أملح حركة، ولا ألين إشارة، ولا أطيب غناء، ولا أجود كتابة، ولا

---

(1) وفي بعض النسخ: «خطاطات».

(2) الذخيرة، 1/3 - 320.

(3) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف. . .) ص: 53.

(4) سبق التعريف به.

أملح خطاً، ولا أبرع أدباً، ولا أحضر شاهداً على سائر ما تحسنه وتدعيه، مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه». إلى هنا يمكن أن لا نرى في أوصافها ما يستعصي على العقل قبوله. ولكن ابن حيان يضيف بعد ذلك فيقول: «إلى الشروع في علم صالح من الطب، ينبسط بها القول في المدخل إلى علم الطبيعة، وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة، وغير ذلك مما يقصر عنه كثير من منتحلي الصناعة، إلى حركة بديعة في معالجة صناعة الثقاف والمجاولة بالحجفة، واللعب بالسيوف والأسنة والخناجر المرهفة، وغير ذلك من أنواع اللعب المطربة، لم يُسمع لها بنظير، ولا مثيل، ولا عديل»[1].

مهما يكن مقدار المبالغات في كلام ابن حيان، وابن الكتاني، فإن الذي يبقى قائماً لا مجال للشك فيه هو أن بعض الأندلسيين قد حذفوا فنّ تربية الجواري، وتهذيبهن وتثقيفهن بأنواع مختلفة من المعارف والمهارات. ولقد بلغ من شهرة تفننهم في هذا الميدان، أن ملوك النصارى المجاورين كانوا يقبلون على اقتنائهن من عند المسلمين، إما شِراء، وإما هِبَةً، وكانوا يعقدون لهن مجالس الطرب، على غرار ما عند ملوك المسلمين ويستمعون إليهن وهن يغنين بأشعار العرب.

من ذلك أن ابن بسام قد روى عن ابن الكتاني المتقدم ذكره، أنه شهد مجلساً لملكة البشكنس، زوج الملك شانجه بن غرسيّة، كانت فيه «عدة قينات مسلمات من اللواتي وهبهن له سليمان بن الحكم[2] أيام إمارته بقرطبة، فأومأت العلجة[3] إلى جارية منهن، فأخذت العود وغنت بهذه الأبيات:

خليلي ما للراح تأتي كأنها يخالطها عند الهبوب خلوق

---

(1) ابن حيان، في الذخيرة: 1/3 - 112.

(2) سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين بالله حكم في قرطبة سنة: 400 مدة سبعة أشهر، ثم عزل وعاد مرة ثانية سنة 403 ولم يدم حكمه إلا سنوات قليلة وقتله علي بن حمود عام 407.

(3) يقصد بالعلجة: الملكة البشكنسية.

أم الريح جاءت من بلاد أحبتي   فأحسبها ريح الحبيب تسوق[1]

وقد سعى بعض ملوك الطوائف إلى الفوز بأشهر القينات، وبذلوا للحصول عليهن أموالاً كثيرة، فاشتهر من بين هؤلاء، هذيل بن رزين. وقد تحدث ابن حيان عن شهرته بين الناس في هذا المضمار فقال: «كان أرفع الملوك همة في اكتساب الآلة والكسوة. وهو أول من بالغ الثمن بالأندلس في شراء القينات. اشترى جارية أبي عبد الله المتطبب ابن الكتاني بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها، فأعطاه فيها ثلاثة آلاف دينار، فملكها»[2].

ولعل الغلاء الفاحش في سعر الجواري المغنيات يعود إلى ندرتهن، إذْ ربما اضطربت مسالك هذه التجارة بعد الفتنة، كما اضطربت مسالك سائر التجارات، فقلّ المشتغلون بها، أو نفدت بعض مصادرها، وقد كانت السبايا النصرانيات، أيام قوة المسلمين، يؤلفن جانباً هاماً فيها. ويبدو من النصوص التي بين أيدينا، على كل حال، أن حواضر ممالك الطوائف الناشئة لم تستطع أن تعوض الدور الذي كان لقرطبة في هذا الميدان، فظلت تستعين بها وتمد إليها يدها كلما احتاجت إلى شيء منه.

على أن قرطبة نفسها، التي فقدت أهميتها كحاضرة ثقافية، بعد أن ألغيت وظيفتها كعاصمة سياسية وإدارية للأندلس كلها، لم تعد قادرة على القيام بدور المُصَدِّر للطاقات الفنية، إما لأنه لم يعد عندها ما تعطيه، وإما لأن ما لديها من القلة بحيث لا يقوى على تلبية المطالب الكثيرة التي ترد إليها من مختلف بلاطات ملوك الطوائف، وهي كثرة كثيرة.

ومن أمثلة ذلك ما يذكره ابن عذاري من أن أبا الوليد بن جهور[3] قال:

---

(1) الذخيرة: 1/3 - 318. وفي هذا النص شاهد على امتداد لون من ألوان الثقافة العربية إلى الممالك النصرانية الإسبانية. ولا بد أن يسير في ركاب هذه الموسيقى المهاجرة شيء من الشعر العربي وفنونه، بالإضافة إلى ما يكون من تأثير للألحان العربية على الموسيقى الإسبانية.

(2) ابن حيان، في الذخيرة: 1/3 - 112. وهذه الجارية هي التي تقدم وصفها عند ابن حيان.

(3) أبو الوليد بن جهور: هو الأمير الثاني في دولة الجهاورة بقرطبة بعد الفتنة. خلف أباه بعد =

«وردت عليّ من الكتب في يوم واحد: كتاب من ابن صمادح صاحب المرية، يطلب جارية عَوّادة، وكتابٌ من ابن عباد يطلب جارية زامرة، وكتاب من سواجات صاحب سبتة يطلب قارئاً يقرأ القرآن» ثم يحكي المؤلف كيف عجب أبو الوليد من هذا الأمر وقال: «جاهل يطلب قارئاً، وعلماء يطلبون الأباطيل».

في هذا النص دلالة قوية على ما كان لملوك الطوائف من إقبال على اقتناء القينات. بل لقد رأينا حرصهم على إبداء رغبتهم في الحصول على ذوات اختصاص محدد في استعمال الآلات الموسيقية.

ويظهر تنافس ملوك الطوائف بصورة أوضح من هذه في نص آخر لابن حيان نفسه، وذلك حين يتحدث عما لقيه المظفر بن الأفطس من العنت في الحروب التي شنّها عليه المعتضد بن عباد والتي استولى فيها على عدة حصون من بلاده، ثم يقول: «ووردت علينا بقرطبة غَرِيبَة يومئذٍ، وذلك أن رسول المظفر بن الأفطس ورد قرطبة إثر هذه الوقائع عليه يلتمس شراء وصائف مُلهِيات، يأنس بهن، نافياً بذلك الشماتة عن نفسه، ولم تكن له عادة بمثله. فنقب له رسوله عن ذلك، وكَن قد عدمن بقرطبة يومئذٍ، فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيهما، فاشتراهما له»[2].

وقد بحث ابن حيان عن تفسير لهذه الغريبة، كما قال، حتى اكتشف أن المعتضد كان قد اشترى جارية الوزير ابن الرميمي بعد وفاته، فأحب المظفر بن الأفطس أن يقلده، وأن يظهر أنه لا يقل عنه تفرغاً للهو، فأرسل إلى قرطبة من يبحث له عن الجواري[3].

* * *

= وفاته سنة 435، وفي عهده قضى بنو عباد على دولته الجهاورة، وضموا قرطبة إلى دولتهم في إشبيلية عام 462.

(1) «البيان المغرب»، 250/3.

(2) «البيان المغرب» 3، ص: 212.

(3) نفسه، 312/3.

نستطيع الآن أن نستخلص مما سبق أن النشاط الموسيقي كان جـزءاً من الحياة الثقافية أثناء القرن الخامس، كما كان قبل ذلك. ولكنه من الواضح أن هذا الجانب من الثقافة لم يمتد إليه الازدهار الذي عرفته الجوانب الأخرى المتمثلة في العلوم والآداب. والذي قد تجلّى لنا من الشواهد المتقدمة أن النشاط الفني عموماً قد تدهور لأنه كان قائماً على تربية الجواري وتعليمهن صنوفاً من المعارف والمهارات. وقد اضطربت شؤون هذه المهنة، وذبلت النشاطات الفنية المتصلة بها بعد انقلاب ميزان القوى، ورجحان كفته إلى جهة النصارى.

أما الموسيقى الأندلسية فلن تـدخل مـرحلة التنظيـر الرفيـع، والتناول المنهجي المعمق لقضاياها، إلا في أواخر القرن الخامس على يد المفكر أبي بكر بن باجه[1] الذي ألف كتباً في هذا العلم، وقد وصفه بعض المؤرخين بقوله: «وأما كتب علم الموسيقى، فكتاب أبي بكر بن باجه الغرناطي في ذلك فيه كفاية، وهو في المغرب، بمنزلة أبي نصر الفارابي[2] بالمشرق. وإليه تُنسب الألحان المطربة، بالأندلس، التي عليها الاعتماد»[3].

وبعدُ إذا كانت الثقافة الأندلسية، بجوانبها الأدبية والعلمية، والفنية قد بلغت هذا المستوى الجيد الذي دلتنا عليه الشهادات والنصوص التي أثبتناها، فإنه يحق لنا الآن أن نتساءل عن مقدار وعي المثقفين الأندلسيين بقيمتهم الثقافية، وإدراكهم لمقومات أصالة فكرهم وما ينتجون من أصنافه المتعددة.

الوعي بأصالة الثقافة الأندلسية وقيمتها.

إذا كانت سائر العلوم والفنون لم تبلغ عند الأندلسيين المستوى الذي

(1) أبو بكر الباجي أو ابن باجه: محمد بن يحيـى ويلقب أحياناً ابن الصائغ: أحد فلاسفة الأندلس المشهورين، ولي الـوزارة في غرنـاطة، واشتغـل بالحكمـة والطب والفلك والموسيقى توفي نحو سنة 532 هـ. انظر الأعلام 8/ ص 6، وقد جعل وفاته عام 533.

(2) أبو نصر الفارابي: عاش في بغداد، ثم في حلب أيام سيف الدولة. وهو أكبر فلاسفة الإسلام. توفي سنة 339 هـ. انظر تفاصيل أخباره في وفيات الأعيان: 153/5.

(3) عن نفح الطيب، ج 185/3.

يجعل المشتغلين بها يشعرون باستغنائهم عَمَّنْ سواهم، وذلك هو الانطباع الذي تتركه في نفوسنا قراءة ما هو بين أيدينا من النصوص القديمة، فإن الذي يبدو جلياً أن هذا الإحساس كان غامراً لدى الأدباء وعلماء الدين في القرن الخامس، وقد بلغ في نضجه من القوة ما جعل مواقف رجال الثقافة الأدبية والدينية في هذا القرن تتراوح بين التعصب الذي لا يرى فضلاً إلا لأهل الأندلس، والنقمة العارمة عليهم لأنهم يهملون النفيس الذي هو بين أيديهم، ويتعلقون بما هو دونه لمجرد أنه بعيد عنهم.

وينبغي أن نسارع إلى الإشارة إلى أن نضج هذا الإحساس عند الأدباء ورجال الدين قد ظهر قبل القرن الخامس بمدة طويلة، وإن لم يكتس دائماً طابع التصريح المباشر، فكان يأتي في قالب تصرفات معادية للمثقفين المشارقة الوافدين على بلاد الأندلس، في كثير من الأحيان.

ولعلنا نستطيع أن نجعل بداية هذا الإحساس في تلك الفترة التي وفد فيها على البلاد الأندلسية المغني زرياب، فقد رأينا[1] أنه نال من الخليفة عبد الرحمن الأوسط تكريماً كبيراً، وحظي منه بالتقريب والإعجاب فأغدق عليه الأموال والبساتين والقصور.. . فكان لا بد أن تبعث هذه الحظوة غيرة بعض رجال الثقافة في الأندلس وقتئذٍ، وكان لا بدّ أن تستثير في نفوسهم مشاعر الحسد لهذا «الغريب» الذي يحظى عندهم بما لم ينالوه وهم أهل البلد. فكان أن احتدم الصراع بينه وبين شاعر البلاد وقتئذٍ، ورجلها اللاّمع، يحيـي الغزال، الذي كان أثيراً لدى الخليفة يرسله في المهمات الخاصة سفيراً عنه لدى الممالك الأجنبية، حتى بلغت إحدى سفاراته بلاط النرمانيين في أقاصي الشمال الأوربي[2]، ولكنه مع ذلك أبى إلا أن يصب غضبه على زرياب، فهجاه أقذع الهجاء، فغضب من فعله الأمير عبد الرحمن الأوسط، ونفاه من البلاد فخرج إلى العراق[3].

---

(1) تناولنا مقدم زرياب وتكريم الخليفة له بشيء من التفصيل في بدايات هذا الفصل.

(2) انظر تاريخ الفكر الأندلسي في أخبار يحيـى الغزال وسفاراته. ص: 55 - 57.

(3) خبر هجائه لزرياب، ونفيه إلى المشرق، وأخباره هنالك في نفح الطيب: 261/2.

ولما وصل إلى بغداد، واصل فيها تعصبه لثقافة بلاده، فكان يرد على الذين يزرون بأهل الأندلس ويستهجنون شعرهم، وينشدهم من شعره ما يجعلهم يعترفون بتفوقه[1].

هل نستطيع ألَّا نرى في هذه الحادثة التي أبعدت عن الأمير شاعره المفضل إلا فصلاً من فصول الوعي بقيمة الثقافة الأندلسية ومقاومة الثقافة المشرقية الوافدة؟. ثم كان فصل آخر لهذا الصـراع تمثل في ضيق بعض الأوساط الأدبية والدينية بالعناية الفائقة التي كان يلقاها العالم المشرقي: أبو علي القالي[2] لدى الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم. وشاءت الظروف أن تمنح عالماً دينياً ناشئاً وقتئذٍ فرصة بيان مواهبه، وإظهار التفوق على أبي علي الذي كان محل إعجاب من الحكّام وطلبة العلم، وذلك حين أقام الخليفة مجلساً حافلاً لاستقبال سفير ملك الروم صاحب القسطنطينية، وأمر الشعراءَ بالإنشاد، والخطباءَ بالكلام، فقام أبو علي القالي لإنقاذ الموقف بعد أن غشي على الخطيب الأول ابن الكسنياني، ولكنه لم يتجاوز عبارات الحمد والصلاة حتى «انقطع به القول فوقف ساكتاً مفكراً»[3] فسارع منذر بن سعيد البلوطي الفقيه، وكان حاضراً في المجلس، فواصل افتتاح أبي علي بخطبة بليغة أعجبت الخليفة، فسرّ بمنذر وأعجب به، وأخذ يُرقِّيه في مراتب الدولة القضائية حتى بلغ القمة منها[4].

لكن أهم ما في هذه الحادثة هو شعور الفقيه بعد أن أعطى الدليل على أنه

---

(1) نفسه.

(2) أبو علي القالي، ويقال له أحياناً: البغدادي: صاحب الأمالي، وهو من أدباء المشرق الذين وفدوا إلى الأندلس. وقد بلغ من شأنه أن انتدبه الخليفة عبد الرحمن الناصر لتأديب ابنه الحَكَم الذي سيتولى الخلافة بعده بلقب «المستنصر».

(3) تاريخ قضاة الأندلس، للنباهي، ص: 66.

(4) أخبار منذر بن سعيد البلوطي، وقصة خطبته في مجلس الخليفة في المصدر السابق ص: 66 - 75.

يستطيع ما لا يستطيعه المشرقي الوافد. لقد عبر عن هذا الشعور بكل دقة في الأبيات التي أنشدهما أثر ذلك، وهي:

هذا المقام الذي ما عابه فَنَد لكنَّ صاحبه أَزْرى به البَلَدُ
لو كنت فيهم غريباً كنت مُطَّرَفاً لكنني منهمُ فاغتالني النَّكَد
لولا الخلافة، أبقى الله بَهجتها، ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد[1]

ونلمح فصلاً آخر من فصول هذا الصراع بين ممثلي الثقافة الأندلسية وضيوفهم في ذلك التهكم الذي كان يقابل به صاعد البغدادي[2] في مجالس المنصور بن أبي عامر، الذي قدم إلى البلاد في أيامه، والترويج لسقطاته وغلطاته، وتَزَيُّده في الروايات مما أثبت صاحب الذخيرة جانباً كبيراً منه:

وما إن نصل إلى القرن الخامس حتى ينقلب هذا الإحساس إلى موقف ثابت له دعائمه وقواعده، ولعل الأخطار التي كانت تهدد البلاد في الداخل والخارج هي التي قوت من شعور الأندلسيين المثقفين بضرورة التمسك بما يمثل كيانهم الجماعي: أي أدبَهم، وثقافَتهم بوجه عام. فكان ابن حزم[3] أول من أطلق صيحة السخط على أهل بلده الذين رآهم مكبين على كل ما يأتيهم من الشرق من أدب وعلم، مهملين لأمثاله من رجالات الفكر، وعظماء البلاد في المجالات الثقافية. وقد جاءت صيحته تلك في أبيات من الشعر[4] نثبتها لنقف على مبلغ ألمه وحزنه من المعاملة التي يلقاها من «مواطنيه».

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجدّ على ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ولا بد أن يستوحش الكلف الصّبّ

---

(1) عن جذوة المقتبس الترجمة، 811، ص: 348.
(2) أخبار صاعد البغدادي، وحكاياته مع علماء الأندلس في الذخيرة: 1/4 - 8 وما بعدها.
(3) أبو محمد بن حزم: قاضٍ، فقيه، أديب، كثير التأليف في كل فنّ. أخباره وبعض أدبه في ذ: 1/1 - 167 وما بعدها.
(4) عن الذخيرة: 1/1 - 173.

فإن ينزل الـرحمن رحلي بينهم   فحينئـذٍ يبدو التـأسف والكـرب
فكم قائلٍ أغفلته وهو حـاضر   وأطلب ما عنه تجيء به الكُتْبُ
هنـالك يـدري أن للبعد قصـة   وأن كساد العلم آفته القُرْبُ الخ . . .

وقد تضمن هذا الشعر لوعة صادقة على ما يحس به صاحبه من اضطهاد فهي شبه «عقدة» متمكنة من نفسه، تصور له أنه لو ذهب هو إلى العراق لأصبح الأندلسيون يقبلون على كتبه بشغف يضاهي أو يفوق شغفهم بكل ما يأتيهم من آثار علماء المشرق.

لكن هذه اللوعة تبقى محدودة، لأنها لا تعالج إلا واقع صاحبها[1]. أمّا الذي سيرفع هذه المسألة إلى مستوى النظرية العامة التي يدافع من خلالها عن مجمل الفكر الأندلسي، فهو ابن بسام. وقد كانت هذه النظرية هي حافزه الرئيسي، إن لم نقل حافزه الوحيد على تأليف كتابه الضخم: «الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة».

وفي مقدمة هذا الكتاب أهم خطوط هذه النظرية، التي رسخت مراميها لديه بعد أن رأى أهل أفقه ـ كما يقول ـ منصرفين انصرافاً كلياً إلى المشارقة «يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً. . . »[2].

هذه لمحات خاطفة عن تطور هذا الموقف، الذي لم يكن يحمل عداءً خاصاً للمشارقة، حين يتروى فيه الإنسان، بقدر ما كان يمثل رد فعل سليم من النخبة الواعيـة بضرورة صرف النظر إلى حقائق البلاد، ومنح رجالها ومفكريها

(1) يعالج ابن حزم الواقع العام في رسالة فضل الأندلس وذكر رجالها، وبخاصة حين يقول: «ولا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم حسناته وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدّة حياته، بأضعاف ما في سائر البلدان». الرسالة في نفح الطيب، ج 3، ص: 153. . .

(2) الذخيرة، 1/1، ص: 12.

وأدبائها، بعض ما هم أهل له من العناية والتكريم. ولعل التغييرات الهائلة التي كانت تحدث في خريطة البلاد، ومُدُنها، وقلاعُها تتساقط تباعاً، الواحدة تلو الأخرى، في أيدي الأعداء، قد كَثَّف الشعور بضرورة الاعتناء بالذات، وأنضج مقومات الكيان الجماعي، الذي يقوم الأدب، في كل المجتمعات، بوظيفة التبشير به، والدفاع عنه، والتحصّن به في أوقات الضيق والحرج.

ولعله قد استبان الآن، في ختام هذا الفصل، أن الحياة الثقافية في الأندلس عرفت مراحل مختلفة كان يجمعها هدف واحد، مهما تباينت الطرق والأساليب المستعملة في الوصول إليه، وهو تشييد صرح ثقافي متين، يعكس عظمة البلاد، ونبوغ أهلها. ثم وقعت الفتنة، وقامت دويلات الطوائف، فعمل ملوكها بكل ما أُوتُوا من قوة لفتح الأبواب على مصراعيها أمام الأدباء والعلماء: أبواب قصورهم، وأبواب خزائنهم، وأبواب قلوبهم. وكان من حسن حظهم وحظ الثقافة العربية قاطبة، أن كان هؤلاء الملوك على ما فيهم من عيوب، ينتمون عموماً إلى فئة المثقفين، يأخذون أنفسهم ببعض مناجيها، حتى إن بعضهم غامر بالمساهمة بالتأليف في واحد من الفنون التي صادفت منه القبول... واحتدم التنافس بين هذه الدويلات، فكان في ذلك خير عميم على الأدب والعلم ورجالهما.

والذي يستثير اليوم إعجابنا بالخطوات التي خطتها الحياة الثقافية في أندلس القرن الخامس، إنما يكمن في قدرتها على أن تنتج هذه الثمار الطيبة، التي سنرى نماذج واسعة منها في الفصول القادمة، وذلك في ظرف زمني وجيز نسبياً، وفي بيئة لم تخلص فيها القرائح دائماً لممارسة هواياتها العلمية والأدبية والفنية. لقد كانت البلاد واقعة بين آفتين: إحداهما تنهشها من الداخل، والأخرى تمتص دمها من الخارج، وكانت خريطة البلاد في تغير دائم، لا تكاد تغيب الشمس إلاّ عن مدينة تسقط في يد الأعداء، أو أرضٍ تُنهب، أو مَزروع يُتلَف، أو إمارة يهوي علمها لتدخل في أملاك النصراني الزاحف، أو الأخ الأندلسي المسلم، المعتز بقوته، الجائر بغلبته. وتلك الحوادث كلها كان يتحمل أعباءها المواطنون

«المدنيون» فهم الذين يدفعون ضريبتها من أموالهم، وأرزاقهم، ودمائهم، ودماء أهليهم وأقاربهم.

إن الذي يستعيد منا تاريخ هذه المأساة لا يملك نفسه عن الإعجاب الحقيقي بأولائك العلماء والأدباء، ورجال الفكر عموماً الذين أنتجوا، في هذه الأجواء المُهَدَّدة دوماً بالغزو، المُثْقَلة أبداً بأنباء الكوارث والملمات، هذا التراث القيم. على أن ما ضاع من جهودهم، وما لم تصل إلينا أخباره، ربما كان يربو على ما نعرفه لهم اليوم، ويفوقه في الكيف والكم.

ولو أردنا أن نبحث عن تفسير منطقي لهذه الظاهرة التي تبدو منطوية على شيء من الغرابة: الازدهار الثقافي في وقت بلبلة وفزع، لوجدناه في الانطلاقة الكبرى التي تمت في بداية القرن الخامس مع قيام الإمارات المستقلة، والتي كان أكثر ما يميزها أجواء التحرر التام من الرقابة على الأفكار، وتمكن أهل العلم والأدب من اختيار البيئات السياسية التي تلائمهم، والتحول عنها إلى غيرها كلما ضاقت فيها نفوسهم.

ومن المؤكد أن تنافس الأمراء على رجال الفكر، واستعدادهم لاستقبال كل من يلجأ إليهم، وإغداق النعم عليهم، قد أتاحت نوعاً من حرية التنقل، وقدراً من اختيار المكان الأنسب، ساعدت كلها على مضاعفة إمكانيات التعبير الأدبي والعلمي. وهو ما لا عهد للمثقفين به، أيام كانت العاصمة الموحدة: قرطبة، تحتكر النشاط الثقافي في البلاد، وتنفرد بمنح شهادة النبوغ وما يتبعها من علامات اليسر المادي والتكريم المعنوي، فإذا أعرضت عن عالم أو أديب فكأنما أعرضت عنه الأندلس بأسرها.

وأخيراً فإنه يجدر بنا أن لا نغفل أثر الماضي في الإعداد لهذا النضج وهذا الاكتمال في الأداة الثقافية. ذلك أن الجهود التي بذلت منذ عبد الرحمن الناصر، وحتى قبله، وتلك التي بذلها ابنه الحكم المستنصر وما سعى إليه من إمداد البلاد بعيون الثقافة الرصينة التي ظهرت في المشرق، بالإضافة إلى حرصه الشخصي على توسيع شبكة المدارس، وضمان التعليم المجاني لأولاد الفقراء،

قد منحت التربة الثقافية في البلاد كل عناصر خصوبتها. فما إن انجابت الفتنة عن تقسيم البلاد حتى كانت الأذهان قد استعدت خير استعداد لتقبل الطرائق الفكرية المستحدثة، وكان المثقفون قادرين على خوض تجارب الأصالة العلمية والأدبية في البلاد.

ولكي نقف على الصورة الميدانية، والترجمة التطبيقية لهذه الجهود، فإنه يتعين علينا أن نتتبع تطور مسيرة الثقافة في جانب محدد من جوانبها، وهو النثر الأدبي. وذلك ما نتناوله في الفصل القادم.

* * *

الفصل الثالث

النثر الأدبي الاندلسي قبل القرن الخامس الهجري

تطور النثر الأدبي الأندلسي قبل القرن الخامس

إن دراسة الإنتاج الشعري، في فترة زمنية محددة، لدى أمة من الأمم، كفيلة بأن تكشف للدارس عن مراحل تطور حساسيتها، ضمن بيئتها الحضارية، وتتيح له أن يرصد ضروب التجارب الوجدانية التي كانت لها، وأصناف الانفعالات التي واجهت بها ما في محيطها، بكل عناصره، من أنواع المؤثرات. فمثل هذه الدراسة تكون، في أدق صورها، لوناً من التأريخ الشامل للحياة العاطفية، بأوسع مدلولات هذا التعبير.

أما دراسة ما أنتجته تلك الأمة من قوالب التعبير النثري، فإنها تنطوي، في جميع الحالات، على نوع من التأريخ لتطور فكرها، باكتشاف مراحل نموها العقلي، وترتيب حلقات المواقف الموضوعية التي صدرت عنها، لمواجهة الوضعيات التي تتطلب بسطاً في القول لا يتسع له الشعر، ووضوحاً في الرؤية لا تتناسب مع طبيعته المجبولة على الرمز والتلميح، وتناولاً هادئاً لوقائع محددة لا يصلح التهييج العاطفي أسلوباً لمعالجتها.

ومن هنا، فنحن حين نروم استقراء أهم «المنجزات النثرية» خلال القرون الثلاثة الأولى من وجود الأندلس العربية المسلمة، فإنما نحاول أن نتمثل أهم ملامح المسيرة التي قطعها الأداء النثري في الحضارة الأندلسية، منذ أيام الفاتحين الأوائل، أي منذ أن بدأ فيها التعبير النثري ساذجاً بسيطاً في مثل بساطة الناس وخلوّ حياتهم من بواعث التعقيد، إلى أن أخذت تغزو أساليبه أنماطُ الزخرفة والتأنق التي هي أثر من آثار النضج الحضاري وما يدفع إليه من تعقيد

في سائر مظاهر الحياة. وحينئذٍ يرقى النثر، ويغدو غير قانع بالاقتصار على وظائفه الأولى، فيتطلع إلى منافسة الشعر في الميادين التي كانت حكراً عليه. وتلك هي علامة التحول الكبير التي تقفز به من طور إلى طور.

وإذ كانت هذه الفترة طويلة، تستغرق نحو ثلاثة قرون من الزمن، حافلة بالتطورات والتحولات الهامة في مسيرة النثر الأدبي، وكان لا بد من استقصاء سمات هذا التطور والتحول لفهم فنون النثر في القرن الخامس، وما ظفرت به من القيم الفنية، الجديدة على أشكالها ومضامينها، فإن منهج الدراسة التحليلية يقتضي أن نقسم هذه الفترة إلى مراحل فرعية ينسجم ضمن كل واحدة منها واقع التطور الحاصل فيها.

مراحل تطور النثر الأدبي:

ليست مراحل التاريخ الأدبي، وفترات تطوره هي بالضرورة مراحل التاريخ السياسي وفتراته. فالتغيرات الناجمة عن ثورة توصل أسرة ما إلى الحكم، أو عن انقلاب يحوّل مجرى ولاية العهد من هذا إلى ذلك، أو عن معركة فاصلة بين فريقين متحاربين، هي كلها حوادث يمكن ـ في الغالب ـ تحديد زمنها بيوم معروف، أو سنة معلومة من التقويم. أما التحولات الثقافية، وهي جزء من الظاهرة الاجتماعية العامة، فبطيئة، دقيقة لا تكاد تُلمح، تبدأ نُطفة لا يشعر بوجودها أحد، ثم تظهر بواكيرها في صورة قلّما تَلفت الانتباه في وقتها، ثم تتطور وتنضج حتى تبرز للعيان في هيئة مكتملة.

ومع ذلك فإنه يصعب على الدارس لحركة الآداب وتطورها أن يعتمد، في تمييز مراحلها، على الوقائع الأدبية وحدها. وإنما يكون ذلك متيسراً في البيئات التي توزعت فيها الآداب مدارسُ فكريةٌ قائمة الذات، بحيث يكون ظهور كتاب واحد، أو ديوان شعر، أو مسرحية أو رواية إيذاناً بتغير في النهج، وتحول في الطريقة، وقيام مدرسة جديدة لها أهلها، ولها أنصارها وأعداؤها.

أما في البيئات التي لم تتطور فيها الآداب على هذا النحو، فإن اعتماد الفترات السياسية أسلم طريق للتمييز بين المراحل الأساسية في حركة التطور

الأدبي، لأنها واضحة في الأذهان بارزة المعالم. ولعل هذه الطريقة أصلح للأدب العربي من غيرها، لأن القدر الأكبر من تراثه، وُلِد في أحضان السياسة، ونشأ بين يدي الخلفاء والأمراء والحكام، فهو يحمل سماتهم، ويعكس الكثير من وقائع عصورهم، فإذا كانوا ممن لهم رَأيٌ في شؤون العلم والأدب، حمل أيضاً طابعهم الفكري.

وبناءً على هذه الملاحظات فإننا نعتمد الفترات السياسية في التمييز بين مراحل النثر الأدبي في الأندلس، ويكون تقسيمنا لها كما يلي:

ـ **المرحلة الأولى**: عهد الولاة: ويمتد من فتح الأندلس إلى تغلب عبد الرحمن الداخل (93 - 138).

ـ **المرحلة الثانية**: عهد الإمارة: من قيامها إلى إعلان الخلافة (138 - 316) ولكننا نقف بها سنة 300 لضرورات التقسيم الذي اقتضاه منهجنا.

ـ **المرحلة الثالثة**: عهد الخلافة: في زمن قوتها (إلى سنة 366) وفي زمن ضعفها وقوة الحجاب إلى تاريخ وقوع الفتنة، أواخر القرن الرابع، (عام 398).

ونظراً لقلة ما بأيدينا من نثر المرحلة الأولى والثانية، فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى الوقوف عند معظم النماذج التي وصلت إلينا منهما، مرتبين ذلك على حسب تعاقب الأمراء الذين أُثِرَتْ عن عهدهم، إذ كانت في أغلبها صادرة عن الحكام، وكُتّابهم، ورجال دولتهم.

* * *

أولاً: النثر في عهد الولاة

إذا استعرضنا النماذج التي احتفظت لنا بها المصادر، التي بين أيدينا، من نثرا الأندلسيين في عهد الولاة، وفي العهد الذي يليه، بوجه عام، فإننا نجدها قليلة مقتضبة، بحيث يصعب كثيراً أن تسعفنا في تحديد صورة واضحة لمنهجها الأدبي وقالبها الفني. ذلك أن الكتب التي أرخ فيها أصحابها للأدب الأندلسي منذ أقدم عهوده، والتي اعتنوا فيها بتصوير المراحل الأولى من الحياة الأدبية في الأندلس قد ضاعت، ولم يعثر عليها أحد إلى وقتنا الحاضر. ويعتبر ضياع «كتاب الحدائق» لابن فرج الجياني[1] الذي أرخ فيه لأدباء الأندلس وأورد أخبارهم، ونماذج من إنتاجهم منذ البدايات الأولى، إلى أيامه هو في القرن الرابع. . . يعتبر خسارة كبيرة لنا في هذا الميدان.

فلم يبق لنا إذن، في البحث عن الآثار النثرية الأولى، إلا التعويل على ما أورده المؤرخون، في كتبهم، من فقرات منسوبة لصاحبها أو غير منسوبة. وينبغي أن نلاحظ أن طبيعة عمل المؤرخين تختلف عن عمل الأدباء في هذا الشأن، فهم لا

(1) ابن فرج الجياني: أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج، من شعراء وأدباء عصر الحكم المستنصر، وقد أودع السجن لخلاعته ومجونه، وبقي فيه حتى مات سنة 366 هـ وكتابه إحدى حلقات السلسلة التي تروم إظهار فضل الأندلسيين على المشارقة وابن بسام يذكر في مقدمة كتابه أنه لا يتحدث عن أدباء الدولة المروانية، ولا عن الذين مدحوا رجال الدولة العامرية، لأن الجياني هذا وفاهم حقهم. ذ: 1/1، ص: 12 - 13.

يوردون منها إلا ما يخدم سياق سردهم التاريخي، أي أنهم لا يوردون، في الغالب، ما يختار لجودته الفنية، وإنما يحرصون قبل كل شيء على إيراد ما يسند الوقائع التي يصفونها ويكون برهاناً على صدقها.

ويمكن أن نلخص القول في هذه المسألة، غاية التلخيص فنقول: إن المؤرخ ينظر إلى النصوص التي يثبتها في كتابه على أنها وثائق تاريخية، قبل أن ينظر إليها باعتبارها نماذج أدبية. وهذا ما يؤكد أن هذه الفقرات التي سنبني عليها آراءنا محدودة القيمة في الإفصاح عن كل الجوانب الفنية التي تجعلنا نطمئن إلى أنها تمثل كل قيم العصر الذي أنشئت فيه. ومع ذلك فليس لنا بد من الاعتماد عليها وحدها، لأنها كل ما نملكه من تراث هذه الفترة.

إذا تركنا هذه الاعتبارات المنهجية جانباً، فإن أول ما يلقانا من نثر هذا العهد الخطبة المنسوبة إلى طارق بن زياد[1].

خطبة طارق بن زياد:

دأب الباحثون في الثقافة الأندلسية[2] على أن ينظروا إلى الأدب المنسوب إلى طارق بن زياد على أنه جزء من الأدب الأندلسي، لو حُلَّت المشكلات المتصلة بصحة نسبته إلى صاحبه. ويبدو أنه من التجوز الكبير أن نعد طارقاً أندلسياً لمجرد أنه قاد الجيوش التي فتحت البلاد. ولو حق لنا أن نعتمد على هذه القاعدة، لوجب علينا أن ننسب أوائل الصحابة الفاتحين الذين قادوا الجيوش الإسلامية، إلى البلدان الكثيرة التي كانوا في كل مرّة قادة فتوحاتها.

ولعلّ الذي هو أصحّ من هذا المذهب أن ننظر إلى ما أُثِر عنهم، حين تصحّ نسبته إليهم، على أنه يمثل لوناً من ألوان الأدب التي دخلت مع الفاتيحن، والتي ربما كان لها أثر فيما ينتجه الناس بعد ذلك من فنون القول. وعلى ذلك

---

(1) طارق بن زياد: (نحو 50 - 102 هـ). انظر بعض أخبار طارق وما حولها من تضامن في نفح الطيب ج 1، ص: 230. وانظر كتاب الأعلام، ج 1، ص: 713.

(2) على سبيل المثال، كتاب: «الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة» لأحمد هيكل: ص: .

فإنه يكون قادراً على إضاءة جانبين: أحدهما يتمثل في كشف نوعية الزاد الأدبي الذي أتى به الفاتحون وما فيه من قيم فنية، والثاني تمكيننا من التعرف على مدى تأثير هذا الرصيد المجلوب في أدب الجيل الذي نشأ في البلاد المفتوحة، ومقدار إبداعه، بعد التكيف بمعطيات البيئة المحلية.

أما إذا تناولنا هذا الأدب المنسوب إلى طارق بن زياد، فإننا نجد أشهر ما يشتمل عليه الخطبة التي قيل إنه ألقاها في جنوده بعد أن وطئت أقدامهم أرض الساحل الإسباني، فقال لهم: «أيها الناس! أيـن المفـرّ، البحر وراءكم والعدو أمامكم...»[1].

ونحن نشك شكاً قاطعاً في أن تكون هذه الخطبة لطارق، ويمكن تلخيص دواعي الشك في أربع نقاط:

الأولى: أن طارق بن زياد رجل مغربي، إن لم يكن فارسياً، كما تزعم بعض الروايات[2]. فكيف استطاع، في هذا الظرف الوجيز من دخول الإسلام بلاد المغرب[3] أن يكون له من الثقة في النفس باتقان العربية ما يجعله يلقي بها الخطب، وينشد بها الأشعار التي تنسب إليه؟.

الثانية: أن معظم الجيش الذي عبر به البحر إلى إسبانيا، بل كثرته الغالبة، كان مؤلفاً من الجنود المغاربة كما تقول المصادر التاريخية[4]، فمن أين لهؤلاء أن يفهموا كلام طارق وهو يخاطبهم باللغة العربية. ثم إن الخطابة الحربية ترمي أساساً إلى إذكاء عواطف الجنود، وبث روح الحماسة فيهم، وتعبئتهم بالمثل السامية، التي يحاربون من أجلها. وهي لن تبلغ منهم هذا المبلغ إلا إذا كانوا قادرين على الانفعال بأساليب التعبير المهيجة فيها، والتأثر

(1) نفح الطيب ج 1، ص: 240. وفي بعض الروايات أنه طارق بن عمرو: النفح 230/1.

(2) «البيان المغرب»، ج 2، ص: 5.

(3) لنتذكر أن عقبة بن نافع قد مات سنة 64 هـ، وأن الأندلس قد فتحت سنة 92 هـ.

(4) في النفح 231/1 أنهم كانوا نحواً من اثني عشر ألفاً «ولم يكن فيهم من العرب إلا شيء يسير».

بألوان أدائها البلاغي، وذلك ما لا يتأتى إلا بمعرفة لغة الخطبة معرفة تامة. ومن المؤكد أنه لم يكن في جيش طارق لا من الجنود المغاربة، ولا من قادة كتائبهم عدد كبير تتوفر فيهم يومئذٍ هذه الشروط.

الثالثة: أنه ورد في نص الخطبة، كما تروى في المصادر، مخاطبة أولئك الجنود المغاربة بهذه العبارة: «وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك، أمير المؤمنين، من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً». وإنه ليستحيل أن يصف طارق جنوده بأنهم أبطال عربان. ولو أنه سماهم أبطالاً مسلمين، لما كان في قوله موضع للاستغراب.

الرابعة: أن هذه الخطبة لم ترد لا في كتب الأدب، ولا في كتب التاريخ التي ألفها قدماء الأندلسيين والمغاربة، من أمثال ابن القوطية[1]، وابن عذاري[2]، وكان أشهر من روى الخطبة من المتأخرين: المقري الذي هو من رجال القرن الحادي عشر[3].

هذه الدوافع كلها حين تجتمع في وقت واحد، لا تترك أمام الدارس إلا الميل كل الميل إلى اعتبار هذه الخطبة منحولة، نسبت إلى الفاتح العبقري في وقت متأخر. وربما كان ذلك حين اشتدّ الصراع بين المغاربة والأندلسيين ابتداءً من عهد الفتنة الكبرى في أواخر القرن الرابع، وهو صراع قد احتدم وبلغ أوجه بعد أن استقر الحكم المرابطي في الأندلس وضاق أهل البلاد بتصرفات المغاربة القادمين منهم في ركاب الدولة المسيطرة، والذين كانوا بالجزيرة قبل ذلك التاريخ، ثم ظل هذا الصراع قائماً بعد تحوّل الأندلس إلى ملك الموحدين ولعله زاد في شدته، وإنما تجاوز ميدان الحكم والسياسة، إلى الميدان الفكري، بعد

(1) ابن القوطية: أبو بكر محمد بن القوطية (توفي سنة 367 هـ). من علماء الأندلس، شاعر وله مؤلفات في النحو واللغة، ويشتهر بكتابه: تاريخ افتتاح الأندلس.

(2) ابن عذاري: محمد (أو أحمد؟) بن محمد المراكشي. مؤرخ أندلسي الأصل لم يبق من كتبه إلا جزء من «البيان المغرب». وقد توفي نحو سنة 695 هـ.

(3) الخطبة في نفح الطيب، للمقري، 240/1. والمقري صاحب الكتاب توفي سنة 1041 هـ.

أن نبغ رجال من المغرب في العلوم، وأتقنوا التأليف باللغة العربية[1].

في هذا الجو من التنافس، وعدّ المآثر، وتباهي كل من الأندلسيين والمغاربة بأمجادهم، ألا يجوز أن يكون أحد المغاربة قد ارتأى أن يضيف إلى أمجاد طارق بن زياد الحربية، مجداً أدبياً بلاغياً في لغة العرب نفسها؟ فيجمع بذلك شمل العبقرية من أطرافه، ويكون في ذلك مفخرة للمغاربة الذين لم يكن الأندلسيون يرون فيهم إلا مقاتلين أشداء، ومغامرين يحسنون أساليب القتل والسلب والنهب.

يبقى لنا، قبل أن نختم الحديث عن هذه الخطبة أن نلم، على عجل بقيمتها الفنية لنُبَيِّن أن الأدب العربي لا يفقد شيئاً بإبعاد نسبتها عن الفاتح العظيم.

أول ما نستخلصه، بعد الإمعان في دراستها، أنها ليست بليغة ولا مؤثرة بالمعنى الذي نعرفه للخطابة العربية التي ازدهر شأنها في عهد بني أمية في ديار المشرق، فهي من ناحية الشكل: قليلة الماء، باردة العبارة، مبهمة الإشارة، ساكنة النفس، بطيئة الحركة، عديمة الإثارة، تخلو أو تكاد من مجمل المقومات الفنية التي يستخدمها القادة العظام في إلهاب عواطف جنودهم، وإذكاء شعلة الحماسة فيهم قبل خوض المعارك الحاسمة، في ذلك الزمان.

ومن أغرب ما في الأمر أن دارساً حديثاً يرى أن في الخُطْبَة سجعاً كثيراً، ومحسنات متكلفة، وأنها لذلك «أقرب إلى خصائص أواخر العصر العباسي، وربما إلى ما بعد ذلك، حيث شاع السجع، وكثرت المحسنات[2].

والحق أن الذي يتأمل هذه الخطبة لا يجد فيها من السجع الجدير بهذه التسمية إلا فقرة واحدة قصيرة هي التي يقول فيها: «وقد بلغكم ما أنشأت هذه

---

(1) في موضوع هذا الصراع، انظر المنازعة التي أسفرت عنها رسالة الشقندي، ردّاً على ابن المعلم الطنجي، في النفح، 186/3.

(2) انظر كتاب: «الأدب الأندلسي» لأحمد هيكل، ص: 81.

الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات في الدرّ والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك، أمير المؤمنين، من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال الفرسان».

فأين نحن من السجع الذي عرفه العهد الأموي، وأين نحن من التنميق المستساغ الذي ألفناه عند خطباء هذا العصر سواء كانوا من ملوك الأمويين وقادتهم أو من الخوارج أو من الشيعة، وغيرهم.

والذي يتأمل هذه الفقرة نفسها يجدها مختلفة أشد الاختلاف عن بقية فقرات الخطبة حتى ليدفعنا ذلك إلى ترجيح أنها ليست من صنع رجل واحد، ولعل هذه الفقرة بالذات قد زيدت في النص المنحول ظناً من صاحبها أن في ذلك تحسيناً له، وإثراءً لجوانبه الفنية.

أما من ناحية المضمون فإنه من المدهش فعلاً أن لا يجد الفاتح الكبير ما يعبىء به جيشه المجاهد من المغاربة المتطوعين لنشر الدين الإسلامي إلا الحور الحسان التي ترفل في المرجان، والعقيان... ومصاهرة ذوي التيجان... هذا إذا سلمنا بأن هؤلاء يعرفون العربية، وكأنّه قد غاب عنه أن لا شيء يحفز على النصر، في تلك الظروف، كإذكاء العاطفة الدينية، والحث على الاستشهاد، وتوجيه الأفئدة نحو رضى الخالق، والإلحاح على المعاني السامية، والمثل الأخلاقية والروحية التي رفرفت من أجلها أعلام المسلمين في كل مكان. والملاحظ أن هذه هي المعاني التي رأينا الفاتحين المسلمين يستحثون بها عزائم جيشهم[1].

في نهاية المطاف، نرى أنه من الأحسن لطارق بن زياد، وللمسلمين الذين معه، بل ولسائر المسلمين في كل وقت، أن لا تصح نسبة هذه الخطبة إليه.

---

(1) انظر بعض نماذجها في تاريخ الطبري، في أجزاء متفرقة منه، وفي الكامل للمبرد، =

أما النثر الأندلسي الصحيح فإنه يبدأ مع الرجال الذين أقاموا بالأندلس، وماتوا فيها، وإن دخلوها فاتحين.

نماذج من نثر عهد الولاة وقيمتها الفنية.

لعل البداية الصحيحة لعهد الولاة بالأندلس هي التي تكـون عام 95 للهجرة، إذ فيها تولى عبد العزيز بن موسى بن نصير شؤون الأندلس، خلفاً لأبيه الذي استدعي إلى عاصمة الخلافة في دمشق[1].

من النصوص التي احتفظت لنا بها المصادر، والتي ترجع إلى هذه الفترة المبكرة، العهد الذي كتبه عبد العزيز المذكور، لتودمير، أحد الحكام الإسبان، وقد تضمن الشروط التي تحفظ للنصارى حقوقهم، وتقيدهم بواجباتهم نحو المسلمين، بعد نزول أميرهم على الصّلح. وقد جاء هذا العهد كما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد العزيز إلى تدمير، أنه نزل على الصلح، وأنه له عهد الله وذمته، ألا ينزع عن ملكه، ولا أحد من النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يقتلون، ولا يسبون أولادهم ونساءهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ما تعبد ونصح، وأنه لا يأوي لنا عدواً، ولا يخون لنا أمناً، ولا يكتم خبراً علمه...»[2].

هذا النص في بساطته، وتقشفه، ودقته، يعكس بكل أمانة، ما نتصوره من واقع الكتابة في هذا العصر المبكر من دخول الأندلس في الأسرة الإسلامية. وهو بذلك يذكرنا حقاً بالكتب التي كانت تصدر عن الخلفاء الراشدين، وعن أوائل خلفاء بني أمية. ولذلك فلا نظن أننا نشط عن الصواب إذا زعمنا أن هذه الصورة ستظل تمثل الملامح الرئيسية للنثر في الأندلس، طوال مدة تشمل

= وغيرهما. ويستوي في ذلك أن تكون الخطب بمناسبة الحروب الداخلية، أو غزو الممالك الأجنبية.

(2) انظر أخبار ذلك في البيان المغرب، 23/2.

(3) عن غزيري 2 - 105، عن الأدب الأندلسي لأحمد هيكل، ص: 76.

الجانب الأكبر مما سميناه المرحلة الأولى في مسيرة النثر الأندلسي.

ومما يعزز هذا الرأي، أن لدينا نصاً صادراً عن يوسف الفهري[1]، وهو آخر ولاة الأندلس، حين كتب إلى عبد الرحمن الداخل[2]، لما كثر أتباعه، وتفاقم أمره، فقال: «أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكّب، وتأبش من تأبش إليك، ونزع نحوك من السراق، وأهل الختر والغدر ونقض الأيْمان المؤكدة، التي كذبوا الله فيها وكذبونا، وبه ـ جلّ وعلا ـ نستعين عليهم. ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش، حتى غمصوا ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفاً، وجنحوا إلى النقض، والله من ورائهم محيط. فإن كنت تريد المال وسعة الجناب، فأنا أولى لك ممن لجأت إليه، أكنفك، وأصل رحمك، وأنزلك معي إن أردت، وحيث تريد، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره»[3].

يشبه هذا النص من وجوه كثيرة عهد عبد العزيز بن موسى لتدمير، ولا سيما في وضوح مرماه، ودقة عباراته، وقرب مأخذه ومأتاه. ولكنه يختلف عنه بعض الاختلاف من حيث تدفق العبارة، وثراء الأداء اللغوي، كما في قوله: «من السراق، وأهل الغدر والختر، ونقض الأِيمان المؤكدة، التي كذبوا الله فيها، وكذبونا. . .» أو كقوله: «أكنفك، وأصل رحمك، وأنزلك معي إن أردت، وحيث تريد. . .».

وليس يكفي في تفسير ذلك اختلاف الموضوع، واختلاف المخاطب، بتوجيه الكلام هنا إلى عربي، يعرف لغته بسليقته، وهناك إلى حاكم إسباني أعجمي، ومن ورائه إلى أهل ملته. والحق أن أساس التمايز بين الصيغتين أننا

(1) يوسف بن عبد الرحمن الفهري، ولي أمر الأندلس وهو ابن 75 سنة. عام 130 هـ وهو آخر ولاتها. توفي عام 142 هـ. انظر مزيداً من أخباره في «البيان المغرب» 35/2.

(2) عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل، فرّ من بلاده بالشام إثر قيام دولة بني العَبَّاس عام 132 هـ، وجاء إلى المغرب، ثم ذهب إلى الأندلس سنة 136، بعد أن هيأ له الأمر فيها أنصاره وظل يحارب آخر ولاتها يوسف الفهري حتى النصر عليه، وأسس الإمارة الأموية في الأندلس عام 138 هـ.

(3) «البيان المغرب»: 45/2.

هنا أمام ضرب من الصيغ الديوانية التي بدأت تظهر مراسمها، وتلوح تقاليدها: والدليل على ذلك أننا ما إن نصل إلى عهد هذا الوالي حتى نجد لديه كاتباً متفرغاً لمهنة الكتابة، اسمه خالد بن يزيد[1] وكان يلازم الوالي، ويكتب عنه كل ما يصدر من الرسائل، كهذا الكتاب الموجه إلى الأمير الأموي. بل إن المصادر تحدثنا عن كاتب آخر كان يساعده في هذه المهام، اسمه أمية بن زيد[2] الذي دخل الأندلس مع جند بلج بن بشر[3]، وقد تدل هذه المعلومات على اتساع في الأعمال بهذا المنصب، حتى كان الكاتب الرئيسي يحتاج إلى من يساعده فيه.

ثم إننا نجد في نفس كتب المؤرخين إشارات كثيرة تدفعنا إلى الاعتقاد بأن الكتابة الرسمية كانت شائعة متداولة لدى الولاة، وأنهم أخذوا يلجأون إليها في كثير من المناسبات التي ربما كان يكفي فيها الرسول المشافه، لو لم يكن الإنشاء الرسمي قد شقّ طريقه بعد، ورسخ الاعتماد عليه في أساليب الحكم وتقاليد السياسة. فهذا يوسف الفهري، ما إن يترامى إلى سمعه تحرك جماعة من أنصار الأمويين، ودعوة الناس على الشواطىء الأندلسية، إلى صاحبهم عبد الرحمن، حتى يكتب إليهم مخوفاً ومحذراً[4]. وهذا أحد أتباع عبد الرحمن الداخل يروي كيف كانت تجري عملية الترويج له فيقول: «ثم كاتبنا أهل قِنَّسْرين وفلسطين»[5]. يقصد النازلين بالأندلس منهم. ثم يضيف بعد ذلك مبيناً نوعية الخدمات التي أداها هو وجماعته لعبد الرحمن: «وأقمنا معه سنة نبرم له أموره ونكاتب له الناس»[6].

---

(1) خالد بن يزيد: كذا سماه ابن عذاري في البيان المغرب: 45/2 أما صاحب الحلة فسمّاه خالد بن زيد، وانظر الحلة السيراء، ج 2، ص: 342.

(2) أمية بن زيد: هكذا سماه ابن عذاري 58/2. وهو في النفخ أمية بن يزيد 46/2.

(3) بلج بن بشر: أحد قادة الجيش الشامي الذي أرسله هشام بن عبد الملك إلى الأندلس. ثم صار والياً لها. انظر مزيداً من أخباره في المعجب، ص: 36 والبيان المغرب 32/2.

(4) راجع «البيان المغرب» 44/2.

(5) نفسه 46/2.

(6) نفسه 46/2.

فهذه الشواهد وغيرها[1] تبين بشكل قاطع أن الكتابة كانت شائعة، وكانت مستعملة على نطاق واسع نسبيّاً، منذ أواخر عهد الولاة على الأقل. ولو أن كتب التاريخ التي أفادتنا بهذه المعلومات، حفظت لنا بعض النماذج الواسعة من هذه المراسلات العديدة، لأمكننا أن نخرج من استعراضها برسم صورة أقرب إلى الدقة لأساليب النثر الأدبي في هذا العهد ومقوماته الفنية.

هل وجدت الخطابة في هذه الفترة؟

والذي يلفت الانتباه في هذا المساق أننا لا نكاد نعثر على أية إشارة إلى الخطابة، مع أنه يبدو، لأول وهلة، أن أهم دواعيها متوفرة بالأندلس في هذا العهد، ولا سيما العصبية القبلية التي أضرمت نار الفتن المتلاحقة بين الجماعات العربية التي دخلت البلاد في أعقاب الفتح. وهي نفس العوامل التي أدت ـ في الظاهر ـ إلى ازدهار الخطابة العربية في المشرق أيام بني أمية.

وقد وقف بعض الدارسين المحدثين[2] عند هذه الحقيقة، فعدّ الخطابة أبرز فنون هذا العصر، لتوفر تلك الدواعي. ولكنه عندما أراد أن يمثل لها بشيء لم يجد إلا «خطبة طارق بن زياد» التي أشار إلى ما يدور حولها من شك، وإلى سطور قليلة من كلام عبد الرحمن الداخل، أثناء بعض معاركه مع يوسف الفهري.

والواقع أن الذي جرّ الدارس المذكور، وغيره، إلى خطإ التقدير في قضية وجود الخطابة المزدهرة في الأندلس، إنما هو إهمالهم لثلاثة من العوامل الرئيسية التي كانت تكمن فيها الدوافع الحقيقية لازدهار الخطابة في الشام والعراق والحجاز دون سواها من الأمصار الإسلامية في هذا العصر.

---

(1) منها مثلاً في المصدر السابق 35/2، وفي غيرها..

(2) هو سامي مكي العاني في كتابه: «دراسات في الأدب الأندلسي» ص: 134 وانظر أيضاً رأي صاحب كتاب: «فصول في الأدب الأندلسي» ص 61. فهو يرى أيضاً أن دواعي الخطابة متوفرة.

العامل الأول:

أن أهل هذه الأصقاع من العرب الأقحاح، أو هم في الشام والعراق خاصة يمثلون الأغلبية الفاعلة، المؤثرة في مجرى الحياة، بحكم انتمائها العربي. وهما بلدان أقام فيهما العرب قديماً، وجاوروا أهلهما، وأسسوا فيهما، أو على تخومهما، منذ أوائل العصر الجاهلي الممالك المعروفة[1]. وعندما انتشروا فيهما بعد الفتح، كان ذلك الانتشار مكثفاً، وكان ذا طابع عائلي، حتى إن الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، قد اختط لهم في العراق مدينتي الكوفة والبصرة، فنزل فيهما الناس بحسب انتماءاتهم القبلية[2]، وقد ساعد على استمرار الهجرة إلى الشام والعراق، قرب الدار، وإغراء المدنية النامية، وغيرها من العوامل التي لا مجال للتوسع فيها هنا.

ولم تكن الحال في الأندلس على شيء من هذا النحو. فالعرب قلة قليلة في بحر السكان الإسبان الأصليين، وتكاثر المغاربة الذين كانوا غالبية جيش الفتح كما رأينا، وقد تقاطروا على الأندلس للأسباب نفسها التي أغرت عرب الجزيرة بالنزوح إلى العراق والشام بوجه خاص. ثم إن عرب الأندلس قد دخلوها جيوشاً نظامية مما ينفي عن دخولهم الطابع العائلي، فكانوا مضطرين إلى التزوج من السبايا الإسبانيات، أو من بنات الأسر التي سارعت إلى قبول الإسلام ديناً. ومن المؤكد أن لهذا الواقع دوره في تكوين طبائع جديدة، وتناسي بعض الطبائع القديمة، وإدخال قدر غير قليل من التغيير على المجتمع الذي تكون هذه هي القاعدة العامة فيه[3].

(1) للتذكير فقط نشير إلى ممالك: المناذرة في الحيرة، والغساسنة في جلق، والأنباط في بطرا الخ.

(2) انظر ما يرويه أبو عبيدة عمر بن المُثَنَّى عن تمصير سعد بن أبي وقاص لمدينة الكوفة بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك في «معجم البلدان» مادة «كوفة».

(3) انظر مثلاً كيف استطاعت زوجة عبد العزيز بن موسى بن نصير (وهي إسبانية كانت زوجة سابقة لرذريق، أحد ملوك الإسبان) أن تقنعه بلبس التاج، مع شدة اعتراضه بأن ذلك ليس من تقاليد قومه. وحتى لو كانت الحكاية مصطنعة، فإنها تبقى ذات مغزى عميق ـ البيان المغرب، 23/2 و 24.

وخلاصة القول في هذا العامل الأول: أن العرب الذين ربما كان في طبائعهم الأصلية ما يجعلهم ينساقون إلى التعبير عما في نفوسهم بأسلوب الخطابة الذي هو من تقاليدهم الأكيدة منذ العصر الجاهلي، قد وجدوا نفوسهم قلة في مجتمع ليس في تقاليده، ولا في علاقته باللغة العربية، ما يجعله يقبل على هذا اللون من الأداء الفني، لا فاعلاً، ولا منفعلاً.

العامـل الثانـي:

وثاني العوامل التي أُهملت: أن الخطابة العربية المشرقية إنما ازدهرت لأنها وَجدت في الشام والعراق، فضلاً عن الجزيرة التي هي مهدها الأول، ومنبتها الأصلي، بيئةً طبيعية ومحيطاً مكانياً ملائمين، استطاعت التقاليد العربية المتأصلة منذ العصر الجاهلي، وصدر الإسـلام، أن تنمو فيهما بكل يسر. ونعني بصفة خاصة تلك الأسواق العظيمة التي كانت تنشط حيثما يقيم العرب، وحيثما يتجَمَّعُون، فما إن تنهض فيها حركة البيع والشراء حتى يرافقها موكب حافل من ضروب النشاطـات الأدبية، فيكـون فيها، إلى جـانب الباعـة، والعارضين، والدلالين... الشعراء، والخطباء، والقاصون... كل يعرض ما لديه بالأسلوب الذي يراه أقدر من غيره، على لفت الانتباه إليه، وشدّ الأسماع والأذهان إلى حلقته.

فإذا كانت صيغ التبادل التجاري هي هي بشكل عام، في معظم أنحاء العالم القديم، مما لا نستبعد معه أن يكون الفاتحون قد وجدوا في الأسواق الأندلسية، حين دخلوها، ما يذكرهم بعلاقات البيـع والشراء في أسـواقهم بالمشرق أو بالمغرب، وإن اختلفت المادة المعروضة لذلك البيع أو الشراء... فإن الذي لا مِرَاءَ فيه أن أساليب التبادل الثقافي، وضروب عـرض الإنتاج الفكري، هي شديدة الارتباط بأنماط السلوك الاجتماعي، وثيقة الصلة بضروب التنظيم المجتمعي، ومتغيرات التفاعل بين عناصره. ولذلك فمن يستطيع أن يجزم بأن العرب على قلتهم ما إن دخلوا الأندلس، حتى أقاموا فيها قوالب التبادل الثقافي، ونظموا فيها الأسواق لعرض البضاعة المادية، والإنتاج الأدبي،

على نفس الطرائق التي نقلت بها القبائل العربية المهاجرة تقاليدها، وأنماط سلوكاتها الاجتماعية، إلى الشام، أو إلى الكوفة والبصرة في العراق؟.

ومهما يكن من أمر، فإننا لم نعثر في ما أمكننا الاطلاع عليه، من المؤلفات الأندلسية والمغربية، على ما يرجّح لدينا القول بأن العرب والفاتحين المسلمين عموماً، وجدوا، أو أقاموا في الأندلس مناخاً خطابياً، كالذي أوجده العرب لأنفسهم في مهاجرهم الأولى ببلاد المشرق.

العامل الثالث:

وأخيراً، فإن أهم عامل في نظرنا، يمكن أن يفسر غياب الخطابة في الأندلس، في فترة الولاة بشكل خاص، إنما هو فقر الحياة السياسية بها في هذا الفترة من وجودها.

لقد وقف بعض الباحثين عند مجرد الفتن والثورات التي أسفر عنها ذلك الصدام الدامي بين القبائل العربية، التي إن نقلت شيئاً مؤكداً معها، فقد نقلت إحَنها القديمة، وحزازات النفوس التي بقيت كما هي... وقد اعتقد أولئك الباحثون أن العصبية القبلية وحدها ـ بالغة ما بلغت من الشدة والعنف ـ تقوى على أن تؤدي إلى نمو الخطابة وازدهارها. ويكفي لبيان مبلغ الخطإ في هذا المذهب أن نستنطق الأدب الجاهلي الذي بين أيدينا، لنرى أي أثر أدبي عظيم يمكن إرجاع الفضل فيه إلى العصبية القبلية ـ وكانت غاية في الشدة والتطرف ـ بل أي خطابة أنتجها ذلك العصر في موضوع العصبية، وما بقي لنا منها، على قلته، فاتر الصلة بهذه العصبية إن لم يكن عديمها بشكل مطلق. وهذا يقوم في نظرنا دليلاً على أن العصبية القبلية لا تكفي أبداً وحدها، كيفما كان مقدار شدّتها، لإنتاج أي ضرب من الأدب، لا شعراً، ولا خطابة ولا غيرهما، لأنها موقف سلبي يفرز تهيجات عقيمة لا تلد الفن الذي هو ظاهرة إيجابية تتمخض عن الحالات النفسية التي تتجاوز غرائز الذبح والفتك والسفك والتدمير والسباب الأجوف إلى تصميم بناء نظري، ومشروع فكري، يؤمن به صاحبه، وينافح عنه، ويدعو إليه. ولا يغير في ذلك شيئاً أن يكون البناء والمشروع بسيطين سَاذَجين

كساطة صاحبه وسذاجته، ولا ينقص منه شيئاً أن لا يُجمِع الناس على صلاحيته.

وحتى لو أنتجت العصبية القبلية فـنّاً مستساغاً عند هذا أو ذاك لاستعداد خاصّ في النفس، أو للتّلاؤم مع نوع محدد من الحساسية، فإنه من المحال أن تكون قاعدة عامة للإبداع، في أي فنّ من الفنون لدى أية أمة من الأمم.

والواقع، ومن هذا المنطلق الذي حاولنا أن نبين مرتكزاته، فإن الذي أبدع تلك الخطابة الراقية المزدهرة في المشرق أيام بني أمية، إنما هو ثراء الحياة السياسية بتلك الأحزاب العديدة التي كانت في الحقيقة تتصارع على الحكم، وكانت ذات مشارب شتى، ومذاهب دنيوية وأخروية متباينة، فكانت تصطنع لنفسها شتّى أنواع التعبير، وأن تبحـث عن أنجع وسائل التبليغ والإقناع الملائمة لظروف ذلك العصر، ونوعية ثقافته التي كانت ما زالت تعتمد على المشافهة، فاكتشفت أن لا شيء أفعل في ذلك المجتمع المغرم بالفصاحة والبلاغة من الكلام القوي الجميل ولا سيما عندما يأتي من صاحبه ارتجالاً وبديهة. فكانت منابر الخطابة، وكان الخطباء في كل سوق، وفي كل مجمع، وكان لكل حزب خطباؤه، كما كان لكل حزب شعراؤه. فأين من هذا واقع التمزق القبلي في أندلس عهد الولاة؟.

نستطيع الآن أن ننهي الكلام في هذه المرحلة الأولى بالإشارة إلى الحقيقة الوحيدة التي تبـدّت لنـا، وهي أنها كانت فترة هيجان كبير، واضطراب بالغ، لم تأنس فيها الأفئدة، ولم تطمئن القلوب، وقد وجد العرب أنفسهم في تمزق وتناحر، بين بحر وراءهم وعدو أمامهم، فلم يكادوا يلتفتون إلى أي ضرب من ضـروب الفـنّ والأدب الرفيعين، وهما اللذان دلت تجارب التاريخ المتكررة على الدوام، أنهما لا يعلُولهما شأن، ولا تتفتح لهما أكمام، إلا في محيط يضمن القدر الأدنى من الرخاء والأمن والاستقرار[1]. ولذلك لم يبقَ لدينا إلا

---

(1) كان يقود البلاد في بعض الأحيان ناس أميون كالصُّمَيل من حاتم الذي اقترح على الناس تولية يوسف الفهري، فلما ولّوه، تولى هو تدبير شؤون الأندلس جملة وتفصيلاً. انظر «البيان المغرب» 43/2.

الترجيح بأن الكتابة الديوانية، على قلتها، كانت، بالإضافة إلى بعض الشعر المحدود في شكله وفي مضمونه، كل ما يمكن أن يظهر في مجتمع كان على النحو الذي وصفناه[1].

فما الذي سيأتي به عصر الإمارة لتغيير هذه الصورة المؤذية، وإتاحة الانطلاق لمسيرة الثقافة الأندلسية على طريق النمو والتطور والازدهار؟.

* * *

---

(1) المصدر السابق.

ثانياً: النثر في عهد الإمارة الأموية

ـ فترة عبد الرحمن الداخل:

كان عبد الرحمن الداخل أميراً عاش في قصور الخلافة الأموية في دمشق. وكان من النضج والفطنة بحيث لا نستبعد أن يكون ـ وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره، عندما دخل الأندلس أوّل مرة ـ قد ألم بكثير من جوانب التنظيم في مملكة أجداده. ومما يدفعنا إلى هذا الترجيح أننا وجدناه منذ بداية إمارته، يحيط نفسه بمجموعة من الترتيبات الإدارية التي لم تكن قد عرفت قبله في الأندلس، أو لم تبلغ فيها هذا المستوى من الوضوح والتمايز. فهو قد اتخذ الوزراء، فكان له أربعة منهم. واتخذ الحجاب، فعدّ له منهم خمسة، وعين القضاة بصفة رسمية، فكان مجموع من عينهم خمسة أيضاً[1]. ولا بد أنه كان وراء هذه الإجراءات غاية محددة تتصل بتنظيم الدولة، وتنهيج طرائق الحكم، على نحو ما قد يكون عرفه الأمير الفتى في بلاده.

والذي هو أهمّ من كل ذلك، أنه استبقى في منصب الكتابة ذينك الرجلين الذين كانا يكتبان لآخر ولاة الأندلس: يوسف الفهري، وهما خالد بن يزيد وأمية بن زيد[2]. ولعل في هذا التصرف ما يصلح دليلاً على أن الأندلس، لم يكن قد نجم فيها إلى ذلك الحين عدد كبير ممن يحسنون كتابة الرسائل، فاضطر عبد الرحمن الداخل إلى إبقاء هذين الرجلين في مكانهما، مع أن الأول منهما

(1) أسماؤهم، وخبر تعيينهم في «البيان المغرب» 48/2.

(2) سبقت الإشارة إليهما، وإلى الاختلاف الوارد في اسميهما.

ـ خالد بن يزيد ـ هو الذي كتب إلى عبد الرحمن ـ باسم يوسف ـ رسالة الترهيب والترغيب التي كنا رأيناها قبل حين.

وقد اشتهر عبد الرحمن بفصاحته وبلاغته، فحدثنا من ذكروه[1] أنه كان مطبوع الشعر، وحفظوا له تلك الأبيات الرقيقة التي قالها في التشوق والحنين إلى بلاده وقومه بالمشرق[2]. غير أن الذي يجدر بنا أن نقف عنده، أنهم ذكروا أيضاً حذقه لأساليب الأداء النثري بالذات، فقال بعضهم عنه: «كان... فصيحاً بليغاً، حسن التوقيع، جيد الفصول»[3]. يَعْنُون الفصول النثرية بدون شك، مما قد يدل على أنه كان يباشر بعض أنواع الكتابة بنفسه وبالفعل، فإن لدينا نصاً بعيد الدلالة في بيان هذا الجانب عنده، وفي كشف ذوقه، وطريقته في الإنشاء. فقد كتب عنه كاتبه: أمية بن زيد رسالة إلى بعض العمال «يستقصره فيما فرط من عمله، فأكثر وأطال الكتاب، فلما لحظه عبد الرحمن... أمر بقطعه وكتب بخط يده: أما بعد، فإن يكن التقصير لك مقدماً، فعد الاكتفاء أن يكون لك مؤخراً، وقد علمت بما تقدمت، فاعتمد على أيهما أحببت»[4].

ولو أن المصادر حفظت لنا رسالة أمية بن زيد، لأمكننا أن نتبيّن الفروق الأساسية في التناول وطريقة التعبير في الرسالتين. ومع ذلك فنحن نستنتج خلاصة أولى، وهي أن الأمير يكره التطويل والإكثار. ونحن نلمح في ما كتبه الأمير جزالة محكمة، وإيجازاً شديداً، ونوعاً من التلاعب بالألفاظ في المقابلة بين «مقدماً» و «مؤخراً»، وكل ذلك مع وضوح تام في الغرض، وإصابة للهدف الذي قصده المنشىء، وهو في آنٍ واحد: الزجر عن التقصير، والإغراء بالإسراع في إنجاز ما رسم له. وقد جاءت العبارة على قصرها في غاية التوازن بين هذين القطبين، وذلك بالضبط ما كان يريده الأمير.

---

(1) منهم صاحب «المعجب»، ص: 41، و «الحلة السيراء» 35/1 - 42.

(2) انظر المصدرين السابقين ولا سيما الثاني منهما. وانظر كذلك النفح: 39/3.

(3) «البيان المغرب» 58/2.

(4) «البيان المغرب» 58/2.

إن الباحث ليرى فيما ذكر عن عبد الرحمن، من الأخبار المتصلة بعنايته بالنثر، أنه كان ميّالاً إلى حمل الناس على عرض شكاواهم في رُقَع مكتوبة بدل مشافهته بها، ولا سيما إذا كان فيها ما يؤذي كرامتهم من سوء الحال، وقلة المال، وربما كان في هذا ما يدل، من ناحية أخرى، على عنايته بتنظيم أعمال دواوينه التي لا بد أن بعضها كان مختصاً بالنظر في مثل هذه الشؤون. فلقد جاءه رجل، ذات مرة، يشكو إليه فقره في هذه العبارات: «يا ابن الخلائف الراشدين، والسادة الأكرمين، إليك فررت، وبك عذت من زمن ظلوم، ودهر غشوم، قلّل المال، وكثر العيال، وشعث الحال، فصير إلى نداك المآل، وأنت ولي الحمد والمجد، والمرجو للرفد»[1].

فأجابه الأمير بقوله: «قد سمعنا مقالتك، وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقامك، فلا تعودّن ولا سواك لمثله، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة، والإلحاف في الطلبة، وإذا ألم بك خطب، أو حزبك أمر، فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك، كَيْما نستر عليك خلتك، ونَكُفَّ شمات العدو عنك، بعد رفعك لها، إلى مالكك ومالكنا عزّ وجلّ، بإخلاص الدعاء، وصدق النية»[2].

هذان شاهدان يختلفان في دلالتهما على مذاهب النثر في هذا العصر. فكلاهما مرتجلان فيما يبدو ظاهرياً، ولكن النص الأول فيه من السجع والازدواج، والتكلف في التنميق، والجهد في الصنعة ما يشي بأن صاحبه أعده إعداداً طويلاً قبل عرضه على الأمير. وهذا في حدّ ذاته شاهد على أن الأندلس لم تخل، في النصف الأول من القرن الثاني، من بعض نماذج النثر المنمق، الذي يحمل طابع الجهد المبذول في توشيته، وإن أوهمنا صاحبه بالعفوية والارتجال.

---

(1) نفح الطيب: 39/3.

(2) نفسه.

أما كلام عبد الرحمن الداخل، فإنه مرتجل حقاً ككل ما وصل إلينا من نثره، وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى من هو في موضعه، فليست الكتابة شُغلاً له ولا حرفة. ولكنه مع ذلك يدل على تمكن كبير من ناصية اللغة، وإتقان لأساليب بيانها. وفي كلامه جهد غير قليل من التحسين والتجويد، يظهر بخاصة في ذلك الحرص الواضح على الموازنة بين العبارات، والانتهاء بها إلى فواصل موسيقية تستريح عندها الآذان. وقد يبلغ جرس التنغيم فيها حدّاً يوهم من لا يدقق فيها بأنها سجع، وليست إياه. ثم إن كلامه في غاية الدقة، قد بلغ أقصى المرام حين وعد، ونهى، وعلل، وأصلح، ودل على لين، وصرامة، وتواضع وإيمان، بأقل الألفاظ وأوجز العبارات[1].

وبعد، كان عبد الرحمن رجلاً عربيّاً أصيلاً، زادته الحضارة تأنقاً في منطقه، ولكنها لم تشط به عن منابع الذوق السليم، فجاءت الفقرات القليلة التي وصلت إلينا من نثره تحمل كل سمات شخصيته التاريخية: القوة، والدقة، والوضوح في الرؤية، والتسديد في إصابه الغرض، وبلوغ الهدف، وهي نفس صفاته الذاتية التي بنى بها مجده ومجد أبنائه وأحفاده في الأندلس. فهل نعجب بعد ذلك، إذا رأيناه، كأسلافه من العرب الأوائل، يتأثر بكلمة تقال، وتهتز مشاعره لعبارة بليغة، فإذا أعجبه نظامها، ودلته على فطنة صاحبها أو حسن بديهته، كافأه في الحال، بما قد لا يخطر على بال. لقد ثار عليه مرّة ثائر، فلما حاربه وتغلب عليه سيق أمامه مكبلاً محمولاً على بغل. وكان الأمير على جواده ينظر إليه، ثم لحقه وقال بصوت يسمعه الأسير: «يا بغل ماذا تحمل من الشقاق والنفاق! فقال الثائر: يا فرس ماذا تحمل من العفو والإشفاق! فقال: (عبد الرحمن) والله لا ذقت موتاً على يدي، فأطلقه»[2].

---

(1) وتظهر هذه الخصائص جلية في توقيع له أورده صاحب النفح: 39/3: «أما بعد فدعني من معاريض المعاذير...».

(2) «البيان المغرب» 59/2.

فترة الحَكَم بن هشام[1]:

لقد توارث أمراء بني أمية خلفاً عن سلف هذا الميل إلى المنطق الفصيح، والتعبير البليغ حتى ليندر أن نجد واحداً منهم لا يصفه المؤرخون بهذه الصفات: فهشام الرِضَى بن عبد الرحمن الداخل[2] «كان... بسط البنان فصيح اللسان»[3] والحكم بن هشام: «كان... فصيحاً بليغاً، شاعراً مجيداً[4]. وقد قيل مثل ذلك في أغلب الأمراء الذين جاؤوا بعدهما. ولكن المؤرخين كانوا يعنون بتسجيل ما أثر عنهم من شعر، أكثر مما يلتفتون إلى النثر.

فمن النصوص التي حفظوها للحَكَم بن هشام بن عبد الرحمن تلك الوصية التي خاطب بها ابنه وولي عهده عبد الرحمن الأوسط. وقد جاء فيها:

«إني قد وطدت لك الدنيا، وذللت لك الأعداء، وأقمت أود الخلافة، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة، فَاجْرِ على ما نهجت لك من الطريقة، واعلم أن أولى الأمور بك، وأوجبها عليك، حفظ أهلك، ثم عشيرتك، ثم الذين يلونهم من مواليك وشِيعَتِـكَ، فبهم أنزل ثقتك، وإياهم واس من نقمتك، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيتك، الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم، مستثقلين لأعباثهم. فاحسم عليهم ببسط العدل لكافتهم، واختيار أولي الفضل والسداد لأحكامهم وعمالتهم، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة. وإن رَأَيْتَ فيمن يرتقي من صنائعك رجلاً لم تنهض به سابقة، ويشف بخصلة، وتطمح نفسه وهمته، فأعنه، واختبره وقدمه، واصطنعه، ولا يَرِبْكَ خمول أوّله، فإن أ ول كل شرف ما ربيته. ولا تَدَعَنّ مجازاة المحسن بإحسانه،

---

(1) هو الحكم بن هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل، ثالث الأمراء الأمويين حكم ما بين 180 - 206 هـ، وهو المشهور بالحكم الربضي.

(2) هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل، خلف أباه بعد موته، وحكم ما بين: - 180 172 هـ.

(3) «البيان المغرب» 65/2.

(4) نفسه، 79/2.

ومعاقبة المسيء بإساءته. فإن التزامك لهذين، ووضعك لهما موضعهما، يرغب فيك، ويرهب منك»[1].

هذا نص جميل، فيه هدوء وسكينة، يشف عن حكمة صاحبه المستخلصة من تجربة الحكم الطويلة، ومعاناة أحوال السياسة. وفيما عدا ذلك فإننا لا نكاد نلمح فيه خاصية فنية تميزه عن نثر عبد الرحمن الداخل مثلاً. فهو يشبه، من جميع الوجوه، النثر العربي المرسل الذي ينتمي إلى هذه الفترة التاريخية. وهو يدل على أن كلام بني أمية، في نهاية القرن الثاني للهجرة، ما زال محتفظاً بفصاحة الأعراب وميلهم إلى الإيجاز، وتوخيهم الدقة، مع سلامة التركيب وجزالة اللغة. ولكن في النص من رقة الأداء، ولُيُونة السبك ما لا صلة له بخشونة البادية.

وينطوي هذا النص على قدر ظاهر من الحرص على نوع من التنغيم الذي تنتهي إليه فواصل الجمل القصيرة، مثل قوله: «واعلم أن أولى الأمور بك، وأوجبها عليك، حفظ أهلك، ثم عشيرتك، ثم الذين يلونهم من مواليك، وشيعتك، فبهم أنزل ثقتك، وإياهم واسِ من نقمتك...» فكَافَات الخطاب العديدة التي ينتهي إليها كل مفصل من مفاصل الجملة، مع قصر تلك المفاصل وتقاربها، يشيع في الجوّ نغمة موسيقية مريحة. فهي من الناحية الصوتية أقلّ ثراء من السجع، ولكنها أمكن في النفس من النثر العادي الذي لا يراعي مثل هذه التحسينات، وهي التي لولاها لفقدت هذه النماذج كل قيمة أدبية، وأضحت من الكلام اليومي الذي لا يمكن أن يدوّن، ولا أن يبحث فيه عن قيم فنية.

ومن الأمثلة الأخرى التي تبين لنا هذا الميل الواضح إلى تجويد العبارة، قوله في الوَصِيَّة المتقدمة: «فأعنه، واختبره، وقدمه، واصطعنه، ولا يربك خمول أوله، فإن أول كل شرف ما ربيته...» فإن ترتيب هذه الأفعال، وحشدها على هذا النحو، لا يمكن إلا أن يكون وليد تفكير مبعثه الحرص على التدقيق البلاغي، والسعي إلى تحسين هيأة الكلام.

(1) عن «الأدب الأندلسي...» لأحمد هيكل، ص: 128، عن جزء مخطوط من المقتبس.

وهكذا ينتهي القرن الثاني للهجرة[1] في الأندلس، دون أن يظهر في النثر الرسمي الذي وصلت إلينا بعض نماذجه، شيء يميزه تمييزاً كبيراً عن النثر الذي وجدناه في مرحلة الولاة، أو في عهد مؤسس الإمارة الأموية. ولعل الفرق الوحيد هو ليونة الأداء، والحرص على التنغيم، أما من حيث المضامين، فالنثر ما زال ذا طابع إعلامي بحت، تكاد تنحصر وظائفه في تبليغ إرادة الحكام، أو بسط وقائع الثورات والفتن، أو عرض أحوال الرعايا المتضرِّرِين.

فترة عبد الرحمن بن الحكم:

في مطالع القرن الثالث، ومع تولي الأمير عبد الرحمن الأوسط (ابن الحكم) نلمح مزيداً من العناية بكتاب الدواوين تجلت في ارتفاع عددهم. فقد اتخذ عبد الرحمن هذا ثلاثة منهم، هم: عبد الكريم بن عبد الواحد[2] وسفيان بن عبد ربه[3] وعيسى بن شهيد[4]. كما تجلت في ترقية رتبة هذه الوظيفة، إذ صار بإمكان أصحابها أن يعدّوا من الوزراء فكان الثلاثة المذكورون كتاباً وحجّاباً لعبد الرحمن.

وكان أول ما صدر من النثر الفني عن هذا الأمير خطبة افتتح بها عهده، أو ما يمكن أن نسميه خطبة العرش بمناسبة الجلوس على كرسي الإمارة بعد موت أبيه. فما إن تمت له البيعة وصلّى في جنازة أبيه، حتى جمع إخوته، وسادة أسرته. وكبار دولته، فجلس على الأرض، وجلسوا معه، ثم قال:

---

(1) توفي الحكم بن هشام، المعروف بالربضي عام: 206، كما ذكرنا في الهامش المتقدم.

(2) عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث: من عظماء القادة في الأندلس أيام الحكم الربضي وابنه عبد الرحمن. كان حاجباً للحكم ثم لابنه عبد الرحمن. انظر أخباره في «الحلة السيراء» ج 1، ص: 135. وهامش المحقق بها.

(3) سفيان بن عبد ربه: مغربي الأصل، تولى الحجابة بعد موت عبد الكريم بن عبد الواحد سنة 209. وانظر المرجع السابق.

(4) عيسى بن شهيد: تولى الحجابة لعبد الرحمن الأوسط. وهو من أعظم القادة الأندلسيين في هذه الفترة (المصدر السابق).

«الحمد لله الذي جعل الموت حتماً من قضائه، وعزماً من أمره، وأجرى الأمور على مشيئته، فاستأثر بالملكوت والبقاء، وأذلَّ خلقه بالفناء، تبارك اسمه، وتعالى جدّه: وصلى الله على محمد نبيه ورسوله وسلم تسليماً. وكان مصابنا بالإمام ـ رحمه الله ـ مما جلت به المصيبة، وعظمت به الرزية، فعند الله نحتسبه، وإياه نسأل إلهام الصبر، وإليه نرغب في كل الأجر والذخر. وعهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم، ولسنا ممن يخالف عهده، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله»[1].

هذه الخطبة: إما أن أهم أجزائها قد ضاع، وإما أن الأمير كان في قمة انفعاله، فاشتد ازدحام العواطف المتباينة في نفسه: حزن على موت أبيه، وغبطة باعتلاء عرش الحكم في الأندلس، فجمدت قريحته، وانعقد لسانه، فلم يقل شيئاً ذا بال. ومن المعلوم أن فترات التهيج الشديد، وتناقض المشاعر لدى حادث ما، لا تتيح الإبداع الفني الذي يتطلب قدراً من الهدوء الوجداني يتسنى معه تنظيم الانفعالات، وترتيب الأفكار.

نقول هذا الكلام، لأننا لا نرى شيئاً، من ناحية المضمون، في هذه الخطبة يمكن أن يرقى إلى عظمة المناسبة أو يسمو إلى جلال الموقف، أو يُبِين عن قدر المتكلم. ولعل كل ما يستلفت الانتباه، بهذا الصدد، أن الأمير الجديد قد حفظ وصية أبيه، فبرنامجه السياسي هو نفس ذلك الذي عهد به وَالِدُه إليه، وهو يبدو وقتئذٍ مصمماً على أن يلتزم بما جاء فيه، وأن يمضي شوطاً زائداً في اتجاه الأهداف المحددة فيه، وهذا ما يفهم بكل وضوح من قوله: «وعهد إلينا فيكم بما فيه صَلاَحُ أحوالكم، ولسنا ممن يخالف عهده، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله».

أما من حيث شكل هذه الخطبة. وأدواتها الفنية، فإننا إذا استثنينا مدخل التحميد، الذي هو افتتاح تقليدي، وقد تكون أهم أجزائه من محفوظه القديم،

---

(1) «البيان المغرب»، 90/2

كقوله. «وإياه نسأل الهام الصبر، وإليه نرغب في كل الأجر والذخر». . لا نكاد نجد شيئاً يمكن أن ينسب إلى إرادة التجويد والتحسين، أو إلى الرغبة في تنميق التعبير، بل إننا نجد الكثير من عباراته لا تختلف عن الكلام اليومي العادي كمثل قوله: «ولسنا ممن يخالف عهده، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله».

لو لم يكن بين أيدينا الآن نماذج أخرى من نثر عبد الرحمن الأوسط، لظننا أن هذا هو مبلغ زاده من هذا الفن، وحكمنا عليه حينئذٍ، بلا تردّد، بأنه زاد جدّ حقير. غير أن بين أيدينا من نثره ما يثبت أن حظه من الأدب أوفر مما تشير إليه تلك الخطبة. فمن الأمثلة التي نحب أن نوردها لبيان قدرته على الإنشاء الجميل، أنه أهدى ذات يوم إحدى محظياته عقداً نفيساً جدّاً، فاستعظم جلساؤه هذا الفعل منه، واستغربوا أن تهدى مثل تلك الثروة الطائلة إلى جارية من الجواري فقال: «إن لابسه أنفس منه خطراً، وأرفع قدراً، ولئن راق من هذه الحصباء منظرها، ورصف في النفس جوهرها، فلقد برأ الله من خلقه جوهرا يغشى الأبصار ويذهب بالألباب، وهل على وجه الأرض من زبرجدها، وشريف جوهرها، أقر للعين، وأجمع لزين، من وجه أكمل الله فيه الحسن. . وألقى عليه الجمال بهجته»[1].

ما أيسر أن نتمثل الفرق، في جمال التعبير وأناقته، بين هذه القطعة وما سميناه خطبة الجلوس على العرش. إن عبد الرحمن الأوسط، هنا، رجل فنان يتمتع بجمال جاريته مرّتين: مرّة بذكره، ووصف انبهاره به، ومرّة بالسعي إلى أداء التعبير عنه في هذه القوالب الشفافة المتأنقة، التي تفصح عن مبلغ حساسيته، وعظيم ما في نفسه من الغرام بحسن هذه الجارية.

ولو أننا توقفنا قليلاً عند شكل هذه القطعة، للاحظنا، من أول وهلة، جنوحاً بيناً إلى السجع، ولكنه من ذلك النوع الذي لا يثقل على السمع، ولا يركب من أجله صعب المطايا لأنه لا يضحي من أجله بتدفق العبارة، ولا

(1) «البيان المغرب»، 92/2.

يعتسف إليه الطريق إذا لم يكن يسير المنال، سهل المتناول. ولعل هذه الظاهرة أبرز في هذا النص، منها في كل النصوص التي أسلفنا فيها القول، مما يوحي بأن هذه المرحلة التي تغطي القرن الثالث ستشهد إقبالاً من الأدباء عليه، وتوخياً للاستكثار منه.

على أن النثر الأدبي، لا يمثله في هذا العصر الأمير الأموي وحده، بل ينبغي لنا أن نبحث عن نماذج أخرى لعامة المتأدبين أو عموم الناس الذين يلجؤون إلى النثر العربي للتعبير عما يشغلهم ويعنيهم. وليس أحسن لهذا الميزان من أن نتأمل بعض الرسائل الصادرة عن كُتَّابِه. فقد اشتكى سكان جزيرتي ميورقة ومنورقة إلى الأمير ما لحقهم من أذى على أيدي المسلمين[1] فردّ عليهم برسالة يقول فيها:

«أما بعد، فقد بلغنا كتابكم، تذكرون فيه أمركم، وإغارة المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم، وإصابتهم ما أَصَابُوه منكم، من ذراريكم وأموالكم، والمبلغ الذي بلغوه منكم، وما أشفيتم عليه من الهلاك. وسألتم التدارك لأمركم، وقبول الجزية منكم، وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة، والنصيحة للمسلمين، والكف عن مكروههم، والوفاء بما يحملونه عن أنفسكم. ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاحكم، وقمعكم عن العَوْد إلى مثل الذي كنتم عليه، أعطيناكم عهد الله وذمته»[2].

في هذه الرسالة تقيد كامل بالتعبير الديواني الرصين، المماثل في صرامة مضمونه، وتقشف مبانيه، واقتصاد معرضه، لكل النصوص ذات الطابع الإعلامي التي أتينا على تناولها في هذا الفصل. ويبدو مُؤكَّداً لدينا أن هذه الرسالة لا تكون إلا من إنشاء أحد الكتاب الرسميين لأنها لا تشبه في شيء ذلك التعبير

---

(1) لم تورد المصادر التي ننقل عنها، رسالة سكان الجزيرتين، ولو كانت بين أيدينا لكانت ربما أفادتنا في معرفة مدى استعراب النصارى الإسبان، هذا إن لم يكتبها لهم بعض الأندلسيين المسلمين ممن يتقنون العربية.

(2) «البيان المغرب»: 89/2.

الأنيق الذي وجدناه لعبد الرحمن الأوسط في حديثه عن جاريته. نعم إن مضامين الحكم والسياسة تستلزم من الصرامة في الأسلوب ما ينأى به عن رقة الغزل، وشفافية الصبابة، ولكننا مع ذلك لا نحسب أن الأمير كان يستفرغ جهده في تكرار ما جاء في رسالة المشتكين وعرض شكواهم من جديد، لو كان هو الذي كتب هذه الرسالة الجوابية، بل كان ما يستشعره من القوة والسلطة يملي عليه الاستفاضة في الترهيب، والإنذار والوعيد، ثم يخلص في النهاية إلى الترغيب، والتلويح بفوائد الطاعة ومزايا الاستكانة.

ومهما يكن من أمر، فإن النماذج الشحيحة التي حفظت لنا من إنشاء عبد الرحمن تظهره لنا قويّ الأسلوب، شديد العناية بعباراته، شديد البحث عن وجوه تحسينها، دون أن يكون في ذلك تكلف أو استكراه (هذا إذا نَحَّينا جانباً الخطبة التي ألقاها بعد موت أبيه، والتي بينا خلوها من كل ألوان الفن). ولعل توقيعاته التي كان يُذيِّل بها بعض الرسائل الواردة عليه تبين لنا بوضوح هذا المذهب. فقد كتب إليه أحد عماله يسأله وظيفة رفيعة، ولم يحسن التعبير عن رغبته هذه، أو لعل رسالته لم تكن في مستوىً من البلاغة يرضاه الأمير، وينشرح قلبه له، فوقَّع له بالعبارة التالية: «من لم يصب وجه مطلبه، كان الحرمان أولى به»[1] ومن يدري، فلعل الوظيفة المطلوبة هي خطة الكتابة، كما كانت تسمى وقتئذٍ، وهي التي اشتد حرص الناس عليها، وسعيهم إليها، منذ أن رقي صاحبها إلى مرتبة الوزير.

فترة محمد بن عبد الرحمن الأوسط[2]:

أجل، إن ولاية الأمير محمد بن عبد الرحمن قد شهدت صراعاً على هذه الخطة ترك أصداءه في بعض ما وصل إلينا من رسائل ومحاورات هذه الفترة. ذلك أن الأمير قد افتتح عهده بتعيين وزرائه وقادته، وكان عددهم اثني عشر،

---

(1) «البيان المغرب»: 93/2.

(2) محمد بن عبد الرحمن الأوسط، حكم الأندلس بعد وفاة أبيه من 238 إلى 273 هـ.

وكتابه وكانوا ثلاثة هم: عبد الملك بن أمية[1] وحامد بن محمد الزجالي[2] وموسى بن أبان[3].

ولم يكن الأول ذا قدم راسخة في الكتابة، ولا موهبة خاصة فيها. وقد عرف ذلك من نفسه، فلم يرد أن يتولى منصباً لا يقوى على حمل أعبائه، فأرسل إلى الأمير محمد يستعفيه. ولم نجد رسالة الاستعفاء هذه، ولكننا وجدنا الرسالة التي ردّ بها الأمير عليه، وهي التي يقول له فيها: «قد فهمنا عنك، ولم نأت ما أتيناه عن جهل بك، لكنْ اصطناعاً لك، وعائدةً عليك، وقد أبحنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكتّاب، فتَخيَّر منهم من تثق به، وتعتمد عليه، ونحن نعينك على أمرك بتفقد كتبك، والإصلاح عليك، إلى أن تركب الطريقة، وتبصر الخدمة إن شاء الله تعالى»[4].

أما الذي يجدر بنا أن نقف عنده، من حيث محتوى هذا الكتاب، فهو أن الأمير لا ينظر إلى هذه الوظيفة ـ وظيفة الكتابة ـ على أنها منصب فني أو «تقني»، كما نقول اليوم، ينبغي أن يتولاها صاحب الاختصاص المُجلّي في الميدان، بل يراها وظيفة سياسية ينهض بها من سارت أسرته منذ أمدٍ على تقاليد الولاء للكرسي الأموي في البلاد. ثم إنه يتيح لكاتبه أن يستعين بمن شاء من «التقنيين» ذوي الخبرة والتمرس بأساليب الإنشاء. وهو مع ذلك يحتفظ لنفسه بمهمة الإشراف على ما يصدر عن ديوان الإنشاء لأن تأثيره عظيم على حسن سير شؤون الدولة. بل إنه يعدُ كاتبه بإصلاح ما يحتاج إلى الإصلاح من رسائله، مما يدل على وعيه بتمكنه من هذا الفن، وثقته بسداد رأيه فيه. وأخيراً فإن الأمير يرى أن الكتابة «طريقة» يمكن أن يحذقها الإنسان بالتجربة والتمرس، وأن كاتبه لا بدّ أن يحسن يوماً «ركوبها».

---

(1) انظر الحلة، 140/1، وبخاصة هامش المحقق.

(2) نفسه، الهامش.

(3) البيان، 94/2.

(4) نفسه، 108/2.

هذه الاستنتاجات تعطينا فكرة واضحة، في هذه الفترة من نهاية القرن الثالث الهجري، عن نظرة الأمراء إلى الكتابة الرسمية، وعنايتهم الشديدة بها، وحرصهم على جودتها الفنية، وتشددهم في اختيار أهل الثقة والولاء التام لحمل مسؤولياتها.

والدليل الآخر على الشرف الذي اكتسبته خطة الكتابة في عيون الناس، أن واحداً من كبار قادة هذا الأمير، واسمه هاشم بن عبد العزيز[1]، قد حسد عبد الملك بن أمية المذكور على توليها، كما حسده عليها كثيرون ممن رأوا نفوسهم «أولى بها لاستكمال أدواتها»، فكان ذلك القائد «يثير سقطاته، ويتتبع هفواته، ويشنع عليه والأمير محمد بفطنته يتغافل عليه»[2] حتى تجاوز في ذلك كل الحدود، ولم يعد الأمير يتحمل الصبر عليه، فدعاه وقال له: «قد أكثر أهل خدمتنا وأكثرت في هذا الكاتب، تذكرون جهله، وفدامته، وقد ضممنا إليه من الكتاب من يستعين به، ويستظهر على خدمته بمكانه، وإنما نقفو بخدمتنا، ونسلك بمراتبنا طريق من ابتدأها وأسسها ووضع أهلها فيها. وإذا كنا لا نخلف آباءكم بكم، ولا نخلفكم بأبنائكم، فعند من نضع إحساننا؟ ونرب أيادينا؟ أعند أبناء الفرانين؟ أو الجزارين؟ أو أمثالهم من الممتهنين؟ وأنت كنت أحق بالحضّ على هذا، وتصويب الرأي فيه، لما ترجو من مثله في أولادك وعقبك»[3].

هذا موقف الأمير من وظيفة الكتابة وإسناد مسؤولياتها، وهذه فلسفته في توزيع وظائف الدولة على من سبقت لآبائهم خدمة بني أمية، وإحلال الأبناء في وظائف الآباء، كأنما هي مِلْكِيَّة تورث...

أما مبلغ الفن في رسالته، ثم في مخاطبته القائد: هاشم بن عبد العزيز، فهو لا يختلف عما ألفناه في رسائل أبيه وجدّه، وكلامهما. فالخصائص الفنية

(1) قائد ووزير من رجال دولة الأمير محمد بن عبد الرحمن. في الحلة 137/1، نبذة صالحة من أخباره.

(2) «البيان المغرب»: 108/2.

(3) نفسه.

هي هي: جزالة في التعبير، ودقة متناهية في إصابة الغرض، وحرص متفاوت على قدر من الأناقة، وحظ من النغم الموسيقي عند الفواصل، وتقيد بالتعبير المباشر الذي لا يكاد يلجأ إلى التشبيه أبداً، وإيجاز شديد، كأن في تطويل الرسالة أو الخطاب نيلاً من هيبة المُلك وجلال الإمارة.

ومن مأثورات الأمير محمد التي يصح أن تكون خير شاهد على طريقته هذه، قوله لقائده هاشم بن عبد العزيز، المتقدم ذكره، حين عاتبه على عدم تثبته، ووقوعه، لذلك، في الخطأ: «يا هاشم! من آثر السرعة أفضت به إلى الهفوة، ولو أننا أصغينا إلى محو[1] زلاتك، وأصخنا إلى هفواتك، لكنا شركاءك في الزلة، وقسماءك في العجلة، فمهلاً عليك، ورويداً بك، فإنك إن يُعَجِّلْ يُعَجَّلْ لك»[2].

كانت هذه نماذج من إنشاء الأمير، وديوان كُتابه في هذا العصر، فكيف كانت الكتابة يا ترى خارج القصر؟.

لدينا من ذلك رسالة كتبها رجل اسمه الوليد بن عبد الرحمن بن غانم[3] إلى الأمير محمد، يطلب فيها منه، بطريقة الإشارة والتلميح، توليته منصباً كبيراً من مناصب الدولة. ونص هذه الرسالة ما يلي:

«عَظُمَت نعمة الأمير، أبقاه الله، عن الشكر، وجلت أياديه عن النشر، فمتى رمت شكر أدنى ما غمرني، وحمد أيسر ما اشتمل عليّ، تكاءدني الشكر، وعجز بي الجهد، ولست بمؤمل مع ذلك عن الاستفراغ في القول، والاجتهاد في العمل، إذ لم أرهما يدوران إلا على نعمة أزلفت، ويقتصران إلا على زيادة انتظرت، وأنا بهما مخيم، وعليهما معوّل، والله الناقل لعباده، بطاعتهم له،

---

(1) كذا في الأصل، ولم يستقم لنا المعنى بوجود كلمة «محو» وربما استقام بدونها واتضح.

(2) «البيان المغرب»: 107/2.

(3) الوليد بن عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم (توفي 272 هـ). من وزراء الأمير محمد بن عبد الرحمن. الحلة، 374/2.

وانظر هامش المحقق في الجزء 1 من الحلة، ص: 141.

وشكرهم أيادِيَهُ، من دار الشِّقْوَة إلى دار السَّعَادة، ومن نَصَب العاجِلة إلى راحة الآجلة»[1].

ها هي ذي رسالة رجل من مثقفي هذا العصر، وممن يرون في نفوسهم الكفاية لتولي المناصب العليا. ويُشتمُّ من أواخر الكتاب، أنه ربما كان له إلمام ببعض مسائل الفقه، أو ممن أطال النظر في كتبه، وهو على كل حال ينم عن نَفَسٍ ديني واضح لم نر انعكاساً له بمثل هذا الظهور في ما وجدناه من رسائل هذه المرحلة كلها. فإذا تجاوزنا هذا الجانب من الرسالة لم نجد فيها ما يميزها عن غيرها من الناحية الفنية لا من حيث بناؤها العام، ولا من حيث أنماطها التعبيرية، ولا من حيث أدواتها الفنية التي سعى الكاتب من خلالها إلى التزيين والتجويد.

وقد علق الأمير على هذه الرسالة تعليقاً يدل على أنها أعجبته، إذ كتب عليها: «إن الله شاكر يحب الشاكرين، وقد ناديت فأسمعت، ولكل أجل كتاب»[2]. ومما يَلفت الانتباه، أن وعد الأمير بالاستجابة قد جاء في نفس صيغة الإشارة والتلميح التي اعتمدتها الرسالة، وفيه نَفَس ديني، تجلى في الاقتباس من القرآن الكريم. وهو توقيع يدل فعلاً على ذكاء صاحبه وفطنته، ويُصدِّق ما ذكره أهل التاريخ من أنه كان: «فصيحاً، بليغاً. . . ذا بديهة ورويّة»[3].

فترة الأمير عبد الله بن محمد[4]:

مع دولة الأمير عبد الله نصل إلى أُخَرَيَات القرن الثالث. ويحدثنا المؤرخون بأنه اتخذ ثلاثة من الكتاب[5] ليس فيهم واحد من كتاب أبيه، وكأنما جدّد هيأة الكتابة في ديوانه.

---

(1) أخبار مجموعة، ص: 148 وانظر رسالة لابن غانم هذا إلى هاشم بن عبد العزيز في سجنه النفح: 373/3.

(2) «أخبار مجموعة»، 148.

(3) «البيان المغرب»: 107/2.

(4) عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط. حكم من سنة 273 إلى سنة 300 هـ.

(5) ذكرهم صاحب «البيان المغرب»: 120/2.

ونحب أن نقف عند شاهدين اثنين من شواهد نثره. أما الأول فهو رسالة أملاها بنفسه على أحد كُتابه، وهي في الردّ على أحد العمال أكثر من مراسلة الأمير، وتوجيه الكتب إليه، حتى أثقل عليه بذلك، فزجره بقوله: «أما بعد فلو كان نظرك فيما خصصناك به، واهتبالك به على حسب مواترتك بالكتب، واشتغالك بذلك عن مهم أمرك، لكنت من أحسن رجالنا عناءً[1]، وأتمهم نظراً، وأفضلهم حزماً، فأقلل من الكتب فيما لا وجوه له، ولا نفع فيه، واصرف همتك وفكرتك، وعنايتك إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك، ويظهر فيه غناؤك إن شاء الله»[2].

إن الذي تجدر الإشارة إليه، في البداية، أن الكتابة قد بلغت عند الولاة مبلغاً من اليسر، والشيوع جعل بعضهم يستخدمها للاتصال بالأمير فيما «لا وجوه له، ولا نفع فيه»، ولا بد أن الذي حفز الأمير على زجر عامله عن الإكثار من المراسلة، كثرة ما يرد إليه من الأقاليم، مما هو في موضعه من وجوه النفع والأهمية، فأَحَبَّ أن يخفف بالكف من تضييع وقت الكاتب والمخاطب فيما لا غناء فيه. ولو أنه لم يكن يرد على القصر إلا رسائل هذا العامل لما انزعج الأمير، إلى الحد الذي رأيناه.

أما الشاهد الثاني من نثر الأمير عبد الله فهو محاورة جرت بينه وبين أحد رجال دولته. قال الأمير: «إن مخايل الأمور لتدل على خلاف قولك، وتنبىء عن باطل تنصلك، ولو أقررت بذنبك، واستغفرت لجرمك، لكان أجمل بك، وأسدل لستر العفو عليك.

فقال (الرجل): قد اشتمل الذنب عليّ، وحاق الخطأ بيّ، وإنما أنا بشر، وما يقوم لي عذر.

«فقال (الأمير): مهلاً عليك، ورويداً بك، تقدمت لك خدمة، وتأخرت

---

(1) كذا في الأصل ولعلها «غنا».

(2) «البيان المغرب»: 154/2.

لك توبة، وما للذنب بينهما مدخل، وقد وسعك الغفران»[1].

في هذا النص على قصره، تظهر كل خصائص النثر الذي استظهرناه منذ لاحت عليه علامات التجويد والتجميل. فَهَا هُنَا التدفق العذب، والسهولة الجزلة، والتفنن في استعمال حروف الجرّ، والإيقاع الموسيقي الذي يوشك في كثير من الحالات أن يكون سجعاً تاماً، والتوازن الدقيق المنسجم بين مفاصل الجملة، مع ترديد للمعنى الواحد في صياغات مختلفة، وقوالب متعانقة، تزيد المضمون دقة وتمنح التعبير جرساً يحبّبه إلى الأسماع.

بهذا نصل إلى نهاية المرحلة الثانية من تطور النثر الأدبي في البلاد الأندلسية ولقد درسنا معظم النصوص التي استطعنا العثور عليها في المصادر القديمة، وحاولنا أن نقف وقفات مختصرة عند مضامينها وأشكالها، لبيان أغراضها واستخلاص طابعها الفني، وصلتها بالمحيط السايسي. ويحسن بنا أن نجمل الآن ما وصلنا إليه من الملاحظات التي تشمل المرحلتين المدورستين كلتيهما، في عهد الولاة، وعهد الإمارة:

1 ـ إن النشأة الحقيقية للنثر الأندلسي يجب أن تلتمس عند أهل الأندلس الذين أقاموا فيها بعد الفتح، أو نَشَأُوا بها وتأثروا بمعطيات أرضها وسمائها. ومن هنا يظهر عدم جدوى البحث في أدب، يحف به الشك، للقادة الفاتحين، لنسبته إلى الأندلس، وعده من جملة تراثها. فذلك الأدب لو صح لهم لكان له باب آخر في غاية الأهمية، يؤرخ لتطور الفتوح، ويقيم مذاهب الفاتحين في الانفعال بالحوادث التي تمر بهم، ويمايز بينهم على أساس الأساليب التي يتخذونها لتعبئة الجيوش وإذكاء نار الحماسة فيهم.

2 ـ إن أهم النصوص التي تصلح أن تكون شواهد على ما أنتجه الأندلسيون من النثر الأدبي، تعود إلى أواخر عهد الولاة، وتكاد أن تكون كلها مرتبطة بظهور دعوة عبد الرحمن الداخل، وتفاقم أمر الدعوة الأموية في

(1) نفسه.

الأندلس، مما قد يدل على قلة الآثار النثرية في الفترة السابقة لذلك، أو على إهمال المؤرخين لها لعدم ارتباطها بحوادث بارزة، كظهور الدعوة الأموية. .

3 ـ لقد استند بعض الباحثين إلى ما تأجج من نار الفتنة العصبية في البلاد، بعد أن ارتحل عنها القادة الفاتحون، فظنوا أنه عامل يكفي وحده لظهور الخطابة وازدهارها، قياساً على ما حدث في المشرق، في صدر الدولة الأموية. وقد بينا أن هذا العامل لا يكفي وحده لظهور الخطابة، وازدهارها، وأن الأندلس قد افتقرت إلى العنصر الرئيسي الذي أوجد تلك الخطابة في المشرق وهو ثراء الحياة السياسية بالأحزاب العديدة، ذات المنازع المتباينة، التي وجدت في الخطابة أسلوباً ملائماً لبث دعوتها، وربح الأنصار لقضيتها.

4 ـ ووجدنا بعد ذلك، أن أهم أغراض النثر، في هاتين المرحلتين، كانت تلتقي كلها عند ضرب من التعبير يتميز بالطابع الإعلامي. فهي في جلّ الحالات، نصوص تبليغية توصل أمراً، أو نهياً، أو نصيحة، أو تعرض وضعاً من الأوضاع الجماعية أو الفردية، ولذلك كان الشعر هو الذي يقوم بالوظائف التعبيرية الأخرى التي هي من خصائصه، والتي يكون فيها تجاوز «الخبر» إلى وصف أثره في النفس، بأسلوب يتلاءم مع طبيعة الشعر. وكان الأمراء أنفسهم يعبرون عن مثل هذه الحالات بواسطة الشعر، ويلجأون إليه كلما جاشت نفوسهم بما لا يستطيع أن يفصح عنه النثر الذي لم يكونوا يرون فيه ـ غالباً ـ إلا جوانبه الإعلامية والتبليغية.

5 ـ وكان من الطبيعي، إذن، أن تكون النصوص التي وصلت إلينا ذات علاقة ما، على وَجْهٍ من الوجوه، بالرسائل، والعهود والوصايا. وحتى المحاورات الشفوية، التي استعرضنا جانباً منها، والتي تجري بين الناس في إطار من التعبير الفني، كانت تتخذ شكل الرسالة. فكأن المتكلم يوجه إلى صاحبه الذي يحاوره رسالة إعلامية، تشبه تمام الشبه، في مضمونها وفي أدائها، الرسائل المكتوبة.

6 ـ وقد استبان لنا أن أقطاب الكتابة في هذا الضرب من النثر إنما هم

الأمراء الأمويون أنفسهم، طوراً يكتبون بأقلامهم، وطوراً يملون على كتابهم. وقد اهتموا بخطط الكتابة في دولتهم، وظلوا يرتقون بمناصبها حتى ألحقوها برتبة الوزارة. ورأينا كيف سمت هذه الوظيفة في عيون الناس، وكيف كانوا يتسابقون إلى الفوز بها، ويتتبعون، حسداً وغيرة، السقطات والهفوات التي تند عمن يرتقي إليها. أما الأمراء الحاكمون، فكانوا يعدونها من المناصب السياسية الخطيرة، ولذلك لم يكونوا يولون عليها إلا من ثبت ولاؤه، ورسخ في القلب إخلاصه للعرش الأموي.

7 ـ ودرسنا الجوانب الفنية المتصلة بشكل تلك النصوص، ومظهرها الخارجي فبينا ما استطعنا، وما اتضح لنا من خصائصها، وذكرنا أنها بدأت تتأنق شيئاً فشيئاً، وأخذ أصحابها يحرصون على استخدام الكثير من أدوات الزينة، ولكن هذا الحرص على الجمال لم يبلغ أبداً مستوى التبرج الذي بدأت تشيع بعض طرائقه في المشرق منذ أواخر هذا العهد الذي نؤرخه.

8 ـ ولقد تطور هذا الأداء دون شك، فهناك بون شاسع بين عهد عبد العزيز لتودمير، أو رسالة عبد الرحمن الداخل إلى سليمان بن الأعرابي، وما فيها من أمثال: «لأُلْقِيَنَّ بنانها على رضف المعصية، نكالاً بما قدّمت يداك»[1] وبين كلام حفيده عبد الرحمن الأوسط، في النصف الأول من القرن الثالث، حين قال في جاريته: «فلقد برأ الله من خلقه جوهراً يغشى الأبصار، ويذهب بالألباب، وهل على وجه الأرض من زبرجدها، وشريف جوهرها، أقرّ للعين، وأجمع لزين، من وجه أكمل الله فيه الحسن»[2] مما هو قريب النسب بذلك الكلام الذي سيظهر آواخر القرن الرابع، والذي سنسميه نثراً بيانياً، وهو الذي سيشرع في منافسة الشعر، في الموضوعات التي كان بها مختصاً.

9 ـ ولقد فعل الزمن فعله في تكييف الإنسان بمظاهر النعمة، وسمات الحضارة، فلانت العبارة، وسَهُلت المخارج، وخَفّ الإيقاع، وطاب الجرس

(1) «البيان المغرب»: 58/2.
(2) «البيان المغرب» 92/2.

الموسيقي، واطمأنت الفواصل. ومع ذلك فلم يحدث في هذا النثر على امتداد قرنين من الزمن ما ينقله من طور إلى طور، أو يدخله إلى مجالات حديثة لم يكن يعرفها.

10 ـ وخلاصة القول أن النثر قد تطور في هذين القرنين تطوراً ملحوظاً في جزئيات دقيقة من معانيه، ومبانيه، ولكنه ظل وفياً في شكله ومضمونه لضرورات الرسالة الإعلامية، والمهمة التبليغية التي حُصِر فيهما.

وها هوذا القرن الرابع على الأبواب، يأتي وقد تخلت الأندلس عن معظم مكونات بساطتها الأولى، وغزت ألوانٌ من التعقيد المدني، والنعومةُ الحضاريةُ فيها عقولَ الناس ومحيطهم الاجتماعي، وجلس على العرش رجل سينقل البلاد نقلة خطيرة حين يعلن الخلافة فيها، ويطبع الحياة كلها بطابع الشخصية القوية، فتتحول البلاد من مرحلة التأسيس والتلقي إلى مرحلة النضج والعطاء. فكيف سيعبر النثر عن جوانب هذه الحياة؟.

* * *

ثالثاً: النثر في عهد الخلافة إلى أواخر القرن الرابع

ما إن نأخذ في دراسة النثر الذي أنشأه رجال القرن الرابع الهجري، في الأندلس: ونقترب من نماذجه وعيناته، ونشرع في التعرف على فئاته وأصنافه، حتى يغمرنا الإحساس بأنه قطع شوطاً في مسيرة نضجه وتنوعه، وعبر إلى ضفة أخرى في مسار تطوّره.

لقد وجدنا النثر، طوال القرنين الماضيين: الثاني والثالث، لا يكاد يفارقه طابعه الإعلامي، التبليغي، ولا يكاد يخرج عن دائرة الوالي ثم الأمير، يحمل عنهما ما يريدان إيصاله إلى الناس، أو ينقل إليهما ما يعرضه بعض الناس عليهما من شؤون الحياة وصروف الزمان.

أما في هذا القرن، فمنذ مطالعه الأولى، نرى الصياغة النثرية تقتحم مجالات جديدة، تعكس مدى النضج الذي ظفرت به العقول، والازدهار الذي بلغته الحضارة في مختلف الميادين، والتعقيد الذي بدأ يصيب المظاهر الاجتماعية والسياسية للحياة.

فلو لخصنا، غاية التلخيص، بنية الفنون النثرية في هذا العصر، لجاءت صورتها كما يلي:

1 ـ النثر الإعلامي:

1.1 ـ رسائل التبليغ التقليدية.

2.1 ـ وصايا الاستخلاف.

3.1 ـ المناشير.

2 ـ النثر التنظيمي:

1.2 ـ مراسيم التوظيف في المناصب السامية.

2.2 ـ سجلات الزعامة على القبائل.

3 ـ النثر الخطابي في المحافل الرسمية.

4 ـ النثر البياني.

5 ـ النثر التدويني.

وسنلم الآن بهذه الفنون واحداً واحداً، متوقفين عند بعض نماذجها، محاولين استخلاص ما يمكن من خصائص فنّها في المحتويات والأشكال.

1 ـ النثـر الإعلامـي:

رأينا في القسم الأول من هذا البحث أن النثر العربي في الأندلس، نشأ في أحضان السياسة: في ساحتها ولد، وتحت رعاية الولاة والأمراء خطا أولى خطواته، وأرسى أولى قواعده. فلا عجب، حينئذٍ، أن يرتبط تطور قسم هام منه، بتطور مرافق الدولة، وأن يساير نموُّه، نموَّ الحاجات التي كانت في الأول علة وجوده.

وإذا كان ذلك صحيحاً، فإن الدولة الأندلسية الموحدة قد بلغت في القرن الرابع ذروة رقيها، فكثرت خططها، وتنوعت مراتبها، وتعددت حالات تدخلها بغية المزيد من التحكم في سير الشؤون العمومية، وضبط إجراءات التنظيم التي لم تكن تبدو الحاجة إليها في العصور المتقدمة. ويمكن أن نعتبر ـ في هذا السياق ـ إعلان عبد الرحمن الناصر[1] للخلافة في البلاد سنة 316 هـ تحولاً حاسماً، في مجال تنظيم الإدارة المركزية، ونقلة كبيرة لها؛ فإن

(1) عبد الرحمن الناصر أول وأعظم خلفاء الأندلس. ولي الإمارة سنة 300 هـ. ثم أعلن الخلافة سنة 316 هـ. وتلقب بالناصر. وبقي فيها إلى أن توفي سنة 350 هـ. تفاصيل حكمه في البيان، 156/2 - 233.

أبهة الخلافة تتطلب من وجوه التنظيم، والضبط، والاتصالات، والعلاقات ما لم تكن تتطلبه الإمارة[1].

وكان من نتائج هذا أن ارتفعت قيمة الوظائف الكتابية، وتعددت فروعها، وشاعت ألقاب الوزارة عند من يتولونها، وصار الكتاب الوزراء من أخص خاصة الخلفاء، لأنهم لسانهم الناطق بتعليماتهم، المبلِّغ لإرادتهم حين يكتبون. وهم موضع الأمانة، ومستودع السرّ، في كل ما يرد إلى أمير المؤمنين من أنباء الأقاليم، وتقارير العيون والجواسيس، ومراسلات الأصدقاء والأعداء من الملوك والحكام الأجانب.

ولذلك كان لا بد أن يستمر النثر الإعلامي التبليغي القديم، وإن طرأ عليه بعض التجديد في قوالبه ومحتوياته. وأن تستحدث أصناف جديدة منه استجابة لضرورات التنظيم الحديث. وسنخص كلا الضربين بوقفة موجزة، في ما يلي.

1.1 ـ النثر الإعلامي التقليدي: رسائل التبليغ.

كان هذا الصنف من النثر أقدم صور الإنشاء الديواني كما رأينا، لأن الحاجة إليه تبدو في وقت مبكر من تنظيم أي لون من ألوان السلطة، وإقامة أي ضرب من ضروب الحكم المركزي[2]. وهو في الغالب ذو طابع فردي، بمعنى أن مضمون الخطاب يقتصر على فرد واحد هو الموجَّه إليه، والمعني بما فيه، وقد يتطور بعد ذلك فيكتسي طابع «المنشور» أو «التعميم» الذي يوجه إلى مجموعة من الناس، في نسخ عدة، لأنهم معنيون كلهم بما

(1) انظر في هذا الموضوع كتاب ليفي بروفنسال: «الأندلس في القرن العاشر (الميلادي): نظمها وحياتها الاجتماعية».

(2) وهذا ظاهر في تاريخ النثر العربي عامة في كل عصوره منذ صدر الإسلام كما تدل على ذلك رسائل الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفائه الراشدين، بل منذ العصر الجاهلي، كما تدل على ذلك الرواية المتعلقة بصحيفة طرفة والمتلمس إن صحت، أو الروايات المتصلة بأخبار الغساسنة والمناذرة.

يحتويه. وهذا كأن يبعث الحاكم إلى ولاة الأقاليم أمراً أو نهياً أو استيضاحاً، أو توضيحاً أو غير ذلك مما يَحتاج إلى تبليغه.

وتستمر الحاجة إلى هذا النوع قائمة، كيفما كان مبلغ الدولة من الرقي والتقدم بعد ذلك، لأنه الأداة التي لا غناء عنها في إقامة «المبادلات» بين الحكام والأفراد، أو بينهم وبين جماعات القائمين باسمهم على رأس السلطة المحلية، والعاملين في وظائفها.

وعلى هذا الأساس، فإن قيمة هذا الصنف من النثر عند من يتصدّى لدراسته في هذا العصر، لا تكمن في وجوده، كما كانت الحال في مراحل نشوئه، وإنما تنحصر في معرفة مدى ما أصابه من التقدم الفني في أشكاله ومضامينه.

فإذا بحثنا عن نماذجه المأثورة عن هذا العصر، فإننا نجدها كثيرة لا تحصى، وإنما نختار منها ما يمثل روح القرن أكثر من غيره.

من ذلك رسالة كتبت عن الحكم المستنصر[1] تتضمن قبول عودة ثائر إلى الخضوع والطاعة[2] يقول في قسم منها: «وقد قبل أمير المؤمنين معاذيرك وأصغى إليها. فإن يرد الله بك خيراً في عاجلتك وآجلتك، يشرح صدرك لطاعة أمير المؤمنين وموالاته، ويُيَسِّرك لما يلبسك رضاه، ويقربك منه، فإنه جامع في ذلك أحوالاً تحمد مواردها ومصادرها، وإحياء ما أماتته الأيام منها، وتجديد ما أخلقه المنحرفون عنها...»[3].

هذه الرسالة مؤرخة في ذي القعدة من عام 362 هـ، أي أنها في أواخر

(1) الحَكَم المُستَنصر بن عبد الرحمن الناصر: حكم من 350 إلى 366 هـ. وهو خليفة عالم تحدثنا عنه بإسهاب في الفصل الثاني.

(2) هذا الثائر هو عبد الكريم بن يحيى، صاحب عدوة الأندلسيين بفاس. أعلن العصيان ثم عاد إلى الطاعة. وانظر المقتبس، ص: 126.

(3) أثبتنا نحو ثلث ما أثبته صاحب المقتبس، وهو نفسه جزء من الرسالة الأصلية: المقتبس، ص: 126.

عهد الحكم، وهي كانت، كما يفهم من المصدر الواردة فيه، طويلة، ولعل ما أُثبِت منها فيه لا يعدو أن يمثل الجزء الأصغر منها. فهذا الطول في رسائل هذا العصر من الخصائص التي تنفرد بها عما سبقها في المرحلة الأولى. فقد أصبح الكتاب يطيلون العرض، ويتوسعون في البسط، وكانوا في المرحلة الماضية يتوخون الإيجاز والاقتضاب في الكلام، ويقتصرون منه على الإشارة الخاطفة، واللمحة الدالة. وهي صفة الكلام العربي الأصيل.

وتظهر في هذه الرسالة ميزة ثانية، هي اطمئنان العبارة، واسترسال وتيرتها، حتى إن الجملة الواحدة لتتجاوز في الطول عدة أسطر. أما الأدوات الفنية فيها فناقصة، إذ هي عارية عن ذلك الإيقاع الموسيقي الذي كان يوفره الازدواج، والتنغيم عند الفواصل المتقاربة. ولكن هذا الاسترسال، وقلة القيود الفنية هما اللذان مكنا الرسالة من أن تكون غاية في الرزانة، والهدوء، تخاطب العقل، وتعتمد على السرد المطمئن في إيراد محامد الخليفة، وبيان فضل طاعته. . .

ومن رسائل هذا القرن رسالة صدرت عن المنصور بن أبي عامر يخاطب فيها بعض جنوده الذين فرّوا أثناء إحدى حملاته على النصارى الإسبان. ومنها قوله: «وكثيراً ما فرط من قولكم، وسبق من عزمكم[1]، أنكم تجهلون قتال المعاقل والحصون، وتشتاقون ملاقاة الرجال على العجول، فحين جاءكم شانجه[2] بالأمنية، وقاتلكم بالشرطية، وظهرت لكم رعلة الطائفة النصرانية أنكرتم ما عرفتم، ونفرتم [مِـ]ـمّا ألفتم، حتى فررْتُم فِرار اليعافير من آساد الغيل، وأجفلتم إجفال الرئال عن المقتنصين، فألحقتم العار بأنفسكم، بعد اختياري لكم، وطرقتم الشر على أعناقكم، وضيعتم حرماتكم، وأحضرتم

---

(1) في المصدر الذي نقلنا عنه: «عزمهم»، ونظن أنها غلطة مطبعية.

(2) شانجه بن غرسية أحد زعماء النصارى، إذ كان ملك نبارة. ولعله والد /عبدة/ الجارية النصرانية التي تزوجها المنصور، وولدت له عبد الرحمن، فسمته شنجول لتتذكر به أباها شانجو. وانظر الحلة، هامش المحقق في: 272.0241.

ذمتكم، فلا نعمتي رعيتم، ولا تزييني حفظتم، ولا وجوهكم أبقيتم، ولا غضب الله ورسوله اتقيتم، فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة، فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون ﴾ وقال: ﴿ ومن يولهم يومئذٍ دبره إلا متحرّفاً لقتال، أو متحيزاً إلى فئة، فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾. ففيم ولِمَ كان انحيازكم؟ أشكّاً في وعد ربّكم؟ أم خوراً في أصل طبعكم؟ أم عجزاً عن دفع باطلهم بحقكم؟.. ما كان إلا لسفه أحلامكم، وسوء نظركم في عاقبة أموركم، يا أحلام الأطفال وأخلاق الرجال... إلخ...»[1].

هذه، في الواقع خطبة في ثوب رسالة. وهي مشحونة بالغضب والنقمة على جماعة الفارين، وهي حقاً تمثل التطور الكبير الذي أصاب الرسالة، فهي تختلف كثيراً عن النموذج النثري الذي رأيناه في زمن الحكم المستنصر، ولعل لموضوعها، وما هو قادر على استشارته في نفس القائد الأعلى للجيش الأندلسي من مشاعر السخط، دَخلاً في توجيهها هذه الوجهة الفنية، فجاءت رسالةً مجلجلة الإيقاع، متلاحقة العبارات، كثيرة الفواصل، يشيع فيها التقابل بين المقاطع، وينتشر فيها هذا النوع من السجع. إنه سجع من النوع الميسور الذي لا يتقيّد به الكاتب تقيّداً دقيقاً، ولكنه يقصد إليه بدون شك، حتى إذا لم تسعفه اللفظة لم يتعسف إليها كل طريق. ثم إنه سجع قليل التَّنَوُّع، فقير إلى حدٍّ ما، لأنه كثير الاعتماد على ياء النسبة: (الشرطية، النصرانية)، وإسناد الكلمات إلى جمع المخاطبين: (عرفتم، نفرتم، ألفتم، فررتم) وما إلى ذلك من الاستعمالات التي تعطي نغماً يضاهي أثرُه الموسيقي، أثَرَ السجع، ولكنه يختلف عنه في ثراء التقارب بين المخارج، وفي كثافة النغم الموسيقي. ثم إننا نلاحظ في هذه الرسالة كَثْرَة الاستشهاد بالقرآن الكريم، مما لم نعهد مثله في نثر المرحلة الماضية.

وأخيراً فإننا نلاحظ في المقاطع الأخيرة من هذه الخطبة نَفَساً خطابياً

---

(1) تاريخ قضاة الأندلس، ص: 83 و 84.

يذكرنا ببعض الخطب المنسوبة إلى الإمام علي في نهج البلاغة، ولا سيما الخطبة المعروفة بخطبة الجهاد حيث يقول مثلاً: «فواعجباً من جدّ هؤلاء في باطلهم، وفشلكم عن حقكم، حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون. . .» أو كقوله: «فأنتم والله من السيف أفر يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا أحلام أطفال، وعقول ربات الحجال. . .»[1] إلى غير ذلك من المقاطع التي تذكرنا خطبة المنصور بها وبلهجتها.

ولكي تكتمل لنا صورة رسائل التبليغ في هذه المرحلة الثانية من تطور هذا الصنف من النثر الإعلامي، فإننا نحب أن نتوقف عند رسالة كتبها ابن برد الأكبر[2] عن المظفر بن أبي عامر[3]، ولعلها تمثل آخر ما وصل إليه هذا الطراز من الكتابة في أخريات القرن الرابع.

قال الكاتب في رسالته إلى أحد الخارجين[4]: «أما بعد أتاك الله رشدك، وأجزل من توفيقه قسطك، فإن الله تعالى خلق الخلق غنياً عنهم، وأنسأهم بمهل غير مهمل، بل ليحصي آثارهم، وليبلو أخبارهم، وجعلهم أخيافاً متباينين، وأطواراً مختلفين، فمنهم المختص بالطاعة، ومنهم المبتلى بالمعصية، وبين الفريقين أقوام خلطوا عملاً صالحاً، وآخر سيّئاً، عسى الله أن يتوب عليهم، ولو شاء الله لكان الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، ولذلك خلقهم.

«والسعيد من خاف ربه، وعرف ذنبه، وبادر بالتوبة قبل فوتها،

---

(1) راجع هذه الخطبة في العقد الفريد، ج 4، ص: 70.

(2) هو الوزير الكاتب: أبو حفص بن برد الأكبر، أخباره وأدبه في الذخيرة 1/1 - 103. توفي عام 418 هـ.

(3) عبد الملك المظفر. تولى الحجابة في عهد أبيه، ثم خلفه فيها بعد موته. حكم الأندلس في عهد هشام المؤيد بالله من 392 إلى 399 هـ.

(4) في الذخيرة، أن الثائر الذي خرج عن المظفر هو هذيل بن رزين. وسيشتهر أمره كأحد زعماء الطوائف.

واستعطى الرحمة قبل منعها، وإن كنت تركت قصدك، وخالفت رشدك، ونكبت عن سبيل سلفك، فلم يوحشك ممن شردت عليه مكروه نالك به، ولم يؤنسك ممن جنحت إليه، أمل لم تطمع فيه إلا لديه. بل كنت آمناً من المخاوف، بعيداً عن المكاره، قريب المكانة، رفيع الدرجة، مصدراً في أهل النصيحة والثقة، خلا أنه حدث بينك وبين الحاجب ما لم يزل يحدث بين القواد والعُمَّال على قديم الزمان، مما لم يبلغ أن يخرج ذا الرأي الأصيل عن طبقته... ولن تضيق بك السبيل عند أمير المؤمنين، وأنت بين طاعة سالفة، واستقامة موروثة، وبين إنابة منتظرة، وتوبة مستقبلة، فإحدى الحالتين تحط الذنوب الكبيرة، وتغطي على العيوب الكثيرة.

«فالآن، عصمك الله، واللبب رخي، والمركب وطي، وبابك إلى رضى أمير المؤمنين مفتوح، وسبيلك إلى حسن رأيه سهل، ولا يذهب بك اللَّجاج إلى عار الدنيا ونار الآخرة، إياك ومصارع الناكثين، وحَذَارِ موارط الغادرين»[1].

لقد بُذِل في هذه الرسالة جهد واضح لينأى بها صاحبها عن لهجة التهيج والانفعال المتوتر. ولولا بعض المقاطع التي تضمنتها، لكانت في جملتها أقرب إلى الوعظ، الذي يصلح توجيهه إلى كل الناس، منها إلى زجر ثائر. ولولا الفقرة الأخيرة بالذات لما استطعنا أن نفهم بجلاء أن الخطاب موجه إلى أحد أمراء المقاطعات الذين استقلوا بولاياتهم في وقت مبكر عن جسم الدولة، وخرجوا عن طاعة السلطة المركزية.

والحق أن الرسالة قد تبنت أسلوب النصيحة، والإرشاد، والمجادلة بالحجة، والإغراء بالطاعة والعودة إلى صفوف الجماعة، والتهوين من شأن الخلاف الحاصل بين الثائر والحاجب. ولم يأت التهديد إلا في أواخر الرسالة خَفِيًا مستتراً، ولكنه مع ذلك واضح النية، صارم العزيمة.

(1) عن الذخيرة: 1/1 - 108.

أما من الناحية الفنية فإن هذه الرسالة تمثل الروح التي سادت هذا الضرب من الإنشاء طوال القرن الرابع، وتعكس أهم الخصائص السائدة فيه، والتي هي: التفنن في الأداء والحرص على جمال الصياغة، ودقة التعبير، ووضوح المقصد، مع ميل واضح إلى التجويد والتحسين بتوليد المعاني، وحشد أدوات الزينة اللفظية من ازدواج، ومقابلة، وسجع خفيف لا تخلو منه، كلّما أمكن استدعاؤه بيسر، ولكنه لا يُطلب لحدّ ذاته أبداً، ولا يَلُوح أبداً أن الكاتب يتكلف السعي إليه، أو يُكرِه نفسه عليه.

ويشبه هذا الصنف من التبليغ الكلام الذي جرت العادة على أن يوجهه الملوك لأبنائهم وأولياء عهدهم الذين سيخلفونهم في مناصبهم. وهو من الأنواع التقليدية، وهو ذو طابع فردي لأنه يوجُّه إلى فرد بصفة خاصة، ويمكن أن نسميه: وصايا المستخلفين.

2.1 ـ وصايا الاستخلاف:

هي نوع من العهود يضمنها الحكام، في آواخر مدد حكمهم، الآراء والنصائح التي يودون أن يستضيء بها أو يسير على هديها من يرثون عنهم قيادة البلاد. وهذا الضرب أيضاً من أنواع النثر التقليدي. فقد عرف عند العرب وعند الأندلسيين منهم كذلك منذ زمن بعيد[1].

ولدينا من هذا العصر، القرن الرابع، بل من أواخره[2] وصية المنصور بن أبي عامر إلى ابنه عبد الملك المظفر، وهو يقول له في جزء منها:

«يا بني! لست تجد أنصح لك مني، فلا تعدين مشورتي. قد جرّدت

---

(1) كنا ذكرنا في بدايات هذا الفصل الوصية التي وجهها الحكم بن هشام بن عبد الرحمن إلى ابنه وولي عهده: عبد الرحمن الأوسط.

(2) توفي المنصور بن أبي عامر، صاحب هذه الوصية، في رمضان من عام 392 هـ. وانظر ظروف موته في البيان المغرب، 301/2.

لك رأيي وروِيّتي على حين اجتماع من ذهني، فاجعلها مثالاً بين يديك. قد وطّأت لك مهاد الدولة، وعدلت لك طبقات أوليائها، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها، وخلفت جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك، فلا تطلق يدك في الإنفاق، ولا تقيض لظلمة العمال، فيختل أمرك سريعاً، ذلك سرف راجع إلى اختلال لا محالة. فاقصد في أمرك جهدك، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك.

«والرعية، وقد استقصيت لك تقويمها، وأعظم مُنَاهَا أن تأمن البادرة، وتسكن إلى لين الجنبة. وصاحب القصر قد علمت مذهبه، وأنه لا يأتيك من قِبَلِهِ شيء تكرهه، والآفة ممن يتولاه، ويلتمس الوثوب باسمه، فلا تَنَمْ عن هذه الطائفة جملة، ولا ترفع عنها سوء ظن وهمة، وعاجل بها من خِفْتَه على أقل بادرة...»[1].

يبدو أننا لا نطمع في أن نجد لدى المنصور بن أبي عامر ـ وهو على سرير الموت ـ التِفَاتاً إلى تزيين الكلام يخرجه عن الحد اللازم لبلوغ الإبَانَة والتأثير، ولسنا ندري بعد ذلك إلى أيّ حدّ يصحّ لنا أن ننسب هذا النص بألفاظه إلى المنصور. فقد رواه المؤرخ ابن حيان عن أبيه الذي «سمع المنصور يقول...»[2]، فإلى أيّ حدّ استطاع والد المؤرخ أن يحفظ كلام ابن أبي عامر بحرفه. والأقرب إلى المعقول أن يكون حفظ من معانيه أكثر مما حفظ من ألفاظه، وعلى ذلك فلا فائدة ترجى من البحث عن خصائص فنية لهذا النص تدلنا على مذهب الحاجب في تأليف الكلام. ولعل قيمته الكبرى في نمطه، فهو يدلنا على أن هذا لنوع من النثر الشفهي ظل موجوداً في عهد كثر فيه اللجوء إلى الكتابة في أبسط الأشياء.

ولم يقتصر النثر الإعلامي في هذه المرحلة، على هذه الأنماط التقليدية، إذ شاعت فيه صيغ حديثة لها صلة بالصيغ المتقدمة، ولكنها

---

(1) الذخيرة: 1/4، ص: 76.

(2) نفسه.

تختلف عنها في الهدف الذي ترمي إليه، والظرف الذي يُلجَأ إليها فيه. وأهم أنماط هذا النثر الجديد في صيغته: المناشير.

3.1 ـ المناشير:

يمكن أن نسمي هذا الضرب من التبليغ «المناشير»، ويمكن أن نسميه «المعممات» أو «التعميمات». وهي في جوهرها نوع من الرسائل، لا تختلف عنها إلَّا في أنها لا تقتصر على مخاطبة فرد أو جماعة قليلة، وإنما تهدف إلى إعلام جمهور واسع من الناس أو من الموظفين في رتبة من الرتب: كالقادة، أو الكتّاب، أو الولاة، أو القضاة.. أو جميع هذه الفئات؛ تُعْلِمهم بأوامر الحاكم، أو تبلغهم المعلومات التي تتصل بمَا يقومون به من الأعمال في نطاق وظائف الدولة. وقد تتسع كما سنرى حتى يكون الناس كلهم معنيين بها لأنها تتناول وقائع أو حوادث تهم البلاد كلها، فالناس أجمعون مخاطبون بها.

ونورد فيما يلي ثلاثة نماذج من هذه المناشير، ترجع إلى فترات مختلفة من القرن الرابع، ليتسنَّى لنا استقراء ما قد يكون حدث فيها من التطور.

ـ منشور عبد الرحمن الناصر:

احتفظت لنا المصادر بأول منشور وجهه عبد الرحمن الناصر إلى عماله في الأقاليم، بعد إعلانه الخلافة الأموية بالأندلس، وتلقبه بألقابها عام 316 هـ. ونص هذا المنشور ما يلي:

«بسم الله الرحم الرحيم. أما بعد فأنا أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه، لِلّذي فضلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويَسَّر على أيدينا إدراكه، وسهل بدولتنا مرامه، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعلو أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا. واستبشارهم بدولتنا.

«والحمد لله ولي النّعمة والإنعام بما أنعم به... وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا: بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا، وورودها علينا بذلك، إذ كل

مُدْعُوٌّ بهذا الاسم غيرنا منتحل له، ودخيل فيه... فامر الخطيب بمَوْضِعِك أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله...»[1].

هذا المنشور بليغ المعاني، فصيح الألفاظ، سهل الصياغة، فيه حرص على توفير ذلك الجرس الموسيقي الذي يتصاعد من التوازن بين العبارات، والتنغيم الذي تنتهي إليه الفواصل والمقاطع، دون أن نستطيع تسمية ذلك بالسجع الحقيقي. وإن كان يعد ضرباً من ضروبه البسيطة الجميلة، ولوناً من ألوانه قبل أن يصيبه الإغراب والتعقيد. وهذه الخصائص هي خصائص النثر الأدبي إجمالاً في هذه المرحلة، بقطع النظر عن نمطه ونوعيته.

ـ منشور الحَكَم بن عبد الرحمن:

إن المنشور الثاني الذي نريد أن نقف عند بعض خصائصه، هو ذلك الصادر عن الحكم المستنصر إلى الولاة، يبشرهم فيه بالقضاء على ثورة ابن جنون[2]. يقول في بعض أجزائه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي لا يحاط به، والظاهر الذي لا يظهر عليه، الواحد الذي لا يكاثر، والقادر الذي لا يقادر، مقدر الأقدار، ومصرف الأعصار، ومكور الليل على النهار، المتعالي عن العيان، والممكن بكل مكان، الموصوف بما علمنا من صفاته، المعروف بما أرانا من آياته، المعين على طاعته بقدرته، الميسر لموجبات جنته برجمته... الخ...

«والحمد لله رب العالمين، الذي اصطفى من عباده صفوة اختصهم بكرامته، وأعزهم بفضيلة نُبوّتـه، وجعلهم وسائط بينه وبين عباده، فأيدهم بالسلطان والبرهان، وعضدهم بالآيات البينات، والشواهد المعجزات... ثم

---

(1) «البيان المغرب»: 198/2.

(2) حسن بن قنون (ويكتب بالجيم) الحسني. ثار في المغرب في عهد الحكم المستنصر عام 361. وانحاز إلى الدعوة الشيعية، فسير له الخليفة جيشاً بقيادة غالب بن عبد الرحمن الناصري، فقضي على ثورته، وعاد به إلى الأندلس خاضعاً مذعناً عام 364 هـ.

ختمهم بأكرمهم عنده مكاناً، وأرفعهم لديه منزلة، محمد ﷺ، أرسله إلى الناس كافة بدين الإسلام، الذي نسخ به الأديان، ونهج به مناهج الإيمان. . . واظهر فضله لقوله تبارك وتعالى: ﴿ إنّ الدّين عند الله الإسلام ﴾ وقوله: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ وقوله: ﴿ إنّ الله اصطفى لكم الدّين، فلا تموتّن إلا وأنتم مسلمون ﴾. . . الخ. .

«والحمد لله الذي اصطفى من عترته، وانتخب من دوحته، خلائف في أمته، حملة لسنّته، حفظة على شريعته، رعاة لخلقه. . . وجعلهم خلفاء على عباده ذادة عن حزبه. . . حتى أورث الله تعالى مقامهم، وَارِثَ شرف أنسابهم، وحائز كرم أحسابهم. . . أمير المؤمنين. . .

«فأيد الله تعالى جنده، ونصره، وأعلاه، وأظفره بمن قد كان جاهر بمعصيته، وأعلن مخالفته، وتجانف عن طاعته، وأخذ له بناصيته، وأوقعها تحت رغبته ورهبته، حتى استوثقت الطاعة في جميع بلاد المغرب. . .»[1].

إن ما أوردناه من هذا المنشور لا يعدو جزءاً قليلاً جدّاً من النص الأصلي، وقد أخبرنا صاحب المصدر الذي ننقل عنه «أنه من إنشاء الوزير الكاتب، صاحب المدينة بقرطبة، جعفر بن عثمان، يعني الحاجب المصحفي المعروف[2].

فأول ملاحظة تسجل في تقويم هذا المنشور أنه مُفرِط في الطول، وكان منشور عبد الرحمن الناصر الذي مرّ بنا قبل حين مقتضباً. فهذا الطول هنا واحد من خصائص منشور الحكم. ثم إن الطول قد شمل المدخل خاصة،

---

(1) عن جزء من المقتبس لابن حيان: ص: 178 - 182: في آخر نص «وكتب في صدر ذي القعدة سنة ست وثلاثين وثلاثمائة».

(2) كان وزيراً للحكم المستنصر، ثم عينه حاجباً له، وبعد وفاة الخليفة تغلب عليه ابن أبي عامر وأودعه السجن إلى أن مات فيه عام 372.

حتى إنّ أكبر أجزاء النص المحفوظ هي مداخل من التحميدات، والعناية بالتحميدات، والتطويل فيها ثانية خصائص هذا المنشور، وهي ثلاثة أنواع: التحميد الأول مدخل حقيقي، والتحميد الثـاني يؤدي إلى ذكر الـرسول والصلاة عليه، والتحميد الثالث يؤدي إلى ذكر خلفائه الذين منهم «أمير المؤمنين» الحَكَم المستنصر. وكان هذا هو الهدف الحق لهذه التحميدات كلها. وهذه المميزات كلها لم يكن لنا عهد بها قبل هذا المنشور.

وأخيراً فإن هذا النص، ولا سيما في مقاطع التحميدات، كثير السجع، واضح الزخرف، متأنق العبارة، مُوشًى بالآيات القرآنية. ولكن هذه الألوان من الزخرف لا تشمل سائر الفقرات، بل إن الأواخر منها كادت تعرى عن كل زينة، وتتجرد من كل مظاهر التجويد التي حفلت بها أوائلها. ومما يستلفت الانتباه، بهذا الصدد، أن الكاتب قد أورد من جزئيات القضاء على الفتنة، وتفاصيل استئصالها في المغرب ما يبدو غريباً أن يلجأ كاتب بليغ إلى مثله. وتفسيرنا له أن الحكم المستنصر كان شديد الخوف من الحركة الشيعية في المغرب، فكان التوسع في أنباء القضاء على واحد من مظاهرها، المتمثل في ثورة ابن قنون ممّا يكفل إعادة الشعور بالأمن إلى البلاد، وإشاعة ما للجيوش الأندلسية وقادتها، من كفاية في التغلب على كل من تسول له نفسه نبذ الطاعة وإعلان العصيان.

ـ منشور عبد الملك المظفر:

وآخر ما نورد من هذا النوع من النثر الإعلامي الذي شاع استخدامه، منشور عبد الملك المظفر، ويختلف عن المنشورين الأولين في أنه موجه إلى الناس كافة. وهو يمثل صورة هذا الإنشاء في أواخر القرن الرابع[1]. وقد كتبه أديب مخضرم أدرك القرن الخامس، وهو أبو حفص بن برد الأكبر[2]. قال:

---

(1) نذكر بأن المظفر قد توفي سنة 399 هـ.

(2) وزير كاتب، سبق التعريف به.

«أيها الناس، ـ وفقكم الله لعصمته، واستنقذكم برحمته ـ إن من علم منكم حال الخائن عيسى بن سعيد[1]، بالمشاهدة، ورأى مبلغ النعمة عليه بالمحاضرة، فقد اكتفى بما شهد، واجتزأ بما عاين وحضر، ومن غاب عنه كنه ذلك من عوامكم، بانتزاح منزل، أو لاتصال شغل، فليعلم أنّا أخذناه من الحضيض، وانتشلناه من شظف العيش الأَنْكَد. . . فاعتمدته، ومهدت له فرش الكرامة، وبوأته دار الفخامة. . فلم يقم لله تعالى بحق ولا قابل إحسانه بصدق، ولا عامل رعيتنا برفق، ولا تناول خدمتنا بحذق، بل أعلن المعاصي حتى إذا ملكه الأشر، وتناهى به البطر، وغَلَتْ به الأمور، وغرّه بالله الغرور. . الخ[2].

ذكر المؤلف الذي نقلنا عنه هذا المنشور أنه اجتزأ من الأصل بعض الفقرات. ونحن لم نورد منها إلا قسماً يسيراً، وفي هذا دليل على ميل النثر الإعلامي الرسمي إلى الإفاضة والتطويل في أواخر هذا القرن، فقد كانت المراسلات كثيرة الإيجاز ثم أخذت تتسع شيئاً فشيئاً حتى بلغت هذا الحجم الذي رأيناه.

ويبدو هذا النص، من الناحية الفنية، أكثر صنعة، وأظهر تجويداً، وأكثر استعمالاً للسجع والتزاماً به من كل ما مرّ بنا من نوعه إلى حدّ الآن، وهو قد جاء بالفعل مكتمل الأدوات البلاغية، ناضج الأساليب البيانية، ولا عجب، فإن كاتبه ابن برد الأكبر من أساطين التَّرَسُّل في هذا القرن والذي يليه، وممن نالت المكاتبات الرسمية على يديه تقدماً ملحوظاً.

لقد تبين لنا أن المناشير ضرب جديد من الإنشاء الرسمي شاع في هذا العصر، وأنها على قسمين: قسم محدود النشر، يوجه خاصة إلى فئة من قادة

---

(1) عيسى بن سعيد القطاع وزير الدولة في عهد المظفر قتله لمحاولة الثورة عليه بمبايعة رجل من بني أمية يكون خليفةً بَدَلَ هشام المؤيد. راجع ما كتبناه عن هذا العهد في الفصل الأول.

(2) عن الذخيرة: 1/1 - 121.

النظام الحاكم ورجاله، وقسم يوجه إلى كل الناس، وكان يُقرأ لجمهور العامة في المساجد. وتحدثنا الكتب التاريخية[1] عن مناسبات كثيرة تتلى فيها هذه المناشير في المساجد، ولا سيما ما يسمى: «كتب الفتح» وهي الرسائل التي يوافي بها القائد المنتصر في المعارك ضد النصارى الخليفة، فتكتب منها نسخ كثيرة وتوزع على أئمة المساجد لإطلاع الناس على ما فيها من وصف المعارك، وتفاصيل الانتصارات[2].

وإذا كانت هذه المناشير تختلف عن رسائل التبليغ التقليدية، ذات الطابع الفردي، فإن هناك صيغة أخرى من الإنشاء شاعت في هذا العصر أيضاً، وهي تختلف عن الصنفين السابقين كليهما، ونعني بها الوثائق التي يتم بموجبها تعيين فرد في مهمة رسمية. وقد بدا لنا أنها هي نفسها على نوعين: مراسيم تتضمن تعيين موظفين في مراتب الدولة العليا، و «سجلات» تتضمن ولاء قبيلة بأكملها، وتعيين زعيم عليها.

2 ـ النشر التنظيمي:

وهو نوعان: أحدهما: يختص بموظفي الدولة، والثاني: يعني بتنظيم الزعامة على القبائل، كما ذكرنا.

1.2 ـ **مراسيم التوظيف في المناصب السامية.**

مما لا شك فيه أن هذه الصيغة من الإنشاء الرسمي أثر من آثار نمو الإدارة الأموية، وتطور أدوات ضبطها، وخصوبة الجانب التشريعي فيها. فلم يكن هذا النمط شائعاً قبل القرن الرابع، ولعله لم يكن معروفاً بالمرّة، في فترة حكم الأمراء. وقد أضحى الخليفة لا يعين مسؤولاً كبيراً في وظيفة إلاّ

---

(1) منها كتاب الذخيرة، والبيان المغرب، في مواطن كثيرة، ولا سيما عند الحديث عن غزوات المنصور بن أبي عامر في بلاد النصارى، انظر مثلاً «البيان المغرب» 220/2، و 236 و 238 الخ..

(2) لم نجد شيئاً من هذه الرسائل فيما استطعنا مراجعته من كتب الأدب الأندلسي وتاريخه ذلك أن المؤرخين كانت عنايتهم منصبّة على ما يبعث به الحاكم لا ما يرد إليه.

خاطبه بكتاب التولية الذي يتضمن قرار تعيينه، ويذكّره بالنعمة التي يُسبغها عليه، ويحدد له بعض جوانب مهمته. وسنمثل لهذه الصيغ بنموذجين: أحدهما: في تعيين قاضٍ، والثاني: في تعيين والٍ. وكلاهما في عهد الحَكَم المستنصر.

- مرسوم تعيين القاضي محمد بن السليم[1].

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب أمر به أمير المؤمنين الحَكَم المستنصِر بالله، محمدَ بْنَ إسحاق بن السليم، ولاه به خطة القضاء، واختاره للحُكْم بين جميع المسلمين ورفعه إلى أعلى المراتب عنده، في تنفيذ الأحكام، غير مطلق يده إلا بالحق ولسانه إلا بالعدل.

«... وأمره بتقوى الله العظيم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأن يجعل كتاب الله أمامه ينظر فيه نظر المفكر المعتبر...

«وأمره أمير المؤمنين أن يقتدي بسنة رسول الله، ﷺ، التي بها عملت الأئمة، وعليها اتفقت الأمة، فالحق معروف، والباطل مكشوف...

«وأمره أن يصلح سريرته فيها، يصلح الله علانيته، وأن يبرأ من الهوى، فإنه مضلة عن طريق الحق، وأن يجعل الناس في نفسه سواء، إذا جلس للحكم بينهم، حتى لا يطمع فيه الشريف، ولا ييأس منه الضعيف...

«وكتب يوم الاثنين للنصف من شعبان سنة 353»[2].

في المصدر الذي نقلنا عنه هذا المرسوم، قدم المؤلف له بقوله: «ونص ظهير ولايته «يعني القاضي ابن السليم»، وأثبت القطعة التي أخترنا منها الفقرات السابقة. والذي استوقفنا في كلامه هذا هو لفظة «ظهير»، وأغلب ظننا، إن لم يكن يقيناً، أن هذا المصطلح لم يكن مستعملاً في

(1) أبو بكر، محمد بن إسحاق بن السليم، ولي القضاء بعد منذر بن سعيد البلوطي وتوفي عام 367 هـ، وأخباره في تاريخ قضاة الأندلس، ص: 76.

(2) عن تاريخ قضاة الأندلس، للنباهي، ص: 75 - 76.

الدواوين الرسمية في هذا العهد، وعلى هذا فالمؤلف قد يكون استعمل هذا المصطلح «استعمالاً رجعياً» لمَّا شاع في عصره هو[1]، كما استعملنا نحن كلمة «المرسوم» الشائعة عندنا اليوم.

وليس في هذا النص ما يستوقف الدارس غير انتشار النفس الديني فيه، وكثرة إشارته إلى مبادىء العدل الإسلامية، وحرص الخليفة على أن يكون القاضي متقيّداً بأحكام الشريعة، لا تأخذه في الله لومة لائم. وليست هذه اللهجة بغريبة في نص يرسم به الخليفة تعيين قاضٍ في أعلى المراتب القضائية في قرطبة عاصمة الخلافة. ولعل المرسوم الثاني أن يكون أكثر احتفالاً بالجوانب الفنية التي يعنينا تتبعها.

- مرسوم تولية أصبغ بن محمد بن فطيس:

قال صاحب المقتبس في أخبار أهل الأندلس: في عام 361 «ولي الحكم المستنصر، أصبغ بن محمد بن فطيس نصف كورة ريّة، ووجه إليه كتاباً هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فإنما تستدام النعمة بشكرها، وتعرف النصيحة باستعمالها، وبالنصيحة تتفاوت منازل العبيد لدى سادتها. وقد رأى فيك أمير المؤمنين رأياً عظمت به عليك النعمة، فاسع للمحافظة عليها بمقدار عقلك وكفايتك، أو بحسب نقصك وتقصيرك فاستعن بالله، وخذ بالرفق في أمرك، وقلة الرغبة في شأنك.

«واجتنب التحامل على رعيتك، فإنها من حفي عناية أمير المؤمنين بموضع لا يترك معه البحث عن أحوالها، والكشف عن سيرتك فيها إن شاء الله.

«ورأى تقليدك شطر كورة ريّة، وهي من أهم كور الأندلس عليه، براً،

---

(1) أبو الحسن علي بن عبد الله المالقي النباهي من رجال الدولة وأعيانها المشهورين في مملكة بني نصر بغرناطة. وكان صديقاً للسان الدين بن الخطيب.

وبحراً، وجباياتها، وضياعها. فانظر أيّ خادم تكون، وشاكر للنعمة تظهر إن شاء الله»[1].

من أظهر خصائص هذا النص أنه قصير، موجز، في غاية الدقة والانسجام وهو من هذه الناحية يلائم طابعه ومضمونه. وثاني خصائصه أنه واضح التقسيم، بحيث يمكننا بكل يسر أن نميز بين محاوره الثلاثة: فقد كان البدء بتعظيم نعمة الخليفة على صاحب الولاية وما يستتبعه ذلك من حث على التمسك بطاعته، والالتزام بحسن خدمته، والتقيد بما يرضيه. ثم انتقل الحديث في المحور الثاني، إلى الأمر بحسن معاملة الرعية والاجتهاد في العمل لإسعادها، واختتم أخيراً بما يجوز لنا أن نسميه بمصطلحات اليوم «صلاحيات» الوالي والجوانب التي يمتد إليها حكمه: البر، والبحر، الجباية الخ.

أما لغة النص فكانت عادية، سليمة، واضحة المقصد، قليلة الصنعة، عديمة الاحتفال بأدوات الزينة التي رأينا أنها بدأت تغزو النثر في هذا العصر.

2.2 ـ سجلات تعيين زعماء القبائل.

هذه صيغة مستطرفة حقاً، ولكن لها ما يفسرها. فإن الحرص على التدقيق في المعاملات الإدارية ذات الطابع السياسي اقتضت أن تكون طرائق تعيين الموظفين في المراتب العليا مختلفة عن عقد الزعامة للأفراد على قبائلهم. ونحن فيما يلي نكتفي بفقرات قليلة من سجل مفرط في الطول كان كتبه من سيعرف بعد ذلك بالحاجب المصحفي[2].

«بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب من عبد الله الحَكَم المستنصر بالله، أمير المؤمنين لأبي العيش بن أيوب، أنه ولاه النظر في قبيلة أطانة مهران من كتامة، مؤثراً له، ومظهراً لحسن رأيه فيه، وثقته به، فيما فوضه إليه، لِلَّذي أحبه من استصلاحه..

---

(1) عن جزء من المقتبس، ص: 77.

(2) جعفر بن عثمان المصحفي، سبق التعريف به.

«وأمره بتقوى الله العظيم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، والتزام طاعته وطاعة خليفته التي افترضها عليه... وأن يعطي صفقة أيمانه بين يدي الوزير القائد الأعلى، غالب، مولى أمير المؤمنين، على الوفاء بما التزمه من الطاعة والنصيحة، وأن يأخذ على ذلك أيمان وجُوهِ القبائل المصروفة إليه، وعلى مسالمة من سالمه، ومحاربة من حاربه...»[1].

ثم يمضي النص في أمر ناظر القبيلة بالصلاة، والصيام، حتى إذا أتى إلى الزكاة توسع فيها توسعاً مفرطاً، مُحيِّراً، فتنقلب الرسالة إلى محاضرة في تعليم الزكاة، ونصابها، وما يلزم منها في الإبل من عدد كذا إلى كذا... وفي الحبوب.. وفي غيرهما. وهي طويلة تقع في عِدّة صفحات.

ولعله من المهم أن نشير إلى أن صاحب المصدر هو الذي سمّى هذه الرسائل سِجِلّات حين قال: «ودفع إلى أبي العيش بن أيوب سجله المعقود له على قومه، من قبائل كتامة الذين عاهدوا على طاعة أمير المؤمنين»[2]. ثم وضح أكثر حين قال في نهاية النص السابق: «ودفع إلى جميع من سجل له على قومه من قبائل البربر... من سجلاتهم المنعقدة لهم، على نسخة سجل أبي العيش بن أيوب زعيمهم»[3] مما يدل على أن صيغة هذه السجلات واحدة، وإنما يتغير اسم المعقود له[4].

هذه نصوص ثلاثة يجمعها شأن واحد، إذ هي تُعنَى بترسيم فئات من خدم الدولة في وظائف بعينها، ثم هي بعد ذلك لا تكاد تجتمع على شيء. فالنص الأول يفيض بالنصائح الدينية، والنص الثالث سجل زعامة قبليّة يطغى عليه جانب وعظي، وآخر تعليمي فيه عناية كبيرة بالزكاة ووجوه تحصيلها وصرفها، والكلّ في ثوب فضفاض مسرف في الطول. أمّا الثاني فهو الذي

---

(1) جزء من المقتبس، ص: 111 - 114.

(2) جزء من المقتبس، ص: 111.

(3) نفسه، ص: 114.

(4) وقد ذكر منهم في المصدر السابق جماعة كبيرة. وانظر، ص: 114.

جاء في مبناه وفي معناه وثيق الصلة بموضوعه، جديراً بأن يسمّى حقاً كتاب تعيين أو «مرسوم» تولية لإلمامه بأهم ما ينبغي أن يتضمنه نص من هذا النوع.

وإذا كانت هذه النصوص تتضمن إنعام الأمراء على من يشاؤون من الناس بهذه الوظائف ذات المنافع والمزايا، فإنه يتعين على رجال الدولة ـ بوجه عام ـ أن يلهجوا بذكر أولي الأمر وأن يتغنوا بمزايا الخلفاء ولا سيما في ذلك الإنشاء الذي يمكن أن نسميه «خطابة المحافل».

3 ـ النثر الخطابي في المحافل الرسمية.

لا يبعد أن يكون قد شاع في الأندلس، في أيام عبد الرحمن الناصر، ولا سيما منذ إعلان الخلافة، وأمره الناس بمخاطبته بأمير المؤمنين، نوعٌ من النثر الذي يُلقَى في المناسبات الرسمية، وهو ما يسمى عادة خطابة المحافل. وتدل شهادات المؤرخين على أن عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم كانا مولعين بعقد مجالس الفخامة والأبهة، وترتيب الناس فيها على مراتبهم التشريفية. فيقوم الشعراء في هذه المجامع ينشدون، ويلقي أصحاب النثر، ما يُعِدُّون أو يرتجلون من الخطب[1].

والحق أنه لا مجال لمقارنة هذه «المداخلات» النثرية، بالخطابة الأصلية التي تنصرف الأذهان إلى ما عرف عنها ـ كلما ذكرت ـ في صدر الإسلام، والعصر الأموي، في المشرق، بصفة خاصة. إن الخطابة التي نقصدها هنا قد أوجدتها ظروف سياسية معروفة: هي إجلال الخلافة، وإظهار هيبة السلطان أمام الحاشية، وأمام الضيوف الأجانب كلما أتيحت الفرصة لذلك.

فمن هذا القبيل خطبة منذر بن سعيد البلوطي[2] في مجلس

---

(1) في الجزء الذي حققه عبد الرحمن علي الحجي من المقتبس، إشارات لا تحصى إلى هذه المجالس، أيام الحكم المستنصر. ولكن الكتاب لا يورد نموذجاً واحداً منها.

(2) منذر بن سعيد البلوطي: سبقت الإشارة إليه. ترجمته، ونص خطبته هذه، ومناسبتها في كتاب تاريخ قضاة الأندلس، ص: 66 وما بعدها.

عبد الرحمن الناصر، عندما أُعِدَّ المجلس على أرقى ما يمكن من أساليب الأبهة والفخامة بمناسبة مَقْدَم السفارة التي بعث بها ملك الروم في القسطنطينية إلى الخليفة الأندلسي.

ونحن إذا استعرضنا هذه الخطبة وجدنا فيها من السجع، والتناظر في العبارات، وباقي أنواع المحسنات، ما نرجح معه أن تكون أُعِدت إعداداً، ثم حُفِظت لتلقى أمام المحفل كما لو كانت مرتجلة. وكأن الخليفة قد فطن إلى ذلك حين أعجب بها وقال إنها تستحق التقدير سواء أُعدت تَحسُّباً لهذا الموقف، أو ألقيت بديهة وارتجالاً[1]. والذي منح هذه الخطبة صيتاً أنها جاءت بعد الخيبة التي مُنِيَ بها أبو علي القالي - وهو من هو - حين أصابه الحصر وامتنع عليه الكلام. وقد رأينا في مكان آخر من هذا الباب أن أخبار هذه الحادثة ربما كانت تدخل في إطار المنافسة بين الأندلسيين وضيوفهم من علماء المشرق.

ومهما يكن من أمر، فإننا لا نكاد نجد في المصادر إلَّا هذه الخطبة، مما قد يدلّ على أنها محاولات لم تعمّر طويلاً، أو أن المؤرخين لم يجدوا فيها ما يستحق التسجيل والتخليد. وهي في كل الأحوال لا تختلف عن النثر المكتوب حتى كأنها رسالة كتبت، ثم حفظت، ثم ألقيت على الناس مشافهة...

* * *

عسى أن يكون في هذه النماذج التي درسناها من أصناف النثر الإعلامي والتنظيمي ما يكفي لبيان التطور الكبير الذي أصاب الإنشاء الرسمي، وما يدور في فلكه من صيغ التعبير في هذا العصر. فلقد واجهت الكتابة النثرية مطالب الحضارة المتنوعة، ولبَّت حاجاتها التنظيمية والإعلامية في جميع المجالات، وأعربت عن معاني الفخامة والجلال التي أحب خلفاء بني أمية أن يَظهَرُوا بها للناس في هذا العصر..

---

(1) نص كلمة عبد الرحمن الناصر هذه في المصدر نفسه، ص: 69.

بيد أن النثر، على ما ظفر به من أدوات الصنعة ووسائل التأنق البسيط المستساغ، ظل نثراً نفعياً ـ إن صحّ التعبير ـ أي أنه لا يقصد به المتعة الفنية في حدّ ذاتها، كما يقصد بالشعر. ثم أخذ الكتّاب يتطلعون إلى تلك افاق، ويرومون بلوغ هاتيك الغاية. وحينئذٍ بدأت النقلة الكبرى التي عبرت بالأدب النثري من ضفة إلى ضفة، وقفزت به من طور إلى طور: فكان ميلاد النثر البياني. وبذلك دخل الإنشاء في صلب الأدب بعد أن كان ينمو على هوامشه.

4 ـ النثر البياني[1].

أجل، كلّ النصوص النثرية التي استعرضنا نماذجها إلى حدّ الآن، تلتقي عند خاصيّة فريدة، تجمع بينها، على ما بينها، فيما عدا ذلك، من اختلاف شديد، وهي أنها تنأى كلها عن التعرض لوصف أحاسيس النفس، وذكر ما تجد في غمرة الأحداث التي تقع في محيطها، بطريقة يكون الكلام فيها بثاً متصاعداً من شغاف القلب، وحديث النفس للنفس حين تَسقُط الأغشية، وتَرتفِع الحواجز المصطنعة الوهمية، ويواجه الإنسان حقيقة الإنسان في أجمل صورها، أو في أبشعها وأحقرها. . لم يكن النثر يلتفت إلى شيء من هذا، لأن الشعر كان قد احتكر هذا النوع من التعبير فكلما أحس إنسان بجانب من تلك الحقيقة، نفر إلى الشعر، سواء كان ملكاً، أو والياً، أو قاضياً، أو صاحب مهنة في آخر قرية من قرى البلاد. وظل النثر، لذلك، إعْلاَماً يبلّغ الأوامر، ويعظ القضاة، ويبرم الصفقات، وينظم الوظائف، ويرتب النفقات. .

لقد بَدَا الأمر، في هذه المراحل كلها، كأن الناس اصطلحوا بإجماع على أن عالم الأدب جزآن، أقيمت بينهما حدود فاصلة: جزء هو للعلم،

(1) لا نقصد بكلمة «البيان» أن ننسبه إلى علم البيان كَمَا هو واضح من السياق، وإنما نقصد ما فيه من جوانب الإبانة عن مكنونات النفس، وما ينتابها من مشاعر إزاء الجمال والقبح في نظر الإنسان.

والمعرفة التي تأتي من الخارج وقالب التعبير عنها هو النثر، وجزء مختص بالهمس الذي بداخل النفس، والخفقان الذي في القلب، والرعدة المكتومة التي تهتز لها الجوانح، وقَالَبُها التعبيري هو الشعر. وظلّت الحال كذلك إلى أن ظهر من لم يعترف بهذه القسمة، فنط فوق الحاجز الفاصل، وتخطى الحدود.

وكان من أوائل من قاموا بهذا الصنيع: الخليفة الحكم المستنصر. وكأنما شاءت أقدار الأدب أن يكون الأمراء والخلفاء في الأندلس هم رواده، وشاءت أقدار أخرى أن يكون الحَكَم بالذات أبا الثقافة العلمية في بلاده، ورائد التحرر والانطلاق، وأول باذر لهذه البذرة الأدبية الإنسانية الميمونة في النثر الأندلسي.

رسالة الحكم إلى جعفر بن عثمان المصحفي[1]:

أصابت «الوزير، صاحب المدينة بقرطبة، جعفر بن عثمان عِلَّة شديدة، فلما صار في بحرانها يئس من الحياة... فخاطب المستنصر بالله، يَذْكُر ما هو عليه من الإشراف على المنيَّة... ويسأله أن يخلفه في بيته»[2].

ولو أن المصادر احتفظت لنا بهذه الرسالة، لكنا ربما غيرنا رأينا في من يرجع إليه الفضل في نهج هذا الطريق من النثر. فجعفر بن عثمان هذا كاتب بليغ، وهو ـ وهذا هو المهم ـ شاعر مبدع، رقيق، يحسن التعبير عن شجون النفس وكوامن همها[3]. أفلا تكون رسالته ـ وهو في بحران علة أيأسته من الحياة ـ هي التي فتحت الطريق أمام القول الذي ردّ الخليفة به عليه. فقد اغتمّ الحَكَم كثيراً لحال وزيره، فكتب له بخط يده على ظهر رسالته:

«قرأنا كتابك بما ذكرت من اشتداد حالك، ووقوع بأسك، وارتفاع

(1) جعفر أبو عثمان المصحفي هو الذي سيتولى الحجابة للحكم، ثم تشتد العداوة بينه وبين المنصور بن أبي عامر فيتغلب عليه. وقد سبق الحديث عنه أكثر من مرة.

(2) جزء من المقتبس، ص: 69.

(3) انظر مقاطع لطيفة من شعره في «الحلة السيراء» ج 1، الترجمة رقم 100 من ص: 257 إلى 267.

رجائك، فعَظُم علينا ذلك، وكَثُر غمّنا به، وأشفقنا منه، ونرجو أن يأتي بخير، ويعقب بعافية. فإن كان ما لا بدّ من كونه قريباً أو بعيداً، أو تخطانا، فكل ما سألت ورغبت، في نفسك وأهلك ومن تتخلف، فعلى أفضل الذي رغبته واردته، وأملته ورجوته.

«فما أعلم رزية أعظم من رزيتك لدينا، لما بلوناه من شكرك، ومجهود حرمتك، ومحمود صحبتك، وإن لم يرد علينا من قبلك وناحيتك قط ما أغمّنا، ولا ما أنكرنا، ولا سوء ثناء قط بشيء، ظاهراً ولا باطناً.

«فإن تكن المصيبة فإنا لله وإنا إليه راجعون، وإن تكن العافية فالحمد لله رب العالمين على جديد أفضاله، وجميل بلائه، وعلى كل أحواله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[1].

ما تركت هذه الرسالة لقصيدة الشعر؟ أليس فيها رقتها، أليس فيها نبرة الحزن الهادئة الوديعة المعبرة عن وقار صاحبها، النابعة من إحساس صادق بإمكان فقد صديق حميم، ومعاون مخلص؟ وبماذا كان يجيب الشاعر، لو تخلّى عن الوزن والقافية؟ أبأكثر من قوله: «فعظم علينا ذلك، وكثر غمّنا به، وأشفقنا منه، ونرجو أن يأتي الله بخير ويعقب بعافية..»؟ ولو نظم الخليفة شعراً ما الذي يزيده على قوله، باستثناء الوزن والقافية: «فما أعلم رزية أعظم من رزيتك لدينا، لما بلوناه من شكرك، ومجهود حرمتك، ومحمود صحبتك... فإن تكن المصيبة فإنا لله، وإنا إليه راجعون»...

لم تكن هذه إلاّ بداية الطريق الطويل الذي سيأخذ الأدباء بعد ذلك بالسير فيه واحداً واحداً حتى يكتظ بهم. بيد أن الرسالة التي يظهر فيها لأوّل مرّة هذا النثر البياني جليّاً واضحاً لا تخطئه العين، ولا يختلف عليه إثنان، إنما هي رسالة أبي مروان الجزيري[2].

(1) جزء من المقتبس، ص: 70.

(2) أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري من كبار الشعراء والكتّاب في القرن الرابع. وقد تولّى ديوان الإنشاء للمنصور. توفي عام 394 هـ.

رسالة الجزيري في بنفسج العامرية:

كان المنصور بن أبي عامر، مولعاً بأنواع الزهور، يحرص على اقتناء كل طريف منها، ويعتني هو نفسه بها في حدائق قصوره. وقد وصف الجزيري بهار العامرية شعراً فقال:

حدق الحسان تُقر لي وتغار   وتضل في صفتي النهي وتحار

طلعت على قُضُبي عيون كمائمي   مثل العيون تحفها الأشفار

أنا نرجس حقاً بهرت عقولهم   ببديع تركيبي فقيل: بهار[1]

كما وصف نرجس العامرية، وغيره من أزهار الحدائق العامرية. ولا عجب في أن يصف الشاعر هذه الأشياء، بل يكون العجب كل العجب في أن لا يلتفت إليها. لكن الطريف حقاً، والجديد المفاجىء، هو أن يكون شاعر مجيد، له هذه القدرة على وصف الزهر شعراً، ثم يجد في نفسه الحاجة إلى معالجة هذا الوصف نثراً، فيقول، على سبيل المثال، في بنفسج العامرية:

«إذا تدافعت الخصوم ـ أيد الله مولانا المنصور ـ في مذاهبها، وتنافرت في مفاخرها، فإليه مفزعها، وهو المقنع في فصل القضية بينها، لاستيلائه على المفاخر بأسرها، وعلمه سرها وجهرها.

«وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنهما، والفخر بمشابههما، كل مذهب. وما منهما إلا ذو فضيلة، غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا، وأعذب من الغمام الذي يسقينا، مع أني أعطر منهما عطراً، وأحمد خبراً، وأكرم إمتاعاً، شاهداً وغائباً، ويانعاً وذابلاً، فإن فخرا باستقلالهما على ساق هي أقوى من ساقي، فلا غرو أن الوشي ضعيف، والهواء لطيف، والمسك خفيف.. الخ...»[2].

ممّا لا شك فيه، أن النثر قد انتقل إلى مرحلة جديدة من تطوره، مع

---

(1) عن الذخيرة: 1/4 - 48.

(2) عن الذخيرة: 1/4 - 48.

الجزيري ورسالته هذه. وقد انتبه القدماء فيما يبدو إلى طبيعة هذا النثر وطرافته، ولكنهم لم يدركوا كل أبعاده. فصاحب الذخيرة يقدم للرسالة السابقة بقوله: «ما اندرج له في أثناء نثره الذي ملح فيه، مخاطبته، على ألسنة كرائمه، بزهور رياضه»[1]. فالمؤلف لم يستوقفه إلا الرمز الذي استخدمه الكاتب حين أخفى المنافسة الجارية بين كرائم المنصور، فجعلها الأديب بين أزهار حدائقه.

والحق أن الجزيري قد مَلَّحَ بشيئين:

ـ **الأول**: هذه الطريقة في الحديث عن الزهور بالنثر، وهو حديث لم تتعود آذان الأندلسيين سماعه إلاّ ضمن بحور الشعر وقوافيه.

ـ **الثاني**: أنه نقل الحوار الذي كان معروفاً بين البشر[2]، إلى النباتات، فأجراه بين الزهور في مفاخرة حماسية، ينتصر فيها كل نوع لأخص خصائصه، ويثني فيها على نفسه بأحسن أوصافه. وسيدخل النثر في القرن الخامس هذين البابين، ويكون له فيهما شأن كبير.

هذه إذن خطوة كبيرة حاسمة خطاها النثر، ليس في تجديد قوالبه وأنماطه كما كانت الحال طوال القرون الثلاثة التي استعرضنا أهم ملامح تطوره فيها، ولكن في تغيير طبيعته بالذات. ولعل القرن الرابع لم يشهد، في ميدان الأدب، تحولاً يشبه هذا أو يضاهيه[3] إلا ما كان من ذلك التطور الكبير الآخر الذي حدث عندما غزا النثر ميدان التأليف، وغدا أداة لحركة واسعة الأطراف، متعددة الجوانب، ينشط فيها كل ذي علم وأدب، لتدوين ما انتهت

---

(1) نفسه.

(2) لم يغب عن أذهاننا الحوار الذي يجري بين الحيوانات أو حتى بين النباتات بقصد التربية، والوعظ، واستنباط الحكمة. نحن نعني هنا هذا الجانب الفني الخالص.

(3) يضاهيه في الشعر ما كان من نشأة الموشحات، وهي في أواخر القرن الثالث أثناء حكم عبد الله بن محمد المرواني، 275 - 300 هـ.

إليه المعرفة في اختصاصه، فكان القرن الرابع من بعض وجوهه، عصر التدوين في الأندلس.

5 ـ النثر التدويني[1]:

يعتبر دخول أمة من الأمم ميدان جمع العلوم، وتدوين المعارف، وإخضاع التراث الذي كان مبعثراً، متداولاً بالمشافهة، للترتيب، والتبويب، والشروع في تناوله بالفحص، والتحليل، يعتبر دخولُها هذا واحداً من أهم دلائل النضج الفكري فيها، وعلامةً بارزة على ولوج حضارتها ميدان العطاء والإثمار. فإذا كانت الصياغة النثرية تدخل لأوّل مرّة هذا الباب من التعبير، فذلك تحول حاسم في وظيفة النثر، وتطور كبير، لا يمكن أن يُغفل أثره من يؤرخ لمسيرة نموه.

فمما لا شك فيه، أن محاولات الجمع والتدوين قد بدأت في الأندلس منذ القرن الثالث، بل لعلّ بعض المحاولات المبكرة، ولا سيما في جمع الأحاديث النبوية الشريفة، وتفسير القرآن الكريم، قد شرع فيها منذ أواخر المائة الثانية. ولكنه لا يمكننا أن نعد تلك المحاولات «حركة»، لأن الحركة حين تكون كذلك، لا تقتصر على مجال من المعرفة، ولا تقف عند نوع واحد من العلوم. وعلى هذا الأساس فنحن نميل إلى أن حركة التدوين أو التأليف الحقيقية إنما بدأت في القرن الرابع، ولو أن بعض رجالها عاشوا شطراً مهماً من حياتهم في القرن المتقدم.

وقد امتدت هذه الحركة إلى معظم جوانب الثقافة المعروفة آنئذٍ، حتى ليخيّل للمرء، كأن الأندلسيين هبوا دفعة واحدة، لضبط ما وصلت إليه المعرفة في عصرهم كلٌّ في مجال اختصاصه.

---

(1) فضلنا أن نصف العمل في هذه المرحلة بأنه «تدويني» لأن الجمع فيه أظهر من الإبداع عموماً، على أن نترك عبارة «النثر التأليفي» للأعمال التي أنجزت في القرن الخامس. ونظراً إلى دقة الفروق بين الاصطلاحين، فإنه يمكن أن نستعمل هنا أيضاً مصطلح: التأليفي.

ولعله يحسن بنا أن نورد هنا طائفة من المصنفات التي وضعت في هذا العصر، لنمثل بها على حجم هذه الحركة، وتنوعها.

* **ففي الأدب، وما يتصل به:** ألف ابن عبد ربه (246 - 328) كتاب العِقد الفريد. وأبو علي القالي البغدادي (288 - 356) كتاب «الأمالي»، وأبو الفتح بن عيشون (ت: 338) كتاب «الشعراء من الفقهاء بالأندلس»، وابن سعيد الخير المرواني (ت: 340) «أخبار الشعراء بالأندلس»، وعثمان بن ربيعة (ت: 310) كتاب: «طبقات الشعراء بالأندلس» - ومحمد بن مغيث الأنصاري (ت: 352) كتاب: «شعر الخلفاء من بني أمية» - أما ابن فرج الجياني (ت: 359) فقد جمع أخبار الأدباء الأندلسيين إلى زمانه في كتابه «الحدائق».

* **ومن الشروح الأدبية:** «شرح» أبي العباس الوليد بن عيسى الطبيخي (ت: 352) الديوان مسلم بن الوليد، صريع الغواني[1].

* **وفي اللغة والمعاجم:** ألف أبو علي القالي كتاب: «نوادر اللغة» - ومحمد ابن أبان بن سعيد اللخمي (ت: 354) معجمه الكبير الذي سمّاه «كتاب العالم» وقد قال عنه الإمام ابن حزم أنه في مائة سفر على الأجناس، في غاية الإيعاب، بدأ بالفلك، وختم بالدرة.

* **ومن كتب التراجم ومعاجم الرجال:** «تاريخ قضاة قرطبة» للخشني (ت: 361، وقيل: 371) - و «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي (351 - 403).

* **ومن كتب التاريخ والجغرافية:** كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» لابن القوطية (ت: 367) - وتاريخ عريب بن سعيد (ت: 369) - وكتاب «مسالك إفريقية وممالكها» لمحمد بن يوسف الورّاق، (ت: 362) وهو المعروف بأبي عبد الله التاريخي.

---

(1) مسلم بن الوليد: المعروف بصريع الغواني، شاعر عباسي، عرف بالإكثار من الأساليب البديعية. توفي 208 هـ.

* ومن كتب الحديث والفقه وأصول الدين: مؤلفات قاسم بن أصبغ (ت: 340) وله «كتاب الناسخ والمنسوخ» وكتاب في حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطإ. . .

* ومن أوائل المؤلفات الفلسفية في الأندلس: كتاب التبصرة لابن مَسَرَّة (ت: 318).

لعل هذه القائمة المختصرة[1] تكفينا لتصور ذلك الجهد الكبير الذي أخذ علماء الأندلس أنفسهم ببذله في هذا القرن، والذي تناول معظم الجوانب الثقافية في ذلك العهد.

ويبقي علينا أن نقف وقفة موجزة عند كتاب العقد لابن عبد ربه[2]، لنحاول أن نستخرج منه بعض خصائص النثر التدويني في هذه المرحلة.

العِقد الفريد:

يشتمل كتاب العقد على مجموعة كبيرة من الأخبار والأقاصيص، والروايات، والأشعار، والخطب، وكل ما يمت إلى الثقافة العربية القديمة بسبب. وقد جمع ابن عبد ربه مادة العقد الفريد من مروياته عن شيوخه، وفيهم من كان رحل إلى المشرق[3]، وعن الكتب التي كانت تصل إلى الأندلس من المشرق. فهل كان دور المؤلف يقتصر حينئذٍ على تسجيل ما سمعه من شيوخه، ونسخ ما وجده في تلك الكتب؟. .

الحق أن جهد المؤلف يتمثل في جانبين: أحدهما: تبويب الكتاب،

---

(1) أخذنا معظم هذه العناوين من كتاب تاريخ الفكر الأندلسي، لبالانثيا، ترجمة: مؤنس، في أماكن متفرقة منه، كما استفدنا أيضاً من رسالة ابن حزم في فضل الأندلس. عن نفح الطيب 156/3. ونحن لم نقصد إلى الجرد الدقيق لكل ما ألف في هذا القرن، وإنما مرادنا بيان مدى سعة هذا النشاط.

(2) ابن عبد ربه: هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (246 - 328 هـ) شاعر مقرب من بلاط بني أمية، وبخاصة عبد الرحمن الناصر منهم.

(3) انظر تفاصيل ذلك عند جبرائيل جبور «ابن عبد ربه وعقده»، ص: 69 و70.

وحسن ترتيب المادة المعروضة، والتأنق في إخراجها، والثاني: التمهيد لكل باب من أبوابه بمقدمة صغيرة سمّاها فرشاً، وهي التي تعطينا صورة صادقة عن نثره وأساليبه في الكتابة. وقد اعترف المؤلف بما له من فضل محدود في تأليف العقد فقال: «وإنما لي فيه تأليف الأخبار وفضل الاختيار، وحسن الاختصار، وفرش في صدر كل كتاب. وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء...»[1].

فإذا أردنا أن نتبين أساليبه الكتابية، وطرائقه في التعبير، فإننا مدعوون إلى البحث عنها في هذه المقدمات، والبعض القليل من أخبار الأندلس التي كان يشير إليها في أحيان نادرة. فننظر في نموذج واحد من النمطين:

مقدمة كتاب الفريدة في الحروب: قال ابن عبد ربه:

«قد مضى قولنا في السلطان وتعظيمه، وما على الرعية من لزوم طاعته، وإدامة نصيحته، وما على السلطان من العدل في رعيته، والرفق بأهل مملكته، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومدار أمرها، وقود الجيوش وتدبيرها، وما على المدبر لها من إعمال الخدعة، وانتهاز الفرصة، والتماس الغرة، وإذكاء العيون، وإفشاء الطلائع، واجتناب المضايق، والتحفظ من البيات...»[2].

هذه الفقرة تدلّنا على معالم لا يمكن أن يخطئها الدارس لنثر ابن عبد ربه، وهي السهولة واليسر في التعبير، والاسترسال في الصياغة، والرقة والعذوبة في الألفاظ المختارة بكل عناية. وفي النص صنعة دقيقة بذل المؤلف فيها غاية الجهد، ولكنه نجح في إخفاء آثارها أو كاد: انظر إلى هذه الثروة التعبيرية: «انتهاز الفرصة، والتماس الغرة، وإذكاء العيون، وإنشاء الطلائع، واجتناب المضايق» هل نتصور أن مثل هذا التفنن في تلوين الأداء،

---

(1) مقدمة العقد، ج 1، ص: 2.

(2) العقد، ج 93/1.

كان بإمكانه أن يأتي على هذا النحو لو لم يكن وليد الروية والتفكير، والمراجعة والتحكيك. ثم لاحظ تلك المقاطع الصوتية، والتنغيمات الهادئة التي جاءت في أول الكلام، دون أن يرقى هذا التنغيم إلى السجع الكامل. ولعلّ أوضح ما في هذا النص هو الازدواج، والموازنة، حتى إن العبارات الأولى قد جاءت مفصلة كل واحدة منها على قياس أختها.

أما النص الثاني فهو الذي يعرض فيه لبعض أخبار الأندلس، كقوله عن الخليفة عبد الرحمن الناصر:

«ثم ولي الملك القمر الأزهر، الأسد الغضنفر، الميمون النقيبة، المحمود الضريبة، سيد الخلفاء، وأنجب النجباء، عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين... فتولى الملك والأرض جمرة تحتدم، ونار تضطرم، وشقاق ونفاق، فأخمد نيرانها، وسكن زلزالها، وافتتحها عوداً، كما افتتحها بدءاً سميه عبد الرحمن بن معاوية...»[1].

يبدو أنه ليس لدينا شيء نضيفه إلى ما قلناه في النص الأول، فكلاهما يغرفان من نهر واحد، ويصبان في بحر واحد، وإنما كان نصيب هذه الفقرة من السجع والتنغيم أَوْفَى من النص الأول، الذي كان ذا مضمون موضوعي واضح ذلك أن هذا النص إنما هو مدح كالشعر الذي قاله فيه، وهو خِلْو من الفائدة، لا يعرّفنا حقاً بالملك، ولا يضيق إلى معلوماتنا عنه شيئاً ذا بال.

وخلاصة ما نقوله عن ابن عبد ربه، أنه ألف واحداً من أوائل كتب الثقافة الأدبية العامة في الأندلس، وقد برهن فيه على إلْمَام واسع بالثقافة العربية الأولى دون أن يرحل إلى مواطنها في المشرق. وربما كان هدفه الوحيد من وراء هذا التأليف، هو وضع موسوعة ثقافية عن تراث العرب بين أَيْدِي مواطنيه، فإذا كان ذلك فنظن أنه قد بلغ الهدف وأصاب الغرض. وعلى كل حال فإن منزلة العقد الآن رفيعة بيننا، وقد صدق من قال: إنه «يمثل في

(1) نفسه، ج 4، ص: 498.

حياتنا الثقافية والأدبية المَرْتَبَة التي تلي كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني»[1].

* * *

وهكذا نأتي إلى نهاية هذا الفصل الذي أتيح لنا فيه أن ندرس تطور النثر الأندلسي منذ بداية أمره، فتتبعنا مسيرته الطويلة على امتداد ما يقرب من ثلاثة قرون من الزمان، ولاحظناه وهو في نشأته الأولى، ثم رأيناه ينمو شيئاً فشيئاً ويجتاز مراحل نضجه الواحدة بعد الأخرى حتى وصلنا معه إلى عتبات القرن الخامس.

ولعلنا استطعنا أن نبين، خلال هذا التتبع والملاحظة، أن الإنشاء في الأندلس قد ظلّ يتدرج في سلم التحسن والاكتمال حتى بلغ مستوى رفيعاً من الجودة في مضامينه وأشكاله.

وإذا كنا قد لخصنا القول في أهم منجزات المرحلة التي تمتد من الفتح إلى نهاية القرن الثالث، في القسم الأول من هذا الفصل، فإننا نستطيع أن نسجل للنثر في هذه المرحلة الثانية، ثلاث علامات بارزة تمثل فترات تحول عميق في وظائفه، وانتقال نوعي في طرائق أدائه، وفنيات صياغته.

* **الأولى**: حين استجاب النثر الإعلامي للمتطلبات الحضارية الجديدة، ومقتضيات تنظيم الدولة وهي في أوج قوتها، فتنوعت أنماطه، وتعدّدت أشكاله، وعبر عن كل مظاهر التعقيد الحضاري في السياسة والحُكم بدقة ويسر.

* **الثانية**: حين شرع النثر يغزو المجالات التي كانت وقفاً على الشعر، فأعطى الدليل، لأول مرة، على أنه يستطيع أن يعبر ـ بطريقته الخاصة ـ عما يختلج في النفس البشرية من آثار الانفعال العاطفي، وردود فعلها أمام سحر الطبيعة وجمالها.

(1) دراسة في مصادر الأدب، للطاهر أحمد مكي، ج 1، ص: 287.

* والثالثة: عندما دخل النثر ميدان التدوين، والتأليف، فغدا أداة تعليمية يتم بواسطتها جمع التراث، وتصنيف العلوم، وترتيب المعارف، فاستقام لأصحاب هذا الفن منذ البداية منهجٌ محكم، وجاءت كتب هذه الفترة تشهد على تحكّم في أساليب الجمع، ونضج في الأداء، وتفنّن في الصياغة تدل على مدى ما أصاب النثر من تقدّم.

ولم يكن تطوره من حيث الشكل، بأقل من تطوره من حيث المضمون. فقد رأيناه في البداية أداة تبليغ لا تكاد تُعْنَى إلا بإصابة الغرض الأول منه، وبلوغ الهدف الرئيسي الذي هو ذو طَابَعٍ منفعي يتمثل في حمل إرادة أو رغبة الكاتب إلى المكتوب إليه. وكانت زينة ما يكتب تأتي على قدر همة الكاتب وقدرته على التحسين.

ثم أخذت الصياغة تطمئن شيئاً فشيئاً بعد انقباض، والعبارة تلين بعد شدة، ولكنه اللين الذي لا ينأى بها عن الجزالة، ولا يشط بها عن المتانة. وما إنْ دخل القرن الرابع حتى ترك النثر الكثير من تقشفه، وتخلّى عن معظم طبائع اقتصاده، وأخذ يتفنّن في ألوان الزينة، ويُقبِل على أنواع من الوشي الجميل الذي لا يتأتى إلا بمقدار من الجهد في الصنعة. على أن تلك الزينة لم تبلغ به أبداً، في أواخر هذا القرن الرابع، حدَّ البذخ والتَّصنُّع، ولا وصلت به الجهود المبذولة في سبيل التجويد والتفنّن، حدود التبرج والانحلال.

فهل يثبت النثر في القرن الخامس على مناهج هذا التقدم الأصيل؟ وهل يقوى على رفض إغراءات التعقيد الذي تنفثه الحضارة المتأنقة في كل ميادين الحياة، حين تبلغ ذروتها الشامخة في محيط سياسي متدهور؟ وهل يصمد أخيراً لسيل «البديع» العاتي وأمواجه المتلاطمة حين تهب لها رياح الشرق العاصفة، فتتدفق كالطوفان لتغمر كلّ فنّ من فنون التّعبير.. وقبل ذلك ما هي المحاور التي دارت عليها أغراض النثر في هذا القرن؟ وما هي أهم المضامين التي عالجها الكتّاب؟.

ذلك ما سنحاول الوقوف عند دقائقه في الفصول القادمة بإذن الله.

* * *

البَابُ الثَانِي

أغرَاض النّثر ومَضامِينه الرّئيسيَّة

بدأ النثر في القرون الماضية ـ كما كنا رأينا ـ محدود المجالات، ضيق الأنحاء، محصور الأغراض، حتى إذا بلغ في التوسع مداه، في بحر القرن الرابع الهجري، لم يزد في الحقيقة على الاستجابة لدواعي تنظيم الدولة الآخذة في الازدهار، ومسايرة ضرورات الاتصال والتبليغ المعقدة فيها. هذا بالإضافة إلى الرسائل والكتب المطولة التي نشط العلماء لتأليفها في كلّ فنّ.

وعلى ذلك صحّ لنا أن نذهب إلى أن النثر الأندلسي كان، في جملته أما إعلامياً وتعليمياً، أو تنظيمياً وتأليفياً، أي أنه كان، بوجه عام إمّا ذا طابع ديواني، أو ذا طابع تدويني. وإذا كنّا قد وقفنا عند النماذج التي أخذ النثر فيها يتسلل إلى بعض المواطن الجديدة، ويغزو بعض المساحات الغريبة عليه، فإن ذلك لا يعدو أن يكون استثناء يؤكد القاعدة العامة ولا يخل بصحتها المطلقة.

ثم جاء القرن الخامس فكان عصر ازدهار الأدب النثري بكل ما في هذا التعبير من أبعاد. فلقد اتسعت مجالات النثر اتساعاً لم يسبق له نظير، وامتدت أغراضه لتشمل كل مناحي التعبير حتى لم يكد يخلص شيء منها للشعر ينفرد أو يتميز به دونه.

ولعلّ أهمّ ما يستلفت الانتباه، في هذا السياق، أن الشعر الذي كان قد شهد التحول الكبير المتمثل في نشأة الموشحات، لم يحدث فيه بعد ذلك من

التطور والتغير ما يضارع التطورات والتغيرات البعيدة الأثر التي عرفها النثر منذ أخريات القرن الرابع ومطالع القرن الخامس الهجريين.

إن النثر لم يعد يقنع بمجرد منافسة الشعر، ومضايقته في الأغراض التي كانت قبلُ مقصورة عليه، بل إنه رمى إلى نوع من احتكار التعبير في معظم ميادين الشعر، حتى إن الأديب أضحى يكتفي بإيراد المقطوعة القصيرة من الشعر ضمن الرسالة النثرية التي تتناول التهنئة، أو التعزية، أو المدح أو التودد، أو الاعتذار، أو التأنيب، هذا إذا أورد شعراً! . . . وهذه كلها من الموضوعات التي ما كان النثر ليرقى إلى التعبير عنها بحال من الأحوال. . .

ومن مظاهر هذا التحول الشامل الذي حدث في وظيفة النثر الأدبية، أن الإنشاء الرسمي الذي لم تضعف حاجة الحكم إليه، بل إنها زادت بتعدد العلاقات بين الممالك الكثيرة، وحاجتها الدائمة إلى الاتصال فيما بينها، أن هذا الإنشاء الرسمي لم يعد يمثل إلاَّ الجزء الأقل، والمقدار الأدنى من مجموع غزير المادة، متعدد المضامين، متنوع الأشكال، متباين الأساليب.

من هذه الغزارة وهذا التعدد والتنوع والتباين جاءت الصعوبة التي تواجه الدارس حين يروم جمع كل أصنافه تحت عناوين محددة، ولمِّ شتاته ضمن عدد معقول من الفصول يكون فيها ما يرضي منهجية البحث، وضمان الانسجام بين الأنواع، دون التفريط في بعضها أو التكلف للجمع بين المتنافر منها.

وقد استبان لنا ـ على أساس هذه الاعتبارات ـ أنه بوسعنا أن نُلِمَّ بجميع أضرب النثر التي عثرنا على نماذجها، والتي نبغي دراستها في هذا الباب، إذا نحن أدرنا بحثها على الأغراض الأربعة التالية:

أولاً: النثر الديواني:

ونعني به كل المراسلات والمخاطبات والوثائق وغيرها من ضروب الإنشاء ذات الطابع الرسمي التي تدخل في باب من أبواب ترتيب الحكم،

وتنظيم المملكة، وضبط شؤون الإدارة، ومراسلة الأطراف التي يكون التعامل معها على وجه من الوجوه داخل البلاد وخارجها، جزءاً من النشاط السياسي.

ثانياً: النثـر التوسلـي:

في هذا الغرض جمعنا كل المضامين النثرية التي يوظفها أصحابها في شأن من شؤون التقرب من رجال الحكم وكبراء الدولة، ووجهاء المجتمع وأعيانه، سواء لكسب عطاياهم، أو للتودّد إليهم ونيل رضاهم، أو للتوسط بهم للمضطرين وذوي الحاجات... وهو ميدان فسيح الأرجاء، واسع الجنبات، ولكنه منسجم الغاية من حيث كونه لا يخرج عن أحد معاني التوسل.

ثالث: نثـر المبـادلات الاجتمـاعيـة:

وهو كل إنشاء ينهض بالتعبير عن معنى من معاني الاتصالات الإنسانية التي تقوم بين أفراد المجتمع الواحد، مما يدور أكثره عادة على المجاملات التي تكون بين الناس، وما ينجر عن التقصير فيها أو الإخلال بها من ضروب الانفعالات. فهو أدب ثري كما نرى، إذ موضوعه علاقة الإنسان بالإنسان انطلاقاً من مفهوم الانتماء إلى مجتمع واحد، وما يتعين فيه من ضرورات التضامن، وتبادل الخدمات والمجاملات...

رابعاً: النثـر الاستعراضـي:

وأخيراً بقيت لنا أنواع شتّى من النثر لا تحتمل إدراجها ضمن أيّ من الأغراض الثلاثة المتقدمة، وقد تبين لنا عند دراستها أنها، على بعد الصلة أحياناً فيما بينها، تلتقي كلّها عند نقطة واحدة على الأقـل هي جامعهـا المشترك، وتتمثل في نزعتها الاستعراضية الواضحة: فهذا نوع من النثر يستعرض ما لبعض الناس أو الحيوانات أو الجمادات من أوصاف، وذاك نوع ثانٍ يُعنى باستعراض الحالات النفسية والانفعالات، وذلك نوع ثالث يستعرض

المـذاهب والآراء والأفكار، ونـوع آخر رابـع يختص باستعـراض مواطن الحكمة، ودواعي الحث على نصرة الدين والتمسك بفضائل الأخلاق. . . وهكذا ارتأينا من الصواب أن نضم هذه الأنواع المتماثلة إلى بعضها تحت عنوان النثر الاستعراضي.

لقد بدا لنا أن هذا التقسيم يمثل المحاور الأربعة الطبيعية لهذا الباب الثاني فاعتمدنا تسمية فصوله بتلك التسميات فكان لنا فصول أربعة أولها الفصل الخاص بالنثر الديواني.

* * *

الفصل الأوّل

النّثر الدّيواني

النثر الديواني ـ الذي نريد الحديث عنه في هذا الفصل ـ هو كل إنشاء ذي طابع رسمي يصدر عن إحدى «مصالح» الدولة المركزية، أو عن تمثيلياتها وامتداداتها المختلفة في مستوى النواحي والجهات، ويُقصد به تبليغ المعلومات، أو ضبط علاقات الحكم بالأطراف المتعاملة معه داخل الحدود وخارجها، وذلك بقطع النظر عن طبيعة الأشكال التي يكتسيها ذلك الإنشاء، وصيغه الفنية، وأساليبه التعبيرية.

ويتضح من هذا المفهوم المحدد للإنشاء الديواني، أننا نشترط فيه أن يكون صادراً عن الهيآت السياسية والإدارية وغيرها من التشكيلات التي كانت تستند إليها تنظيمات الدولة وقتئذٍ، حتى ولو انحصرت ـ أحياناً ـ في شخص واحد، كأن يكون قاضياً، أو والياً، أو قائداً الخ. . . بشرط أن يتصل إنشاؤه بغرض من أغراض تسيير الدولة، وتنظيم شؤون الحكم. ومن هنا فلسنا نعوّل على هُوِية من يصدر عنه الخطاب ما دام من رجال الدولة بقدر تعويلنا على مضمون الخطاب نفسه. على أنه ينبغي أن نشير إلى أننا نعد المجاملات الاجتماعية الصادرة عن قمة السلطة السياسية في صميم الإنشاء الديواني، لأن كل ما يصدر عن الرّجل الأول في المملكة من المخاطبات والرسائل له وجه من وجوه السياسة، وعلاقة ما بتسيير البلاد.

ومن البديهي أننا لم ندرج ضمن هذا الفصل المراسلات الكثيرة التي كانت ترد على الملوك ورجال دولتهم ودوائر الحكم فيها من خارج الهياكل

الحكومية، لأن تلك المخاطبات، وإن كانت موجهة إلى الحكام، فإنها ليست ذات طابع رسمي، وإنما يكون لها مكانها في فصل آخر.

ولما كانت المكاتبات الرسمية ترمي بالدرجة الأولى إلى ضبط العلاقات ووضع ترتيبات الإدارة والحكم، فقد قسمناها إلى ثلاثة عناوين بحسب طبيعة العلاقة التي ترمي إلى ضبطها أو ترتيبها.

1 ـ **العلاقات السلطانية**: وهي تقابل ما نسميه اليوم بالعلاقات «السياسية والدبلوماسية» وتشمل مجموع الميادين التي يتمّ فيها تبادل المصالح والمجاملات والمعلومات بين الدول القائمة، آنذاك، في الأندلس.

2 ـ **العلاقات الإدارية**: وهي بصفة أساسية الميدان الذي يمارس فيه الحاكم سلطات حكمه، وينفذ فيه إرادته عن طريق التعليمات والتوجيهات، ويصدر فيه مراسمه بالتولية والنقل والعزل. .

3 ـ **العلاقات الشعبية**: وهو الميدان الذي يُطِل الحاكم من خلاله، بصفة مباشرة، ودون وسائط، على طوائف من شعبه إما لتأديب الخارجين عليه، وإما لحث الناس على طاعته وإما لتبشيرهم بالنصر، وقص بعض أخباره عليهم. . .

هذه في مجملها أهم المحاور التي باستطاعتنا أن ندير عليها الحديث عن النثر الديواني. وهي كما نرى شاملة لمجموع الأغراض التي تنصرف إليها اهتمامات الحكام داخل البلاد وخارجها، وإن كانت قيمتها عندهم تختلف فيما بينها.

ولو أننا وضعنا نصب أعيننا الخارطة السياسية للأندلس خلال العقود السبعة الأولى من القرن الخامس، وتذكرنا تلك الصراعات المريرة التي احتدمت بين الأمراء الذين سمّوا ملوك الطوائف لأمكننا بكل يسر أن نتصور مقدار الأهمية التي كانوا يولونها ـ بدون شك ـ للعلاقات فيما بينهم. ذلك أنهم كانوا من الكثرة والتنافس والتطاحن بحيث إن كل تعديل، في نوعية

التحالفات كان يخل بالتوازن الدقيق الذي كـانت تعيش عليه أكثـر تلك الدّويلات الهزيلة، والكيانات المصطنعة. ومن هنا كان حرصهم جميعاً على العناية بضبط الاتصالات فيما بينهم، والإكثار من التكاتب والتراسل.

* * *

I ـ العلاقـات السلطانيـة

احتفظت لنا كتب الأدب[1] بطائفة صالحة من النصوص النثرية التي تدخل كلها ضمن وجه من وجوه العلاقات السلطانية بين ملوك الطوائف في البلاد الأندلسية. وقد وجدنا هذه النصوص من الكثرة والتنوع بحيث بدا من الأليق بمنهجية الدراسة أن نقف عند كل واحد من أصنافها ذات الملامح المتمـايزة. وهي ـ فيمـا قدرنـا ـ أربعة أصنـاف: المبـادلات السيـاسيـة، والمخاطبات الإعلامية، والمجاملات الرسمية، والعلاقات الخارجية.

أ ـ المبـادلات السياسيـة:

إن المبادلات السياسية ركن ذو أهمية بالغة في كل علاقة تقام بين حاكمين، حتى إننا لا نكاد نتصور بينهما أي نوع من الاتصال المثمر لا يؤدي في النهاية إلى وجه من وجوه الترابط السياسي. ثم إن طبيعة الظروف التي أحاطت بميلاد تلك الممالك الصغيرة المتعددة في بلاد الأندلس، وما كان بينها من صراع محتدم يغذيه طموح كل حاكم إلى توسيع حدود مملكته، قد فرضت على أولئـك الملوك ـ كيفما كان نصيبهم من القوّة ـ أن يسعوا إلى التحالف فيما بينهم لتقوية صفوفهم، والتعاون على ردّ غارات أعدائهم، أو على مهاجمتهم بنقل الحرب إلى ديارهم، والتوسع في أراضيهم، وهكذا نستطيع أن نذهب إلى أن التحالف السياسي، والتعاون العسكري في حالي الـدفاع والهجـوم، هما من أهم أغـراض المبادلات السيـاسية بين ملوك الطوائف.

---

(1) مثل كتاب الذخيرة، وقلائد العقيان، ونفح الطيب، وغيرها...

فهذا ابن مجاهد[1] يبعث برسالة إلى المظفر بن الأفطس[2] في معنى تأكيد التحالف والتعاون السياسي بينهما، والاعتزاز بذلك. يقول فيها: «إذا تشاكلت ـ أيدك الله ـ الأحوال والضروب، تقاربت الأهواء والقلوب، . . . وما تشتّت لنا بحمد الله شمل، ولا انقطع بنا حبل، ولا غيب بيننا وصل، بل نحن على ثلج تواصل يقتضيه التشاكل والتآلف، ونهج تداخل يستدعيه التعاقد والتحالف، وإني، علم الله، بمكانك لمُبَاهٍ، وبزمانك لمظاهر مُضَاهٍ. . .»[3].

ولعلّه يحسن بنا أن نتنبه لقوله: «التعاقد والتحالف» فإن العلاقة بينهما نوع من الالتزام الذي يتعين على كل طرف أن يتقيد به، كما يكون التقيد بالعقد المبرم. وإذا كان ابن مجاهد يحرص على الظهور بمظهر الملك المخلص لحليفه، المتمسك ببنود العقد الذي أمضاه، فالذي يبدو بجلاء من خلال رسالته أنه يودّ أن يرى حليفه يبدي نفس الحرص على التمسك بمواد تحالفهما. ولنسمع إليه في الشق الأخير من رسالته المتقدمة حين يقول: «أعتقد لك العقد الذي لا تجاذب أهدَابُه ولا يُنازع جلبابه، وقد نظمتنا من الأحوال المشاكلة، والأسباب الواشجة ما كلانا له مُرَاعٍ، وإلى قضاء الحق فيه وحفظ الحظ منه سَاعٍ، ورُبَّ حال جدّدت تحالفاً ووداً، وأكدت وشدت ـ على مرّ الأيام ـ عهداً وعقداً، وبنت مَا لَا يهدمه الدهر ولو انتحاه من خطوبه بمعول، وأنحى عليه بجران وكلكل»[4]. ولعل الذي يشير إلى ما يعنيه صاحب الرسالة بوضوح يفوق كل ما تقدم، هو هذا الدعاء الحار الذي يرفعه إلى الله جلّ وعلا في آخر رسالته: «والله يصل ما بيننا بالدوام والثّبات، ويحرسه من الانصرام والانبتات»[5].

---

(1) ابن مجاهد: هو علي «إقبال الدولة» وقد خلف أباه «مجاهداً» على كرسي دانية والجزائر الشرقية.

(2) المظفر بن الأفطس: محمد بن الأفطس: أمير بطليوس. وقد عرف باهتماماته العلمية.

(3) ذ: 1/3 - 166.

(4) و (5) نفسه.

ويفهم من الرسائل التي وجهت عن ابن مجاهد هذا إلى بعض مُلوك الجزيرة، وقتئذٍ، أنه كان شديد الرعاية لعلاقاته ببعض الأقوياء من جيرانه، ذلك أننا نجده ـ على سبيل المثال ـ يوجه رسالة أخرى إلى المنصور بن أبي عامر[1] يقول فيها: «... فمن ظفر بصفائك عماداً، وبوفائك عتاداً، فقد أصمى سهمه وقرطس، ونزل ساحة الفضل وعرس، وورد وردا لا تكدره الدلاء، واعتقد عقداً لا يغيّره الإصباح والإمساء، وتلك حالي في ما مُنِحْتُه من صفائك، وَوُلِّيتُهُ من ولائك، والله يحرس حظي من وفائك، ويرفع المضارّ عن حوبائك»[2].

إن تعلق ابن مجاهد بحلفه مع ابن أبي عامر لا يقل عن تعلقه بالحلف السابق كما نرى، وذلك راجع إلى ظروف مملكته الداخلية وكثرة الطامعين فيها. ولذلك بدا واضحاً أن في تحالفه اختلالاً، فهو لا يخاطب حليفه مخاطبة الندّ للندّ، وإنما هو تابع يعلن الولاء أشبه منه بملك يخاطب نظيره، وتلك حال كل ضعيف أمام من هو أقوى منه.

ومن أمثلة هذه المبادلات السياسية الدالة على التحالف الذي تميل فيه الكفة لصالح فريق دون آخر، ما نقرؤه في رسالة كتبت عن ابن هود[3] إلى المعتضد بـن عباد[4] يقول في أولها: «وأنا لا أزال بفضل خلوصي إليك، وصدق انجذابي لك، وشدة اغتباطي بموهبة الله السَّنِيَّة فيك، مصيخاً إلى كل داعٍ بشعارك، وحامل لآثارك، مستهدياً لطيب أحاديثك ومبهج أخبارك، فإذا

(1) المنصور بن أبي عامر: هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد. حكم بلنسية وخلفه ابنه عبد الملك.

(2) ذ: 1/3، ص: 165 و 166.

(3) ابن هود: المقصود هنا أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر بالله، أمير سرقسطة توفي 474.

(4) المعتضد بن عباد: إسماعيل بن عبّاد الملقب بالمعتضد حكم بعد وفاة أبيه من 431 إلى 461 هـ.

ظفرتُ بمحدث عنك فقد نلتُ جذلي، وإذا وقفتُ على خبر من لدنك، فذلك من أملي. . . »[1].

مما لا شك فيه أن جزءاً من هذه الرقة البادية في رسائل ابن مجاهد وابن هود يعود إلى تقاليد الترسل في بلاد الأندلس، وميل كل كاتب إلى التلطف لمراسله، ومخاطبته بأفخم الألقاب، وأعظم النعوت والصفات مما لا نعدم أمثلة عنه في الرسائل العربية في كل العهود، ولكن هذه الحقيقة لا ينبغي أن تخفي عنا حقيقة ثابتة أخرى وهي أن بعض الممالك لم تكن تبقى وتستمر إلا بفضل ذكاء أمرائها، وقُدْرَتِهِمْ على اصطناع جيرانهم الأقوياء، وإقناعهم بأنهم لن يكسبوا بإزالتهم أكثر مما يستطيعون كسبه بالإبقاء عليهم.

بيد أنه من البديهي أن المبادلات السياسية التي كانت تتم بين ملوك الطوائف لم تكن تنحصر في هذا الغرض، ولم تكن تكتسي هذا الطابع من الاختلال الواضح في العلاقة والتوازن:

فهذا حَبُّوس[2] صاحب غرناطة يرد على رسالة ابن عبد الله[3] أمير قرمونة ردّاً صارماً حين يبادره برفض نصائحه: «ولم يكن لمن أوحشت جهته، وتغيرت مودته، أن يدخل مدخل الناصحين، وقد خرج من جملة المشفقين»[4]، ثم يرفض تهديده وتخويفه، ويرفض النزول عند رغبته في الخروج عن جماعته، وكل ذلك في قوله: «وإن كنت أردت التخويف والإيعاد، والإبراق والإرعاد، فقد كفاني بيت الكميت[5].

(1) ذ: 1/2، ص: 188.

(2) حبوس: هو حبوس بن ماكسن، مؤسس دولة بني زيري في غرناطة. توفي عام 428 هـ.

(3) ابن عبد الله: أبو عبد الله محمد بن عبد الله البرزالي بويع بقرمونة سنة 400 هـ، وتوفي سنة 434.

(4) ذ: 2/1، ص: 625.

(5) الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي. من أهل الكوفة وهو شاعر الهاشميين والشيعة توفي عام 126 هـ.

أبرقْ وأرعدْ يا يزيدُ، فما وعيدك لِي بِضَائِرْ

وأنا أحد البرابرة، لا أخرج عن جماعتهم، ولا أبعد عن موافقتهم، ولا أرغب بنفسي عن نفوسهم»[1].

من الواضح البيّن أن نبرة الخطاب هنا تختلف تماماً عن نبرة المخاطبات السالفة، فهي هنا تدل على موقف ثابت، ورأي راسخ لم تستطع رسالة ابن عبد الله على ما فيها من شدة أن تنال منهما فتيلاً.

* * *

كانت هذه إشارات سريعة إلى مضامين التعاهد والتحالف بين حكام الأندلس، وهي إن كانت جانباً هاماً في المبادلات السياسية بينهم، فإنها ليست الجانب الأوحد، بل إن هناك عدداً من الأغراض في تلك المبادلات لا تَقلُّ عنها أهمية، وهي أحياناً مستمدة منها ومتولدة عنها، إذ أن نجاح التحالف بين الفرقاء يتيح ألواناً من التبادل التي تكون من قبيل الاستشارة والنصح، والتوسط وما إلى ذلك.

فمن باب الاستشارة والاستنصاح ما كُتب عن المعتضد بن عباد إلى ابن هود، إذ يبدأ بإطلاق أحكام عامة تتصل بما يكون بين المتحابين من تشاور وتناصح، وتبادل للأسرار، ثم يقول له: «والله لا يعدمني الاستظهار برأيك، أعشو إليه سراجاً، وسعيك أحتذي عليه منهاجاً». وهذه كلها مقدمات ليشاوره في الكيفية التي يواجه بها عداوة حكام قرطبة لمملكة بني عباد. يقول المعتضد في رسالته: «وقد علمتَ صورة حالي مع المدبرين لقرطبة، وصبري لهم في الخطير والجليل، وانجراري معهم الزمن الطويل، مُغْضِياً لهم على ما يوحش ويريب...» وهي رسالة طويلة ينهيها المعتضد بالتهديد الصريح وإعلان أنه يستطيع في كل حين أن يصيب حُكّام قرطبة بشر الهزائم، وأن يلحق بهم أفدح الأضرار[2].

---

(1) ذ: 2/1، ص: 626.

(2) ذ: 1/3 ص: 135.

وينبغي أن لا يفوتنا الوقوف عند ظاهرة معروفة من مظاهر العلاقات السياسية بين الدول، ونعني بها السفارات التي هي أرقى أساليب التبادل السياسي، والاتصال المباشر في تلك الأزمنة. ونحن نجد في النثر الأندلسي أصداء متعددة لهذه الظاهرة. من ذلك رسالة إقبال الدولة(1) إلى المعتصم بن صمادح(2). التي يشير في مقدمتها إلى أنه كتبها بعد أن عاد السفير الذي بعث به إليه، وذلك حين يقول: «كتبت ـ أدام الله إعزازك. . . بعد قفول من قفل عنك، وحلول من صدر بما شرح الصدور من لدنك. . .»(3).

وإذا كنا لا نعرف بالضبط عن موضوع هذه السفارة شيئاً، فإن الذي يبدو واضحاً لدينا هو أن إقبال الدولة قد حقق بهذه السفارة من الفوز ما جعل سروره يبلغ هذه الدرجة التي يصفها بقوله: «فطارت بي هزة الشوق كل مطير، وأصارتني غرة الفرح بين روضة غناء ووادٍ مطير، وقلت: الحمد لله، قد وفّقت أمري، وقام عند العواذل عذري، وسطع شهاب حجتي بأن خلعت عليه نفسي، وأودعت يديه مهجتي. . .»(4).

ومما تناولته هذه المبادلات السياسية الوساطات، وهي سفارة من نوع خاص، فقد يقوم بها أحد الأمراء لصالح أمير آخر، فإذا أثمرت جهوده ونجح مسعاه، اشتدت مسرة المتوسِّط له، وعَظُمت فرحته، كما هو شأن ابن هود(5) حين كتب إلى مجاهد أبي الجيش الموفق(6) يقول: «وإني منذ استنجحت فيما كنت أحاوله من ذلك الأمر ببركة سفارتك، واستظهرت عليه بسعادة وساطتك. . لم أزل أشيم تباشير النجح لائحة. . إلى أن تأتّى بحول الله

(1) إقبال الدولة: هو علي بن مجاهد الصقلبي صاحب الجزائر الشرقية ودانية.

(2) المعتصم: هو المعتصم بن صمادح: حاكم المرية من 443 إلى 484 هـ.

(3) و (4) ذ: 1/3، ص: 322 إلى 324.

(5) سبق التعريف به.

(6) مجاهد أبو الجيش الموفق بالله مؤسس دولة الصقالبة في دانية والجزائر الشرقية.

الأمل، وأنجح العمل، وأصحب ما كان أبياً، وقرب ما كان قصيّاً. . .»[1] ولا بد أن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهل ابن هود ليبدي مثل هذا الابتهاج بنجاح وساطة أبي الجيش، وليس ذلك من قبيل التكهن فإنه يقول، في مقدمة رسالته بصريح العبارة: «من استضاء بسراج رأيك المسدّد، واستنجح بيمن سعدك المؤيد. . . كان قميناً أن تنجاب عنه ظلم المشكلات. . .»[2].

ولعلنا لا نبعد كثيراً عن الصواب إذا ما ذهبنا إلى أن هذه المشكلة التي دفعت أميراً مهيب الجانب كأبي الجيش إلى التوسط فيها والسعي لحلها، قد لا تكون إلا من نوع التسويات السياسية بين ابن هود وبعض الأمراء الأقوياء الطامعين في بلاده.

والطريف ـ في السياق الذي نحن فيه ـ أن نرى ابن هود هذا نفسه يتمزق حسرة، وينزف ألماً، لما وقع من الوحشة بين حليفيه القويين: مجاهد أبي الجيش صاحب دانية والجزائر الشرقية، والمنصور بـن أبي عامر صاحب بلنسية. ولعل الذي كان يقض مضجعه أن الخلاف بينهما إذا كُتب له أن يستمر، فإنه قد يُلحق به الأذى الكبير لأنه سيُطلب إليه أن يختار بينهما وذلك ما لن يكون سهلاً ولا محمود العواقب. ولنسمع إليه، وهو يسارع إلى تأكيد المودة، وتقديم الولاء في رسالة وجهها إلى مجاهد أبي الجيش: «نحن وإن قصرنا بالمخاطبة، وأَغْبَبْنَا بالمكاتبة، محافظون على العهد القديم، معترفون بالحق الكريم، معتقدون للفضل العميم، شاكرون لله تعالى على الهبة السنية فيك والنعمة بك»[3].

وبعد هذا المدخل الذي أوسع فيه مراسله مدحاً وإطراءً، وقضى به حقوق التحية والتبجيل يشير إلى ما يثير همومه بقوله: «إلا أنه كدّر نعمتنا، وصفو المعيشة عندنا، وأقلق دعة النفوس، وشرد وسن العيون ما تَرد به الأنباء

(1) و (2) ذ: 1/3، ص: 420.

(3) نفسه: ص: 419.

من الوحشة الواقعة بينك وبين المنصور أيدكما الله»[1].

وواضح جدّاً أن الخلاف بين مجاهد وابن أبي عامر له وقع مباشر على حياة ابن هود، ومفعول عميق الأثر في نفسه، فلذلك يصرح بأنه يتأثر به كما يتأثر الطرف المعني، لا الفريق المشاهد له والمتفرج عليه. وأي شيء أبلغ في الدلالة على ذلك من أن تكون الوحشة بينهما تكدر صفو المعيشة، وتقلق النفس، وتطرد النوم عن الجفون... وهل يبقى له من مخرج إلا محاولة الصلح بين المتخاصمين بالسعي إلى إعادة الألفة بينهما، متوسلاً إلى ذلك بإضفاء جلباب سابغ من القداسة على حلفهما لأن فيه إعزازاً للإسلام ونصراً للمسلمين. وهذا ما يقوله ابن هود في رسالته: «رغبة في الألفة بينكما، وحرصاً على تمام النعمة للمسلمين فيكما، فأنتما فئة الإسلام، وعمدة الأنام، ومتى اضطرب لكما حبل، وانصرم منكما وصل، فشمل الكل شتيت، ووصل الجميع مبتوت. فالله الله في الدين أن يألم بكما، والحرمة أن تذهب بينكما، فالعيون في الصلاح إنما كان سموها إليكما، فما ظنكما بالمسلمين وقد أصيبوا في مستقر آمالهم، وجدت الاستحالة حيث كان الرجاء في صلاح أحوالهم»[2].

وإذا وجدنا ابن هود يغري الأميرين المتخاصمين بالتوافق والتفاهم خدمة للإسلام والمسلمين في الأندلس، من أجل تحقيق منفعة شخصية مؤكدة: هي وقاية مملكته من آثار ذلك الخلاف، فليس معنى ذلك أن ملوك الطوائف لم يكونوا يعون خطر القوة النصرانية الصاعدة، أو أنهم لم يكونوا مخلصين ـ في الكلام على الأقل ـ لدواعي الأخوة الإسلامية التي توحدهم مشاعر الانتماء إليها كلما أنذرت الآفاق بمحنة وشيكة. وعندما تعبث المصالح العاجلة بهؤلاء الأمراء المتناحرين، ويلجأ كل واحد منهم إلى الاستعانة على خصمه بجيوش النصارى التي تثخن في المسلمين وتعيث في أرضهم فساداً،

---

(1) ذ: 1/3، ص: 419.

(2)نفسه.

فإنه كان يوجد من بينهم من يستنكر مثل هذه التصرفات الخرقاء، فيخاطب نظراءه بما تبقيه الإِحَنُ والتِّرَاتُ من بقايا العقل والحكمة. وكأن ضمير الأمة الخامد في تلك الأزمنة الصعبة يصحو في أُوَيْقَاتٍ قليلة ليُسمع الحكامَ صوت الصواب.

من هذا القبيل رسالة وجهها حبوس[1] صاحب غرناطة إلى بعض ملوك الطوائف[2] يستنكر فيها مثل هذه الاستعانة بالنصارى على المسلمين. يقول فيها: «واتصل بي... أنكم اضطررتم إلى إخراج كل فريق منكم النصارى إلى بلاد المسلمين، فنظرتُ في الأمر بعين التحصيل، وتأولته بحقيقة التأويل، فعظم قلقي، وكثر على المسلمين شفقي، في أن يطأ أعداؤهم بلادهم، ويوتموا أولادهم، ويتسع الخرق على الراقع، وينقطع طمع التلاقي على الطامع. ولو لم تكن - يا سيدي - الفتنةُ إلا بين المسلمين، والتشاجر إلا بين المؤمنين، لكانت القارعة العظمى، والداهية الكبرى، فإذا تأيدنا بالمشركين، واعْتَضَدْنا بالكافرين، وأَبَحْنَاهُم حُرمتَنا، ومنحناهم قوتنا، وقتلنا أنفسنا بأيدينا... كانت الدائرةُ أَمَضَّ، والحَيرةُ أَرْمَضَ... والأوزار أثقل، والمضار أشمل، والله يعيذنا من البوائق، ويسلك بنا أجمل الطرائق»[3].

لقد حُق لصاحب الرسالة أن يغضب مثل هذه الغضبة لأحوال المسلمين، وما آلت إليه من تدهور وسقوط لم يسبق لهما مثيل. على أننا نعرف جيداً أن هذه البوائق هي التي ستزداد استفحالاً، حتى يغدو قتال المسلمين بجيوش النصارى أمراً شائعاً لا يكاد يثير أي استنكار أو استغراب في أوساط الحاكمين...

ما أكثر الأغراض التي تناولها هذا النوع من النثر السلطاني الموقوف

(1) حبوس: مؤسس الدولة الزيرية في غرناطة. سبقت الإشارة إليه.
(2) في الذخيرة أنه ابن منذر، ولم يذكر ابن عذاري ملكاً من ملوك الطوائف بهذا الاسم.
(3) ذ: 2/1، ص: 627.

على الجوانب السياسية من المبادلات التي تتم بين الأمراء. وقد نطيل لو أحببنا أن نقف عندها جميعاً، ولكن ذلك ليس من شرط هذا البحث الذي يرمي إلى استيضاح ملامح هذا النثر، ورسم قسماته البارزة، وليس السعي إلى الاستقصاء الشامل والإحصاء الكامل. على أنه يبدو أننا لن تكتمل لدينا الصورة التي أردنا إبرازها لهذا الضرب من الإنشاء السلطاني إذا لم نقف عند ظاهرة فرار بعض رجال الدولة من الممالك التي كانوا يخدمونها، والتجائهم إلى بعض الممالك الأخرى، مما يشبه ما يعرف في العصر الحديث «باللجوء السياسي». وتَحكُمُه اليوم قوانين دولية محددة، ومعاهدات تبرم بين الأطراف المختلفة.

وليست ظاهرة تحول الرجل من مملكة إلى أخرى هو الذي يلفت الاهتمام، فذلك أمر عادي لا غرابة فيه، وإنما الذي يستحق العناية، لأنه يدخل في باب من أبواب العلاقات السياسية التي نحن بصدد بحثها، هو ردّ الفعل الصادر عن الأمير المستَقْبِل، وطبيعة تصرفه أمام الغضب الذي لا بدّ أن يثيره هذا الفعل لدى الأمير الـذي تـم التحوّل عنه.

ونحن عندنا حالة محددة نحب أن نختم بها هذه الجولة في النثر السياسي وهي الرسالة التي وجهها المتوكل[1] صاحب بطليوس إلى المعتمد ابن عَبَّـاد[2] صاحب إشبيلية، حين انتقل الوزير أبو المطرف بن الدباغ من حضرة الثاني إلى حضرة الأول.

لقد بدأ المتوكل رسالته إلى المعتمد بتذكيره بسابق ودّ أبي المطرف وتفضيله إياه على سائر الملوك حين بدأ بخدمة مملكته واقتصر على موالاة دولته: «مَنْ تخيَّرك ـ أيدك الله ـ على سواك، وأرادك وترك وطنه هجرة إلى

---

(1) المتوكل: عمر المتوكل على الله بن محمد المظفر. أمير بطليوس من أسرة بني الأفطس.

(2) المعتمد بن عباد، آخر ملوك إشبيلية، قضى المرابطون على دولته عام 484 هـ. وقد توفي بمنفاه في أغمات سنة 488 هـ.

ذراك... فمجدك يقضي له... أن تستمر عليه النعمى...»[1].

وبعد هذا التعميم، وضرب المثل المطلق يعود إلى الحالة المحددة التي يريد بسط أمرها، فيقول: «وهذه ـ أدام الله تأيدك ـ حال فلان، فإنه هجر إليك الورى، وركب نحوك أعناق الإبل والهوى، وقد كان ظفر بالحظ من دنياه... إلا أن الزمان مِن بتّ العصم، وإحالةِ النِّعم، والقطع بذوي الآمال والهمم جَارٍ في سننه الذميم...»[2] ويمضي في الاعتذار له على هذا النحو، وبعد أن يشدد في رجاء الصفح عنه يلقي مسؤولية ما دفعه إلى الهجرة والتحول على مساعدي الأمير وأعوانه في تسيير شؤون المملكة «وإنما أتى ذلك التَّعدِّي لا محالة من جهة المتولي، لأن قدرك ـ رفعه الله ـ منزّه عن ارتجاع موهوب ولو عظم، ومعاملة خادم باستصفاء مكسوب وإن ظلم...»[3].

وإن أجمل محاماة عن هذا الوزير المهاجر قد جاءت في حشو الرسالة حين قال صاحبها: «وحين جدّ به الجد العاثر... في الانزعاج من جنابك، ومفارقة النعمة من ملازمة ركابك، وخدمة بابك، لحق بحضرتي ـ طاعتك ـ يعتقد، وحق ما اعتقده، أنه لم ينفصل عن جماعتك، ولا تحول إلا إلى أعمالك...»[4].

ولا بد أن منطقاً كهذا يرضي كبرياء المعتمد، وأن حجة كهذه كفيلة بتسكين سورة غضبه. ألم يجعل المتوكل مملكته جزءاً من بلاد المعتمد؟ ألم يجعل نفسه عاملاً من عمّاله، وواليا على مقاطعة من مقاطعات إمارته؟ ولم ذلك يا ترى؟ في الإجابة عن هذا السؤال يكمن بيت القصيد، ذلك أن دولة المعتمد في إشبيلية كانت في أوج قوتها، وكان يفهم أن يتهافت كل طامح إلى المجد وطامع في السيادة على عتبات بابه يرجو أن ينال منهما أكبر حظ

---

(1) ذ: 2/2، ص: 664.

(2) ذ: 2/2، ص: 665.

(3) و (4) نفسه.

من رِضَى المعتمد وإنْعَامِه. أما أن يهرب رجالات دولته إلى الممالك المجاورة، فذلك ما لا يمكن أن يسكت عنه. ولعله قد بادر إلى تهديد المتوكّل والتشديد عليه في طرد أبي المطرف بن الدباغ، ولذلك أسرع صاحب بطليوس إلى الاعتذار والتودد، بل لعلّه بعث بسفيره يشرح أبعاد احتضان المتوكل لهذا الرجل، ويطلب العفو له على ما بدر منه، أو ذلك ما نستشفه من قوله في آخر الرسالة المذكورة: «وعند الوزيرِ الكاتب أبي طالب من بسط هذه النكتة ما أنت بمعاليك تقتضيه منه وتستوفيه. وتأتي متفضلاً من الإيجاب فيه، بما يليق بسؤددك الأثيل، وقعددك الجليل»[1] ولأمر ما يرى المتوكل أن الاستجابة لهذا الرجاء يعد خدمة جليلة، ويداً بيضاء تضاف إلى سابق الخدمات والأيادي: «واضعاً بذلك عندي يداً تشف على متقدم أخواتها، وتهتف بالتعجيز عن معارضتها من جميع جهاتها»[2].

هذا جانب من الاتصالات بين الأمراء في الأندلس، ذو طابع سياسي بيّن كما اتضح لنا، وهو جانب أولوه كبير عنايتهم. على أن هناك نوعاً آخر من الاتصال يشبهه في نتائجه، ويختلف عنه في أسلوبه لأنه يرمي أساساً إلى تبادل المعلومات.

ب ـ المخاطبات الإعلامية.

تشهد النصوص الوافرة التي بين أيدينا على أن ملوك الطوائف كانوا يحرصون أشد الحرص على تبادل المعلومات فيما بينهم، وإخبار بعضهم بعضاً بكل الحوادث التي تقع عندهم والتي يقدرون أن في إعلام الأطراف بها نوعاً من المصلحة لهم ولحلفائهم بوجه عام. وإذا كانت المبادلات السياسية، التي كنا قد استعرضنا بعض نماذجها، تدل على علاقة من نوع خاص بين المتراسلين، فإن المخاطبات الإعلامية هي واحدة من الطرائق التي تنمي

---

(1) نفسه.

(2) ذ: 2/2، ص: 665.

الثقة بين الأطراف المتخاطبة، وتطوّر العلاقات شيئاً فشيئاً حتى قد تبلغ بها - إذا واتتها الظروف - مستوى التنسيق والتحالف.

وكيفما كانت الحال فإن الذي لا شكّ فيه أن تبادل المعلومات على هذا النحو ليس عملاً حيادياً لا يرمي إلى أبعد من تزويد المخاطب بعدد من الأخبار والوقائع، بل الحق أنه عمل ينطوي على بعد سياسي مؤكد قد يهدف المبادِر به إلى تخويفٍ، أو إنذارٍ، أو تحذيرٍ، أو استطلاع رأي طرف من الأطراف، واختبار استعداداته وما إلى ذلك مما لا يحصى من المآرب التي قد تُقضَى بواسطة صيغة إعلامية تبدو - لأول وهلة - في منتهى البساطة.

فمن أشهر الحالات التي نجد فيها الملوك يتراسلون للإعلام بها، وإبلاغ نظرائهم بتفاصيلها الانتصارات التي يحرزونها على أعدائهم في المعارك التي تدور بينهم. فإذا كان الانتصار قد تمّ على فرقة من جنود النصارى فإن تبليغ أنبائه يكون حينئذٍ وسيلة لاستعراض أسباب القوة وتعظيم الملك.

ومن الرسائل التي تصلح للتعبير عما نحن بصدده، الرسالة التي وجهت عن المعتمد بن عباد إلى ابن صمادح[1] وهي التي يروي له فيها وقائع معركة من معارك لِيّيط[2] التي استطاع فيها جيشه أن يصدّ فرقة من النصارى المهاجمين. وهو يبدؤها بإظهار رغبته في أن يشاركه نعمة هذا النصر، ويقاسمه البهجة بإحرازه «إنما أشاركك - أيدك الله - في النعمة بأسوغها، وأطالعك في الهمة بأبلغها...»[3] ثم يأخذ في قص وقائع المعركة عليه: «وقد جرى بين فرسان من النصارى وبين سرعان من الجند - نصرهم

(1) ابن صمادح، هو المعروف بالمعتصم، أمير المرية من 443 إلى 484 هـ.

(2) لِيّيط، ويرد أحياناً باسم لبيط، حصن بين لورقة ومرسيه، كان قد حاصره يوسف بن تاشفين ولم يستطع استعادته رغم تجمع جيوش الطوائف لديه، لما دب بينهم من الخلاف والتحاسد. انظر تفاصيل ذلك عند يوسف أسباخ، ص: 91.

(3) ذ: 1/2، ص: 262.

الله ـ. . . تناوش أطمع فيهم، ودل بأنه قد سقط في أيديهم، ثم صوبحوا يوم كذا بالحرب، وكوفحوا إلى أخرة بالغرب، بالطعن والضرب، وانصرفوا ولاذوا بالانجحار، ، واحتجزوا بالجدران والأسوار. . . وفي خلال ذلك ما أمرت بشربهم فغورت منابعه، وقطعت مشارعه، وحصلوا منا ومن العطش تحت محارَبين: ظاهر وباطن. . . »[1].

ونحن لا نقتطف من هذه الرسالة ـ وهي طويلة ـ إلا هذا القدر لأنه كافٍ في الدلالة على ما قصدنا إليه من بيان الحالة النفسية للكاتب وهو يصف هذا الصدام المحدود، الذي لا يعدو أن يكون مناوشة صغيرة، وكأنه معركة حاسمة.

والذي تجدر الإشارة إليه أننا نملك جواب ابن صمادح على هذه الرسالة وهو يدل على أن رسالة المعتمد قد حققت هدفها من التفخيم والتعظيم، كما يظهر ذلك في قوله: «والحمد لله تعالى على ما منح مُتعيِّنٌ، وموضع الضراعة إليه في الازدياد ظَاهِر بَيِّن، على ما أولى من نعم، أظهرت الإسلام بعد خمول، والشكر له على قسم أعزت الدين وقد كان جدّ ذليل»[2].

ومن الثابت في التاريخ أن هذا مجرّد تهريج لا غناء من ورائه، وأن الواقعة التي أثارت هذه الحماسة الجوفاء ليست إلا مناوشة لا قيمة لها، وأن الحقيقة أن جيوش المسلمين الأندلسيين لم تستطع، هذه المرة، أن تقهر عدداً قليلاً من النصارى المحتمين بحصن لييط الواقع في قلب بلاد المسلمين[3].

إذا تجاوزنا هذا الغرض، إلى غرض آخر يكون التعبير فيه أقرب إلى الحقيقة، وأصدق في تمثيل أحوال المسلمين وقتئذٍ في هذه البلاد، كان من

---

(1) المصدر السابق.

(2) ذ: 1/2، ص: 264.

(3) راجع ما كتب في الهامش المتقدم والإحالة على كتاب يوسف أشباخ.

أوّل ما يطالعنا أنباء الثورات والفتن التي تقع بين المسلمين ويتصدى أمراؤهم للقضاء عليها. ونحن نرى ملوك الطوائف يسارعون إلى إعلام بعضهم بعضاً بوقوعها، ثم يتبادلون أنباء انتصاراتهم فيها حين يحققون فيها ما يعدونه انتصاراً.

ومن هذا القبيل ما كتبه المعتمد بن عباد إلى ابن صمادح أيضاً أثر دخول ابن عكاشة[1] مدينة قرطبة، وقتله ابن المعتمد فيها وهو الملقب بالظافر. فهو يبدأ رسالته إليه بالتفجع والتحصر: «كتبت على أثر النازل الشنيع، والرزء الفظيع الذي صدع كبدي. . . وأثكلني من كان القرة لعيني، ما جرى على الفقيد الشهيدعباد، ابني. . . رحم الله مصرعه وبرّد مضجعه. . .»[2] ثم يأخذ المعتمد في شرح هذه الحادثة بإيراد الكثير من تفاصيلها، فيقول: «وشرح هذه الفاجعة، والقاصمة الهاجمة: تسببت من مثابرة العدو المبين المفتون، جاري الذميم الجوار[3] القبيح الآثار، ومجاهرة الفاسق المعروف بابن عكاشة، دليله في سبيل التسلط والعدوان. . . طلب الغرة في قرطبة حتى أصابها. . الخ»[4].

والذي تجدر ملاحظته أن في آخر الرسالة إشارة واضحة إلى الغرض الإعلامي، وحرص ابن عباد على نقل هذه المعلومات إلى ابن صمادح، وذلك حين يقول: «وبادرت إلى عرض ما وقع على فضل تأملك، لترى جد هذا العدو المطالب، المشاقّ المناصب، وإكبابه على التسلط والتمرّد، إلى أن انتهك الحرمة ووتر في الولد»[5].

---

(1) انظر تفاصيل الفتنة كما يرويها ابن بسام في الذخيرة 1/2 من 263 إلى 272. وانظر أيضاً نفح الطيب، نقلاً عن قلائد العقيان، ج 623/1 - 627.

(2) ذ: 1/2، ص: 266.

(3) يشير بهذه العبارة إلى ابن ذي النون، صاحب طليطلة، وانظر ما كتبه ابن بسام عن العداوة بينهما في ذ: 1/2، ص: 268.

(4) ذ: 1/2، ص: 267.

(5) نفسه، ص: 268.

وكما هو متوقع، فإن المعتمد ما كان يستطيع أن يصبر طويلاً على هذه الإهانة البالغة: خيل عدوه تقتحم مدينة هامة من أعماله، فيقتل فيها ابنه، وتخرج هي من سلطانه... إن حادثاً أقل من هذا بكثير، كفيل بأن ينال من هيبة المملكة، ويغري كل طامع بإمكانية التعرض لها بما شاء من الأذى. ولذلك كان لا بد أن يعجل ابن عباد بمعاقبة المذنبين، والثأر لولده القتيل. وقد فعل. وإذا كان قد سارع كما رأينا ـ في الأول ـ إلى إبلاغ أحد نظرائه أنباء ما وقع في قرطبة، فإنه ـ في هذه المرة أيضاً ـ لا يتأخر عن الإعلام بآثار ردّ الفعل.

على أن الجديد، هذه المرة، أن رسالة الإخبار بعودة قرطبة وقتل ابن عكاشة الثائر فيها، لا نجدها موجهة إلى ملك معين، كما كان شأن الرسالة الأولى، وكأنما هي «منشور» أو «تعميم» بمصطلحات الإدارة الحديثة، وجّهه الملك المنتصر على أعدائه إلى كل الملوك الذين يعنيهم الاطلاع على وقائع الحادثة، وتهمهم معرفة أنبائها.

وهذا الكتاب يبدأ بالنص على أن قرطبة ـ وهي كانت حضرة الأندلس ـ عادت إلى مملكة بني عباد: «وأنفذته عندما عادت الحضـرة إلى يدي، وانتظمت ببلدي، على صورة من التيسير ضاعفت حسن مـواقع العـارفة بها»[1]، ثم تعرض الرسالة إلى طاعة أهل قرطبة، ومحبتهم بني عباد، وهي طريقة في تأكيد ولائهم ليظهر ابن عكاشة بمظهر المارق المنحرف. ثم يأتي القسم الوصفي وهو الذي يحفل بتفاصيل المعركة، ويورد جزئياتها الكثيرة، مثل قول الكاتب: «فاقتحمت من النهر مخاضـة توازي الـربض الشرقي منها... وأحس ابن عكاشة ومن معه من الشيعة المفلولة بمكاني ففروا بأرواحهم، وألقوا ما كان معهم من سلاحهم...»[2].

غير أن أهم خبر في الرسالة إنما هو مقتل ابن عكاشة، وهو خبر يؤخره

---

(1) نفسه، ص: 272.

(2) ذ: 1/2، ص: 273.

بعد كل هاتيك التفاصيل، ويختم به الرسالة ليكون وصف الانتصار مستكملاً لكل أساليب التأثير[1].

كان هذا نموذجاً من الرسائل التي تَعرِض إلى قص أنباء الثورات وحالآت العصيان والتمرد ثم محاربتها والقضاء عليها. وعندنا نوع آخر منها وهو ذلك الذي تتعلق فيه الرسائل بذكر الوقائع التي تؤدي إلى القضاء على ممالك بأسرها، وإلغاء إمارات من الوجود، وإلحاقها ببلاد الملك المنتصر في حربها.

من ذلك ما وقع عندما استولى المعتمد بن عباد على مُرسِية، وأخرج أصحابها بني طاهر[2] منها، وألحقها بالبلاد الخاضعة لسلطانه، فقد كتب رسالة، لم يُذكر ملكٌ بعينه وُجّهت إليه، مما جعلنا نقدر لها أيضاً أن تكون من قبيل «المناشير» و«التعميمات» كسابقتها، وهي صيغة يبدو أن بني عباد كانوا كثيري الاستعمال لها، لأنهم كانوا أقوى ممالك الطوائف، فكانوا ربما أباحوا لأنفسهم من أساليب المخاطبة ما لا يبيحه غيرُهُم لنفسه.

وتبدو مقدمة الرسالة حريصة على إزالة كل لبس ممكن يأتي عن سوء تأويل ما حدث، وذلك واضح كل الوضوح في هذه الأسطر الأولى منها: «وها أنا أعرض عليك من باطنها ما ربما خفي، وأنهي إليك من نجواه ما لعله لم ينم على وجهه ولا أُنهي»[3] وبعد ذلك يذكر الأسباب الحقيقية التي أدت إلى ما أدت إليه، وهي أنه كان متردداً في إعلان ولائه لبني عباد، أو ذلك ما تدل عليه عبارة «وصاحبها مع ذلك عَمٍ عن رشده، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى في إعطاء صفقة يده»[4] ولكي لا يبدو المعتمد في صورة المعتدي الظالم فإنه يشدد في النهاية على أنه لم يزد على أن حقق رغبة أهالي مُرسِية، ولم يَعْدُ

---

(1) انظر أجزاء الرسالة الباقية في ذ: 1/2، ص: 273.

(2) بنو طاهر: أمراء مرسية. وانظر أخبار القضاء على دولتهم في ذ: 1/3، ص: 24..

(3) ذ: 1/2، ص: 273.

(4) نفسه ص: 274.

الاستجابة لِنِدائهم، فلذلك «أظهر أهل البلد من الاغتباط بمآلهم، والاستبشار بمفاتحة حالهم، ما يُظهِر من خرج من ضيق إلى سعة، وانتقل من هرج إلى دعة»[1] وأي عذر يهرب إليه من يفعل فعل المعتمد إذا لم يلجأ إلى الشعب يستمد منه شرعية تصرفاته، مع أن إرادة هذا الشعب المسكين هي آخر ما يُلتَفَت إليه في هذا البلد المشتتة صفوفه..

ولعلّ أبرز ما يميز كل بلد تنزل به الكوارث التي نزلت على الأندلس في هذه الفترة، وتبلغ فيه الخلافات ذلك المبلغ الذي لا تكاد الكلمات تفي بوصفه، أن علاقات الناس فيما بينهم تفتقد حينئذٍ أبسط عناصر الثقة التي لا بدّ منها لحصول الطمأنينة في المجتمع، فيشيع الغدر، وتكثر المؤامرات. فإذا تجاوزت كل الحدود وبلغت إلى فصم وشائج القربى المقدسة، فلم يرع الابن حق الأب، ولا الأب حقوق الابن، ودواعي الصفح عليه، ولا حقوق الأخ على أخيه، فتلك إشارة لا تخطىء في الدلالة على نوعية الأزمة في المجتمع: إنها أزمة الأخلاق، وتلك علامة الانهيار المحتوم.

ولقد حمل نثر المخاطبات الإعلامية أصداء هذه الأزمة، وأبلغنا قدراً من تفاصيلها المُحيّرة، مما تبادل الملوك أنْبَاءَهُ فيما بينهم. من ذلك أن المعتضد[2] ابن عباد قد قتل ابنه إسماعيل[3] فبعث برسائل إعلامية إلى ملوك الأندلس يخبرهم بهذا النبإ الفظيع، منهم ابن أبي عامر صاحب بلنسية، ومنهم ابن مجاهد في الجزائر الشرقية، وقد احتفظت لنا «الذخيرة» برديهما وفيهما معاني التألم لهذا المصاب والتعزية بالفاجعة. وقد احتفظ لنا ابن بسام بالرسالة الإعلامية التي وجهها المعتضد إلى ابن أبي عامر[4] المذكور، وهي تبدأ على هذا النحو: «وطرأت عليّ يا سيدي... من خطوب الأيام طارئة

---

(1) ذ: 1/2، ص: 273.

(2) المعتضد: والد المعتمد بن عباد. وقد سبق التعريف به.

(3) انظر تفاصيل هذه الحادثة وظروفها التاريخية في الذخيرة نقلاً عن ابن حيان: 1/3 من 143 إلى 148.

(4) ابن أبي عامر: حاكم بلنسية وهو من سلالة الحاجب ابن أبي عامر الشهير.

دهياء دهمـاء. . . ثارت إليّ من مكمني، وطلعت عليّ من مأمني. . .» الخ[1] وهي رسالة بليغة من إنشاء أبي محمد بن عبد البر[2] طويلة تجاوزت خمس صفحات من كتاب الذخيرة المطبوع. وقد أُنهيت بإعلام المخاطَب بتعيين ولي جديد للعهد، بعد قتل إسماعيل الذي كان عُيِّن لذلك. وهي رسالة تدل على عمق مأساة أبٍ يعامل ابنه معاملة العدو، فيشتط في العقاب حتى لا يصرفه عن قتله أي اعتبار من الاعتبارات!. .

وعندنا أيضاً من أنباء الغدر ما يقع بين الإخوة المتصارعين حين تُعمي المصالح الآنية بصائرهم، وتقتل فيهم إرادةُ الحكم أسمى المشاعر الإنسانية. فقد كتب يوسف بـن هود[3] إلى ابن جهور[4] كتاباً إعلامياً ينبئه فيه بالكيفية التي حاول بها أخوه أحمد[5] أن يقضي عليه، وذلك أنهما «أبْرَمَا عقدة السلم» بينهما بعد منازلات كثيرة، ثم اتفقا على مكان يلتقيان فيه للتفاوض، والاتفاق على ترتيبات الأمن، فإذا بجماعة من الفرسان يندفعون إلى الفتك بيوسف الذي لم ينج إلا بسرعة بديهته، وفطنة خدمه الذين أسرعوا إليه. . .

وقد ذكر يوسف في آخر الرسالة حرصه على إعلام حلفائه بهذه الوقفة فقال: «فرأيت مساهمة الأولياء والحلفاء بصفة الحال، وعرضها من المبدإ إلى المآل»[6].

---

(1) ذ: 1/3، ص: 138.

(2) أبو محمد بن عبد البرّ: الوزير الكاتب أبو محمد ابن الفقيه أبي عامر. وانظر تفاصيل إقامته عند ابن عباد في ذ: 1/3، ص: 124.

(3) يوسف بن هود: هو حسام الدولة صاحب لاردة الذي تغلب على أخيه أحمد صاحب سرقسطة.

(4) ابن جهور: أسرة بني جهور حكمت قرطبة بعد الفتنة ثم قضى عليها بنو عباد وضموا قرطبة إلى مملكتهم.

(5) أحمد بن هود: كان يريد أن يستقل بمملكة بني هود بالكيد لإخوته. ولكن أخاه يوسف تغلّب عليه.

(6) ذ: 1/3، ص: 426.

ومن أمثلة الغدر بين الأخوين أيضاً ما وقع بين ابني مجاهد[1]، فقد كتب عليٌّ إقبالُ الدولة، إلى ابن أبي عامر صاحبِ بلنسية يطلعه على تصرفات أخيه حسن، الذي كان قد بايعه في الأول كما بايع الناس، وأقسم على طاعته، ولكنه «داخل صاحب إشبيلية[2] في الغدر والخلاف... فأجمعوا أيديهم... وأزمعوا كيدهم،... وتوخوا صدري من صلاة الجمعة... فما استيقظت إلا لصفح صفائحهم تُصْلَت عليّ، ولا انتبهت إلا لِضَوْءِ رماحهم تُشرَع إليّ، إلا أن الله كان بإزائهم ظهيراً، وتلقاني نصيراً...»[3].

إن هذه الرسالة لتتضمن كل معطيات الغدر السياسي الذي كان شائعاً في البلاد الأندلسية خلال هذه الفترة من تاريخها: نزاع بين الأقارب على خلافة الأمير الهالك، وتدخل أطراف سياسية أخرى تريد أن تحقق أطماعها القديمة في إضعاف تلك المملكة أو إلحاقها بها، وتآمر على قتل الجالس على العرش انطلاقاً من عواطف الكراهية والحقد الشديدة التي لا ترعى حتى للأماكن المقدسة حرمة...

والمهمّ ـ فيما يعني بحثنا الآن ـ أن هذا كله مادة صالحة للمخاطبات الإعلامية، وتبادل الرسائل الإخبارية التي رأينا أن أكثرها يدور على الثورات والفتن، والاضطرابات الداخلية، كما أنها قد تحمل أنباء الانتصار حين تَتَأَتَّى ظروفه ولو كان قليل الوقع، هيِّن النتائج. والظاهر أن ملوك الطوائف كانوا قد آمنوا بقيمة هذه المبادلات وأحسنوا تقدير أهميتها في تطور العلاقات فيما بينهم، ولذلك فنحن لا نستغرب أن يتعاطوا كلهم تبادل المجاملات وأن

---

(1) ابنا مجاهد هما: علي الملقب «إقبال الدولة» وهو الذي خلف أباه مجاهد الموفق بالله، وأخوه حسن الملقب «سعد الدولة». وقد قضى بنو هود على هذه الإمارة وضمّوها إلى مملكتهم سنة 468. انظر ما كتبناه عن ملك الطوائف في الباب الأول، الفصل الأول.

(2) «صاحب إشبيلية»: يعني به ملك بني عباد: المعتضد.

(3) ذ: 1/3، ص 169-170.

يكثروا من الاتصالات الودّية كلما أتاحت لهم الظروف السياسية والمناسبات الاجتماعية ذلك.

جـ ـ الاتصـالات الوديـة:

إن هذه الاتصالات الودية هي ما يمكن تسميته بإخوانيات الملوك، فهي تحمل المشاعر التي يتبادلونها في بعض المناسبات الاستثنائية سواء كانت ذات طابع سياسي أو اجتماعي، وهي، في جميع الحالات، لا تعدم صلة ما بالحكم والشؤون السلطانية، لأن المتراسلين إمّا أن تكون بينهم علاقة ودية راسخة، فالمجاملة بينهم تأكيد لتلك العلاقة وتمكين لها، وإما أن لا تكون، فيبادر طرف ما بالمراسلة لوضع اللبنة الأولى في بناء لا بد أنه ينتظر من ورائه فائدة يجنيها أو مصلحة يقضيها في يوم من الأيام.

ولعلّ واحدة من أقدم طرائق التقارب والتوادد بين الملوك هي التي تتمثل في إصهار بعضهم إلى بعض، فإن الزواج يوثق عُرى القرابة بينهم، ويجعل منهم أسرة واحدة. ولدينا عن مثل هذه العلاقة زواج ابن صُمادح من بنت علي بن مجاهد. وقد بعث ابن مجاهد برسالة إلى ابن صمادح يذكر له معانـي هذه القرابة: «قد انتظمنا ـ أيدك الله ـ انتظام السلك، وضَرَحْنَا عن مشارب الحال الجامعة لنا قَذَاة كل شك وإفك، . . . وأنفِذَت الهَدِيَّةُ المقتضاة محفوفة بالحرم والمحارم، مكنوفة بالكرائم ثم بالأعلام الأكارم. . .»[1].

وفي القسم الثاني من الرسالة يوصيه بها خيراً بقوله: «ثم حسبي عليها كرمك وكنفك، وخليفتي عليها برك ولطفك، فهي الآن ملكك وأنت الكريم المُسْجِح. . .»[2] ثم لا ينسى أن يُلمح إلى قيمة هذه «الهدية» التي خصه بها وجعلها من نصيبه، وذلك حيث يقول: «وعندك ثمرة النفس، وفلذة الكبد، فارقتها عن شدة ضنانة، وأسلمتها بعد طول صيانة. . .»[3]. وهي رسالة، كما

---

(1) ذ: 1/3، ص: 127.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

نرى، ذات طابع ودّي، دون أن تعرى تماماً عن كل إشارة تسلك بها درباً من دروب السياسة. والطريف في هذه الحكاية أن ابن مجاهد ظل يتشوق إلى بنته وهي عند ابن صمادح، ويذكر حنينه إليها بعبارات لم نألف وجود مثلها كثيراً عن الآباء العرب حين يذكرون بناتهم. وفيما يلي فقرة من رسالة ثانية، بعث بها إلى ابن صمادح، تبين ما ذهبنا إليه. قال: «إلى أن قرع ما قرع من لوعة الفِراق، ولَذَع ما لَذَعَ من رَوْعة الاشتياق، وأنا أظن أن ذلك عاقِبَةُ الصبر تَغْلِبُهُ، والجلد يعقبه، وإن انصرام الأيام ينسيه ويذهبه، فإذا هو قد أفرط وزاد، وغلب أو كاد، حتى نفى السلوّ، ومنع الهدوّ، وتعدّى اللذع إلى الإحراق... ويتصور لي أن قطعة مني بانت منفصلة عني، وأن جزءاً من أجزائي ذهب بصبري وعزائي...»[1]. أليست هذه لهجة تستغرب حين تصدر عمن يتشوق إلى الأنثى من أولاده؟ أليس المقصود منها بيان قيمة تضحية ابن مجاهد حين زوج بنته لابن صمادح؟ وأن المطلوب هو «علاقة سياسية» تكافىء العلاقة الودية بينهما! ذلك ما توحي به الأقسام الأولى من هذه الرسالة على كل حال حين يقول ابن مجاهد لصهره: «وقد توغلت معك في أسباب الألفة، وهتكت بيني وبينك ستار المراقبة والكلفة، فأنا أستريح إليك بخفيات سري، وأجلو عليك بنيات صدري...»[2].

ومن أمثلة المراسلات التي دارت مضامينها على معنى من معاني العلاقات الودية ما نجده يدور على صلة الأمير أبي عبد الرحمن بن طاهر بابن عباد، وما أفضت إليه من تطورات ومضاعفات انتهت بإلقاء القبض على ابن طاهر والقضاء على الإمارة التي أقامها في مرسية[3].

فمن وجوه هذه العلاقة: الكتاب الذي بعث به ابن طاهر إلى المعتمد بن عباد يعرض عليه فيه مودته، ويذكره بالصلة التي كانت بين أبويهما في سالف

---

(1) ذ: 1/3، ص: 131.

(2) نفسه، ص: 130.

(3) انظر الأخبار التي يوردها ابن بسام في الذخيرة 1/3، ص: 24 - 27.

الأيام. يقول: «إن الزمان اللدن الـذي انقضى وامحت صورتـه الحسنى نظم بين ذي الـوزارتين: القاضي جـدك، وبين أبي مـولاي كـان رحمـه الله عقـد الصلة، وأبرم بينهما حبل الخلّة، إلى أن امتزجت بينهما الحال امتزاجاً، وكان كل واحـد منهما لنفس صاحبه غذاءً ومزاجاً»[1]، وتدل هـذه الرسـالة على أن ابن طـاهر هـو الذي كان في موقف الضعف فهو الـذي يخطب ودّ ابن عبـاد، وهو الـذي يعرض صداقته عليـه. ولنستمع إليـه وهو يقـول له: «فلمـا اطمأنت بـك قدم الـرياسـة، واستقرت منك في شخص السيادة والنفاسـة، جعلت الهمة تتـطلع، والإرادة مني تنقاد وتَتَبَّعُ في الإلمام بمداخلتك، والتسبب لمطالعتك. . . »[2].

ولكن عـلاقة ابن طـاهر بـابن عباد لم تـزد بعد ذلـك إلا سـوءاً حتى غـزاه بجيش، وألقى القبض عليـه وقضى على إمارتـه، ثم كثـر المتـوسـطون لإطـلاق سراحه، فلما أفرج عنه، راسل عـدداً من رؤساء الجـزيرة الـذين كانـوا وقفوا إلى جنبه في تلك المحنة الشديدة التي ألمت به، يشكرهم على مـوقفهم ذاك. فكان من هؤلاء صاحب المرية[3] الذي أرسل يقول لـه: «ولما تخلت مني ـ أيـدك الله ـ يـد الزمـان ونوائبـه، وتجلت عني غمراتـه وغياهبـه، ابتـدرت مـطالعتـك ابتـدار الفرض، وهصرت من مجاذبتك بـالغصن الغَـضّ. . . »[4]. ومنهم أيضاً ابن هـود صاحب سرقسطة، فقد كتب إليـه يقول: «إن الأيـام ـ أيدك الله. . . . ـ رمتني. . . بسِهامها، وجَرَّعَتني غُصَص حِمامِها فكان لِلَّهِ سِتْرٌ وَقَى، وصُنعٌ أبقى. . . وفي كل حال أخطرتني ببالك ومددت عليّ من ظلالك. . . »[5].

هذه الرسائل وغيرها تأتي كلها في قالب الاعتراف بالجميل لمن وقفوا معه ـ ولو وقوفاً معنوياً ـ ولم يتخلوا عنه ولو بإخْطارِه ببالهم، كما ورد في رسالته

---

(1) ذ: 1/3، ص: 44.

(2) نفسه. 45.

(3) صاحب المرية: كانت المرية قاعدة ملك خيران وزهير العامريين ثم صارت حاضرة إمارة بني صمادح.

(4) ذ: 1/3، ص: 34.

(5) نفسه، ص: 35.

المتقدمة. وكل ذلك في وجه من وجوه الكتابة الودية، وتبادل المجاملات التي كان ابن طاهر محوراً لها.

ومن هذا القبيل أيضاً مجموعة من الرسائل التي ضمنها أصحابها الثناء على «الوزير الأجل: أبي بكر بن عبد العزيز[1] وتقديم الشكر الجزيل له على ما كان من سعيه الحميد، وجهوده الموفقة لإنقاذ أبي عبد الرحمن بن طاهر من ورطته. وهي رسائل عديدة تمثلها أحسن تمثيل الرسالة التي وجهها إليه المؤتمن ابن هود، والتي ورد فيها قوله: «وقد تتابع عنك ـ أعزّك الله ـ أحسن الحديث المذيع لخفايا سروك وسرائره، المعرب عن سجايا سنائك ومآثره، منذ انتدبت بشرف منحاك، لما يسّره الله من حميد مسعاك... حتى شردت المحنة، وعمت المنحة بتخلص ذي الوزارتين الكاتب الأجل... فجازاك الله أفضل ما جازى علماً من أعلام الوفاء، ووفاك أكرم ما وفّى متقدماً في أحوال الصفاء»[2]. إنها كما نرى نغمة شجية من نغمات الإجلال والتعظيم لمواقف الوفاء، وقد أضحى خبره نادراً مستطرفاً في بيئة تمتلىء بأسباب الخيانة والغدر والتآمر. ولذلك لم يترفع بعض الملوك عن مفاتحة وزير ـ دونهم رتبة ـ بالخطاب، وكيل الشكر له، والثناء عليه مثلما رأينا.

ولسنا نريد أن نطيل في عرض نماذج أخرى من هذه المخاطبات الودية التي هي من الكثرة بحيث لا فائدة من حصرها وإحصائها، وإنما نريد أن نختم الحديث في هذا الضرب من نثر العلاقات السلطانية بإيراد رسالة طريفة لأنها أرسلت من أخ إلى أخيه، فهي ترمز إلى أكثر من مجرد التبادل الودّي، إلا أنها تدور على معاني اللوم والعتاب.

فقد لخص صاحب كتاب الذخيرة ظروف هذا التراسل وسياقه بقوله: «اتصل بالمتوكل[3]، أيام سلطانه بيابره، أنه قُدح فيه بمجلس المنصور يحيى

---

(1) أبو بكر بن عبد العزيز من وزراء دولة بلنسية، وانظر أخباره في الذخيرة 1/3 ص: 40 - 44.

(2) ذ: 1/3، ص: ش39.

(3) المتوكل: هو عمر بن المظفر صاحب بطليوس، وقد قضى المرابطون عليه وعلى دولته عام 487.

أخيه[1] فكتب إليه: «كل صديق ـ أيدك الله ـ إذا خاطب صديقه، فأغرب ما يُطْنِبُ به عليه، ويُسهب فيه لديه أن يقول: أنا كأخيك...»وبعد هذا المدخل الذي لا نلمح فيه شيئاً من عواطف الأخوة الصادقة يبدأ اللوم والعتاب بقوله: «غير أنه جرى في ناديك أنني أبيع الأحرار والحرائر، واستصغر المعاصي والكبائر، والله نزهني عن هذا وأبعدني عنه، فلا قدرة لبشر أن ينيطه بي ويدنيني منه..»[2] وهذه رسالة تدلّ على ضرب من العلاقات التي تكون بين الأخوة حين تُحكِم الطموحات إلى السلطة بينهما أسباب العداوة.

لقد اقتصرنا إلى حد الآن على مبادلات الأمراء الأندلسيين فيما بينهم، وقد اعتبرناهم كياناً واحداً، مهما بلغت الخلافات والإحن والحزازات فيما بينهم، وأرجأنا الحديث عن اتصالاتهم بمن هم خارج حدود البلاد الأندلسية، لأن مثل هذه الاتصالات هي التي نعدها سياسة خارجية، ونبحث في المبادلات التي افتضتها، ومضامين النثر الذي صدر عنها.

د ـ العلاقات الخارجية:

ينبغي أن نلاحظ بادىء ذي بدء أننا كنا نتوقع أن نجد سيلاً من النصوص التي تدخل في علاقات ملوك الأندلس الخارجية، بالمعنى الذي حددناه قبل حين، ولكننا فوجئنا بأنهم لم يكونوا ذوي اتصال مكثف بالعالم الخارجي المحيط بهم، سواء قصدنا به الفرقاء العرب والمسلمين، أو الأطراف الأوربية والأجنبية بشكل عام. ولسنا ندري ما هو التفسير الصحيح لذلك، ولكن يبدو أن الحكام لا يفكرون في «تنشيط» علاقاتهم الخارجية إلا بعد الاطمئنان لأوضاعهم الداخلية، والإحساس بأنهم يتحكمون فيها أتم التحكم. فكأن تطوير العلاقات بالعالم الخارجي، والسعي إلى تحسين الصلات بالأنظمة الأجنبية لا يكون إلا

---

(1) يحيى أخو المتوكل، تولى الملك في بطليوس بعد موت أبيه المظفر سنة 456، وتلقب بالمنصور، أما أخوه المتوكل فكان يحكم مقاطعة يابرة.

(2) ذ: 2/2، ص: 647.

في مرحلة ثانية بعد البناء الداخلي. ويديهي إننا لا نقصد بالبناء الداخلي تلك الكيانات المتعددة، وإنما نقصد مجموع الساحة الأندلسية.

على أنه ينبغي أن نشير، من جهة أخرى، إلى أن تناحر تلك الممالك الصغيرة، وصراعاتها الكثيرة كانت جديرة بحفز ملوكها وأمرائها إلى البحث خارج حدود البلاد عن تحالفات جديدة، وصداقات أجنبية تتيح لهم تحسين مواقعهم، وتعزيز قواعدهم في خارطة السياسة الأندلسية.

وأيّاً ما يكون الأمر فإن ما بين أيدينا من النصوص النثرية، المتضمنة لمعنى من معان الاتصالات بالخارج، تشير إلى أربع جهات أجنبية وقع التراسل معها وهي: حكام إفريقية بالمهدية وحكام مصر، والنصارى، وأخيراً المرابطون.

ـ الاتصالات بحكام إفريقية:

ممن اتصل بأمير إفريقية في المهدية: المعتمد بن عباد، صاحب إشبيلية، فقد كتب إليه يقول: «إنني ـ أيدك الله ـ على ما بيننا من لجج خضر، وفياف غبر، لمستكثر من إخائك، مستظهر بوفائك»[1]. ويبدو من سياق الرسالة أن المعتمد يحاول أن يستدرجه نحو التعاقد والتحالف، فهو يعرض عليه أن يوفد إليه جماعة من نبلاء مملكته، أو ذلك ما يفهم من قوله. «ويعلم الله أنه ما أملي الأبعد، وعملي الأحمد، إلا أن يؤم أفقك الطلق. . . من الخواص النبلاء، والأعيان الفضلاء، من يبلغك كتابي، وينوب في إنهاء طاعتي إليك منابي»[2].

بيد أنه ينبغي أن نلاحظ أن المعتمد لم يكن هو المبادر بهذه العلاقة، إذ أنه يذكر في رسالته هذه أنه استقبل السفير الذي بعثه صاحب المهدية، وأحسن ضيافته، وحمّله هذه الرسالة إلى مولاه مما يدل بوضوح على أن زعماء المهدية كانوا يتطلعون إلى الأندلس، وأنهم على كل حال كانوا على اتصال بملوكها. .

(1) ذ: 1/2، ص: 283.

(2) ذ: 1/2، ص: 283.

وممن كانت له علاقة بالمهدية أيضاً إقبال الدولة[1] فقد كتب إلى المعز بن باديس[2] يتودد إليه بقوله: «أطال بقاء سيدنا الأجل، رافع أعلام الهدى، ومحيي كلمة التقوى، وقوام أمر الدين، ونظام شمل المسلمين، وشعار حزب المؤمنين، وناظر عين الزمان، وروح جسم الأوان. . .»[3] والرسالة كلها على هذا النمط من الإجلال والتعظيم للملك والمملكة. وفيها إغراء شديد بتمتين العلاقة به، من مثل قوله: «وإن مع التجاور لَيُعْلَم العيان، ومع التحاور ليطمئن البرهان، ومع التزاور لتزول الأحوال. . .»[4].

ولأمر ما نرى إقبال الدولة هذا يستمر في مراسلة المُعِز بن باديس ويلح على الاتصال به، فنحن نجده يوجه إليه رسالة أخرى، تتداخل بعض فقراتها مع الرسالة المتقدمة، ولكنها تتميز عنها في كل شيء، وأوضح فرق بينهما أنه في هذه أكثر خضوعاً وانقياداً، وأحرص على إبراز طاعته وولائه حتى أنه يقول فيها: «وقد علم مبتلي السرائر، وحافظ البواطن والظواهر أنها بصيرتي التي أستشعر، وسريرتي التي أضمر، وحقيقتي التي أخفي وأظهر، . . . وأن مقالي كفيل فعالي في موالاة سيدنا ـ خَلَّد الله ملكه ـ على طول المدى. . .»[5] فهل كان ما يلقاه إقبال الدولة من تضييق ابن عباد عليه هو الذي دفع به إلى الارتماء في أحضان المعز بن باديس؟ ربما كان ذلك صحيحاً. وكيفما كانت الحقيقة فإن الذي لا شك فيه هو أن ابن مجاهد هذا كان لا يتوانى في قرع كل الأبواب التي أمكنه قرعها حتى أنه استطاع أن يربط أوثق الاتصال بحكام مصر.

ـ الاتصالات بحكام مصر:

عندنا من الرسائل التي وجهت إلى صاحب مصر مجموعة كبيرة صدرت

---

(1) إقبال الدولة: هو علي بن مجاهد صاحب الجزائر الشرقية. وقد تقدم التعريف به.

(2) المعز بن باديس: بن المنصور الصنهاجي (398 - 454) تولى إفريقية للفاطميين ثم خرج عنهم، فأرسلوا إليه أعراب بني هلال وبني سليم لتأديبه.

(3) ذ: 1/3، ص: 245.

(4) نفسه، ص: 246.

(5) نفسه، ص: 362.

كلها عن إقبال الدولة المذكور. وهي كلها تمتلىء بالثناء الجم، والمدح الغزير، في إطارٍ من الإجلال والتعظيم يدعو إلى العجب والحيرة، وهي كلها من إنشاء كاتبه أبي الأصبغ بن أرقم[1] ففي الرسالة الأولى التي يوردها صاحب الذخيرة سيل متدفق من المدح والشكر منه قوله: «فما الشكر وإن جزل يرقى ثنايا ذلك الإفضال والإنعام، ولا اللسان، وإن جعل يتعاطى ذلك الثناء ولا الأقلام، ولا الجهد يقدر قدر ذلك الإكبار والإعظام، ولا الوجد يفي بتلك العوارف الجسام، ولا الطوق يقوم بأعبائها حق القيام...»[2].

ثم نجد له رسالة ثانية تسيل بمثل تلك النعوت والأوصاف منها قوله مخاطباً «الوزير الأجل، صفي أمير المؤمنين» دون أن يسميه، «وإني أطال الله بقاء حضرة سيدنا، وإن لم أحلّ بمكاتبته تقليداً، ولم أحظ بمداخلته مستفيداً، فبه أثمر غرسي، وله انتظم غدي وأمسي، وعليه تهدّل جنى نفسي، فمحاسنه التي ملأت المَلْوَيْن، ثنتني فأنثنيت، وأنواره التي طبقت الخَافِقَيْن، هدتني فاهتديت، فسرت إليه مسير السيل إلى قراره، وانجذبت نحوه انجذاب النجم إلى مداره، وجريت على نهج أبي، رحمه الله، في خدمة الحضرة، والمكاتبة لها، والمهاجرة إليها...»[3].

ومن الواضح، حسب الإشارة الأخيرة أن علاقة إمارة دانية والجزائر الشرقية بحكام مصر قديمة قِدَم هذه الإمارة نفسها، إذ أنها ترجع إلى مؤسسها مجاهد الفتى العامري. والذي يستلفت الانتباه حقاً أن ابن مجاهد يكثر من الحديث عن هذا الماضي، ولا يتوقف عن التلميح إليه والتَّوَكُّؤِ عليه، فهو في رسالة ثالثة ينشر هذا المعنى من جديد فيقول: «وقد كان للموفق أبي، مولى الحضرة، مَنْزَعٌ

---

(1) أبو الأصبغ بن أرقم: عبد العزيز بن محمد بن أرقم من كتاب إقبال الدولة، انظر أخباره في ذ: 1/3، ص: 360.

(2) ذ: 1/3، ص: 394.

(3) نفسه، ص: 396.

علق بسببه، وأربُّ وُسمَ أجملَ وَسم به أن يُثبِت في ديوان مُكَاتَبتها[1] اسمَه، ويُلحق في رسوم خدمتها رسمَه. . . ويُحلّي مغربَنا بما لم يكن حالياً به، ويفُضّ عُذْرة أمرٍ لم يُهْتَدَ لجانبه، فوافاه حِمامه ـ أكرم الله نُزُلَه ـ وهو في ذَمَائه يُمَهِّد أَكْنَافَ نيته. . . فَقَضَى ولم يُسْعِدْه القَضَاء، ومَضَى ولم يكن الأمضى. . . »[2].

فهو هنا، كما نرى، يفصح عن خطة كان أبوه مجاهد ـ الملقب بالموفق ـ يريد تنفيذها ولكن المنية أعجلته، وها هوذا ابنه، بعد أن تصدى لمشكلاته الداخلية، يريد أن يبعث ذاك المخطط من جديد. ولم يكتفِ بإرسال الرسائل بل كان ينتدب السفراء الذين يحملونها إلى مصر، ويتخيرهم لهذه المهمة «من أبناء الوزراء، وصفوة الظهراء، من له السابقة المذكورة، والعين المشهورة، والأحوال الخطيرة، والخِلال المشكورة. . . »[3].

ثم يعود إلى علاقة دولته القديمة بأصحاب الأمر في مصر، فيشير مرّة أخرى إلى مسألة الاتصالات التي كان بدأها أبوه الموفق، فيقول في رسالة أخرى، بعد الثناء على «الوزير هنالك»: «وكان للموفق أبي نهج بمداخلتها[4] ومفتتح لمراسلتها، لم يفارقه ـ رَوَّضَ الله مثواه ـ إلى أن فارق دنياه، فكنت أبا عذرتها. . . »[5] بل إننا نراه يفتخر بأنه أسبق حكام المغرب إلى هذه الاتصالات وإقامة العلاقات، وذلك حين يقول: «فبرزت بين أبناء مغربي في مداخلتها، وعرض صاغيتي وخدمتي عليها، وتوفيد مكاتبتي ومراسلتي إليها. . . »[6] وهو في هذه الرسالة أيضاً يشير إلى إرسال سفير من قبله ويذكر اسمه وهو «أبو مروان بن نجية» الذي يصفه بأنه «من صفوة نظرائه»[7].

---

(1) الضمير يعود على «الحضرة» الواردة في بداية الرسالة، ويعني بها دولة المخاطب.

(2) ذ: 1/3، ص: 398.

(3) نفسه، ص: 399.

(4) الضمير يعود على دولة المُخَاطَب.

(5) ذ: 1/3، ص: 401.

(6) نفسه.

(7) نفسه، ص: 402.

والذي يبدو أن هذه الاتصالات الكثيفة لم تكن من طرف واحد، فقد وجدت نوعاً من القَبُول لدى حكام مصر المخاطَبِين، وراجعوا ابن مجاهد برسالة واحدة على الأقل، نراه يشير إليها في أحد كتبه، وذلك حيث يقول: «فصدرت المراجعة الباهرة بما أضاء جوانحه، وزجر سوانحه، وأمرع مواطنه ومسارحه، وتبيّن السعد معانقه ومصافحه...»[1].

ولعل ابن مجاهد كان صادقاً حين قال إنه فاق أبناء مغربه، وتميز عنهم بربط هذه الصلة القوية بالخلافة الفاطمية في مصر، إذ أننا لا نجد من الرسائل التي بين أيدينا ما يشير إلى أن مثل هذه المراسلة الكثيفة قد أقيمت بين مصر وأيٍّ من ممالك الطوائف الأندلسية في القرن الخامس.

وإذا كنا لا نستغرب فتور العلاقات بين الحكم الشيعي في مصر، وإمارات الأندلس، وقلة آثار الاتصالات المكتوبة بينهما، باستثناء ما كان من علاقات إمارة دانية والجزائر الشرقية به، فإن الذي لا بد أن نستغربه أكثر إنما هو قلة ما بقي شاهداً على صلة تلك الإمارات بالنصارى المجاورين.

ـ الاتصالات بالنصارى:

لا نملك من الرسائل الموجهة إلى النصارى ما يصلح أن يكون شاهداً على تلك العلاقات المكثفة والمتنوعة التي كانت بين حكام المسلمين من ملوك الطوائف، وأمراء الممالك الإسبانية النصرانية في الشمال المسيحي. ولعل التفسير يمكن أن يلتمس في جانبين:

ـ أولهما: أن المؤرخين المسلمين، ومنهم صاحب الذخيرة، كانوا يأنفون من أن يودعوا مجاميعهم ومؤلفاتهم شيئاً من تلك المخاطبات التي لا بد أن فيها من علامات الخضوع للنصارى، والانقياد لإرادتهم، والتودد لهم، ما لا يشرِّف أيّ مسلم معرفته أو الوقوف عنده.

ـ وثانيهما: أن العلاقات بين الطرفين كانت تقوم على أساس الوفود

---

(1) ذ: 1/3، ص 394.

والسفارات، والاتصالات المباشرة، أكثر مما تقوم عن طريق الكتب والرسائل، مما يطرح مشكلة ترجمتها وفهمها والإجابة المكتوبةعنها. . .

ومهما يكن من أمر فإننا نجد من هذا القبيل رسالة، احتفظ لنا بها ابن بسام وهي صادرة «عن بعض أمراء الثغور»، ولم يذكر لنا اسمه، وهي موجهة إلى «قوم من النصارى»، ولا نعرف من هم بالضبط. وهي رسالة قليلة الأهمية لأنها لا تفصح عن حادثة بعينها، ولا تشير إلى إحدى الوقائع التاريخية المعلومة. وقد ابتدأها كاتبها[1] بوصف الدمار الذي ألحقه أولئك النصارى ببلاد المسلمين، فكان من ذلك قوله: «أيها الشرذمة الطاغية إنكم لنا لغائظون، وإنكم لتفسدون في الأرض ولا تصلحون، . . . وانْتَسَفْتُم النِّعَم، وهتكتم الحُرَم، وبيتم سكون الدهماء، واستبيتم الحرائر في ربق الإماء، وتوغلتم البسيطات، وتسنمتم القلاع الممتنعات، ولم ترقبوا فينا إلاًّ ولا ذمة. . .»[2] إلى غير ذلك من هذه الأوصاف التي تفيض بها كتب الأدب الأندلسي في هذه الفترة. ثم ينصرف الكاتب بعد ذلك إلى التهديد والوعيد، فيكون منه مثل هذا القول: «فلتستشعروا حلول النقمة بكم، وإناختها عليكم، وتخطف المنايا لكم، وقطعها لدابركم، وإن الذي بينكم وبين الهلكة لأقصر من إبهام الحبارى، في يوم تُرَوْن فيه سُكارى، وما أنتم بسكارى. . .»[3].

وهي، إجمالاً، رسالة لا يفيدنا مضمونها بشيء جديد، غير أنها تمثل بعد المسافة بين واقع المسلمين وقتئذٍ، والأحلام التي تهدهدهم في نوبات الخيال. وهي تدل على حاجتهم الماسة إلى البحث في محيطهم القريب عمن يمكن الاستنجاد والاستغاثة به لتخليصهم من الويل والثبور. ومن كان أقرب إليهم من القوّة الصاعدة في بلاد المغرب: دولة المرابطين؟.

---

(1) وهو الكاتب أبو جعفر بن أحمد. وانظر أخباره في الذخيرة 2/3، ص: 757 وما بعدها.

(2) ذ: 2/3، ص: 768.

(3) نفسه.

- الاتصالات بالمرابطين:

لقد سبق لنا الحديث - في الفصل الأول من الباب الأول - عن الظروف التي استَقْدَم فيها ملوك الطوائف يوسف بن تاشفين، سلطان المرابطين، إلى بلاد الأندلس، وكيف استطاعت جيوشه المنتصرة أن تنقذ الأندلس، في ذلك الوقت، من نهاية كانت تبدو حتمية الوقوع لو لم يستجب للنداءات الملحة التي تستغيث به...

بيد أن الذي لا نعلمه على وجه اليقين هو عدد ونوع الرسائل التي لا بد أن ملوك الطوائف قد وجهوها إليه، وحملها عنهم رسلهم العديدون الذين كانوا يتردّدون على مرّاكش عاصمة الملثمين. والذي بين أيدينا، مما أورده صاحب الذخيرة، رسالة واحدة صادرة عن الملك الأفطسي، المتوكل، صاحب بطليوس. وهي رسالة لم تكن الأولى من نوعها، لأنّ ابن بسام نفسه يشير إلى أنها ربما «كانت ثالثة المفاتحة، أو ثانية المداخلة»[1].

أما الرسالة نفسها فتبدأ بالثناء على الملك المرابطي والتنويه بجهاده وغيرته على الإسلام. فمن ذلك قول الكاتب[2] عن أميره: «لما كان نور الهدى - أيدك الله - دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصحّ العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر...»[3].

وبعد هذا الثناء، يخلص الكاتب إلى وصف حال المسلمين مع عدوهم المتسلط، فيذكر أن فئة النصارى كان «دأبها التشطط والعناد» وأن دأب المسلمين «الإذعان والانقياد، حتى استصفي الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن

(1) ذ: 2/2، ص: 653.
(2) الكاتب هو: أبو عبد الله محمد بن أيمن وزير المتوكل ومدبر أمر مملكته. أخباره في ذ: 2/2، ص: 652.
(3) ذ: 2/2، ص: 653.

النفاد»[1] ويسترسل في التفجع على المسلمين، والتحسر لما أصابهم من قتل، وسبي، وما لحق مدنهم وقلاعهم الحصينة من غزو واحتلال.. ثم يختم الرسالة بطلب الغوث، والاستنصار بجموع المرابطين لتدارك الأندلس «رُكْباناً ورِجَالاً» والإسراع إليها «خِفافاً وثِقالاً».

ومما ينبغي أن يلاحظ في هذه الرسالة شيآن: أولهما: أن المتوكل يشير في رسالته هذه إلى أنه سبق له أن راسل ابن تاشفين بعد سقوط مدينة قورية، مما يدل على أن المتوكل كان كسائر أمراء البلاد لا يرى خلاصاً إلا في استقدام المرابطين، وأنه لذلك كان ينهي إلى مليكهم حوادث الجزيرة وأنباءها المحزنة لانتزاع قراره بالعبور إلى الأندلس، إذ تؤكد بعض الأخبار أنه كان يتخوف هذا العبور.

والشيء الثاني في الرسالة أنه حملها سفيرٌ أُشيرَ إليه بعبارة «الشيخ الفقيه الواعظ»، ومعلوم أن فقهاء الأندلس، وعلماء الدين فيها كانوا قد دعوا مبكراً إلى الاستنصار بالمرابطين، ومارسوا غير قليل من الضغط على الأمراء ـ عن طريق جموع المؤمنين ـ للتغلب على ما كانوا يستشعرونه من خوف على مُلْكِهِم إذا دخلت البلادَ جيوش الملثمين.

هكذا صور لنا النثر الأندلسي علاقات الممالك في البلاد بالأطراف الأجنبية عنها، وهي في واقع الأمر صورة لا توحي بنماء الاتصالات بالخارج، وَغنَى جوانبها، وتعدد أبعادها. والحق أن ملوك الأندلس كانوا في شغل شاغل عن التطلع إلى ما وراء الحدود، واستشراف الآفاق البعيدة. ولعلّ الذي كان يملأ دنياهم، ويصرفهم عن كل تفكير آخر هو: أولاً علاقتهم... بالعدو المتغلب عليهم، ولم يكن الاتصال به يستدعي كتباً ورسائل، لأنه عندهم، يدق عليهم الأبواب في كل صباح ومساء وثانياً: علاقة بعضهم ببعض، وتلك قد خلفت لنا زاداً وفيراً من المراسلات كنا وقفنا على نماذج منها، لعلنا وُفِّقنا، من خلالها، إلى استجلاء نوعية تلك العلاقات.

---

(1) نفسه، ص: 654.

إن كل ما درسناه إلى حدّ الآن من مضامين الترسل الأندلسي يمكن أن يدرج ضمن الاهتمامات الخارجية، لأنه يُعبِّر عن مخاطبة أطراف خارج حدود المملكة، سواء كانت أطرافاً أندلسية أو غير أندلسية. فما هو يا ترى واقع اتصالات الحكم بمؤسسات الدولة، وهياكلها الداخلية؟ ذلك ما نريد أن نبحث فيه من خلال ما سميناه بالعلاقات الإدارية.

* * *

2 ـ العلاقات الإدارية

لا بد لأية دولة تقام من ضرب من ضروب العلاقات الإدارية بين قيادة الحكم فيها والمؤسسات أو «المصالح» أو الهياكل التابعة لها، حتى ولو كانت في بداية عهدها بالتقنين والتنظيم، وإرساء قواعد الضبط والتسيير. وخير مثال على ذلك، بلاد الأندلس نفسها، فقد عرفت في بداية عهدها ـ أثناء مرحلة الولاة ـ صيغاً بسيطة من الإدارة، ثم ما إن استتب فيها الأمر لبني أمية، منذ عبد الرحمن الداخل، حتى أخذت الحياة الإدارية تتعقد شيئاً فشيئاً إلى أن بلغت شأوا عظيماً في النضج والفعالية في عهد عبد الرحمن الناصر ومن تلاه من الخلفاء[1].

ولا نستبعد أن تكون ممالك الطوائف قد حافظت على ذلك المستوى من الرقي بما أتيح لها من صغر الرقعة، وكثرة الرجال الطالبين للمناصب ورغبة الملوك في الإكثار من الصنائع والموظّفين. . . ولكن المفاجأة الكبيرة هي أن ما وصل إلينا من نصوص نثرية لا يدل على حياة إدارية غنية أو متنوعة. وأغلب الظنّ أن أغراض النثر الكثيرة في القرن الخامس، والمجالات الجديدة المتعددة التي اقتحمها، قد أسقطت الإنشاء الإداري المحض من مشمولات النثر الفني، أو قللت من أهميته، فلم يعد مؤلفو الكتب الأدبية يعتنون به مثلما كان شأنهم عندما كانت ميادين النثر قليلة، فكان جلّ مُعوَّلِهم فيما يوردون منه على ما يَصدُر عن دواوين الحكام في مخاطبة رجال الدولة[2].

---

(1) انظر ما كتب في الباب الأول من هذا البحث: الفصل الثالث.

(2) في الفصل الثالث من الباب الأول من هذا البحث شاهد على ذلك.

ونحن إذا تأملنا في ما انتهى إلينا من نثر العلاقات الإدارية وجدناه من القلة بحيث لا يتيح لنا أن نرسم صورة واضحة لمعالم هذه الإدارة، ونقاط ارتكازها، وكيفية استخدامها لتنفيذ سياسة الدولة الداخلية. وكل ما نملكه نصوص قليلة يمكن أن تصنف مضامينها إلى ثلاثة أغراض رئيسية هي: التولية والعزل، ثم التنبيه والتوجيه، ثم الانتداب والتكليف.

التولية والعزل:

من رسائل التولية: المكتوب الذي ذكر فيه المتوكل، أمير دولة بطليوس، تعيينه لوزيره ابن خيرة[1] نائباً له على مدينة إشبونة. قال: «... وقد وليت عليكم من لم أوثر - والله - فيه دواعي التقريب على بواعث التجريب، ولا فرائض التخصيص على لوازم التمحيص، وهو الوزير القائد أبو عبد الله بن خيرة: ابني دُربةً، وبعضي صُحبةً...»[2] وبعد الثناء عليه، وذكر مقدار صلته به يتحدث عن السياسة التي اختطها له، فيقول: «وقد رسمت له من وجوه الذَّبِّ والحماية، ومعالم الرفق والرعاية، ما التزم الاستيفاء بعهده، والوقوف بحده عند حده»[3].

ويختلف طابع هذه الرسالة عمّا كنا تعودناه من صيغ التولية والتعيين في المناصب الحكومية. ذلك أن رسالة التعيين كانت توجه إلى المعني بالأمر، وكانت تتضمن أقساماً متمايزة يكون منها بيان قيمة المهمةالتي انتدب لها، ووجوب تأدية الخدمة على الوجه المطلوب، وغير ذلك من أجزاء التولية والتعيين. أما هذه الرسالة فإن الخطاب فيها موجه إلى أهالي إشبونة، وإنما يأتي تعيين ابن خيرة ضمنها، ويتم التحدث عنه بضمير الغائب. وهذه صيغة أقرب ما تكون إلى البلاغ الذي يقصد به إعلام عموم الناس بالتولية، وليس الرجل المعني بها.

---

(1) أبو عبد الله بن خيرة من وزراء المتوكل وقادته.

(2) قلائد العقيان لابن خاقان، ص: 46 وما بعدها.

(3) نفسه.

ومما يؤكد هذا التحول في صيغة التولية والتعيين أننا نجد رسالة أخرى تتوفر على هذه المواصفات نفسها، وهي الرسالة التي كتبها أبو عبد الرحمن بن طاهر، والتي تضمنت تعيين أحد رجاله على بعض مقاطعات إمارته. يقول فيها: «قَلَّدت فلاناً النظر في أحكام فلانة[1] وتَخَيَّرْتُه لها بعدما خَبَرته واستخلفته، وقد عرفته واثقاً بدينه، راجياً لتحصينه، لأنه إن احتاط سَلِم، وإن أضاع أَثِم، فليقم الحق على أركانه، وليضع العدل في ميزانه، وليساوِ بين خصومه، وليأخذ من الظالم لمظلومه، وليقف في الحكم عند اشتباهه، ولينفذه عند اتجاهه، ولا يقبل غير المَمْضِيّ من شهادته...»[2].

فهذه الرسالة مثل تلك في اعتماد الأسلوب الإخباري، واعتمادها ضمير الغائب في الخطاب، وإن جاء هنا في قالب أفعال الأمر. ولعلّ الذي يلفت النظر من حيث المضمون قصر فضائل المعني على الثقة بالدين، والسعي إلى تحصينه، وفيهما مجموع الخصال التي كانت ترتجى لدفع البلاء في تلك الظروف التي كانت تجتازها الأندلس.

وكما تكون التولية مكافأة، يكون العزل معاقبة. والقاعدة العامة أنَّ مَن يملك حق التعيين يملك حق الإقالة. وعندنا من رسائل العزل الصادرة عن ملوك هذه الفترة رسالة كتبها المتوكل ـ صاحب بطليوس ـ وخاطب بها وزيره أبا الوليد الحضرمي[3] حين صرفه عن خدمته.

والرسالة تبدأ بما أتيح للملك أن يلاحظه من اختلال في شؤون دولته، وتدهور في أوضاعها، وفي ذلك يقول: «ولما رأيت الأمر قد ضاع، والإدبار قد انتشر وذاع. أشفقت من التلف، وعدلت إلى ما يعقبنا إن شاء الله بالخلف،

---

(1) فلانة: حُذف هنا اسم الجهة التي استعمل عليها الوالي الجديد، كما حذف اسمه وأشير إليه بـ «فلان» وهو تقليد شائع في النصوص الأدبية.

(2) خريدة القصر، للعماد الأصفهاني: ق 4 / ج 2 ص: 322.

(3) أبو الوليد بن الحضرمي وزير المتوكل الذي ضج الناس من تيهه وتجبره، فعزله. وانظر الذخيرة 1/2، ص: 391، وهامش المحقق فيها.

وأقبلت استدفع مواقع أنسي، وأشاهد ما ضيعته بنفسي، فلم أرَ إلا لُجَجاً قد تورطتها، وغمرات قد توسطتها، فشمرت عن الساق للجتها، وخدمت النفس بمهجتها، حتى خضت البحر الذي أدخلني رأيك، ووطئت الساحل الذي كاد يَحُول بيني وبينه فِعْلُك»[1].

ثم يُقبِل الملك على تقويم تصرفات وزيره، وبيان المسؤولية الكبيرة التي تحمّلها بسوء معالجته للأمور في المجالين: الخارجي والداخلي، بالإضافة إلى ما ركّب في طبعه من الزَّهْو والعُجْب. وفي ذلك يقول: «فنفسَك لُمْ، وبسوء صنيعها ألمم واعتصم، وإن مَتَتَّ بجميل اعتقاد، ومحْض وِداد، فأنا مُقِر بذكره، معترف بقلّه وكثره، لكنك كالمثل السائر: «شوى أخوك حتى إذا أنضج رمّد». حتى أَطْمَعْـت فـيَّ العدوّ، ولبست لأهل حضرتي الاستكبار والعتو. . . »[2].

وعلى الرغم من هذه المآخذ الخطيرة التي يحصيها عليه، وهذه المسؤولية التي يلقيها على سوء تصرفاته وأخلاقه، فإنه لا يضمر له الحقد الذي يضمره بعض الملوك لمن ينحونه عن خدمتهم، ولا يشتط في التنغيص عليه، بل نراه، على عكس ذلك، يعده باستمرار المودة والعطف حين يقول له في آخر الرسالة: «ومع ذلك، فليس لك عندي إلا حفظ الحاشية، وإكرام الغاشية»[3].

ولا بد أن الملوك كانوا قد واصلوا مسيرة السلف في تفقد عمالهم وولاتهم وتعهد سيرتهم في الناس بالوعظ، والتوجيه، والتذكير بأوامر الشرع ونواهيه، حتى لا يكون العزل قبل التنبيه.

التنبيـه والتوجيـه:

في كتاب الذخيرة رسالة شديدة الصلة بهذا الغرض الذي نجري الكلام عليه. وقد جاءت في سياق يكتنفه بعض الغموض. ذلك أنها وردت ضمن أخبار

---

(1) ذ: 2/2، ص: 646 وما بعدها.

(2) نفسه.

(3) ذ: 2/2، ص: 647.

«ذي الوزارتين الفقيه الكاتب أبي بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة»[1]، وهو كاتب المعتمد بن عباد ووزيره، وسفيره إلى عدد من الملوك، وصاحب الذخيرة يقدم لتلك الرسالة بقوله: «وله من أخرى عنه إلى الفقيه قاضي الجماعة بقرطبة...»[2] والضمير في «عنه» لا يعود إلا على المعتمد بن عباد المذكور في الصفحات التي قبله. ومع ذلك فإن ابن حمدين أبا عبد الله قاضي الجماعة بقرطبة لم يتولّ هذا المنصب إلا عام 490 هـ، أي بعد زوال دولة المعتمد بسنوات طويلة، (إذ كانت قد زالت عام 484) بل وبعد موت المعتمد نفسه في أغمات عام 488 هـ. وهكذا يستحيل أن تكون هذه الرسالة صادرة عن المعتمد. والذي يساير العقل أن يكون صدورها عن بعض أمراء المرابطين. وكيفما كانت الحال فإنها تدخل ضمن نثر القرن الخامس الذي ندرسه، وإنها في صميم موضوعنا، كيفما كان الأمير الذي كُتبت باسمه.

ويبدو أن هذه الرسالة جاءت جواباً عن مخاطبة بعث بها قاضي الجماعة، يشكو فيها بعض تصرفات المرابطين، وسوء معاملتهم لأهل الأندلس. ذلك ما نفهمه، على كل حال، من هذا القول في رسالة أبي بكر بن القصيرة: «وصل كتابك فوقفنا على معانيه، وأحصينا المجمل والمفصل فيه، مما ذكرته فيه. والذي أومأت إليه من الأمر الذي وليته ذو شُغوب مُشغِبة، وأشغال على مُحَاوِلها صعبة، حقٌّ لا امتراء فيه، ولا غطاء عليه من محصليه، ولذلك ما اختير له على وجه الزمان أهل المنن من أولي الديانة والصيانة، الذين نرجو أن تكون منهم محسوباً، وفي صدر ديوانهم مكتوباً»[3].

فالواضح الجلي من هذا الكلام أن قاضي الجماعة يَلقى عنتاً في تطبيق أحكام العدالة على جماعة من الناس لعل انتصارهم السياسي، وامتلاكهم أعنة البلاد قد أنساهم أنهم مُنقِذُون وَمُسعِفون لا فاتحون ولا محتلون... والأمير حين

---

(1) راجع الذخيرة: 1/2، ص: 239.

(2) ذ: 1/2، ص: 260.

(3) ذ: 1/2، ص: 260 - 261.

يجيب لا يملك إلا أن يعترف بحرج موقف القاضي، وعسر أحواله في أداء مهمته، ولذلك نراه يأخذ في شد أزره، بدعوته إلى التمسك بمبادىء الدين وقواعد الشرع، وذلك في قوله: «فاستهد الله يَهدِك، واستعن بالله يُعنْك، في صدرك ووردك، وتَولَّ القضاء الذي ولّاكَهُ الله بجد وحزم، وجَلَد وعزم، وأَمْضِ القضايا على ما أمضاها الله تعالى في كتابه وسنّة نبيه»[2].

إن الأمير الذي يكتب عنه ابن القصيـرة لا يمكن أن يكون إلا أحد المرابطين، فلذلك وجب التفريق بين عامة الجنود المغاربة وحتى بعض الولاة لذين ربما خُيِّل إليهم أنهم يستطيعون أن يتصرفوا تصرف الغزاة، وبين قيادة المرابطين التي كانت تحركها المشاعر الإسلامية، فهي تدعو بل تأمر بتطبيق أحكام الشرع على الجميع دون أدنى تمييز بين الفئات التي تعيش في البلاد. هذا واضح من الرسالة التي جاء فيها: «ولا تبالِ برغم راغم، ولا تشفق من ملامة لائم... ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له، ولا أضعف من القوي حتى تأخذ الحق منه...»[2].

هذا كلام يدخل البهجة على النفس حين يصدر عن أمير حاكم، ولكنه كلام فحسب، لا يكفي لإحقاق الحق، وإقامة العدل، ولذلك رأينا الأمير يخبر قاضيه بأنه تولى بنفسه ردع بطانته وتنبيهها إلى أن قواعد الشرع تطبق عليها بدون أي شكل من أشكال المحاباة والمراعاة. ذلك قوله: «وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تُمضيه، ولا يعترضوا عليك في حق تقضيه، ونحن أولاً، وكلهم آخراً، منذ صرت قاضياً، سامعون منك، غير معترضين في حق عليك، والعمال والرعية كافة سواء في الحق، فإن شكت إليك بعامل، وصحّ عندك ظُلمُه لها، ولا يتجه في ذلك عمل غير عَزْلِه فَاعْزِلْه، وإن شكا العامل من رعية خلافاً في الواجب، فَأَشْكِه منها، وقَوِّمْهَا له، ومن استحق

(1) نفسه، ص: 261.

(2) نفسه.

من كِلَا الفريقين الضرب والسجن، فاضربه واسجنه...»[1]. إنه حقاً لفصل مبهج في ديوان العدالة حين ينصاع الجميع لأحكامها، ويؤمن الحاكم والمحكوم بأن لا مناص من الإذعان لها.

وهناك أسلوب آخر في مخاطبة القادة، وولاة المقاطعات على سبيل انتدابهم لأمر معين، وتكليفهم بمهمة محددة، مما يقتضي استخدام أساليب المراسلة الجماعية.

الانتداب والتكليف:

إذا احتكمنا إلى ظروف ملوك الطوائف في هذه الفترة التاريخية، وشدة حاجتهم إلى تبليغ قادتهم وولاتهم في المقاطعات أوامرهم المتتالية لانتدابهم إلى القيام بعمل محدد، وتكليفهم، بصفة جماعية، بنمط من المهام المستعجلة، فإننا لا نتصور النثر الذي يبلغ به الأمير هذه الأوامر إلا كثيراً، متعدد الأغراض، متنوع الغايات، ولكننا في واقع الأمر لا نملك منه إلا الشيء القليل، الذي لا يكاد يفيدنا في تصور نوعية المهام التي كان ينتدب لها رجال الدولة في المقاطعات.

فمن هذا القليل الذي احتفظت لنا به الكتب الأدبية المتداولة اليوم، رسالة وجهت إلى القواد يبدؤها صاحبها بوصف الحال مع العدو - ويقصد النصارى الإسبان - فيقول: «الحال مع العدوّ بينة لا تحتاج إلى جلاء ولا كشف، معروفة لا تفتقر إلى نعت ولا وصف، ومن لا يمكن مقاواته ومخاشنته، فليس إلا مداراته وملاينته»[2]. ثم يذكر خروج العدو إلى بلاد المسلمين، وما كان يعتزمه من إضْرَار بها وبأهلها، ولذلك لم يكن بدّ من النزول عند رغبته «فوقع الاتفاق معه على جملة من المال تقدم إليه، ونَستَكفُّ بها الشرّ المرهوب لديه»[3]. والكاتب -

(1) ذ: 1/2، ص: 261.

(2) ذ: 1/2، ص: 252.

(3) نفسه.

على لسان المعتمد بن عباد يتوقع النقد والاعتراض على هذا الإذعان لأوامر العدو، فيشير إلى ما كان مقدوراً على المسلمين أن يكابدوه من الويلات لو لم يقنع العدو بقبول المال: «فكم حَالٍ كانت بخروجه تُتلَف، ونعمةٍ بأيدي طاغيته تنسف. . .»[1].

ولما كانت العامة مصابة بأنواع الكوارث التي منها القحط والجراد، ولا يمكن أن ينتظر منها المساهمة في المبلغ المضروب من قبل العدو، لأنها لا تملك شيئاً، فإنه لم يبقَ إلا اللّجوء إلى موظفي الدولة يقتطع من كل واحد منهم ما تسدد به الغرامة. ولكي لا يترك شيء يمكن أن يتسرب إليه الغلط أو الوهم، فإن الأمير وضع قوائم بأسماء الموظفين المعنيين وحدد فيها ما يدفعه كل واحد منهم وأرسل إلى كل والٍ بقائمة الذين ينبغي أن يسارع إلى تحصيل الأموال منهم. والوصية الأخيرة هي: «ولتقبض ذلك كله في أعجل ما يمكن، فالحاجة إليه وكيدة، والضرورة حافزة شديدة»[2].

وتشبه هذه الرسالةَ في كل شيء أختٌ لها أرسلت إلى العمال. وكل ما يميزها عنها أنها أقل توسعاً منها وأكثر اقتضاباً. وكان أولئك العمال قد تعودوا على الصيغة، وألفوا المطلوب منهم فلم يعودوا في حاجة إلى بسط الأعذار وشرح الظروف. والذي يبدو لنا أنها من إنشاء كاتب واحد. فهي تبدأ بالمعنى الذي بدأت به الرسالة السابقة، وهو قوله: «الحال مع العدو ـ قصمه الله ـ بينة لا تخفى، ومداراته ـ ما لم تكن مضاهاته ـ أولى وأحرى»[3].

وبعد ذلك، مباشرة، يقول بدون مقدمات أخرى: «والتُزِمَ له في الصلح المتفق عليه جملة من المال رسم عليك منه ـ بعد النظر لحالك، والتحاشي من الإجحاف بمالك ـ (كذا). . .»[4].

---

(1) نفسه، ص: 253.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص: 252.

(4) ذ: 1/2، ص: 252.

ويبدو من هذه الصياغة أنه رسم خاص ضرب على العمال، وليس مما ينبغي أن يقتطعوه من أموال الموظفين التابعين لهم في الولايات. وفي كل الأحوال فإن السرعة هي المطلوبة: «فعجل النظر فيه... وبحسب تعجيلك أو تأخيرك يكون الاستدلال على طيب نفسك وصدق ضميرك».

ما أقسى الظروف التي تدفع بالدولة إلى أن تجعل مقياسها في وزن ولاء رجالاتها ينحصر، أو يكاد، في قدرتهم على التعجيل بدفع نصيبهم من المبالغ التي تدفع ضريبة للعدو. فإذا كانت هذه هي العلاقات بين الملوك ورجال دولتهم، من خلال هذه النماذج القليلة التي وصلت إلينا، فإنه يحق لنا أن نتساءل عن العلاقة التي استطاع نثر هذه المرحلة أن يصورها لنا بين أولئك الأمراء وجماهير شعبهم؟.

* * *

3 ـ العلاقات الشعبيّة

ـ كتب الفتح والتبشير بالنصر:

لم يكن عند ملوك الطوائف الكثير مما يستطيعون أن يدخلوا المسرة بواسطته على قلوب المسلمين من رعاياهم، فقد رأينا نبذة من الرسائل ليس فيها ـ على الغالب ـ إلا التحذير من العدو، والتنديد بتصرفاته، والتشديد على التعجيل في جمع المال الذي اشترطه لكف أذاه ريثما يعود مرة ثانية ليطلب منه المزيد... ولذلك فإننا نفهم أي شعور بالسعادة يغمر هذا الأمير أو ذاك، حين نتاح له فرصة النيل من العدو، أو الإيقاع به، فيسرع إلى إبلاغ أنباء الانتصار إلى أفراد شعبه، مبالغاً في وصف آثاره. والحق أنها كانت فرصاً نادرة الوقوع، إن لم تكن منعدمة أصلاً في هذه الفترة التي نقصدها.

ولعلّ الذي يكسب هذا الحديث دلالة خاصة أن النصوص التي بين أيدينا الآن، التي تتضمن التعبير عن أغراض النصر على المسيحيين وتبشير المسلمين به، إنما ترجع كلها إلى فترة ما بعد دخول المرابطين بلاد الأندلس، وعبورهم إليها استجابة لنداءات أهلها الملحة. بل إن نَصَّين من الثلاثة يتصلان مباشرة

بأكبر معركة جمعت بين المسلمين والنصارى بُعَيد جـواز المرابـطين، وهي المشهورة بمعركة الزلاقة[1] والتي تحقق فيها أعظم نصر في تلك الفترة.

وقد كتب أبو بكر بن القصيرة، على لسان المعتمد بن عباد يقول: «كَتبتُ صبيحة يوم السبت، الثالث عشر من رجب، وقد أعز الله الدين وأظهر المسلمين، وفتح لهم بفضله على يد مسعانا الفتح المبين، بما يسر الله في أمسه وسناه، وقدر سبحانه وقضاه من هزيمة إذفونش بن فرذلند[2]. . . .»[3].

يتضح جلياً من مدخل هذه الرسالة أن المعتمد ينسب شرف هذا الفضل إلى نفسه، ويتقرب بهذا النصر إلى المسلمين ليحوز إعجابهم. ثم يمضي في وصف بعض ملامح ذلك النصر الساحق فيقول: «. . . وإتيان القتل على أكابر رجاله وحماته. . . وحضور العدد الوافر بين يديّ من رؤوسهم ولم يُحتزَّ منها إلا ما قرب. . . واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون عليها. ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها. والذي لا مرية فيه أن الناجي منهم قليل. . . والحمد لله على ما صنع حق حمده. . .»[4].

والغريب في هذا البيان الذي أسرع المعتمد بإبلاغه إلى الناس في مملكته أنه لا يشير بشيء إلى يوسف بن تاشفين، وجيوش المغاربة التي كانت الفاعل الحقيقي للنصر. بل إننا رأيناه ينسبه إلى نفسه، ويجعله من فضل الله عليه إذ يسره على يديه. . . والذي يستحق الإشارة أيضاً أن هذه الرسالة إنما كانت بمثابة البرقية التي يستعجل الأمير في إبلاغ الأنباء السعيدة بواسطتها، أما الرسالة المطولة التي تتوسع في الشرح والبيان فهي التي يرسلها المعتمد بعد ذلك،

---

(1) معركة الزلاقة وقعت عام 479 هـ، والزلاقة من إقليم بطليوس في غرب الأندلس. وانظر أخبار هذه المعركة في الملحق الثاني «بالبيان المغرب»، ج 4، ص 130 عن الروض المعطار.

(2) أذفونش بن فرذلند: هو الفونسو السادس ملك النصارى، وقائدهم في معركة الزلاقة.

(3) ذ: 1/2، ص: 241.

(4) نفسه: 241 - 242.

ويبدو أنها كانت من الطول والإطناب بحيث اضطر صاحب الذخيرة إلى أن يكتفي منها ببعض الفصول. وإذا كانت هذه الرسالة لا تعدو أن تكون تفصيلاً لما كانت أجملته الرسالة الأولى، فإن ما فيها من جديد تتميز به عن سابقتها هو عدم إغفالها الحديث ـ هذه المرة ـ عن دور يوسف بن تاشفين، وجيوش المرابطين في تحقيق هذا النصر العظيم.

والرسالة تبدأ ـ كما هي في الذخيرة ـ بالإشارة إلى ما كان يقاسيه المسلمون من غطرسة النصارى وكيف استمرت بهم تلك الحال على ما لا يستطيعون دفعه من الذل والهوان «إلى أن سنّى الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين... ما سنى، وأدنى من نَأْي دياره وشحط مزاره ما أدنى»[1].

وتكاد الفقرات الباقية من الرسالة تنحصر في الثناء على أمير المسلمين، ووصف آثار الجيوش الإسلامية في الجيوش النصرانية. أما دور المعتمد بن عباد فيتضاءل في هذه الرسالة، ولا يظهر إلا باعتباره مساعداً ومعيناً للملك المغربي. فهو يقول في معنى ذلك: «وأنا أنجده بوسعي، وأسعده على حسب ما يطيقه ذرعي، إلى أن صرنا معشر الحلفاء ببطليوس...»[2] وإن كان في نفس الرسالة ما يفيد بأن تدخل جيوش المرابطين لم يأتِ إلا بعد أن لاحت بوادر هزيمة النصارى، وتأكد المسلمون من اقتراب النصر. فحينئذٍ فقط، تقدم يوسف بن تاشفين، «وصدم في جمع لم يكثر عدد الجملة، فلم يلبث أعداء الله أن ولـوا الأدبار، واستصرخوا الفرار....»[3].

من الثابت في التاريخ أن المعتمد بن عباد قد نهض بدور هام في معركة الزلاقة كقائد أعلى لجيوش الأندلسيين، وأن يقظته، ومعرفته بأساليب الفونسو السادس الحربية، إذ كان حليفه وعهيده، قد فوتت على النصـارى مفعول

---

(1) ذ: 1/2، ص: 242.

(2) نفسه، ص: 243.

(3) نفسه، ص: 244.

المفاجأة والمباغتة الذي كانوا يعولون عليه، وأنه هو ـ المعتمد بن عباد ـ كان أول من لاقى تدفق السيل العرم حين أقبلت طوائف النصارى على الهجوم، فأوقف تقدمها، وعطّل زحفها، ولكنه مع ذلك لم يكن بطل النصر ولا فاعله، لا هو ولا جيوشه الأندلسية إنما كان النصر من فعل ابن تاشفين، وجيوشه.

وإذا كان النموذجان المتقدمان كافيين للدلالة على طريقة أمراء المسلمين في التبشير بالنصر، وأساليب الكتابة في مخاطبة الناس بهذه المناسبة، فإن الذي قد نستطرفه هو أن يعمد بعض الحكام إلى مخاطبة سكان بعض المدن الأندلسية، وموافاتهم ببلاغات عامة ذات طابع «دعائي»[1] في الغالب.

ـ بلاغات إلى سكان المدن الأندلسية:

ليست هذه البلاغات تلتقي في مضامينها بأي نوع من أنواع الرسائل التي تقدمت، وهي ليست موجهة إلى رعايا المدن التابعة للأمير أو الوزير المخاطب. ولو كانت كذلك لما أفردت بهذا العنوان، ولدخلت في غرض من أغراض الاتصالات التي يقيمها الحاكم مع محكوميه. إن أهم ما يميز هذه الرسائل شيآن:

الأول: أنها شعبية الطابع، يقصد بها إلى مخاطبة كل الفئات بلا استثناء، وإن كان واضحاً فيها أن غرضها الأساسي هو التأثير في الفئات التي بيدها توجيه الأمور وتسيير شؤون البلاد.

والثاني: أنها ذات طابع «دعائي» كما أسلفنا، بمعنى أنها ترمي إلى بذر عناصر السخط والقلق في أرجاء بعض ممالك الأعداء، وتهدف إلى تعبئة العامة وإعْدَادِها للوقوف في صفها ضد الحكام الجالسين على العرش أو من يليهم من الأمراء والعمال.

من نماذج هذه الرسائل رسالتان موجهتان كلتاهما إلى أهل قرطبة، عاصمة

---

(1) استعملنا هنا هذه النسبة الشائعة في استعمال اليوم من كلمة «دعاية» التي يرى المحققون في اللغة أن الصحيح فيها إنما هو «دعاوة».

الأندلس في عهد وحدتها وازدهارها، والرمز الذي يتباهى بنو عباد بامتلاكه، ويحسدهم عليه جل نظرائهم الآخرين. . .

إن الرسالة الأولى قد صدرت عن زهير الفتى[1] وفيها ثناء على أهل قرطبة، ومدح لهم بالحكمة ورجاحة الرأي، وفيها بصفة خاصة حملة على ابن عباد، وانتقاد واسع لأخطائه في الحكم، فهو «الذي سل سيف الفتنة والبغي من قرابه، وأثار بعير الظلم من مبركه. . . ومشى في الأرض مرحاً، وظن أن يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولاً، فغزا (أهل) الإسلام في عقر دارهم، وأسقط عن نفسه حرمة الله فيهم. . .»[2] إلى غير ذلك من الأخطاء الكثيرة، والعيوب الوفيرة التي عدت عليه. ولكننا ما إن نصل إلى القسم الثاني من هذه الرسالة حتى تَتَّضِحَ أمامنا الأغراض الحقيقية من هذا الهجوم الكبير على صاحب إشبيلية. إنّ أمير المرية يدعو ببساطة إلى عزل ابن عباد، ويغري أهل الرأي في قرطبة بأن يوجهوا الناس نحو الانقضاض عليه، وخلع طاعته، ومبايعة إدريس المتأيد. وفي ذلك يقول: «وكتابي هذا إليكم وقد اتفقت الكلمة. . . وأصفقنا على بيعة رضى واتفاق وطاعة لعبد الله أمير المؤمنين إدريس المتأيد بالله. . . وهتفنا بها هتف التباشر، وقامت بها الخطباء على المنابر. . . .»[3].

هذا كتاب لا يختلف في شيء عما يفعله الدعاة السياسيون للتآمر على حكمٍ قائم، والتبشير بشرعية حكم جديد يريدون تنصيبه، وقد لا يكتفي الدعاة بتوجيه النداءات إلى الناس، وحثِّهم على الانضمام إلى دعوتهم، بل يستخدمون ما أُوتُوا من قوة السلاح لبلوغ الهدف الذي ينشدون. ولعلّ رسالة المنصور بن أبي عامر[4] إلى أهل قرطبة أيضاً، هي خير ما يمثل هذا النوع من الدعوة.

والرسالة في تبشير أهل قرطبة بقرب إرسال خيرة جنوده للدفاع عنهم،

---

(1) زهير الفتى من الصقالبة العامريين الذين حكموا المرية.

(2) ذ: 2/1، ص: 651.

(3) نفسه، ص: 652.

(4) هو عبد العزيز، صاحب بلنسية، تلقب بألقاب جده ابن أبي عامر مؤسس الدولة العامرية.

وهزيمة «عدو»، يدعو عليه بقوله: «قصمه الله»، ولكن دون أن يسميه. ونحن نميل إلى أن هذا العدو ليس إلا ابن عباد الذي قضى على دولة بني جهور في قرطبة، وضمّها إلى أملاكه.

ويحرص ابن عامر في بداية كتابه على أن يبيّن مدى صلته الروحية بقرطبة وأهلها الذين يقول لهم: «أراكم بعين المشاهدة، وأكلأكم بعين الإحاطة، أعدّ كبيركم كالعم، وصغيركم كابن الأم، فأنتم الأهل والجيران والذخائر للزمان، في الدار التي منها خرجت، والبيضة التي فيها نشأت...»[1] وفي الرسالة ما يدلّ دلالة واضحة على أن أهل قرطبة استنجدوا بابن أبي عامر، ولكنه لم يستطع أن يستجيب وقتئذٍ لنداءاتهم المستغيثة لأنّه كان منصرفاً إلى إخماد الفتن المشتعلة في مملكته، ومعالجة الأوضاع الداخلية في بلاده. وهو يعتذر عن التأخر الذي اضطرته إليه مثل هذه الظروف بقوله: «فلو أمكن أن تصير إليكم أَمْدَادي مع الرياح، وتطير نحوكم أجنادي بألف جناح، ملبياً لدعوتكم... لما تأخر ذلك عنكم طرفة... لكن عوادي الفتن، وعوائق الزمن منعت من العجلة قبل إحكامي لما حاولته من تأليف الكلمة...»[2].

وبعد أن يبسط لأهل قرطبة هذه الأعذار يتناول بالحديث مجموع المبادرات التي أوعز بها إلى رجاله استعداداً لنصرة أهل العاصمة الأندلسية العتيقة، فيقول لهم «نفذت ثقاتي إلى الجهات لتخير الأجناد، وانتخال الأنجاد، ليكون جميعهم صفوة، ولا يشوبهم أحد من الحشوة، وشرطت أن يتوجه مِنْ قِبَلِي إليكم... مَنْ له المزيّة والظهور.... يسمحون عنكم ببذل النفوس، ويقوم الواحد منهم مكان الخميس...»[3].

وسواء كان الأمير العامري صادقاً في هذه الاستعدادات أم أنه كان يعد بما لا طاقة له عليه، فالثابت في التاريخ أن محاولاته ومحاولات غيره لم تنل شيئاً

(1) ذ: 1/3، ص: 246.

(2) نفسه، ص: 247.

(3) ذ: 1/3، ص: 247.

من خطط بني عباد الذين ملكوا بالفعل حاضرة البلاد، ورمزَ أمجادها، وضموها إلى أراضيهم في جملة ما ضمّوا من المدن والأقاليم.

في مثل هذه الرسائل نشاط سياسي مؤكد، وفيها حرب للخصوم تشبه، من بعض الوجوه، ما يعرف اليوم بالحرب النفسية. ذلك أن مخاطبة الناس، و«التشويش» على الحكام، وتبشير الأهالي بقرب إمدادهم بالجنود، وتمكينهم من وسائل محاربة العدو والانتصار عليه، كل ذلك مما يُدخل الرعب في قلوب الحكام ويملأ نفوسهم بالخوف والقلق.

والذي يستلفت الانتباه حقاً في سياق هذه الفئة من الإنشاءات النثرية، أننا وجدنا رسالة ذات طابع شخصي لا تنطق باسم دولة أو حاكم معين، ولكنها مع ذلك تخاطب أهل مدينة بأسرها، تماماً كما هو الشأن في الرسالتين المتقدمتين. وتلك رسالة وزير دولة المرية: ابن عباس[1].

والرسالة فيها عِتَابٌ موجه إلى أهل غرناطة الذين ساءت علاقتهم بأهل المرية بعد أن كان بعضهم لبعض نعم الحلفاء والعهداء. وهو يستهلها بتساؤل حائر عن سبب انقلاب أهل غرناطة عليه: «لم أعقر ناقة رضاكم فأسخط، ولا أكلت من شجرة عقوقكم فأشحط، وإنما أعطيتكم صفقة الصاغية لأكرم، وانحرفت عنكم على زاوية المقة كي لا أهان...»[2].

وإذا كان التاريخ يحدثنا بأن أصحاب غرناطة كانوا يحمّلون ابن عباس هذا، أكبر قدر من المسؤولية على ما أصاب علاقتهم بأصحاب المرية من فساد وتدهور بعد التقارب والوداد، فإن الرسالة تنقل إلينا عينات معبرة من عواطف الحقد والكراهية التي يضمرونها له. وذلك حين يقول لهم: «جعلتموني مركز دائرتكم في اللفظ، وعين سعايتكم في القصد، فضربتم بي أمثال السوء، إلى

---

(1) هو أبو جعفر أحمد بن عباس وزير كاتب في دولة زهير الفتى بالمرية، مات مقتولاً مع أميره في غرناطة بتدبير من حليفهما القديم الأمير باديس بن حبوس. في خبر طويل. انظر ابن عذاري: 169/3، وابن حيان في الذخيرة 2/1، ص: 656.

(2) ذ: 2/1، ص: 649.

معانٍ طوال ألصقتم بي عارها، وطوقتموني شنارها انحداراً عليّ كالسيل بالليل، وتصدياً إليّ كالسهم، وتولعاً بي كأني عندكم ذنب الدهر، تُلْزِمُونَني صَيْدَ العَنْقاء في جحوركم، وتشترطون عليّ بيض الأنوق في بيوتكم...»[1].

ويبدو أن ابن عباس قد ناله نصيب من إنعام أهل غرناطة وأصابه شيء من جميلهم، فهم يمنون به عليه، فلذلك نراه لا يصل إلى حد إنكار تلك النعم كلها، ولكنه يقلل من شأنها، ويذكرهم بما قدمه لهم من الخدمات. يقول: «ولقد أجهدت نفسي في خدمة هواكم، واتباع رضاكم، وصرت منقاداً لرمز حواجبكم، وتبعاً لركابكم...»[2].

أليست هذه رسالة طريفة من رجل إلى «أهل غرناطة»؟ بلى، ولكننا إذا تعمقنا فيها وجدناها تختلف عن الرسالتين السابقتين اختلافات جوهرية: منها أنها لا تشبههما في عمومية الخطاب، فهذه توجه الخطاب، بصفة رئيسية، إلى مجموعة قليلة من الحكام في غرناطة، على رأسهم أمير البلاد، بينما كان الخطاب فيهما إلى جماعة من الناس، لا يملكون شيئاً من الحكم، ولكنهم يملكون توجيه الجماهير والتأثير فيها. فالمخاطِب يقصد، بكل تأكيد، أن يتجاوز الجماعة القليلة إلى من وراءها من سواد الناس. ثم إن هناك فرقاً جوهرياً آخر بين هذين الضربين من المخاطبات وهو أن رسالة ابن عباس ذات طابع عتابي، فهي ترمي إلى الدفاع عن النفس، وإن بلغت ضرورات هذا الدفاع حدود الهجاء والسباب. أما الرسالتان المتقدمتان فهما استفزازيتان، فيهما إثارة مقصودة.

كان هذا نموذجاً من النثر الديواني الذي يحمل طابع الخطاب الجماعي، ويغلب عليه مخاطبة جموع الناس لتحقيق المآرب السياسية المبيتة. وفي التراث الأدبي الذي وصل إلينا، نوع آخر من هذا النثر يشبهه في كونه يخاطب أفراداً من الشعب ويختلف عنه في أن هؤلاء الأفراد قد ثاروا على السلطة، وشقوا عصا

---

(1) ذ: 2/1، ص: 649.

(2) نفسه، ص: 650.

الطاعة، ولاذوا بالتمرّد والعصيان، وهذا هو النثر الذي فيه مخاطبة للثائرين على نحو من الأنحاء.

- مخاطبة الثائرين:

كان العصر عصر فتنة متفشية في جميع أنحاء البلاد، وكانت دواعي الثورة على السلطة المركزية، والتمرد على الأمراء الحاكمين كثيرة، منها ما يرجع إلى عوامل سياسية ودينية، ومنها ما هو من قبيل المطامح، وسَعْي البعض إلى الظفر بأسباب السلطة وبسط النفوذ. أما الأمراء الحاكمون فكانوا يدركون - أتم الإدراك - أيَّ شر تلحقه مثل تلك الثورات بالبلاد، وأي نتائج وخيمة يكون لها على هيبة الحكم وسمعة المملكة، ولذلك فلا غَرْوَ أن يسارعوا إلى مخاطبة الثائرين، ومن يستطيع التأثير فيهم، لحثهم على الصلح وإغرائهم بالابتعاد عن الفتنة، والتزام صف المسلمين الواحد.

ومن أمثلة هذا الخطاب ما كتبه ابن برد الأصغر[1] في سياق لا نعرفه، ولكننا نقدر أنه خطاب موجه عن أحد الأمراء إلى بعض الثائرين في المقاطعات. والخطاب يبتدىء بمعاني الحث على إطفاء نار الفتنة، من مثل قوله: «فقد آن أن توقظوا سواهي العقول، وأن تريحوا عوازب الأحلام، فتسلوا السخائم، وتغمدوا الصوارم، وتعيدوا السهام في كنائنها...»[2].

ثم يأخذ المخاطِب في الحديث عن جموع الأبرياء الذين يتحملون ويلات الفتنة، دون أن يكون لهم ضلع فيها، ولا مسؤولية عنها: «فكم صَالٍ بناركم لم يَشْرَكْكم في قدحها، وشَقِيٍّ بفتنتكم، ولم يغمس معكم يداً فيها، ومَوْفُور سعيتم لذهاب وفره، ومستور أعنتم على انكشاف ستره...»[3].

ولكن الرسالة لا تخلص كلها لهذا الوعظ الصالح، وهذا الإغراء الملحّ

---

(1) ابن برد الأصغر، هو أبو حفص، من أسرة قرطبية كبيرة. وأخباره في الذخيرة 1/1 ص: 486.

(2) ذ: 1/1، ص: 489.

(3) نفسه.

بالانحياز إلى جانب العقل والصواب، إذ أنها تعتمد بعد ذلك لهجة التهديد الواضح كما في قوله: «أما والله لتجرعُنَّ الخُطْبَان، ولتقرعن الأسنان، ولتحاولن الأوبة ولا مآب لكم، والتوبة ولا قبول منكم»[1].

ولم تكن هذه الثورات تفضي دوماً إلى ما يحقق منطلقاتها، فكان الحكام ـ في كثير من الأحيان ـ يحققون النصر عليها ويلقون القبض على مفتعليها، وحينئذٍ تختلف معاملة أولئك الحكام للمسؤولين عن الفتنة والسائرين في ركابها، فمنهم من يعاقب ويشتد في العقاب، ومنهم من يغفر ويسامح استجابة لطبيعة فيه، أو تحقيقاً لمنافع سياسية لا تغيب عن بال.

فمن حالات المسامحة والمغفرة عهد الأمان الذي كتبه ابن برد الأصغر، عن أمير لا نعرفه، لثائر غير مذكور أيضاً، وقد انهزم، فألقي القبض عليه، ووقع في الأسر، فهو لا يملك شرطاً يشترطه، ولا أماناً ينجيه، ومع ذلك فإنه فاز بالعفو وكتبت له السلامة.

يبدأ هذا العهد بالإشارة إلى هذه الحقيقة بقوله: «إن الغلبة لنا، والظهور عليك جلباك إلينا على قدمك دون عهد ولا عقد يمنعان من إراقة دمك»[2] ثم يعلل هذه المعاملة الرحيمة بحكمة الأمير، ويلقي بمسؤولية الثورة والعصيان على الوالي السابق للجهة التي وقع فيها التمرد، وذلك حين يقول: «ولكنا بما وهب الله تعالى لنا من الإشراف على سرائر الرياسة، والحفظ لشرائع السياسة، تأملنا من ساس جهتك قِبَلَنا، فوجدنا يدَ سياسته خرقاء، وعينَ حزامته عوراء، وقَدَمَ مُدَارَاتِه شَلَّاء، لأنه مال عن ترغيبك فلم تَرْجُه، وعن ترهيبك فلم تخشه، فأدَّتك حاجتك إلى طلاب الطعم الدَّنِيَّة. . .»[3].

وتنحصر مسؤولية الوالي السابق ـ كما يفهم من هذا الكلام ـ في كونه لم

---

(1) ذ: 1/1، ص: 498.

(2) نفسه، ص: 499.

(3) نفسه.

يحسن استخدام الترغيب والترهيب في الوقت المناسب، أما الأمان نفسه فالأمير يمنحه بشرط أكيد وهو أن لا يعود إلى فعله الأول، أو يحاول الخروج عن الطاعة من جديد: «وأمان الله لك مبسوط منا، ومواثيقه بالوفاء لك معقودة علينا، وأنت إلى جهتك مصروف، وبعفونا والعافية منا مكنوف، إلا أن تطيش الصنيعة عندك، فتخلع الربقة، وتمرق من الطاعة...»[1].

إنه لعهد غريب فعلاً إذ يصدر عن أمير غالب، ويكون المستفيد منه، على هذا الوجه المشرف، مهزوم لا يستطيع أن يملي على قاهره أيّ شرط من الشروط. ولو أن المصادر حفظت لنا الأطراف المعنية بهذا الأمان لكان ربما أمكننا أن نعرف بعض أسرار هذا التعاقد الطريف.

وإذا كانت طرافة هذا العهد تكمن في شذوذه، لأنه في تلك الحالة كان يكفي المنتصر أن يعفو عن المهزوم دون أن يلتزم بالتعاقد الذي أوردنا بعض فقراته، فإننا نملك عهد أمان من النوع التقليدي، وهو الذي ينهي صداماً بين طرفين بشروط تختلف باختلاف ميزان القوة بينهما. وهذا العهد من إنشاء ابن برد الأصغر، أيضاً، ونحن كذلك هنا لا نعرف لا الحاكم الذي صدر عنه، ولا الثوار الذين مُنِحُوه، وهو يبدأ بداية غريبة بالفعل، وهي على هذا النحو: «أما بعد، فإنكم سألتم الأمان أوان تلمظت السيوف إليكم، وحامت المنايا عليكم، وهمت حظائر الخذلان أن تفرج لنا عنكم، وأيدي العصيان أن تتحفنا بكم...»[2].

أليس غريباً حقاً أن نرى من يعطي الأمان يذكّر بقدرته على الفتك والبطش في موقف لا ينبغي أن يكون فيه الحديث إلا عن السلم والأمن... ولذلك فنحن نرى أن هذا العهد لا يختلف عن الأول إلا في كون الثائرين هم الذين طلبوا الأمان، فكأنه استسلام للأمير، وهو يتفضل عليهم بالصفح والغفران. وفي النص ما يوحي بذلك. فها هو صاحب الأمر يتحدث عن قوته فيقول: «ولو كِلْنَا

---

(1) ذ: 1/1، ص: 500.

(2) نفسه.

لكم بصاعكم، ولم نَزْعَ فيكم ذمة اصطناعكم، لضاق عنكم ملبس الغفران، ولم ينسدل عليكم ستر الأمان. . . »[1].

بل إن في النص ذكراً للعفو بصريح العبارة، فكأن العهد ليس إلا بياناً عاماً، أو بلاغاً إعلامياً بالعفو لإخبار الناس به. وهذا في قوله: «ولولا. . . رجاؤنا أن يكون العفو على المقدرة تأديباً لكم، لشَرِبَت دماءَكم سباعُ الكُماة، وأكلت لحومَكم ضِباعُ الفلاة. . . »[2] ومع ذلك ففي النص صيغة التأمين التقليدية في كل العهود العربية. ففي آخر النص: «وقد أعطيناكم، بتأميننا إياكم، عهد الله تعالى وذمته، ونحن لا نخفرهما أيام حياتنا، إلا أن تكون لكم كرّة، ولغدرتكم ضـرّة، فيـومئـذٍ لا إعْـذَارَ لكم، ولا إقْصَـارَ عنكم حتى تحصـدكم ظُبَـاة السيوف. . . »[3].

إن هذه النصوص كلها، تحمل على ما بينها من اختلاف معاني التعاقد والتعاهد بين الحكام ومن يخرجون عن طاعتهم، وقد وجدنا الأمان فيها يُعطى تارة بطلب من الثائرين، وتارة بمبادرة من الأمير أو الحاكم على سبيل اصطناع أولائك الخارجين، أو تألفاً لقلوبهم، وإشاعةً لجو الرحمة والأمان في البلاد.

ويبدو أننا نستطيع أن نعدّ بعض عهود البيعة من قبيل هذه النصوص ومن زمرتها. ذلك أن أحد النصوص التي بين أيدينا يحمل من معاني التشديد على الالتزام بطاعة الأمير ما يوحي بأن المبايع إنما هو عاصٍ تاب، أو ثائرٌ خرج من الصف ثم عاد إليه. وأيًّا ما يكون الأمر فنحن لا نرى لماذا تكون بيعة رجلٍ مَا موضوعَ عهدٍ مكتوب إذا لم يكتنفها ظرف استثنائي يقتضي ضرورة تسجيلها وإشهارها بين الناس.

كتب عهد البيعة الكاتب المتقدم نفسه: ابن برد الأصغر، عن «إمام»

---

(1) ذ: 1/1، ص 500.

(2) نفسه، ص 501.

(3)نفسه.

يدعى «عبد الله» وهي بيانات غير مفيدة لأنها لا تشير إلى إمام بعينه، ولا تعرفنا أي عباد الله هو المقصود. أما المُبايع فقد حذف اسمه بتاتاً وأشير إليه بلفظة: «فلان» وهي عادة صاحب الذخيرة التي لا يكاد يحيد عنها.

يبتدىء عهد البيعة، في كتاب الذخيرة كما يلي: «بايع الإمامَ عبدَ الله فلانٌ، بانشراح صدر وطيب نفس، ونصاحة جيب، وسلامة غيب، بيعةَ رِضى واختيار، لا بيعة إكراه وإجبار، على السمع والطاعة، والمؤازرة والنصرة... في السرّ والعلانية...»[1].

ولكن، إذا كانت بيعة «رضى واختيار» كما في العهد فلماذا كان على هذا المبايع أن يقسم على الوفاء و«القيام بشروط بيعته» بهذه الأَيْمان المغلَّظة التي جاءت في قوله: «يقسم... بالله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، عالم الغيب والشهادة والقائم على كل نفس بما كسبت، ويعطيه على ذلك كله ذمة الله وذمة محمد رسوله، وذمة الأنبياء والمرسلين، والملائكة والمقربين، وعباد الله الصالحين»[2].

لا نظن أبداً، أن بيعة عادية تستلزم هذا التشديد في القسم على الوفاء بها والقيام بشروطها. والحق أن هذه الصيغة توحي بأن المبايَع إما أن يكون ـ كما أسلفنا ـ ثائراً عاد إلى الصفوف، أو رجلاً خطير المركز محتمل الثورة وشيك الخروج، لأن في ولاية الإمام المذكور ما لا يرضيه ولا يقبله.

والطريف حقاً، في هذه المبايعة، هو ما ينتهي به العهد من عد لضروب المستحيلات التي على المبايع أن يقوم بها إذا خان عهده ولم يفِ بوعده. وهي على هذا النحو: «ومتى خَلَعْتَ ربقةً بخَتْر أو غَدْر، أو طويت كشحاً على نكث أو حنث، فعليك المشي إلى بيت الله الحرام، ببطحاء مكة، من مستقرك ثلاثين حجة، نذراً واجباً لا يقبل الله تعالى إلا الوفاء به. وكل زوجة لك مهيرة، أو

(1) نفسه، ص: 498.

(2) ذ: 1/1، ص: 499.

تنكحها إلى ثلاثين سنة، فطالق تحتك طلاق الحرج ثلاثاً. وكل أمة أو غرةٍ أو عبدٍ لك أو تملكه فأحرار لوجه الله العظيم. وكل مال لك من صامت أو ناطق أو تملكه إلى ثلاثين سنة غير عشرة دنانير. . . فصدقة على الفقراء والمساكين. . . »(1).

هذه نماذج من النثر الذي خاطب، بواسطته، حكامُ الجزيرة طوائف المتمردين على حكمهم، الرافضين لسلطانهم، أو من يُحتَمل منهم وقوع ذلك، وبها نختم هذا الفصل الذي درسنا فيه أنواع الإنشاء الديواني.

ولقد استبان لنا من خلال هذه الدراسة أن هذا النثر قد كان من التنوع بحيث استطاع أن يغطي مجموع الاهتمامات التي يمكن أن تكون لحكام الدولة والقائمين على تسييرها. وقد عمدنا إلى النماذج التي تمثل إرادة الحاكم بالذات، فهي إما صادرة عنه أو معبرة عن رأيه.

وقد رأينا أن هذا النثر الديواني قد نهض بالتعبير عن مجموع العلاقات التي يقيمها الحكم في الأندلس مع الأطراف التي لا بد له أن يتعامل معها وأن يسعى إلى مخاطبتها وتلَقِّي مخاطباتها المتصلة بشؤون الحكم وتدبير المملكة. وهكذا وجدنا العلاقات السلطانية نامية، متنوعة، تعكس شده حاجة دُوَيْلات الأندلس إلى التشاور وتبادل المعلومات، كما وجدنا طبيعة التخاطب بين أمرائها تعكس إلى حد بعيد ميزان القوة فيما بينهم. وقد استخلصنا أن ظروفاً سياسية معلومة، ترجع إلى طبيعة الصراع في الأندلس، قد صرفت الكثير من أولائك الأمراء عن تنمية علاقاتهم الخارجية بالممالك العربية أو غير العربية القائمة خارج الجزيرة.

وكان محتملاً، بل متوقعاً أن نجد لملوك الجزيرة علاقات إدارية واسعة، تترجم عنها نصوص تنظيمية متعددة ومتنوعة، ولكننا لم نجد شيئاً من ذلك، وانحصر ما وصل إلينا من هذا الإنشاء في نماذج قليلة لا يمكن أن ترسم لنا

---

(1) ذ: 1/1، ص 499.

بحال من الأحوال الملامح الحقيقية للحياة الإدارية في هذا العصر.

أما العلاقات الشعبية، فلئن كانت تعكس، في مجملها، اهتمامات الحكام، وسعيهم الحثيث إلى إخماد بُؤَر التوتر، في ذلك الواقع الأليم المتميز بالفتن الكثيرة، والحروب الأهلية العديدة التي مزقت شمل المسلمين في كل مكان، فإنها مع ذلك لا تمنحنا إلا وجهاً واحداً من وجوه الواقع الشعبي في الأندلس، وإن كثيراً من ملامح صورة المجتمع في هذه الفترة ستتضح لنا في الفصلين الآتيين بعد دراستنا للنثر التوسلي، والنثر الاجتماعي.

* * *

الفصل الثاني

النثر التوسلي

بين أيدينا مجموعة وافرة من النصوص النثرية، تلتقي كلها عند طابعها الاجتماعي الواضح، ولكنها لا تقتصر على هذه السمات العامة التي تشترك فيها مع طوائف أخرى من «النثر الاجتماعي» بل تتعداها إلى خصائص تفصيلية دقيقة تجمع بينها، وتميزها من سائر ضروب الإنشاء الأخرى، وذلك أنها ترمي كلها إلى تحقيق غرض ما لدى الحكام، وأعيان الدولة، ووجهاء المجتمع، متخذة إلى ذلك أسلوباً من أساليب التوسل.

وهكذا، فإن كثيراً من نماذج هذا الإنشاء يصح أن يوضع في مقابل النثر الديواني ليكون، في وجه من وجوهه، موازياً له. فبينما كان النثر الديواني صادراً عن حُكّام، سواء كانوا ملوكاً أو أمراء، أو قادة، أو ولاة. . . فإن جانباً هامّاً من هذا النثر التوسلي صادر عن طوائف عديدة من أبناء الشعب، أو كُتِب في قضاء حوائجهم، وهم يعانون محن الزمان القاسية، ويكابدون ألواناً من بلاياه.

وقد اقتضت ضرورات التقسيم والتنظيم المنهجيَّين، أنْ نوزع محتويات هذا النثر ومضامينه الكبرى على محاور ثلاثة هي كما يلي:

أ ـ في التودُّد والاستعطاف.
ب ـ في التكسُّب والاستجداء.
جـ ـ في العناية والاستشفاع.

* * *

أ ـ في التّودّد والاستعطاف:

إذا كان صحيحاً أن الإنسان لا يستعطف إلا من يقدِّر فيه أنه يملك إمكانية العطف عليه، سواء كانت ذات طابع مادي أو معنوي، فإننا ندرك حينئذٍ أن هؤلاء المُسْتَعْطَفين والمتوَدَّدِ إليهم، لا يمكن أن يكونوا إلا من الفئات النافذة في المجتمع، ذات الهيبة والسلطان: من الأمراء والملوك أولاً، ثم من وزرائهم ومن كان في مستواهم من الكبراء والأعيان.

وهذا الاستعطاف لا يخرج في حقيقته عن معنى من معاني المدح والثناء. وإذا كنا أفردناه بعنوان مستقل فلأنّ كل الإنشاء التوسلي يدور في هذا الفلك، وإلا فبأي شيء يتوسل الضعيف إلى القويّ إن لم يكن بتحريك أو تار الكبرياء والغرور والنرجسية فيه... فالمدح إذن هو القالب العام الذي تَصُبُّ فيه المعاني الأخرى التي يتوسط بها الكاتب لبلوغ أهدافه المنشودة، سواء كانت من قبيل الاستعطاف، أو الشفاعة، أو التكسب والاستجداء...

1 ـ مدح الملوك واستعطافهم:

ولدينا في استعطاف الملوك مجموعة من الرسائل الهامة التي صدر بعضها عن ألمع أدباء هذا العصر مثل ابن زيدون[1] الذي دبّج رسائل كثيرة في هذا الغرض. ونحن نريد أن نكتفي بالإشارة إلى بعضها، ولا سيما رسالته المشهورة التي خاطب بها، من معتقله، ابن جهور[2] زعيم قرطبة، وهي المعروفة بالرسالة الجدّيّة[3].

إنها رسالة طويلة، تظهر فيها نفس شاعر مرهف الحس، وهو يذوب حسرة

---

(1) ابن زيدون: أبو الوليد، شاعر قرطبة الأوّل في عهد ملوك الطوائف. قَرَّبَه بنو جهور، ثم اتصل ببني عباد في إشبيلية. توفي سنة 463 هـ.

(2) ابن جهور: هو أبو الحزم بن جهور، حكم قرطبة من 422 إلى 435 هـ. وانظر أخبار دولة الجهاورة في: ابن عذاري، ج 3، ص: 135.

(3) تمييزاً لها من «الرسالة الهَزْلية» التي أنشأها ابن زيدون في التهكم بابن عَبْدُوس، غريمه في وَلَّادَة.

لما يلقاه في سجنه من ألم وهوان. وهي تبدأ برسم ذلك الإطار العام، الذي تحدثنا عنه، من المدح والثناء والتودّد كأن يقول فيها: «يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتدادي به، واعتمادي عليه، أبقاك الله ماضي حد العزم، واري زند الأمل، ثابت عهد النعمة...»[1].

على أن هذا ليس إلا واسطة تتيح له مخاطبة الأمير في الشأن الذي يزعجه، ويسدّ عليه آفاق الأمل، إنه السجن الذي يكابد المحن فيه. ولابن زيدون أسلوب في طرح قضيته، وهو يتلخص في الشكوى من عدم التفات الأمير إليه، وعدم الإسراع إلى فك قيوده. ولكن الطريف في هذا الطرح هو أن الكاتب يظهر، في كلامه، بمظهر من يوسّع للأمير باب العذر، ويهون من نتائج إهماله، على الرغم من ثقل الحمل الذي يحمله الأسير المكبل. ذلك حيث يقول: «إن سلبتني ـ أعزك الله ـ لباس إنعامك... وغضضت عني طرف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع (الأصم) ثنائي عليك... فلا غرو، فقد يغص بالماء شاربه... وإني لأتجلد فأقول: هل أنا إلا يد أدماها سوارها، وجبين عضه إكليله... والعتب محمود عواقبه...»[2].

أجل إن ابن زيدون هو الذي يتحدث عن العتب وهو يخاطب أمير البلاد، أليست هذه معاني طريفة؟ ولعل مبعثها في نفس الكاتب الأسير أنه لا يدري أي ذنب ارتكب حتى يعاقب عليه بالسجن[3]: «وليت شعري ما الذنب الذي أذنبت ولم يسعه العفو، ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مسيئاً فأين الفضل؟»[4] ثم يأخذ في استعراض طويل للذنوب التاريخية التي لو ارتكبها لكان فيها ما يُسَوِّغ هذاالسجن المفروضَ عليه، وهذه المعاملة التي يلقاها من أوليائه:

---

(1) ذ: 1/1، ص 340.

(2) نفسه.

(3) الذي سجنه هو قاضي قرطبة: أبو محمد عبد الله بن أحمد المكوي الذي تولى قضاءها من 432 إلى 435 هـ. انظر هامش المحقق في ذ: 1/1، ص 338.

(4) ذ: 1/1 ص 340.

«وما أراني إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت، وعكفت على العجل، واعتديت في السبت... وعاهدت قريشاً على ما في الصحيفة... وأنفت من إمارة أُسَامة، وزعمت إن خِلاَفة الصِّدِّيق فَلْتَة... لكان فيما جرى عليّ ما يحتمل أن يسمّى نكالاً، ويدعى ولو على المجاز عقاباً»[1].

وبعد هذا التهويل للعقاب الذي أصابه، يأخذ في الاستعطاف والتصاغر ليستدر رأفة ابن جهور عليه، ويختم بتعليق الأمل به والرجاء عليه...

لم نكن نريد الإحاطة بكل مضامين رسالة ابن زيدون الجدية هذه، فهي طويلة جدّاً، واستعراض كل معانيها التفصيلية يخرجنا عن الموضوع. وحسبنا أنْ نشير، في نهاية ما نقوله عنها، إلى أنها قصيدة شعر في قالب رسالة نثرية، لأن نَفْس ابن زيدون هي، قبل كل شيء، نفس شاعرة. والدليل على ذلك أن الأديب لم يستطع أن يكبح جماح الروح الشاعرة فيه، فأطلق لها العنان في الأخير، وختم الرسالة بمقطوعة شعرية رقيقة فيها تلخيص لأمهات المعاني التي وردت فيها.

والحق أن هذا النثر الذي يخاطب به الأمراء والملوك ينقلب في كثير من الأحيان إلى قالب المدح التقليدي في القصيدة العربية، وكل ما يميزه عنه أنه هنا نثر يفارق قيود الوزن والقافية وإن التزم بقيود الموازنة والسجع والتنغيم. ولعل هذه المعاني المدحية أظهر عند ابن زيدون، وهي أكثر عنده من غيره. فمن رسائله رسالة وجهها إلى المعتضد بن عباد يعرض عليه فيها الإنعام عليه بإدنائه منه وتقريبه من مجلسه.

تبدأ الرسالة بمعاني التعظيم والإجلال المألوفة: «أطال الله بقاء الحاجب[2] فخر الدولة، مولاي وسيدي، ومولى المناقب الجليلة، والضرائب النفيسة، في

(1) ذ: 1/1، ص 341.

(2) من المعلوم أن المعتضد كان يدّعي، في الأوّل، أنه مجرّد حاجب للخليفة هشام المؤيّد الذي اختلق بشأنه واحدةً من أغرب الحيل التاريخية. راجع ما كتبناه في الفصل الأوّل.

أكمل ما تكفّل له به من علو القدر، ونفاذ الأمر، وخصه من النعم بأسبغها سربالا. . . »[1].

وفي إطار هذا المدح والثناء يسرّب معاني الأرب الذي يقصد إليه والغاية التي يبتغي الوصول إليها، فيقول: «وحسبي أن أَمَلي قد ارتادِ الجناب الرحب والمشرب العذب، ولعل الحظوظ ستكشف، والنوائب ستصرف، إلى أن أبلغ أبعد غايات الأمل من مشاهدة حضرته العلياء، والنظر إلى غرته الزهراء، فوالله ما ينصرف فكري، ولا ينصرم حينٌ من عمري، إلا في الذكر له، والشوق إليه، وتصور المثول بين يديه. . . »[2].

وابن زيدون رجل خبير بمخاطبة الملوك، يعرف كيف يهز عواطفهم، وكيف يستميل أهواءهم لأنه يديم العزف لهم على الأنغام التي تزين لهم أنهم فارقوا مرتبة البشرية، ودنوا من مرتبة التقديس والتأليه. . . فانظر إليه كيف يجسّد لحظة وقوفه بين يدي المعتضد بن عباد، وكأنها ليست مجرّد احتمال يكتنفه الغيب، وهو موكول بإرادة الملك، بل يستحضرها كأنها شيء واقع. ويزيد في تكثيف أبعادها بأن يصف بعضاً من وقائعها: المهابة فالحَصَر، ويعتذر عن ذلك بمَثَلٍ يقتاده اقتياداً موفقاً من تاريخ أرقى نماذج العظمة والسلطان عند العرب: هارون الرشيد. كل ذلك في هذه الكلمات القليلة: «وأنا أقدم الاعتذار من مهابة تَسْتَمْلِك جَناني، وحَصَر يكاد يقطع في أول المشافهة لساني، فإن حدث ذلك فعذري عذر الفضل بن سهل[3]، وقد انقطع بين يدي الرشيد[4] فقال له: يا أمير المؤمنين من فراهة العبد أن تملك قلبَه مهابةُ سيِّده»[5].

(1) ذ: 1/1، ص: 405.

(2) نفسه، ص: 406.

(3) الفضل بن سهل: (154 - 202 هـ) وزير المأمون وكان قبل ذلك صاحبه وأسلم على يده. وانظر وفيات الأعيان ج 4 :41 - 46، وانظر الأعلام للزركلي.

(4) هارون الرشيد: خامس خلفاء الدولة العباسية، أبوه المهدي وجده المنصور، حكم من 170 إلى 193 هـ.

(5) ذ: 1/1، ص: 406.

والكاتب يضع نصب عينيه تقديم الولاء في قالب الشكر والثناء في كل ظرف من الظروف، حتى ليبدو أحياناً وكأنه يتصيد فرص مخاطبة الملك، وإبلاغه مقدار ما عنده لديه من الجلالة والتقدير. وأية فرصة أكثر ملاءمة لقضاء هذا الغرض من مغادرة العاصمة الملكية والعودة إلى دياره وقد نال مبتغاه من الثروة والجاه، فلذلك كانت كل جارحة فيه لساناً يترنم بأناشيد المدح والثناء، كأن يقول له: «. . . إني لم أزل منذ فارقت حضرتَه الجليلة، حضرةَ المجد والسيادة، ومحل الإقبال والسعادة، لَهِجَ اللسان بما أَجْناني من ثمار الحكمة والنعمة، وأفادني من عقد الأدب والنشب. . . والله يبقيه لعبيده الذين أنا آخرهم في الخدمة، وأولهم في شكر النعمة، ويرفع من هممهم ما انخفض، ويَبْسُط من آمالهم ما انقَبَض، ولا يعدمهم التقلب في نعمه، والاعتلاق بأسباب ذِمَمِه، بمجده وكرمه»[1].

وقد لا تكون بنا حاجة إلى التعليق على هذا الكلام ذي الغرض البيّن، فهو إن كان يشكر ولي نعمته على ما سبق من أياديه، فإنه يحرص على الاستزادة منها، والتمهيد للظفر بما يشبهها ويفوقها في مستقبل يراه وقفاً على رضا سيّده.

كان هذا شأن ابن زيدون في تطور علاقته بملك إشبيلية، وطريقته في أَدَاءِ واجب المدح جزاء على ما ناله من عوارف المعتضد. وقد تبيّن لنا ـ من خلال النصوص التي استعرضناها ـ أنه يتحمل قدراً واضحاً من المسؤولية في الزج بالنثر العربي الأندلسي في متاهات التوسل الرخيص الذي تهان فيه كرامة الكاتب عن طريق المبالغة في التصاغر، والتذلل، أمام ملك تحشد لوصف قدره النعوت الكاذبية، البعيدة عن الحق، المجانبة للواقع. . . بيد أنه من الخطإ الذهاب إلى أن ابن زيدون يتحمل وحده هذه المسؤولية التي يتقاسمها كل كتاب هذه المرحلة سواء بما كتبته أقلامهم في تقديس أولائك الأمراء التافهين وكياناتهم الهزيلة، أو في قبول ذلك بالسكوت عليه.

---

(1) ذ: 1/1، ص: 407.

ومن هؤلاء الذين سلكوا هذه السبيل واحد من أكبر كتاب هذا العصر وهو أبو عبد الله البزلياني[1] الذي قال عنه صاحب الذخيرة: «أحد شيوخ الكتاب، وجهابذة أهل الآداب، ممن أدار الملوك ودبرها، وطوى الممالك ونشرها»[2].

لقد كتب البزلياني هذا مجموعة من النصوص احتفظت لنا المصادر ببعض مقاطعها، في غرض مدح الملوك واستعطافهم والتودد إليهم. وينبغي الإشارة في البداية إلى أن هذه النصوص قد جاءت مبتورة عن سياقها، فنحن لا ندري، على وجه الدقة، إلى من هي موجهة، بل إننا لا نعرف بالتحديد إن كانت صادرة عن البزلياني نفسه فهي تعبر عن واقع حاله أو أنه كتبها على لسان غيره. ومهما يكن من أمرها فالذي لا يكاد يتسرب الشك إليه أنها توسلية الطابع، وأنها في الصميم من الغرض الذي نحن بصدده: مدح الملوك واستعطافهم والتودّد إليهم.

من هذه المقاطع المدحية فقرة يقول فيها: «هذا الوقت الذي كنت أَتَأَيَّاهُ، والحين الذي ما زلت أتمناه، والزمن الذي قاسيت فيه تعب الانتظار، وقطعت إلى بلوغه مسافة الليل والنهار. وإلى مثلك يُتَقَرَّب بإخلاص الوداد، ومن فضلك تُجتنى ثمرة حسن الاعتقاد. ولا يجتمع رجاؤك واليأس في قلب، ولا تحل مَحَبَّتُكَ والحرْمَان في خِلْب»[3].

وله في مثل هذا مقطع آخر يقول فيه: «قد قيدني من برك وإيثارك، ما أفصح عن طيب نِجارك، وأوضح عندي كريم آثارك، وتركني أرسف في قيود الامتنان، وَأَنُوءُ بأعباء الإحسان»[4]. ثم يتناول معاني الذلة والصغار، وهوان

(1) أبو عبد الله محمد بن أحمد البزلياني كتب لأمراء دولة غرناطة الزيريين، ثم انتقل إلى دولة بني عباد في إشبيلية. وفي أخباره أنه ممن شارك في ثورة إسماعيل على أبيه المعتضد، فقتل في جملة من قتل فيها.

انظر «الذخيرة» 2/1، ص: 624 وهامش المحقق فيها.

(2) ذ: 2/1، ص: 624.

(3) نفسه، ص: 632.

(4) نفسه، ص: 631.

الشأن، وما يقابلها ضمناً، أو ما توحي به من أوصاف الممدوح التي هي الجلال، والعظمة، والمهابة. يقول: «وأقعدني عن لقائك لسان حسير، وخاطر بهير، وحد كليل، ولحظ من الحياء عليل...»[1].

ثم تنتهي هذه المقطوعة بما يوحي بظروف قاسية جدت على الكاتب، وانتقلت به من حال اليسر والأمان إلى حال العسر والمشقة والاضطراب «وشيمة الدهر إذا صفا تكدّر، وإذا عافى تنكّر، وإذا سَرّ أحزن، وإذا سهل اخشوشن، وإذا سمح بالإنعام، بخل بالتمام»[2].

والذي يبدو جلياً أن البزلياني أقل تطرفاً في التذلل أمام الممدوح، وأقل إغراقاً في إضفاء الأوصاف الفضفاضة عليه. ولعل ذلك بالذات هو الذي جعل كتابته أقل ماءً وأكثر صلابةً، وأقرب إلى الخشونة منها إلى الرقة. ونحن لا نستطيع أن نتوسع في التأويلات لتفسير الطابع الذي تتميز به مضامين هذه الفقرات ما دمنا نجهل سياقها الحقيقي، وأصحابها الموجهة إليهم. فربما كانت في النهاية مقتطفات من نصوص رَسْمِيّة لا تعبر في كثير ولا قليل عن أوضاع الكاتب... وعلى كل حال فإن نثر ابن زيدون لا يمكن أن يقارن بنثر البزلياني، فهما يختلفان نهجاً وأسلوباً وغاية..

ولو كان علينا أن نبحث عمن يمكن أن نجد له شبهاً بابن زيدون من بين الأدباء الذين طرقوا مضامين التودد والاستعطاف والمدح، لكان الأديب أبو محمد غانم[3] في طليعة هؤلاء. وأقل ما يجمع بين الرجلين أنهما كلاهما شاعران يصدران في مدحهما النثري عن كثير من القيم السائدة في المدائح الشعرية. واستمع إليه وهو يمدح إدريس بن يحيى الملقب بالعالي بالله[4]: «فقام العالي

(1) ذ: 2/1، ص 631.

(2) نفسه.

(3) أبو محمد غانم بن وليد، من أهل مالقة، أديب فقيه، توفي عام 470 هـ.
انظر الذخيرة 2/1، ص: 853، وهامش المحقق فيها.

(4) أخبار العالي بالله في ابن عذاري، ج 3، ص: 217. وقد بُويع في مالقة سنة 434 هـ وخُلِع عام 438 هـ.

بالله بخلافة المغربين، واضطلع بملك العدوتين، ولما آن أوان إمامته، حان من عدوه حين قيامته.. وقامت.. دولة هذا الملك العالي، والشمس تأخذ من قعر الفلك في الصعود، وتؤذن بِجَرْيِ الماء في العود، وتترقى بالعالم في درج السعود... فسفرت الدنيا قناعها فتية، وبلغت النفوس بخلافته الأمنية، وانثالت عليه بيعات الأمصار، وأمّت حضرته الرسل من جميع الأقطار، وبدأ بالفضل، وصدع بالعدل، فأحيا مآثر أبائه الطاهرين...»[1].

إن النَّفَس الشِّعري واضح المعالم في هذا النثر، وهو لا يحتاج إلى مزيد من التعليق، ويكفي لبيان ما ذكرناه من تأثير القيم المدحية التقليدية في الشعر أن نشير هنا أيضاً إلى أن الكاتب لم يستطع أن يُعرض طويلاً عن الشعر، فخرج عن سياق النثر إلى مقطوعة شعرية يبدؤها بقوله:

ضَحك الزَّمَانُ إليك بَعَد عُبوس وَنَفَى دُجَى الإِيَحاش بِالتَّأْنِيسِ[2]

ومن الذين مدحوا ملوك الأندلس بالرسائل النثرية كاتب مشرقي اسمه أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي[3]، وهو وإن لم يكن من أهل الأندلس فإنّه أنشأ بها قسماً من أدبه المحفوظ، وتأثر فيها بأساليب أهلها، ولا سيما وهو يمدح أمراءها. والذي ينبغي أن نسارع إلى التنبيه عليه هو أن أبا الفضل البغدادي من الشعراء المشهورين بالشعر، ولذلك، فلا بدّ أن نجد في نثره، وهو يمدح به، صدى القيم المدحية التي اعتاد على تناولها أثناء النظم.

فمن الرسائل التي نريد أن نقف عندها برهة قليلة تلك التي وجهها إلى أحد وزراء طليطلة في مدح أميرها المأمون بن ذي النون، والاعتذار عن الخروج من عاصمة مملكته. يقول في بدايتها: «أطال الله بقاء سيدي، وجعل درج المعالي مستقرة تحت قدمه، وسرج المساعي مسفرة عن بوارق هممه، وظَامِئَات

---

(1) ذ: 2/1، ص: 861 وما بعدها.

(2) نفسه.

(3) أخباره بالتفصيل في الذخيرة 1/4، ص: 87 وما بعدها. توفي بطليطلة سنة 455 هـ.

الأماني رويّة من لعاب سنّ قلمه. . .»[1] وبعد هذا المدخل الدعائي يقول: «وقد كانت ـ أيّدك الله ـ رياض أخباره تزهر عندي بنوار خلائقه الزكية التي هي أشهر من فلق الصباح، وتعبق بمحاسنه الرضية التي هي أسير في الآفاق من هبوب الرياح، فتلطف بنوافر الأرواح، حتى كأنها المصافاة بين الماء والراح، فترتع الأسماع من نَضَارتها في مرتع خصيب، وترفُل من غَضَارتها في ثوب من الإنس قَشِيب. . .»[2].

هذه المناظر البهية، وهذه اللوحات الحية، إنما ترسمها ريشة شاعر تعودت أن تبدع في الشعر، فاستوحت مصادر إلهامها وهي تمدح بالنثر. وهو إلى حد الآن مدح شاعري جميل تأنس إليه النفس لأنها لا تصطدم فيه بتلك الإحالات الكريهة، والمبالغات القبيحة. ولكن القارىء ما يلبث أن يكتشف أن داء التطرف والإغراق قد كان من الذيوع والشيوع بحيث لم يكن ينجو منه أحد. فهذا أبو الفضل نفسه قد أصيب بشيء منه حيث يقول: «وقد أكبرت أن أفارق بلد الأندلس وقد أظهر الله فيه إحدى آياته، الدالة على عظم معجزاته، الناطقة بصحة براهينه وبَيِّنَاتِه، بسيدنا المأمون بن ذي النون ـ أطال الله بقاء سلطانه، وقوى دعائم ملكه وأركانه ـ الذي أيده الله بعناية بسطت قدرته، وأعلت كلمته فأضرمت شهاب هيبته فملأت القلوب رُعباً، وأذكت بوارق سطوته فاختطف النفوس شرقاً وغرباً ، ومدت بحار سحائبه فاستملك الرقاب عُجماً وعُرباً، لأجلو قذى ناظري ببهي طلعته، وأزين أصغري بتحبير بدائع مدحته. . .»[3].

وواضح أن مدحاً كهذا لا يمكن أن يصدر إلا عمّن يرجو الكثير من العطاء لدى ممدوحه، أو هو يسبح في بحر من سابق إنعامه وإحسانه. ونحن نعرف أن المأمون بن ذي النون هو الذي رفع مقام أبي الفضل البغدادي وشمله بحسن رعايته حين تنكرت له الدنيا وبخسه بعض أمراء الأندلس حقه وعاملوه معاملة

---

(1) ذ: 1/3، ص: 410.

(2) نفسه.

(3) ذ: 1/3، ص: 413.

المتسول المسكين[1]. ولقد بلغ من عنايته به وعطفه عليه أن أجري عليه راتباً مقداره ستون مثقالاً في كل شهر[2]... فهل نعجب حينئذٍ إن رأيناه يثني هذا الثناء الحار على مولاه وولي نعمته؟...

هكذا كان شأن هذا النثر الذي أنشأه أصحابه في مدح الملوك، والتودد إليهم، والثناء عليهم، وهو مدح تكمن طرافته في أنه جاء في قالب نثري، أما فيما عدا ذلك فإنه يشبه المدائح الشعرية في جلّ مقوماتها. وهو يشبهها، بصفة خاصة، من جانب له أهميته، وهو أنه لم يقتصر على الملوك، بل إن أصحابه سعوا عن طريقه إلى التقرب من طوائف شتى من الوزراء والولاة، وسائر أعيان الدولة، يقرعون أبوابهم، ويتمسحون بأعتابهم، للتوسط بهم إلى الملوك، أو لتكثير مصادر الجوائز والعطايا التي كانوا ـ عموماً ـ يسعون إلى الحصول على أكبر قدر منها.

2 ـ مدح الوزراء وسائر أعيان الدولة:

إن المدح الذي نجده في النماذج التي بين أيدينا هو دائماً من النوع المنفعي الذي يتخذه أصحابه سلّماً لبلوغ مآربهم سواء كانت ذات طابع أدبي أو مادي. والأدباء ربما مدحوا بعض الرجال البارزين في الدولة، ولكنهم لا يرجون شيئاً من عوارفهم وإنما يريدون منهم أن يكونوا وسطاء لهم لدى الملوك الذين هم في خدمتهم، ليس لأن جوائز الملوك أسنى من جوائز وزرائهم فحسب، بل لأنهم ـ علاوَةً على ذلك ـ يريدون تحقيق نوع من المجد الأدبي والشهرة، إذ من الواضح أن الذي ينتسب إلى خاصة الملك وحاشيـة رجاله المقربين أكبر جاهاً، وأعظم شرفاً من الذي ينتسب إلى حاشية الوزير، مهما علا قدره وارتفع شأنه في مراتب الدولة.

ولعله يمكننا أن نعد من هذا القبيل الرسالة التي كتبها أبو محمد عبد

---

(1) ذ: راجع ما ورد من إشارات صريحة إلى ذلك في الذخيرة 1/4، ص: 89.

(2)) نفسه.

الغفور[1] إلى أحد الأعيان، والتي بدأها بذكر ماله من أياد عليه: «وما زلت معتزياً إلى أدبه ونسبه، منفقاً من غرب كَلِمِه الرائق وذهبه، مقرّاً بفضله، معترفاً بتبريز خصله، مرتسماً في جريدة من أدّبه ودرّبه، وأرهفه وذرّبه، ولقّنه وعلّمه. . .»[2] ثم ينتقل إلى أسلوب آخر في المدح يقدمه في قالب التَّضَرُّع، وذلك حيث يقول: «فليصل مني ولداً ثانياً، وليجبر كسيراً وانياً، وليأس بالكلام العذب، بل اللؤلؤ الرطب، كلّما داميا أصاب والعِذَار مُبْقِل، وما أجلب والشيب عليّ مشتمل»[3]. وليس الاعتراف بسابق الفضل، ولا التضرع والتصاغر إلا منهجاً في بلوغ الأرب الذي هو الغرض المقصود من إنشاء هذه الرسالة، والذي يعبر عنه الكاتب بقوله: «وليمنّ على وليِّه وغَذِيِّ وسميه، برقعة يضمنها وجه الحيلة، في مداخلة تلك الدولة الجليلة، أيّد الله سلطانها، ووطد أركانها، لِيَبْنِي على ما أسّس، ويَجْتَنِي من ثمر النجاح ما رشح وغرس»[3].

إن الملتمس واضح بين في هذه الرسالة، وهو التوسط بهذا الرجل الذي يراسله ويثني عليه هذا الثناء البالغ لكي يمكنه من الاتصال «بالدولة الجليلة». ويمكننا أن نفهم من هذه الرسالة أن الدولة المقصودة إنما هي دولة المرابطين التي يبدو أن أبا محمد بن عبد الغفور هذا قد استطاع في النهاية أن يكون واحداً من وزرائها الكتاب[4].

على أن الذي ينبغي التنبيه إليه هو أن طلب التوسط هذا لدى الملوك يبقى حالات نادرة إذا ما قيس بسائر الحالات التي عمد فيها الأدباء إلى مدح أعيان

(1) أبو محمد عبد الغفور من رجال دولة بني عباد، وانظر ما قاله عنه ابن بسام في الذخيرة 1/2، ص: 325، وما أورده المحقق في هامش الصفحة نفسها. وكان أبو هذا الأديب: ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن عبد الغفور من أصدقاء المعتمد بن عباد، ومن أركان دولته.

(2) ذ: 1/2، ص: 359.

(3) نفسه.

(4) انظر في هامش ص: 325 من ذ: 1/2 ما ينقله المحقق عن الخريدة ج 3، ص: 429 من أن ابن عبد الغفور كان كاتباً بمراكش سنة 531 هـ.

الدولة والتودد إليهم لتحقيق مختلف الأغراض لديهم بصفة مباشرة. والحق أن مناصب الدولة السامية كانت مواقع خطيرة تبيح لمن يحتلها أن ينعم بقدر غير قليل من الثراء والسلطة، فكان أهل تلك المناصب مقصد الأدباء: يمدحونهم، ويحققون لديهم ما شاؤوا من المآرب المادية والأدبية. ولم يكن ملوكهم يتأذّون من ذلك الإجلال الذي ينالونه لدى الأدباء إذا كانوا يحسنون التواضع لديهم، والظهور أمامهم ـ كلما واتت الفرصة ـ بمظهر العبد الذليل والخادم المطيع. وإنما كانت النكبات تحل بهم إذا لم يحسنوا القيام بهذا الدور، فاغْتَرُّوا بمظاهر الجاه والسلطان. وكان حسادهم يَلِجُون من هذه الثغرات لإيغار صدور الملوك عليهم، فإذا ما نجحوا في ذلك كان التنكيل بهم عظيماً...[1].

فمن الوزراء الذين مُدحوا بما تُمدح به الملوك: الوزير الكاتب أبو محمد بن عبد البر[2] فقد كتب إليه أبو المطرف بن الدباغ[3] يقول: «(إنك) المنتهى الذي إليه يجرى، وتُبتغَى لديه الزُّلفَى، ويُتوصل به إلى العَليا، وأنا ممن يتشيع فيك تشرعاً، ويحبك طبعاً لا تطبعاً، واستنزل في الجمع بك الأقدار، واستخدم في التعلق بأسبابك الليل والنهار...»[4].

فلعل هذا الكلام واضح الدلالة على ما نقصده من أن الأدباء لم يكونوا يتحفظون في مدح الوزراء، خشية إسخاط الملوك، ولم يكونوا يقتصدون في إضفاء النعوت الفضفاضة عليهم. وإذا كان الغرض المالي مقصداً منشوداً، في

---

(1) لعل خير مثال على ذلك ما وقع لوزير المعتمد وصديقه أبي بكر بن عمار. انظر أخباره في الذخيرة 1/2، ص: 363 - 433.

(2) الوزير الكاتب أبو محمد عبد الله بن عبد البرّ، توفي عام 474 هـ. وكان وزيراً للمعتضد بن عباد ثم تنقل بين ملوك الطوائف حتى وزر أو كتب للكثير منهم. انظر ذ: 1/2، ص: 125 وما بعدها.

(3) الوزير الكاتب أبو المطرف عبد الرحمن بن الدباغ، خاف من أمير بلده المقتدر بن هود، صاحب سرقسطة، ففر إلى المعتمد بن عباد الذي أحسن استقباله. انظر ذ: 1/3، ص: 251.

(4) ذ: 1/3، ص: 316.

جميع الحالات، بصفة أو بأخرى، فإنه قد لا يكون الهدف الرئيسي إذ قد يَتَوخّى الأدباء أهدافاً أخرى يتحقق معها، في جملة ما يتحقق الكسب الوافر والجاه العريض. ولنستمع إلى ابن الدباغ وهو يُلوِّح إلى مثل تلك الأغراض بقوله: «(وأنا ممن)... لتلحقه بالعتاق السوابق، وتلقي عليه شعاعك فيشرق في المغارب والمشارق»[1]. وهي إشارة خفيفة، لا يزيد عليها الكاتب حرفاً واحداً، لأنه يعود بعدها مباشرة إلى صيغ أخرى في المدح والثناء. ولكنها إشارة لا تخطئها المسامع، فهي جد دقيقة في التعبير عن إرادة الكاتب في أن يلحق بحاشية الوزير من أصدقائه وأصحاب خدمته المقرّبين، ثم هو لا يرضى بأقل من أن ينال من الجاه ما يجعله الشعاع الذي ينبعث ضياؤه في المشارق والمغارب!...

ونشير في الأخير إلى أن الرسالة تنتهي بمقطوعة من الشعر، فبذلك يقوم ابن الدباغ بواجب المدح بالنثر والنظم.

ويبدو أن معظم الأدباء، في تهافتهم على كل من يملك اصطناعهم بالمال والسلطان، لم يصيروا يسألون عن شخص من يمدحون، أو يتقيدون بحدود القيم الاجتماعية التي كانت تصنف الناس إلى فئات محددة ثابتة لا يمكن أن يتغير فيها شيء مهما استطاعت أن تحقق لنفسها من أنواع المجد الطارىء والسلطان المكتسب... ولعل حوافز الكسب والثراء، والرغبة العارمة في ضمان أيسر ظروف المعيشة هي التي كادت أن تتغلب على كل التقاليد الاجتماعية العتيقة، وأوشكت أن تصبح القيمة التي تتضاءل عندها كل القيم الأخرى. هذا وإلا كيف نفهم إقبال عدد من الأدباء على مدح آل النغريلي[2] اليهود، بعد أن ارتفع بهم المقام إلى تقلد منصب الوزارة في دولة الزيريين بغرناطة. ولقد تدافع

---

(1) ذ: 1/3، ص: 316.

(2) أبناء النغريلي (ويكتب اسمهم بصور أخرى، منها: النغدالة، والنغريلة). وهم أسرة من يهود غرناطة اشتهر منها إثنان: صمويل وابنه يوسف، وكلاهما وَزَرَا لِبَني زيري، أصحاب دولة غرناطة. وقد ثار الناس على يوسف وقتلوه.

الناس أمام أبوابهم، ومدحوهم بكل الصفات الفخمة التي كانوا يمدحون بها أعظم خلفائهم وخاصة أسيادهم من الأمراء والولاة الكبار. والذي يبدو من استعراض مثل هذه الحالات أن الأدباء لم يكونوا يمدحون ـ في واقع الأمر ـ رجلاً بعينه، وإنما كانوا يمدحون كرسياً من أعلى كراسي الحكم في البلاد يستطيع الجالس عليه أن يهب النعمة والرخاء والعيش الهني...

فمن أشهر من مدحوا الوزير اليهودي بالنثر والشعر، وأكثروا من إطرائه والثناء عليه، الأديب القرطبي الأصل عبد العزيز بن خيرة المعروف بالمُنْفَتِل[1]. ولبيان نموذج من أساليبه المغرقة في تعظيم ممدوحه ذاك، نورد له فقرة من رسالة في مدحه يقول فيها: «فتى كرم خالاً وعماً، وشرح من المجد ما كان معمّى: قُسًّا فصاحة، وكعباً سماحة، ولقمان علماً، والأحْنَف حِلماً، أكرم همة من همّام، وأعظم بسطة من بسطام... مأوى السماح والضيف، ورحلة الشتاء والصيف... لا يظلم نقيراً، ولا يخيب فقيراً...»[2]. وقد أنهى المنفتل رسالته هذه بمقطوعة شعرية في مدح ابن النغريلة، وقد بلغ فيها من الإفراط ما جعل صاحب الذخيرة يقول «وله في هذه القصيدة من الغلوّ في القول، ما نبرأ منه إلى ذي القوّة والحول...»[3].

على أن الذي يمكن أن نلتمس فيه بعض الشفاعة لهؤلاء الأدباء في انتهاجهم هذا المنهج إنما هو ما كان يتخبط فيه بعضهم من سوء الحالِ، وما كانوا يلقَونَه من عَنَتٍ في دنياهم تلك ذات الكروب والمصائب... وممن أشار إلى هذه الأوضاع في مدحه الكاتب ابن الحداد[4] حين أخذ يستعطف ممدوحه بهذه العبارات المؤثرة التي توحي بقوة إلى ما كان يعانيه. قال: «وما زلت أصبو

(1) المنفتل من الشعراء الكتاب، ذكره صاحب الذخيرة في 2/1، ص: 754. وانظر هامش المحقق.

(2) ذ: 2/1، ص: 762.

(3) نفسه، ص: 765.

(4) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد أديب شاعر له اشتغال بالفلسفة، أصله من وادي آش، واستوطن المرية، توفي نحو: 480 هـ.

إليك صبوّ الهائم، وأظمأ نحوك ظمأ الحائم، وارتقب للإمكان صالحة... أتوسل بها إلى معاطاتك أَفْنَانَ الالتئام والاتصال، والزَّمَنُ يأبى إلا اللَّيّ فينهد العوائق إليّ، إلى أن دهمني من ضروب خطوبه بعجائب، واستقبلني من صُنُوف صروفه بغرائب، قذفتني من سمـائي، وسقتني غير مـائي، فأيـدي التغرب تتعاطاني، وأقدام النوب لا تتخاطني، والله يحسن العقبى، ويعقب الحسنى، بمنه»[1].

وتبدو هذه الرسالة في بعض مقاطعها كأنها ضرب من ضروب التراسل الشائع بين الأدباء، مما سنراه في حينه، ولكننا ما نلبث أن نرى فيها نغمة المدح والاستعطاء واضحة. ولا سيما في جملها الأخيرة. والذي يقوي ميلنا إلى الأخذ بهذا التأويل أن الكاتب ـ ابن الحداد ـ قد تنكّرت له الدنيا بعد الإقبال إذ كان من المقرّبين عند الحكام من بني صُمَادِح أصحاب دولة المَرِيَّة، ثم ساءت حاله هناك، فغادرها على عجل، ولعله عنى هذا الانقلاب في حياته عندما قال في الرسالة السابقة وهو يصف الخطوب التي ألمت به: «قذفتني من سمائي، وسقتني غير مائي».

وكما قرع الأدباء أبواب الوزراء من أعيان الدولة، قرعوا كذلك أبواب القادة، وكان شأنهم في كل وقت عظيماً لأنهم رمز القوة: بأيديهم السيوف، وتحت إمْرَتِهِم الجيوش التي تبني مجد الممالك أو تثل عرشها وتقوِّض أركانها. وممن تقربوا من القادة ومدحوهم بالنثر الأديب ابن الحناط[2] الذي أنشأ في القائد ابن درّي[3] رسالة، يخاطبه في بعض مقاطعها بهذه العبارات التي تصوره لنا في صورة الغريق المستنجد. ولنستمع إليه وهو يقول: «حنانيك أيها الغيث الهَطِل، ولبيك أيها الروض الخَضِل، فإنه طلع علينا رائد رتع بروضك، وكرع

---

(1) ذ: 2/1، ص: 702.

(2) أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحَنَّاط الكفيف. شاعر وكاتب له معرفة بالطب والهيئة توفي عام 437 هـ.

(3) القائد ابن دري ورد له ذكر عارض في الذخيرة: 2/1، ص: 757.

في حوضك، هزّ بك عِطف الشعر فمدّ إليك طرفه، وثنى إليك عنان الشكر، فحث نحوك طرفه. . .»[1].

وليس شرطاً أن تكون إرادة الحصول على الجوائز المادية هي التي أَرْكَبَتْ الأديب هذا المركب، وأملت عليه هذا الأسلوب، فللمرء من المآرب وهو يخاطب ذوي المراتب السلطانية ما لا يحيط به الحصر. ونحن هنا لا ندرس هذا الجانب من التعبير فله مكان آخر في أدب التكسب والاستجداء، ولعلّ أهم ما يمكن الخروج به من ظاهرة مدح الملوك وأعيان دولتهم بالنثر، أن قِيَم المَدْح هِيَ هِيَ، وأن تلك المُبالغات الشعرية هي نفسُها التي نجدها في النثر، فكل ممدوح، مهما تضاءل شأنه يصير نموذجاً لمن هم في رتبته، بل مثالاً أعلى تجتمع فيه كل الخصال. وهذه مسألة فكرية، ترجع إلى التصور الموروث الضارب بجذوره في القدم أكثر مما ترجع إلى مجرد البنيات التعبيرية وأساليب الإنشاء. . .

وإذا كان أكثر المدح الذي رأيناه يرمي أصحابه، من ورائه، إلى تحقيق أغراض مبهمة، فيها منفعة للكاتب، ولكننا لا نعرف ما هي بالضبط، فلدينا بعض الرسائل التي خوطب بها هؤلاء الأعيان وقد جاء فيها المرمى واضحاً، والغرض مذكوراً. ولعل من أكثر هذه الرسائل وضوحاً ما كتبه ابن زيدون[2] إلى أبي عامر بن مسلمة[3]، وزيرالمعتضد بن عباد. وهي التي يلتمس فيها وظيفة سامية في بلاطه بإشبيلية. وهو يبدأ بالحديث عن بطالته الحالية، وسعيه إلى الانتفاع من ثمار شجرة الأدب وقد طال تعهده لها. يقول: «في علمك ـ أعزك الله ـ ما تقتضيه العطلة من إظلام الخاطر، وصَدَإ النفس، ويَجْنيه طولُ المُقام من إخْلاَق الدِّيباجَة وإرخاص القَدْر. وقد آن أن أَجْنيَ ثَمْرةً من آداب أطلت الاعتناء بها، وأخلاق أدمت رياضة النفس عليها»[4]، وبعد أن

(1) ذ: 1/1، ص: 438.

(2) ابن زيدون، أبو الوليد، من أشهر أدباء الأندلس في القرن الخامس، سبق التعريف به.

(3) أبو عامر محمد بن عبد الله. . . بن مسلمة، من أدباء قرطبة، هاجر إلى إشبيلية، وتقلد الوزارة في دولة المعتضد بن عباد.

(3) ذ: 1/1، ص: 403.
(4)

يحدث الوزير عن إعزازه وإجلاله للجالس على عرش إشبيلية، ويصفه بأنه عميد ملوك الأندلس، يصل إلى بيت القصيد فيعرض خدمته على الملك، ويُرَشِّح نفسه لتقلد منصب في الدولة. والطريف في هذا المقطع من رسالته، أنه يُغلي سَوْمَ بضاعته، ويصف ما عنده من أدوات خدمة الملوك بأنه «نعمة» ثم هو يكاد أن يمن على الملك بأنه رَأى ـ لحسن الظن فيه ـ أن يعرض هذه النعمة عليه لعلّه يفوز بها قبل غيره، وما لم يقله يمكن أن يصاغ هكذا: فإن لم يحسن انتهاز هذه الفرصة ففي البلاد خُطّاب لها، وساعون إلى الحصول عليها... ولنترك ابن زيدون يعبر عن هذه المعاني بنفسه حيث يقول: «فرأيت قبل أن أحمل لغيره نعمة، أو أوسم ممن سواه بصنيعة، أن أعرض نفسي مملوكة عليه، عرض من لا يؤهلها لإجازته إلا بالاستجازة، ولا يطمع لها في قبوله إلا مع المسامحة... لم يعدم مني نجابة غرس اليد، وإصابة طريق المصنع، من ولاية أخلصها، ونصيحة أمحضها، وشكر أُجنِيهِ الغض من زهراته...»[1].

وإذا لم يذكر ابن زيدون، بصراحة، المنصب الذي يسعى إلى الحصول عليه، فليس أمام القارىء أن يفهم شيئاً آخر غير منصب الكتابة في ديوان الإنشاء. فلا يمكن أن يعني أمراً آخر وهو يتحدث عن ثمرة أداب أطال الاعتناء بها.

وكما أن التأميل والرجاء ينطقان صاحبهما بالمدح والثناء، وكما أن حب الحاكم، بل هو في الواقع حب ما عند الحاكم، وما يراد استمناحه منه، مدعاة للتودّد والتلطّف، فإن خشية صاحب الأمر والنهي، والخوف من غضب السلطان، والحرص على استرضائه ودفع عادية نقمته، قد تؤدي إلى ضرب آخر من المدح وهو ذلك الذي يتضمّن معاني الاعتذار وطلب العفو.

3 ـ الاعتذار وطلب العفو:

منذ أن أنشأ النابغة الذبياني[2] قصائده الاعتذارية في أبي قابوس[3]، وأدباء

(1) ذ: 1/1، ص: 403.

(2) النابغة الذبياني: هو زياد بن معاوية، من قبيلة ذبيان، شاعر جاهلي مشهور، يعد من أصحاب المعلقات العشر.

(3) أبو قابوس: النعمان الثالث من ملوك المناذرة في الحيرة، ممدوح النابغة الذبياني والمعتذر إليه.

العربية يمزجون في اعتذارياتهم ـ النثرية والشعرية ـ معاني طلب الصفح بمعاني المدح والثناء. ذلك أنهم لا يتصورون طريقة أخرى يخاطب بها الملوك، مهما كان موضوع الخطاب، غير تغليف ذلك بالإطراء والإجلال والتعظيم.

لقد رأينا في الفصول الأولى من هذا البحث مدى حرص ملوك الأندلس على الأدباء النابهين، ومقدار سعيهم إلى استجلابهم وإغرائهم بالمال، لاستبقائهم عندهم. ذلك أنهم يعدونهم من جملة مظاهر أبهة الملك، وجلال السلطان. فلا عجب حينئذٍ أن يكون في انصرافهم عنهم، وتحولهم إلى غيرهم ما يُحْفِظهم، ويثير في نفوسهم عواطف الغضب عليهم. ولم يكن الأدباء المنصرفون يحبون أن يتركوا هذا الأثر السيء وراءهم احتياطاً للمستقبل الذي لم يكونوا يعرفون تطوراته في بلاد ما أكثر فيها المفاجآت. ولذلك نراهم يحرصون أشدّ الحرص على مخاطبة أولئك الملوك معتذرين إليهم عن الظروف التي اضطرتهم إلى التحول والانصراف.

فمن الأدباء الذين كتبوا في هذا الغرض أبو عمرو بن الباجي[1] الذي خاطب ابن هود[2] معتذراً إليه، برسالة قال في أولها: «كتب مملوكه الملتحف في نعمائه، المتقلب في آلائه. . . . وما قطع مرحلة، ولا احتل منزلة، إلا ودأبه وصف معاليه، ونشر أياديه»[3]، وهو مدخل كما نرى واضح الدلالة على أن الكاتب لا يقتصد في تقديم البراهين على الطاعة التامة والولاء الكامل، ثم يأتي إلى ذكر مسألة الانصراف عنه، فيصور نفسه كما لو أن ظروفاً قاهرة هي التي أجبرته على الفراق. على أنه ما زال محافظاً على العهد، يعد نفسه في جملة حاشية ملكه على الرغم من تباعد الدار. ويكفي أن نورد العبارات التالية من رسالته لنتبين المضامين الكبرى لهذا الاعتذار: «وأما مفارقة ذراه، فيكاد الإشفاق

---

(1) أبو عمرو يوسف بن جعفر الباجي وزر لابن هود في سرقسطة. وانظر ما قاله عنه صاحب الذخيرة 1/2، ص: 186.

(2) المقصود هو المقتدر بن هود صاحب سرقسطة. وقد سبقت الإشارة إليه.

(3) ذ: 1/2، ص: 191.

يصمي الجنان، ويدمي الأجفان. . . وهو أمر حمّ واقترب، وقضاء سبق وغلب، وأنا مع انفصالي عن ذلك الكنف الجليل المأمول. . . غير خارج من عداد من يتقلب فيه، وجملة من يراوحه ويغاديه، لأن فضله بي حيث كنت محيط، وأملي به منوط. . . »[1].

وسواء كان الباعث على هذا الأسلوب هو الوفاء لولي النعمة والإخلاص لصاحب الفضل الأول، أو كان مجرد سياسة يأمن بها الكاتب مكيدة سلطان قويّ تستطيع أن تمتد إليه يد أذاه، فإن الذي هو بين أيدينا من كلام ابن الباجي يرسم المعالم الدقيقة لهذه الطريقة في الاعتذار، وهي التي تصور الأديب في صورة المغلوب على أمره، الذي إن كان ارتكب ذنباً ما فالمسؤول عنه هو القضاء الذي حُمَّ، والقدر الذي غلب. . . .

ويظهر أن حالات الانصراف من حضرة إلى حضرة، والتحول من ملك إلى ملك لم تكن أمراً نادر الوقوع، ولعل تفسير ذلك ما أسلفناه من تنافس الأمراء على الكتاب النابغين أو ما يجد على أعيان الدولة من ظروف لم يألفوها، وما يطرأ عليهم من حالات لا يستطيعون الصبر عليها، فلا يكون أمامهم إلا الهجرة.

فمن هؤلاء الذين كتبوا إلى الملوك يعتذرون عن مفارقة حواضرهم الوزير الأهيب أبو الفضل بن حسداي الإسلامي[2] حين انصرف عن دولة المستعين بن هود[3]. فقد وافاه بكتاب افتتحه بجملة عبارات ذات طابع تأملي فلسفي. قال: «الدهر ـ أيّد الله مولاي ـ منتقل متقلب، والدنيا دول وعقب، ومقام القطان في

(1) ذ: 1/2، ص 191.

(2) كاتب شاعر، تقلد الوزارة في دولة بني هود. وهو من أصل يهودي، ثم أسلم فحسن إسلامه. أخباره في ذ: 1/3، ص: 257.

(3) هو أحمد المستعين بن المؤتمن بن المقتدر، من ملوك بني هود في سرقسطة حكم من 478 إلى 503.

الأوطان كمقام الأرواح في الأبدان، تصحبها إلى آجال موفاة، عند آماد مستوفاة، فَمُدَدُ الأحوال مناسبة للأعمار»[1].

وهذه لهجة رجل حكيم تُساير ما عرف عنه من اشتغال «بأنواع التعاليم» على حد قول صاحب الذخيرة. وفي كلامه نبرة رجل واقعي يعرف أن لا شيء يدوم على حاله، وأن خير ما يفعله العاقل أمام صروف الزمان أن يصون كرامته، ويحفظ قدره باتخاذ المواقف الملائمة لذلك. وهو ما فعله ابن حسداي، وعبّر عنه بقوله: «وقد عمرت ذلك الأفق ما امْتَدّ المهل، فلما نَبَا أُجدَّ الظعن والتحول... ولكل مقام مقال، ولكل زمان رجال، وفي كل مضيق مجال، وقلما اطردت الحظوة في الدول، لمن اختص بالأسلاف الأول، ومن خدم الآباء لم يخدم الأولاد، فضلاً عمن خدم الأجداد»[2].

وإذا كان الكاتب قد أبدى هذه الواقعية في وزن الأحوال وتقديرها، فإنه لا ينسى مع ذلك أنه يخاطب ملكاً في دولة خدم أمراءها منذ ثلاثة أجيال، ولذلك يقدم له كل مراسم الطاعة والولاء، ويذكر له أنه سيحافظ على العهد كيفما كانت ظروف حياته الجديدة. ويختم كتابه بالاعتذار، وطلب الصفح، ولكن دون إراقة ماء الوجه، ولا تصنع الصَّغار والمذلة، لأنه رجل كريم النفس، يعتذر عن فعل لم يكن له الخيار في إتيانه. ولذلك جاءت رسالته خالية من التودد الكاذب والمدح المتملق. يقول: «فإن جاد مولاي بالصفح، وعاد بالخلق السمح، فهو الذي يضطره إليه عالي منصبه، وسامي رتبه، وإن صرم الحبل، وجذم الأصل، فهو حكم الزمان الفاسد، ولا نُعْمَى للشامت الحاسد، فليس بالباقي ولا الخالد...»[3].

هذان نموذجان من الرسائل الاعتذارية الموجهة إلى الملوك، يعبران عن

---

(1) ذ: 1/3، ص: 461.

(2) نفسه، ص: 461.

(3) نفسه، ص: 462.

واقع حال مَنْ كتبهما. فالْمُنشِئُ يعتذر إلى ملك عرفه وعاش عنده وخدمه، عن فعل صدر عنه. وقد يكون الاعتذار غير معبّر عن واقع من يكتب، إذا كان المنشيء يتحدث بلسان غيره وهذا ما تمثله رسالة أبي بكر بن سعيد البَطَلْيَوْسِي[1] الذي خاطب أميراً، لم يذكره على وجه التحديد، على لسان رجل «فَرَّ من موضع اعتقال».

في الرسالة شرح لظروف الفرار من السجن، وهي تتلخص كلها في الخوف والارتياع. وهو ما يعبر عنه الكاتب على النحو التالي: «الأمير ـ أيده الله ـ حُرِّكَ إلى ظلمي فسكن، وجاءه عني فاسق بنبإ فأخذ بأدب الله تعالى وتبيّن، وأنا رِعْتُ فارتعت، وقرأت قوله تعالى: ﴿ فَفَرَرْتُ منكم لما خفتكم... ﴾[2] وسواء كانت هذه الرسالة من الأدب الواقعي، أو كانت من الإنشاء التخيلي، فهي ضرب من إظهار البراعة بواسطة الكتابة عن موضوعات مختارة، فليس هناك في الحقيقة لاَ فَارٌّ من السجن يعتذر، ولا أمير يَعتذر إليه ـ وهو ما نرجحه ونميل إليه ـ فإنها تدل على أسلوب من أساليب مخاطبة الأمراء حين الاعتذار إليهم عن فعل لا يرضون عنه، ولا يحبون أن يصدر عن رعاياهم.

ويمكن أن نعدد من هذا الباب أيضاً الرسالة التي أنشأها أبو محمد بن عبد البرّ[3] وهي ذات مضمون واضح الصلة بالاعتذار وطلب الصفح، ولكنها مبهمة السياق، لا نعرف لا الطَرَف المعتذِر، ولا الطرف المعتَذَر إلَيْه، ولا الجُرْم المُرتَكَب الذي اقتضى مثل هذا التضرع «تلزمني ـ أيد الله مولاي ـ علائق، لو وقف منها على السر، لتجلّى له وجه العذر، من هزّ فضله في شأن «فلان» مملوكه... ليعطف عليه عطفة الماجد، ويحنو عليه حنوّ الوالد، على فراخ

(1) عبد العزيز بن سعيد البطليوسي: من الكُتاب البلغاء بالأندلس، وزر وكتب للمتوكل ملك بني الأفطس ببطليوس، ثم كتب لابن تاشفين بعد تغلب المرابطين على الأندلس مات بعد عام 520 هـ.

(2) ذ: 2/2، ص: 763.

(3) الوزير الكاتب أبو محمد عبد الله بن عبد البرّ، من وزراء المعتمد، توفي عام 474 هـ، وقد تقدم التعريف به.

كزغب القطا، وعيال ليس منهن إلا المفجعة الحرّى، دموعها تنهل كالسحاب، وضلوعها تلتهب بنار الاكتئاب...»[1].

والذي يلوح من عبارات هذا النص أنه في طلب العفو لسجين يوشك أن يُنَفَّذَ فيه حكم الإعدام إثر حركة تمرّد قادها أو شارك فيها. وهو نص يعتمد بصفة كلية على عواطف الشفقة الموجهة إلى حال أهل المحكوم عليه من زوج وولد. بل إن الكاتب يطلب العفو مراعاة لهؤلاء، إن لم يكن في المحكوم عليه ما يدعو إلى العفو عنه. وفي هذا المعنى يقول: «وأنا أمد إلى مولاي يد الضراعة، وأسأله إن لم يستوجب المذكور الرعاية لنفسه، فَلْيَرْعَه لأصله ومغرسه، وإن لم يرقَّ لذاته، فَلْيَرقَّ لبنيه وبناته، وأهلـه وعوراته...»[2] وتنتهي الرسالة بإيراد طائفة من شواهد العفو التاريخية التي تَميز فيها بعضٌ من أشهر ولاة المسلمين وخلفائهم بالجنوح إلى الصفح، وترجيح كفة العفو على كفة العقاب.

ربما وجدنا في هذه الرسالة طابع الشفاعة، وهو غرض سنلم بمضامينه في حينه، ونفرده بكلام خاص. والواقع أن موضوع الاعتذار هو المسيطر في هذه الرسالة حتى لو كان الكاتب لا يعتذر لنفسه، وإنما يعتذر لغيره.

لقد حاولنا أن نبين من خلال هذه الصفحات أن نثر التودّد والاستعطاف يمثل جانباً هاماً في الإنشاء ذي الطابع التوسلي، وأنه، سواء خوطب به الملوك الجالسون على العروش، أو خوطب به الأكابر والأعيان من خدام دولهم، والقائمين بِشُؤُون ممالكهم، فإنه لا يخرج في الحقيقة عن مضامين المدح والثناء والتقرب لغرض من الأغراض، حتى حين يكون ذلك من أجل كسب العواطف واستدرار الرحمة للصفح عمن يخالف قواعد السلوك إزاء الملوك، والعفو عن العصاة ومرتكبي الجرائم.

وربما بدا في بعض الأحيان كأننا لا نريد أن نطيل الوقوف عند ظاهرة

(1) ذ: 1/3، ص: 212.

(2) نفسه، ص: 213.

تزلف الكتاب، بل كأننا نتجنب الحديث عن مظاهر المتاجرة الرخيصة، وتسخير الأدب من أجل تحقيق المكاسب المادية، وجمع ما لا بدّ منه من الدراهم والدنانير. . .

والواقع أننا أشرنا، في الفقرات التي أفردناها لِمدح الملوك والوزراء وسائر الأعيان إلى هذه المسائل إشارات كافية ـ فيما نقدر ـ ولكننا فرقنا بين ظاهرتين متمايزتين: ظاهرة المدح الذي لا يخلو من خلفية مَادِّيَّة، وغرض من أغراض الكسب، مما تنتشر نماذجه في كل عهود الأدب العربي، في المشرق والمغرب، وبين ظاهرة التكسب والاستجداء بالأدب النثري التي أفردنا لها الأقسام التالية من هذا الفصل.

* * *

ب ـ في التكسب والاستجداء:

إذا كنّا من الناحية المبدئية لا نملك إلا أن ندين عملية السقوط الأخلاقي التي تدفع ببعض الأدباء إلى امتهان الفنّ، والتضحية بقيمه السامية في سبيل تحقيق المكاسب المادية، فإننا لا نستطيع ـ مع ذلك ـ أن نشتد، بقدر واحد، على هؤلاء الأدباء جميعاً ولا أن نحمِلهم نصيباً واحداً من المسؤولية، ما لم ننظر إلى أحوالهم، ونتبين ظروف معيشتهم التي لم تكن دائماً سهلة ولا ميسورة للجميع.

والحق أننا لا نبحث عن عذر يسوّغ جناية الذين أهدروا الحقيقة الفنية الخالدة، وأراقوا ماء الوجه تحت أقدام طوائف عدة من الأنذال والخونة والغاصبين.. وحولوا المثل الأدبية من طريق التبشير بالحق والخير إلى مناهج النفاق المبتذل، والتهريج الرخيص. . . وإنما نريد أن نصدر عن العدل، ونحن نثير هذه القضية، فلا ننظر من زاوية واحدة إلى الذين لم يروا في الأدب إلاّ أداة تتيح لهم جمع الحُطَام وتنمية الثروات، وتحقيق ما لهم من مآرب الجاه والسلطان. . . وأولائك الذين قست عليهم الحياة فلم يجدوا بدّاً من استصراخ كل ذي مال من الحكام والأعيان، ينفخون في بوق فضائله المزعومة للظفر بما يضمن لقمة العيش لهم ولأبنائهم الجائعين. . .

1 ـ ملامح من بؤس بعض الأدباء:

ليس قصدنا إلى استقصاء كل مظاهر البؤس التي سجلها أدب الكتاب[1] الأندلسيين. فقد يطول بنا المقام لو فعلنا ذلك، وإنما المراد هو الوقوف عند نماذج معبرة من النصوص التي حملت أصداء هذا البؤس.

في مقدمة الأدباء الذين عكست آثارهم الباقية الكثير من صور الشقاء والحرمان: الأديب أبو محمد عبد الغفور[2] الذي يبدو أن الأيام أذاقته كأس المذلة بعد العز والسؤدد... فها هو يعدد أنواع شقائه في أيام الأسبوع كلها، ويشير إلى شقاء أمه بعبارات مؤثرة. يقول: «فيوماً في سوق فليق، ويوماً في طحن دقيق، ويوماً أَقْتَاتُ فيه بسخت السويق، ويوماً أقطعه على الريق، ويوماً في شهيق، ويوماً بالجامدة، ويوماً بالسليق: سبعة ألقاب لسبعة تأكل شلو الأحقاب... فأنا آلم من السليم بوجعه، وأشغل بهذا الكد منه بأشجعه، حتى آوي إلى عجوز، لنُوَبِها المترادفة من يجوز...»[3].

ويفهم من تعابير هذه الرسالة، أن أم الكاتب قد طولبت، على هذا البؤس الذي هي فيه، بغرامة، لم تعف منها كما أعفيت سائر النساء، وبعض الرجال ولذلك يقول ابنها: «ولم يبقَ على هذا القياس بعد مغرم الثغور والدروب إلا أن تشمر عن ساق للحروب... فإن رأى أعزه الله أن يعفيها ويكفيها، فلها أمثال في ربات الحجال، وفي ذوي اليسار من الرجال. وقد تقدم أمر الأمير بإعفاء النساء... فما شأن هذه المرأة تُخَصّ بالغرامة، وتُسْتَثنى بهذه الحضرة من الكرامة...»[4].

---

(1) نقتصر هنا على الكتاب من الأدباء. وفي كتاب «تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين» حديث مفصل عن بؤس الشعراء.

(2) سبق التعريف به أكثر من مرة. وزر للمعتمد، ثم وزر للمرابطين. انظر ما تقدم.

(3) ذ: 1/2، ص: 334.

(4) نفسه، ص: 335.

ولا يكاد أبو محمد يفارق هذه النبرة الشجية من وصف أحواله البائسة، فنحن نراه في نص آخر يعتذر عن لقاء بعض الأكابر باستغراق مجمل وقته في تحصيل قوته وقوت أهله، وهو يعرض هذا الواقع الأليم، في نظره، على النحو التالي: «على أنّ لقاء سيدي ومشافهته، ومحادثته ومفاكهته، كان أحبّ إليّ وأمتع لسمعي... ولكنّي مشغول بيومي، مدفوع إلى تقويت قومي»[1]. وقد يبلغ أقصى حدّ الصراحة حين يعرض لما أصابه من عقدة الفقر، تلك التي تضيف عذاب الخجل إلى الشقاء بمعاناة الحرمان: «قد عُدْت أعْرَى من نواة، وكنت أكسى من قطاة، فإذا لقيت ذا هيئة خجلت خجل بخراء، اضطرت إلى سرار، وفَوْهاء هَمّت بافترار،ووزير بل أمير، دُفع بعد رُكوب الفاره إلى ركوب حمار»[2]. وفي هذه العبارات خير دليل على أن الكاتب قد أفضت به صروف الدهر إلى الحرج والضيق بعد اليسار واتساع الحال. ومن البديهي أن المصائب تكون أبلغ أثراً، وأشدّ وقعاً على الذين لم يألفوا من دهرهم إلا النعمة السابغة والرخاء العميم. ولعلّ في هذه الحقيقة ما يفسر إلحاح الأديب ابن عبد الغفور على فكرة شقائه تلك، وهي التي تبرزه لنا دائماً في صورة من لا يعرف راحة ولا سكوناً لأنه دائم البحث عما يقوت به عياله، فهو في إحدى الرسائل التي يشفع فيها لبعض الأدباء يقول، متحدِّثاً عن نفسه: «وبِودِّي لتناهي المحبة والولاء، لو أُضْحِي مكان كتابي فأسعد بالوفود عليه... ولكنه قد حيل بين عبده البائس وبين مراده، وشغل بقوت يومه لنفسه الشقية وأولاده، فتأخر عن حضرته السنية تأخر الكسير....»[3].

وإذا تركنا ابن عبد الغفور لأِديب آخر، ممن عُنُوا بذكر شقائهم، والحديث عن تعاستهم وجدنا، على سبيل المثال، أبا الربيع سليمان بن أحمد القضاعي[4] يكتب إلى أحد الرؤساء يطلب المعروف، ويعرض عليه حاله في

(1) ذ: 1/2، ص: 340.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص: 356.

(4) أبو الربيع بن أحمد القضاعي كاتب شاعر، ذكره ابن بسام في الذخيرة 1/3، ص: 499، =

هذا القالب القصصي المؤثر: «بعثت ابني وغلامي عشية العيد للسوق، فأخطأ أوجه النجاح، وعاد مثخناً بالجراح، فبت انقلب بين ألم العلة، ومضض الذلة، وبات من عندي طاوياً إلا من الكرب، وصادياً إلّا من الدمع... وسيدنا الرئيس - أدام الله تأمين سربه، وإعزاز حزبه - أجل من أن يضام جاره...»[1].

ما أعظم مصيبة تحل بهذه الأسرة الفقيرة عشية العيد، فتسلط عليهم حزناً تضاعفه فرحة الآخرين وما أقسى دهراً يشتد على أهل الكاتب ويجرعهم كؤوس المذلة والحرمان عندما تلوح في الآفاق أعلام المسرة والابتهاج بعيد المسلمين...

في هذا السياق، يعنّ لنا سؤال لا بدّ من طرحه، وهو إلى أيّ حدّ يمكن اعتبار الأدباء صادقين في وصفهم لمثل هذه الحالات من البؤس، وبعبارة أخرى ألا يمكن أن تكون هذه الرسائل ضرباً من الإنشاء الذي تعودوا على كتابته في هذا الغرض أو في ذاك، فهو لا يخلو، كله أو جله، من المبالغات، والتطرف، والكذب المقصود لاستدرار العطف والتأثير على مراسليهم من رجال الحكم، وأعيان الناس؟.

والواقع أن الجواب عن هذا التساؤل، لا يمكن أن نلتمسه بعيداً عن ظروف الكاتب في ذلك الوقت، وتقاليد الكتابة في هذا الموضوع بوجه عام.

فأما ظروف الكتّاب عموماً، فقد ألمعنا، قبل، إلى أنه قد تطرأ على بعضهم ظروف أيسر ما فيها أنها تنقلهم من وضع الممدوح إلى وضع المادح، ومن منزلة المطلوب والمرغوب في عطائه، إلى منزلة الطالب، الراغب في الحصول على بعض ما عند الآخرين. ذلك أن ظروف السياسة المتقلبة، كثيراً ما تفضي إلى إبعاد رجال كانوا مقربين من الحكم، وإدناء من كانوا بعيدين عنه، لا أمل لهم في الجلوس على كراسيه. وكثيراً ما كانت تتم هذه التحولات بتشريد

= ونقل عنه صاحب المغرب في حلى المغرب، ج 2، ص: 423.

(1) ذ: 1/3، ص: 507.

المغضوب عليهم، واستصفاء أموالهم، فكانوا يجدون أنفسهم، بين عشية وضحاها، على عتبات الفقر المُدْقِع، والعُدْم الكامل.

وأما عن تقاليد الكتابة، فمن المعلوم أن الأدباء، سواء كانوا شعراء أو كتاباً، لم يكونوا أبداً يستجيزون أن يصرحوا بفقرهم، ولا أن يستعطفوا ممدوحيهم بعرض المناظر التعيسة لأسرهم. ونحن إذا استثنينا حالات قليلة اضطر فيها الشعراء والكتاب إلى انتهاج هذه السبيل، على مضض، فإن العادي والمألوف لدى أدباء العربية أن يصوروا أنفسهم في مظهر من حاز الغنى، ونال الثروة بفضل جوائز الأمير، فإذا لم يكن ذلك قالوا إنهم باتصالهم بالممدوح يتمنون أن يحصلوا على الثراء، وأن يصيروا بفضل عطاياه من الأغنياء... وشتان بين من يذكر الطوى، والدموع، والمرض، والعلة. والذلة.. وبين من يتطلع إلى الثروة بواسطة كرم الممدوح[1]، ولذلك فنحن نميل إلى تصديق هؤلاء الكتاب الأندلسيين الذين وصفوا تعاستهم. وهم، مهما بالغوا في بعض ملامحها، لا بدّ أنها في الأصل أمر واقع، وأنّ بُـؤْسَ بعض الأدباء كان حقيقة لا سبيل إلى إنكارها.

ولعلّ جانباً آخر من أحوال الأدباء الكتاب، سيظهر لنا أيضاً، وإن بصفة غير مباشرة، من خلال استعراض نماذج من إنشائهم الاستجدائي الموجه إلى الحكام، أو إلى أكابر الرجال وأعيانهم في المجتمع.

2 ـ استجداء الحكام:

من أقدم أدباء الفترة المؤرخة، الذين ولجوا باب هذا الأسلوب من الاستجداء، وانتهجوا هذه السبيل في الاستعطاء، الأديب أبو عمر أحمد بن دراج القَسْطَلِّي[2] الذي له رقعة طريفة يمدح، ويعرض جانباً من أحواله المادية فيها.

---

(1) ولذلك فرقنا في هذا البحث بين المدح الذي صنفناه في أدب التودد والاستعطاف وبين التوسط إلى المال بوصف الفقر والتعاسة، وهو الذي سميناه استجداء.

(2) أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي، كاتب شاعر من كبار أدباء الأندلس، ولد سنة 347 في قَسطلَّة، غرب الأندلس، ووفد على المنصور بن أبي عامر في قرطبة ومدحه، وتأخرت به=

يقول: «يا سيدي، ومن أبقاه الله كوكب سعد، في سماء مجد، وطائر يمن. . . وكنت قد نشأت في معقل من العفا والوفر، محدقاً بسور من الأمن والستر، حتى أرسل إليّ سلطان الفقر، رسولاً من نوب الدهر، يريد استنزالي إليه، وخضوعي بين يديه، فأبيت من ذلك عليه، فغزاني بكتائب من النوائب، تسير تحت ألوية المصائب. . .[1] وتمضي الرقعة على هذا النحو من التشخيص والتمثيل فيذكر كيف تَلَقَّى تلك النوائب بالجلد والصبر، حتى بعث إليه الممدوح برسول: «يسمّى حسن الثناء، فضمن لي عنك فديتي، من يَدَيْ أَسَرَتِي. . .»[1].

وقد اندرجت في كتاب الذخيرة لأبي عمر بن دراج رقع أخرى تلتقي مع هذه، في هذا الطابع الاستجدائي الواضح الذي لا يعبأ فيه صاحبه بالكشف عما يلاقيه من أذى الدهر وتصرف نوائبه. فقد كتب إلى الخليفة سليمان بن الحكم[2]: يقول في حال أولاده: «وقد قلبت لهم ظهر الأمور، وميزت بين المعسور والميسور، فما وجدت أحسن بدءاً، ولا أحمد عوداً، مما أذن الله فيه. . وحيث نتقلب ففي كرمك، وأين نأمن ففي حرمك. . .»[3] وكان قد بدأ هذه الرقعة بأبيات من الشعر ضمنها بيت الحطيئة المشهور:

ماذا تقول لأفراخ بذي مَرَخٍ حُمرِ الحواصل لا ماءٌ ولا شَجَرُ

وفي هذا ما يدل دلالة واضحة على اشتراك الشاعرين في هذا المنهج التسولي. فلعل الحطيئة من أوائل من طرقه، على هذا النحو، من أدباء العربية.

ومن كتاب هذا العصر الذين استَعْطَوْا أكابر الدولة مصرِّحين بما يعانونه من عنت الأيام، الأديب أبو بكر عبد العزيز بن القبطرنة[4]، فقد كتب إلى الوزير أبي

= الأيام حتى أدرك الفتنة فمدح بعض زعماء الطوائف ولا سيما أمراء سرقسطة التجيبيين، وتوفي سنة 421 هـ.

(1) ذ: 1/1، ص: 62.

(2) سليمان بن الحكم: من خلفاء عهد الفتنة وهو الملقب بالمستعين، راجع ما كتبناه في الفصل الأول من هذا البحث.

(3) ذ: 1/1 ص 63.

(4) أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي، المعروف بابن القبطرنة، كتب للمتوكل أمير=

الحسين بن سراج[1] معبراً له عن عظيم شوقه إليه بطريقة أقل ما يقال فيها أنها تستلفت الأنظار، لما فيها من التطرف والمبالغة في المعنى والمبنى كَأَنْ يقول: «لولا أن عوائق الزمان ـ أدام الله عزك ـ تعوق. . . لطرت بجناح، وامتطيت أعناق الرياح. . . ولاتخذت المجرّة سبيلاً، وسهيلاً دليلاً، ولقدت البدر المنير. . . وإلا اتخذت السمكة سفينة، وأقمت لها النعائم ألواحاً، وعُطَارِداً ملاحاً، وَقَيَّرْتُ بالغيوم، وسمرت بالنجوم، وجدفت بالفرقدين، وحملت من أمالي فيها من كل زوجين اثنين. . .»[2] ولا نظن هذه العبارة الأخيرة في حاجة إلى طويل الشرح والتعليق، فإن هذا الأمل المذكور لا يمكن أن يدل على شيء آخر غير مطلوب الكاتب والعطية التي ينتظرها من ممدوحه.

والغريب أن ابن القبطرنة لا يتحرج حتى من استعمال المصطلحات الدينية المقدسة التي لم تجر عادة الناس باستعمالها في غير سياقها الديني المعلوم. فهو يقول في الرسالة السابقة نفسها: «. . . حتى أحط في واديك، وأعرض نسخة مذاهبي في ناديك، فأرتسم في الجملة، وأصلي إلى تلك القبلة، وأسعد بتلك الغرة، وأقضي من لقائه الحجّ والعمرة، وأطوف بذلك المقام، وأذكر الله عند المشعر الحرام. . .»[3].

أليس هذا الكلام غريباً؟ بلى، وإن الذي يزيده غرابة أنه موجه إلى واحد من أكابر فقهاء عصره، وابن فقيه جليل من علماء الدين في قرطبة. والحق أنه لا يمكن أن يكون وراء هذا المسلك إلا طمع كبير، أو فقر كبير، على أن الفقر، بالغاً ما بلغ، لا يمكن أن يقوم عذراً ليتمرغ صاحبه في مثل هذه الأوحال القذرة.

= بطليوس، ولابن تاشفين، وكانت وفاته بعد سنة 520. انظر ذ: 2/2، ص: 753، وهامش المحقق بها.

(1) الوزير الفقيه أبو الحسين بن سراج من أعيان قرطبة. أخباره في الذخيرة 2/1 ص: 821.

(2) ذ: 2/2، ص: 754.

(3) نفسه، ص: 755.

ثم نصل من الرسالة إلى بيت قصيدها، والغرض المنشود مما حشيت به من أنواع التوسل والتضرع، وهو الاستجداء الواضح. وفي ذلك يقول ابن القبطرنة: «ومؤديه حملته من عقوق زماني ما ليس بنُكْر، ومن عثرات أيامي ما لم يكن ببكر، وعودتني ـ دام عزك ـ الأخذ بيدي عند العثار، والنهوض بي على رغم أنف الليـل والنهـار... والله يبقيـك للمنن تتقلدهـا، والمكـارم تشيدها...»[1].

هذا نوع من الاستجداء، يُرْكِبُ صاحبَه هذا الأسلوب المُغْرِق في التطرف لبلوغ أهدافه وتحقيق مآربه، ونحن لم نجد الكاتب يشرح الظروف التي رمت به إلى هذا الشاطىء التعيس، ليلتمس فيه لقمة العيش بهذا الأسلوب المهين. على أن الإنصاف يقتضي أن هذا لم يكن دأب جميع الكتاب، فلهم في عرض شقائهم، وإثارة عواطف الإشفاق عليهم مذاهب أخرى، قد تنأى بأصحابها عن هذه المزالق، وربما كان من خير من يمثل هذه الفئة الكاتب ابن شمّاخ[2]، في رسالته التي خاطب بها قاضي الجماعة الفقيه أبا عبد الله بن حمدين[3].

إذا كانت رسالـة ابن الشماخ واضحـة المقصد، صـريحة المضمـون الاستجدائي، فإنها مع ذلك تتميز بنبرات القصد والاعتدال التي تحفظ لصاحبها وقاراً يقربه من النفس ويدفع إلى حبه وليس إلى مجرد الرثاء له والشفقة عليه. وقد يكون مرجع ذلك إلى أن الكاتب أحسن شرح الظروف التي قست عليه في قالب تقديم نفسه لمراسله بغية تعريفه بها. فبعد المدخل المدحي الذي يعظم فيه القاضي، ويشيد بعلمه ومجد أسرته القديم يقول له: «ما أرى الفقيه يعلم من أمري أكثر من معرفته بِضِئْضِئِي ونجري[4]، سألمع لك في شأني بلمعة واختصر،

---

(1) ذ: 2/2، ص: 753.

(2) ابن شماخ: أبو مروان عبد الملك بن محمد بن شماخ كاتب شاعر ذكره ابن بسام في ذ: 2/1، ص: 827.

(3) أبو عبد الله بن أبي القاسم بن حمدين كلاهما ولي قضاء الجماعة بقرطبة، انظر أخبار أبي عبد الله في الذخيرة: 2/1، ص: 839، وهامش المحقق فيها.

(4) الضّئضئ والنجر: معناهما الأصل والحسب، ومن الثانية كلمة «النِّجار».

فقد يروي، وإن قل، الزلال الخصر»[1].

ثم يبدأ التعريف بهذه العبارات البسيطة المؤثرة: «كان مدة في يدي زمام بلدي، ثم نُقلت إلى حِمص، وكانت لَخْم متى شاءت أمراً لم تعص، فلما رمت بصنهاجة اللجج، وثار لهم ذلك الرهج، في يوم أشرعت فيه الأسنة، وأجهضت لشدة خطبه الأجنة، فَأنْتُهِبَ مالي كما انتُهِب مالُ المصر، وكَسَدَ في حِمص سوق النظم والنثر، زهدنا فيها فمقتناها، وسكتنا عن الكتابة فما أبناها، ولجأنا إلى غافق، بعلق من الأدب غير نافق، بحيث يتساوى الجهل والعلم، ويصفع البليغَ الفدم...»[2].

إذا كنا ننتظر من ابن الشماخ حشداً من التفاصيل تتعلق بأصله ونسبه، ومراحل حياته، وما طرأ عليها من حوادث، فإننا لن نجد في تعريفه السابق ما يشفي الغليل. والواقع أننا لسنا في حاجة إلى هاتيك التفاصيل، ولو أنه تصدى لكتابتها، لجانب الصواب، وخرج عن القصد، ذلك أنه قد استطاع أن ينفذ إلى أعماق نفوسنا بواسطة ذلك التعريف الموجز الذي كشف فيه النقاب عن ظروف لها أهميتها البالغة في اسْتِثَارة المشاعر، ولكنه لم يبلغ أن يعريها من جميع أثوابها فيكشف الجانب المصون من شخصية كل إنسان، ذلك الذي يكون في غموضه وإبهامه سرّ هيبته واحترامه.

ويختتم الكاتب رسالته بكلمات صوبها تصويباً إلى قلب الفقيه المخاطب، وهي التي شحنها بكل ما استطاع من المعاني المثيرة لمشاعر العطف والإحسان، حيث يقول «فإن تبك عين الفقيه الشفيق، ضياع صديق، فلتبك مني لطائر كريم، رُدّ إلى وَكْرٍ لئيم، وَلْتَرْثِ لدرّة سنيَّة، رُدَّت إلى صَدَفة دنية. وحسبنا الله، أنا المَصْدُور أكثرت نَفْثاً، وشكوت بَثّاً...»[3].

لله درّ ابن الشماخ فإنه عرف كيف يستجدي، فاهتدى إلى سبيل يصل منها

---

(1) ذ: 2/1 ص: 828.

(2) ذ: 2/1، ص: 829.

(3) نفسه.

إلى نفس الأهداف التي يتوخاها كل المستجدين، المتسولين بالأدب، دون أن يحتاج إلى ركوب الصعب من أساليب التذلل، وإهانة نفسه، واحتقارها. وحسبه أنه لم يبك وإنما جعل عين الفقيه مهيأة لذرف الدموع على صديق تنكرت له الأيام وقلبت له ظهر المجن. بل حسبه أنه في معرض الاستغاثة والاسترفاد لم ينس إطراء نفسه، والثناء عليها، في قوله المتقدم: «فلتبك مني لطائر كريم، رُدَّ إلى وكر لئيم، ولترث لدرة سنية، ردّت إلى صدفة دنيّة. . .»[1].

لا ندري ماذا كان حظ ابن الشماخ من جود القاضي ابن حمدين، ولكن الذي لا مجال للشك فيه أنه من الناحية المعنوية قد كسب مودته، وحبه، واحترامه الكبير، والرسالة الطويلة التي ردّ بها على كتابه ينطق كل سطر فيها بهذه المعاني[2]، ويحق لنا أن نتساءل، بهذه المناسبة، عن مدى استجابة الحكام وأعيان المجتمع لنداءات الاستغاثة والاستنجاد الموجهة إليهم؟.

من الثابت الأكيد أن أكثر المسترَفَدين من رجال الحكم وأكابر المجتمع الأثرياء كانوا يمنحون المساعدة المرجوة منهم في حدود تختلف باختلاف طبائعهم وظروفهم. ولو أن مثل هذه الاستجابة كانت نادرة، أو قليلة العائدات لما ظل الأدباء، جيلاً بعد جيل ينتهجون سبيلها، ويطرقون بابها. وربما كان الخير، كل الخير، للأدب بوجه عام، لو أن الأدباء أُغلِقت في وجوههم هذه الأبواب، فيئسوا منها، وأقبل كل واحد منهم على عمل شريف يرتزق منه. . . ولكن ذلك لم يحدث، وإنما الذي حدث بالفعل هو أن الأدباء لم يكونوا يجدون في كل مرّة مبتغاهم عند ممدوحيهم، فربما أعرضوا عنهم، وربما منعوهم فلم يعطوهم شيئاً فتضطرب لذلك نفوسهم وتختلف تصرّفاتهم.

فقد يسارع الأديب، حين يتأخر عنه جواب صاحبه إلى مراجعته بخطاب ثانٍ كما فعل أبو محمد عبد الغفور[3] الذي له في «صناعة» التسول بالأدب باع

---

(1) ذ: 2/1، ص: 829.

(2) الرسالة في ذ: 2/1 من ص: 830 إلى ص: 839.

(3) أبو محمد عبد الغفور بن عبد الغفور سبق التعريف به.

وذراع. قال: «وكنت اعتقد ـ أعزه الله ـ أنه بجوابه لا يبخل عليّ، وقد بسطت لنيلي به الأملَ يديّ... وحتى الآن لم يَرْتَدّ طرفي الشقيق إليّ... فما ظنه بصفر اليدين من الأمل، ناظر إلى أحد الشقين كالمختبل...»[1].

ويفهم من رسائل ابن عبد الغفور هذا أنه كثيراً ما يتأخر عنه جواب مراسليه، فنحن نجده مرة أخرى يضطر إلى كتابة رسالة تذكير فهو يقول في إحدى رسائله إلى بعض القضاة من ممدوحيه: «ولما طال عليّ أمد ذلك الوعد المنتظر، رأيت أن أذكر...»[2] وربما بلغت الحال بالكاتب بحيث لا يكون التنبيه أو التذكير كافياً، فيتطور الموقف إلى إلحاح في الطلب لا يخلو من ضرب من ضروب التهديد، كأن يقول الكاتب السابق نفسه إلى بعض مراسليه: «سألت الفقيه أعزه الله حاجة منذ عامين، وأخرى منذ شهرين، ولم تكونا بكبيرتين، وفي كليهما نفض من ودي اليدين... وسأسأله ثالثة... فإن قضاها شكرته... وإن أباها فَخَيْلُ عتابي إليه سارية طارقة»[3].

هذه لهجة واضحة، صريحة القصد بالتهديد، بل إن الرسالة تتضمن عينات من الهجاء الذي يمكن أن يسلطه على القاضي المُتَلَكِّىءِ إذا لم يقضِ هذه الحاجة الثالثة، وتتمثل تلك العينات في قوله: «تالله ليدفعن من بني الأيام، إلى لئام غير كرام، أغر من السراب، وأغدر من الذئاب...»[4].

وربما عجز التهديد عن الوصول إلى شيء مما عند الناس، وربما لم يغن التلميح إلى إمكانية العقاب بالذم والشتم، ولم يبقَ إلا إشهار سيف الهجاء، وإعلان الحرب على الأثرياء، فيكون من ذلك مثل هذا الكلام: «هل ظفرت بمطلوب يداك، كلا ولكنك رأيت سراباً، فحسبته شراباً، وغرتك دَمَاثَة تحتها غَثَاثَة، وسكون لا يصلح إلى جانبه ركون وبحكم الرغبة والحرص، كانت

(1) ذ: 1/2، ص: 330.

(2) ذ: 1/2، ص: 366.

(3) نفسه، ص: 361.

(4) نفسه.

فراستك في ذلك اللص... ودمع فاجر لا تروى منه المحاجر... فمن العناء معاناته، ومن الدَّناءة قربه ومداناته، فاستشعر اليأس منه، واصرف عنان التثريب والعذل عنه، فإنما هو كذئب في ثلة، في أرض مذلة، في ليلة بعيدة مسافة الصباح... بل هو أعق من ضبّ خَرِب، في جُحْر خَرِب...»[1].

ها هو أبو محمد عبد الغفور قد أمكننا من كل المواقف التي نتصورها لدى الأدباء، بإزاء ما قد يصابون به من منع مُخَاطَبيهم وتجافي ممدوحيهم. قد يعيدون طرق الباب على سبيل التذكير والتنبيه، وقد لا يفيد ذلك فيلجؤون إلى العتاب المشوب بالتهديد، فإذا صَمَّمَ أولائك المخاطَبُون على السكوت والمنع أعنق الأديب إليهم أفراس التقريع والذم في قالب الهجاء المقذع الذي استعرضنا نموذجاً منه.

ولو دققنا النظر في الفقرة السابقة لتبين لنا من وراء الشتيمة والسباب شقاء ما بعده شقاء، إنها المرارة العظمى التي يختنق بها أديب خابت آماله العريضة، وقد استبان بعد فوات الأوان أنه وضعها في غير محلها، فلم تصدق له فراسة، ولم تصلح له أمنية، ولم يتحقق له رجاء... وهكذا مدح، وتضرع، ومدّ يد التسول، وألحّ في الطلب والاستجداء، ثم لم يكن من كل ذلك إلا الخيبة وشبح البؤس الباقي... أفلا ينفجر الكاتب نقمة وسخطاً على نفسه وعلى هذا المجتمع الذي يمثله رجل أنانيّ ثريّ، منّاع للمعروف، هو أقرب إلى الذئب المراوغ منه إلى الرجل الفاضل العطوف.

* * *

لقد أتيح لنا، في الصفحات السابقة، أن نستعرض عدداً من النصوص النثرية، الصادرة عن أدباء الأندلس، والتي هي في حقيقتها من أكثر ما كتبوا صلة بنفوسهم، واتصالاً بأحوالهم، وتعبيراً عن ذواتهم. فلسنا هنا أمام أغراض ذات طابع «موضوعي» أو مضامين «برانية» يتعامل الأديب معها من الخارج، وإنما

---

(1) ذ: 1/2، ص: 336.

نحن في صميم عالمه الداخلي، نتتبع حركات نفسه حين تَشقَى ببؤسها، وحين تُنافق، وتتذلل، وتَتَضَرَّع، وتُجَاهد لإرضاء غرور الآخرين، في سبيل الحصول على لقمة العيش وما يلتحق بها مما يُقِيمُ به الإنسان أَوَدَ الحيـاة. ونساير تلك النفس الجريحة وهي تتعلق بالأمل، فتارة تظفر بما يزيد في رغبتها، ويفتح آفاق رجائها، وأبواب شهيتها، وأحياناً تصدم بمواقف الشح، والأنانيـة، والمنع، والسأم من كثرة الطلب، فتغضب وتثور، وتنتقم لما أصابها من أذى الإهانة وأذى الحرمان، بالشتم والسب والهجاء المقذع. وكل تلك ظروف الأدباء المساكين الذين يشقون بحمل تراث أجمع الناس على أنه كنز ثمين، ولكنهم ضائعون حائرون في كيفية التصرف فيه: لا هو يحقق لهم المنى، ويوصلهم إلى المراد، كما وصل أقران لهم، ولا هم يقوون على التخلص منه فلا يهتمون به، ولا يعوّلون عليه. ومن هنا شقاؤهم الكبير، ذلك الذي بلاه ابن بسام، صاحب الذخيرة، وجماعة من رفاقه الأدباء المغتربين فقال في وصف حاله وحالهم: «ويا رحمتا لبحور أدب، وصدور رتب، كان نظمني وإياهم ودّ قديم... قد طال مَا عَاطَيْتُهُم أكؤس الخمول، على البكاء والعويل، في أيام أوحش من توديع الشباب، وليالٍ أنكد من مناقشة الحساب...»[1].

بيد أننا نبعد عن الصواب بكل تأكيد، ونجانب الحقيقة إذا نحن اعتقدنا أن الصورة العامة لمعاملة الأدباء الفقراء، أو الذين تنكرت لهم الظروف، تنفرد بها مواقف الصدّ، والمنع، والمجافاة، واللامبالاة.

والواقع أنه كما وُجد المدَّاحون المِلْحَاحون الذين ربما بالغوا في الطلب حتى أقلقوا مخاطبيهم، فإنه وجد المهذبون الذين عرفوا كيف يسلكون إلى النفس البشرية التي فطرت على حبّ المال، الطريق الكفيلة بهزها وتحريك أوتار الإنسانية الحساسة فيها. ولعلّ من أبرز مظاهر التضامن في هذا العصر، ومشاركة المصابين مصابهم، أننا نجد الناس يسارعون إلى العناية بطوائف شتى من هؤلاء الضعفاء، فيتوسطون لهم لدى القادرين على إنقاذهم أو التخفيف من عنائهم،

(1) مقدمة كتاب الذخيرة، 1/1، ص: 21.

وذلك بتوجيه كتب العناية بهم، وهو ما سميناه نثر العناية والاستشفاع الذي نتصدى الآن للبحث في أهم أغراضه ومضامينه.

* * *

جـ ـ في العناية والاستشفاع:

من الظواهر التي تستوقف الدارس للنثر الأدبي في القرن الخامس كثرة الرسائل التي جاءت مضامينها تدور حول معاني التوسط لفئات مختلفة من الناس، ليتمكنوا من الاتصال بحكام البلاد، وأعيان المجتمع وأثريائه، بُغية الحصول لديهم عمّا هم في حاجة إليه من العون والمساعدة. وقد يسمى هذا الإنشاء «عناية» أو «وسيلة» أو «شفاعة».

ولو بحثنا في دوافعه لوجدناها، بوجه عام، تكمن في ظروف البلاد السياسية، الداخلية منها والخارجية، وما كان يترتب عليها من انقلابات خطيرة العواقب، عميقة الأثر في حياة الناس، إذ كانت تتحول بهم فجأة من يسر إلى عسر، ومن رخاء إلى شقاء، ومن استقرار إلى تنقل واضطراب. وهكذا قد تتتابع الحوادث فتصفر يد البعض من كل ما يملكون ثم يضربون في أنحاء أخرى من البلاد يفرّون إليها بأرواحهم وأهليهم، فلا يكون لهم من حيلة في إصلاح بعض أحوالهم إلا بالتقرب ممن يملكون وسائل التفريج عنهم من الحكام والأعيان.

وَلأَمْرٍ مَا لم يكن هؤلاء المحتاجون قادرين على الاتصال المباشر بمن يتوسّمون فيهم القدرة على إزالة الغمة، وتفريج الأزمة، بل كانوا مضطرين إلى طلب وساطة جماعة من ذوي السمعة الطيبة، والذكر الحسن، يفتحون لهم الطريق إلى محط الأمل، ومناخ الرجاء.. وإذا كنا نفهم هذا التصرف من الذين لا حظّ لهم من قدرة على المراسلة والتفنّن في أساليب الكتابة، فإنه يكون أمراً عجيباً للغاية حين يصدر عن مشاهير الأدباء، وفطاحل الكُتّاب كما سنرى. والذي يزيد الأمر غرابة أن بعض الذين كتبوا يتوسطون لغيرهم لم تسبق لهم لا معرفةُ مَنْ يتوسطون له، ولا معرفةُ من يتوسطون لديه، مما يدل على أننا ها هنا أمام ضرب من التضامن الاجتماعي الذي أوجدته الظروف العامة في البلاد، واقتضته

ضروراتِ التعاضد بين أبناء الملة الواحدة حين هددتها مِحنٌ لا أحد يعرف من يكون هَدَفَها القادم في مستقبل قريب. . .

ولعلنا نستبين الكثير من أغراض هذا الطراز الأدبي إذا درسنا طوائف المُشَفِّعِين ثم طوائف المَشْفُوع لهم.

1 ـ طوائف المشفّعين:

من المعلوم أننا نقصد بالمشفِّعين، أولئك الذين تُرجى مساعدتهم للضعفاء والمحتاجين. وقد رأينا أن نقسمهم إلى فئتين، كما كنّا نفعل في الأغراض الأخرى، وهم طائفة الملوك ومن في صَفِّهم ثم طائفة الأعيان من الكبراء في الدولة ووجهاء المجتمع.

فممّا يلتحق بالرسائل الموجهة إلى الملوك في هذا الشأن، الكتاب الذي أرسله الأديب الشهير ابن زيدون[1] إلى المظفر بن الأفطس[2] في الشفاعة لأحد الأدباء. وهذه الرسالة يمكن أن تعد نموذجاً في بابها، لأنها قديمة العهد نسبياً بالنظر إلى غيرها، ولأن كاتبها ابن زيدون.

وهي تبدأ بما تبدأ به كل رسالة موجهة إلى ملك من المدح والثناء. ثم ينتقل الكاتب إلى ذكر إعجابه بهذا الملك، ووصف أصداء مآثره في نفسه حتى تحركت فيه الرغبة الشديدة إلى الوصول إليه، والاتصال به. وبعد ذلك يمهد لغرضه ـ على سبيل حسن الانتقال ـ بأن يجعل الأديب الذي يستشفع له يحرضه على الاستعاضة بالكتابة عن السفر ما دام البعد مانعاً له عن تحقيق هذه الرغبة. ثم يأخذ في طلب العناية به على هذا النحو: «ورأيت من شكر يد العلياء فيما حثني إليه. . . أن استفتح باب المكاتبة بالشفاعة، وانهج طريق المخاطبة في العناية به. . .»[3].

(1) أبو الوليد بن زيدون. سبق التعريف به. توفي عام 463 هـ.

(2) المظفر سيف الدولة أبو بكر بن الأفطس من ملوك بطليوس.

(3) ذ: 1/1، ص: 398.

وتبدأ الشفاعة بعد ذلك بذكر ما للكاتب من قرابة أدبية، وصلة أخوية بهذا المشفوع له، حتى إنّه ليشعر بالتقصير في حقه وهو يكتفي بالكتابة في التوسط له، وكان من حقه أن يتحمل مشقة السفر من أجله... ومثل هذه المعاني كفيلة ببيان حرص الكاتب على قضاء حاجة صاحبه، مما يحث الملك على الاعتناء به، ويحرضه على أن يبذل له أقصى ما يمكن من العون المطلوب.

ويلي ذلك القسمُ الأهم في هذه الرسالة كلها، وهو الذي يصف فيه أحوال المشفوع له، ويذكر استحقاقه للمساعدة المرجوّة، يقول في ذلك: «وهو فتى نام جدّه واستيقظ حدّه، فتنكر الزمان له، واعترت الأيام به، بين ذئاب سعاية عوت عليه، وعقارب وشاية دبت إليه، وأصلي بنار حرب لم يجنها... وآل به الأمر إلى فراق أحبته، والبعد عن مسقط رأسه... وأشهد أن ذلك لم يزده للحاجب إلا ولاء... وأنه لا يزال يعيد شكره ويبديه... الخ»[1].

كانت هذه شفاعة أديب كبير لدى أمير عظيم. ونحن إن كنا لا نعرف شيئاً عن المشفوع له فإن في الرسالة ما يفيد بأنه إحدى ضحايا المؤامرات التي كان يدبرها المقربون من البلاطات الملكية عن غيرة أو حسد... ونحن نكتفي بهذا النموذج من الشفاعة لدى الملوك، فإن المنهج واحد، والمخطط أيضاً لا يكاد يختلف، وإنما يكون التباين في الحجم وطريقة العرض والتخلص[2].

ولو انتقلنا إلى الرسائل الموجهة إلى الأعيان والكبراء، لوجدنا من أمثلتها الرقعة التي وجهها أبو القاسم بن الجد[3] إلى الفقيه القاضي بقرطبة. وحال الكاتب هنا، كحال ابن زيدون من قبل، لأنه هو أيضاً لم يسبق له أن خاطب هذا القاضي الذي يراسله لأول مرة. وهو يعتذر عن ذلك بأن بينهما من وشائج العلم

---

(1) ذ: 1/1، ص: 398.

(2) انظر رسالة ابن اللمائي إلى القاضي ابن عباد في الشفاعة لأديب ذ: 2/1، ص: 619.

(3) أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد شاعر كاتب فقيه من رجال دولة المعتمد، أخباره في ذ: 2/1، ص: 285.

وصلات الأدب ما يجعلهما صديقين حميمين بدون أن يحتاجا إلى التعارف والاتصال وفي هذا ما يدل مرّة أخرى على مدى تضامن الكُتاب مع هؤلاء المحتاجين تضامناً يدفعهم إلى تخطي عوائق كثيرة منها حرج الاتصال بمن لم تسبق لهم به معرفة ولا صلة.

وبعد أن يطنب في الحديث عن قيمة صحبة العلم والأدب، وقدرتها على التأليف بين المتباعدين، يأخذ في الثناء على القاضي والتوسع في ذكر فضائله العلمية والأخلاقية ليصل إلى موضوع الشفاعة فيقول: «ولما علم «فلان» أن القيم عندك بحسب الإنسان، وعلى قدر تصرف اليد واللسان، وأن أحظى ما قُرِع به بابك، ورُفِعَ له حجابك، رقعة تشير بها إلى علم وأدب... استنهضني شفيعاً. فأجبته سريعاً...»[1]

والغريب أن الأديب ابن الجد يستشفع لرجل يبدو أنه ليس جديداً أمره على الفقيه المشفّع، فكما ذهب صاحب ابن زيدون السابق ضحية لمؤامرات القصر، فإن هذا أيضاً حدث له ما فرض عليه العطلة، والخروج من العمل فقد: «كان له بتلك الحضرة النيرة بِعَدْلِـكَ فيما سلف ظهور، وتصرف مشهور، ثم ألقت عليه العطلة ثقل جرانها، وجرت به مِلْء عنانها، حتى انتسفت ما كان بيده، وحلت جميع عُقَدِه!»[2]. وما الذي يمكن أن يطلب للعاطل عن العمل أحسن من العودة إلى الشغل، وذلك ما يطلبه ابن الجد لصاحبه حيث يقول: «وهو بكرم الصنيعة خليق، ولحمل المنن مُطِيق، وغرضه أن يُصَرَّفَ في بعض وجوه العمل، ويختبر حاله في الشدّ والزّمل، وأنت بمجدك تفرض له من شرف عنايتك نصيباً، وتوليه من رعايتك وجهاً خصيباً... الخ»[3] والحق أن طلب العمل من الأمور النادرة في رسائل العناية والاستشفاع، لأن أكثر ما تدور عليه هو طلب المساعدة المادية الآجلة، أو الإدناء والتقريب اللذان يدران على

---

(1) ذ: 1/2، ص: 308.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

المشفوع له جراية منتظمة مثلما كان ذوو السلطان يفعلونه للأدباء المرتبطين بهم.

ومن أمثلة التشفع لدى أعيان الدولة أيضاً ما كتبه أبو الربيع سليمان بن أحمد القَضَاعي[1] إلى الوزير ابن محامس[2] الذي يذكر له في أولها ما تواضع رجال السياسة عليه، منذ أقدم الحقب من عناية بالأدباء وتقريب لهم لأن «من شنأ الأدباء (. . .) يناقض أرباب الرياسة، ويعارض أقطاب الوزارة»[3]. ثم يأخذ في إطراء الأديب المشفوع له بذكر بضاعته من الأدب دون أن يطيل في ذلك إذ أنه يتحدث بعد ذلك مباشرة عن فقره وحاجته إلى المال، ولكن بـأسلوب مستطرف حقاً، لأنه جاء في قالب قصصي، معتمداً على الرمز، محسناً استخدام بعض آيات القرآن الكريم. . . . مما قد نتناوله في الباب الأخير من بحثنا هذا.

كثيرة هي كتب العناية والاستشفاع الموجهة إلى من يحتلون المنازل المرموقة في درجات الحكم ولذلك فلسنا نبتغي الإلمام بها جميعاً، لأننا نخرج بذلك عن القصد. وإنما نريد أن نمثل لها بنماذج شتّى تبين لنا مختلف الجوانب التي يمكن أن تتطرق إليها مضامينها الفرعية. ومن هذه النصوص التي يجدر بنا أن نشير إليها في سياق هذا التمثيل الرسالة التي وجهها أبو الفضل ابن حسداي الإسلامي[4] إلى وزير المعتمد بن عباد الشهير: أبي بكر بن عمار[5]. وخلافاً لطرائق بعض الأدباء في كتابة العنايات، فإن أبا الفضل بن حسداي لا يذكر شيئاً عن سعادته بالفرصة التي تتاح له لمراسلة هذا الوزير الخطير، وكأنما من عادته

---

(1) سبق التعريف به. أخباره في ذ: 1/3، ص: 499.

(2) وزير كاتب من رجال دولة التجيبيين في سرقسطة.

(3) ذ: 1/3، ص: 505.

(4) كاتب شاعر سبق التعريف به. وهو من أصل يهودي أسلم، وتقلد الوزارة في دولة بني هود. انظر أخباره في ذ: 1/3، ص: 257.

(5) أبو بكر بن عمار أديب لامع من أدباء الأندلس، صديق المعتمد بن عباد ووزيره وقتيله. انظر أخباره المفصلة في ذ: 1/2، 363 - 433.

أن يفعل ذلك، أو أن له به من الاتصال الوطيد ما يرفع عنه كلفة هذه المجاملة، وإنما يأخذ رأساً في المدح والثناء، وهو سبيل لا بد من أن يسلكه كل طالب عون. غير أن الذي تتعين ملاحظته في هذا المدح أنه لا ينطوي على شيء من الإغراق والمبالغة وإنما هو ثناء جميل فيه عدل واقتصاد يدلان دلالة قوية على ما في شخصية الكاتب من وقار واعتدال. فمن أمثلة مدحه قوله: «المحاسن التي تؤثر عنك بالسرو والسناء، والمحامد التي تتلاقى عليك بها ألسنة الثناء، تميل إليك أحناء القلوب، وتقف عليك نخائل الصدور، وقد أصبحت بفضل الله حِلْيَة الزمان، ومَفْخَر الأوان، ومَسْمَى عيون الأفاضل والأعيان بما نَزَعْتَ به من كرم الخلائق... وما زلت ـ أدام الله عزّك ـ تجلو على المتوسلين إليك صفحات البشر، وتنزلهم في ذراك عرصات الإجمال والبرّ، فتجني ثمرات المجد...»[1].

هذه الطريقة في القصد والاعتدال حين يمدح بها من عرف عنه أنه يرى نفسه يتجاوز منزلة الوزراء إلى منزلة الملوك، هي نفسها التي نجدها عند ابن حسداي حينما يأخذ في تقديم المشفوع له. فهو لا بدّ من إطرائه، وبيان فضائله، ولكن هذا الإطراء لا يفارق المقبول من الصفات فهو يقول منوهاً بعلم الأديب المشفوع له، وبراعته، متحدثاً عن: «اعتلائه في مراقي العلم وتسنمه، وشفوفه بالبراعة في الإبداع وتقدمه»[2]، بل إن أبا الفضل يقول لمراسله بكل بساطة: لا يمكن أن تخفى عنك قيمة هذا الأديب «فإنك أعلى ملحظاً، وأزكى تيقظاً من أن يغيب عليك مكان مثله، ولا يتقرر لديك سُمُوُّ محله...»[3].

هذه لهجة رجل صادق، لا يسعى إلى إطراء رجل كما لو كان تاجراً يريد أن تنفق بضاعته، وإنما هي وقفة إنسان مخلص إلى جانب صديق عرضت له محنة أو عنّ له التوجه إلى جهة لقضاء مأرب فيها. ولعل خير ما يلخص هذا

---

(1) ذ: 1/3، ص: 467.

(2) نفسه، ص: 468.

(3) نفسه.

الموقف، ويدل عليه أحسن دلالة قولُ الكاتب في آخر رسالته: «وحسبك به جملة تغني عن التفصيل، مع عالي نظرك الجليل، إني ما عاشرت أكبر منه في البرّ والصلة، ولا أقوم بحقيقة الود والخلة، ولا ناسمت أطيب منه نفساً، ولا أمتع أنساً. . .»[1].

لقد كان من حسن الحظ أن يذكر لنا صاحب المصدر الذي ننقل عنه اسم الأديب المعني بهذه الشفاعة، ذلك أننا حين نعرف أنه الأديب الكبير ابن الحداد[2] نزداد تقديراً لأبي الفضل بن حسداي على صدقه في وصف صديقه، وإخلاصه في الوقوف إلى جانبه.

ويحسن بنا أن نتعرف إلى فئات المشفوع لهم لأننا نستطيع أن نكون لأنفسنا ـ بواسطة ذلك ـ فكرة واضحة المعالم، عن نوعية الرجال الذين يتدخل مثلُ هؤلاء الأعيان لقضاء حوائجهم لدى الأمراء والوزراء والكبراء، وربما تسنى لنا، من خلال ذلك أيضاً، أن نقف على بعض الظروف التي دفعت بهم إلى تلك المضائق الحرجة.

2 ـ طوائف المشفوع لهم:

يمكن أن نحصر هذه الطوائف في ثلاث فئات رئيسية هي: رجال الدولة ثم أعيان المجتمع، ثم الأدباء. ولا بدّ أن نخصّ كل فئة بحديث منفرد.

*** ـ رجال الدولة**: لعلنا لسنا في حاجة إلى التذكير، من جديد، بأن اللوحة الخلفية لهذا النوع من الإنشاء، الذي شاع وازدهر في القرن الخامس بالذات، إنما هي الأحداث التي شهدتها الجزيرة في هذا العصر، وما كان ينجر عنها من تغير مستمر في الخارطة السياسية للبلاد. وأهم تلك الحوادث ما كان منها يؤدي إلى سقوط الدولة والقضاء على الإمارات، واحتلال المدن

---

(1) ذ: 1/3، ص: 468.

(2) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحدّاد كاتب شاعر، سبق التعريف به توفي نحو سنة 480 هـ.

والحصون: فإذا بعظماء الأمس، وأكابرِه المَهِيبين، ووزرائه وقادته المبجَّلين، بين قتيل وسجين، وإذا الذين تمكنوا من الفرار أو النجاة، بحيلة من الحيل، في أشد الحاجة إلى نفس رحيمة تكرم ضيافتهم، وتبعد عنهم أشباح الجوع والبؤس والهوان.

في هذا الإطار يمكننا أن ندرج الرسالة التي كتبها الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر[1] في الشفاعة لأحد أمراء دولة بني هود في سرقسطة وهو من أبناء أحمد بن هود المستعين بالله[2] يقول فيها: «أكرم يد... يطوقها المرأ جيد مجده، ويزين بها ديوان حمده، ما سدّ خلة من حسيب أقعدته يد الدهر المريب»[3] وهي مقدمة تُنْبِىءُ بالحق عن موضوع الرسالة، وتدل ـ مع إيجازها ـ على ضرب من استنهاض الهمم لمساعدة هؤلاء المشرّدين.

ونحن في هذه الرسالة لا نجد المدح الذي اعتدنا أن نجده في أكثر هذا النوع من الرسائل، تمهيداً لعرض حال المشفوع له: وإنما ينقلنا الكاتب بصفة مباشرة إلى الموضوع. ولا يبدو من السياق أن ذلك من آثار الحذف الذي يكون أجراه مؤلف المصدر، وإنما هو أصل الإنشاء قد جاء على هذا النحو. وابن طاهر يذكر أحوال الأمير لمراسله فيقول: «وموصله ـ وصل الله حرمتك بالسلامة من نكد الأيام ـ: ابن المستعين بالله... توسل بي إلى مكارمك في ترميق حالته، والرم لحوالته، لما جفت غضارته، «وعُوِّضَ نَكَدَ» العَيش من رَغَد النعمة، وحُوِّلَ إلى الضيق بعد السَّعَة، وإلى التجول من الدعة»[4].

وجلي أن ابن طاهر لا يتوسط إلى مراسله إلا بشقاء المشفوع له،

---

(1) أبو عبد الرحمن بن طاهر أمير كورة مرسية، اشتهر بالكتابة. مات ببلنسية سنة 507 أو 508 هـ، وانظر أخباره في ذ: 1/3، ص: 24 وما بعدها، وهامش المحقق فيها.

(2) المستعين بالله من أشهر أمراء بني هود في سرقسطة. انظر ما كتبناه عن هذه الدولة في الفصل الأول من هذا البحث.

(3) ذ: 1/3، ص: 62.

(4) نفسه.

وتعاسته، فهو لا يذكِّر بسابقة سياسية، ولا يدعو إلى تضامن بين أفراد الطبقة الحاكمة. إنما هو رجل مُشفِق على عزيزٍ أذلته الأيام، ورفيع قوم أهانته حوادث الدهر. وتُنهَى هذه الرقعة بعبارة قصيرة، فيها إماءة ذكية إلى هذا المصير المظلم الذي لا يستطيع أحد من أمراء الأندلس أن يضمن لنفسه النجاة منه، وذلك في دعاء الكاتب لمخاطبه: «والله لا يعدمك ارتهـان المنن، وارتباط الأحـرار، ويحرسك من حوادث الليل والنهار»[1].

وكما تتغير أحوال الأمراء تبعاً لصروف الدهر وحوادث الأيام، فإن أحوال الوزراء تتغير هي أيضاً، بل لعلهم كانوا أكثر عرضة لذلك لأنهم هدف بارز لسهام الحسد والغيرة وتجبر السلطان. . .

وبين أيدينا من نصوص هذا الغرض رقعة كتبها الأديب أبو بكر ابن المرخي[2] يشفع فيها لوزير إما لأنه فقد منصبه بمجيء هذا الرجل الذي تُطلَب الشفاعة لديه، فهو يُرجَى للعودة به إلى سالف المكانة، وإما أنه يطمح إلى مزيد من الارتقاء في دولة هذا المشفَّع الذي لا نعرف عنه ـ للأسف ـ شيئاً على الإطلاق.

يبدأ الحديث عن المشفوع له، بعد مقدمة موجزة على هذا النحـو: «والوزير» أبو فلان «ـ أبقاه الله ـ ممن يفتن في شكرك فيسحر المسامع، ويوقع ذكرك في القلوب أكرم المواقع. . . وكان له من رأيك الجميل في سالف المدة، أشرف ذخيرة وعدّة. فلما ملّكك الفضل أزمّة النقض والإمرار، ورتبك في ديوان الإيراد والإصدار، علم أنه لا يسقط نجمه مع علو نجمك، ولا تلدغه عقارب الدهر وهو يرقيها باسمك. . .»[3].

---

(1) ذ: 1/3، ص: 63.

(2) الأديب أبو بكر محمد بن عبد العزيز المعروف بابن المرخي كاتب شاعر من رجال السياسة، خدم عدة دول، آخرها دولة المرابطين تأخرت وفاته إلى قريب من سنة 540. انظر أخباره في ذ: 2/2، ص: 533، وهامش المحقق فيها.

(3) ذ: 2/2، ص: 542.

وأغلب الظن لدينا أن هذه الشفاعة ليست لتخفيف الشقاء عن وجيه تنكرت له الأيام بقدر ما هي تهدف إلى طلب المزيد من الشأن والرفعة لرجل يطمح إليهما. وأقرب إلى نوع الشفاعات التي تعنى بالمصابين والممتحنين من رجال الدولة، الرقعة التي كتبها الأديب أبو محمد بن عبد البرّ[1] عناية بأحد القواد[2].

والحق أنه من غير المألوف أن نجد شفاعة لقادة الحرب وأمراء الجيوش، لأن مصير هؤلاء، إنما يتقرر عادة في ميادين القتال وساحات الوغى، لا بالتوسط إلى الحكام، والتوسل إليهم بكتب العنايات والشفاعات...

ومهما يكن من أمر فإن ابن عبد البرّ قد كتب إلى مراسله يقول: «وقد سمت بي همتي، التي هو بفضله أسماها، وأطال مداها، أن أقرع باب كرمه شافعاً، وأستمطر سحاب نعمه راغباً، في إقالة عثرة عبد من عبيد الدولة... قد اتخذني سبباً إلى علائه، وسُلَّما إلى سمائه، إذ علم أني لدولته ـ خلدها الله ـ ولي، وَبِدَرِّ نعمته غَذِي...»[3].

ونحن قد أثبتنا هذه الرسالة وإن كان يراودنا في أمرها شك مزدوج من حيث المخاطَب بها، وطبيعة مضمونها. فأما من حيث المخاطب فلعلها موجهة إلى ملك من ملوك الطوائف، لا إلى مجرد رجل من رجال الدولة، لأن عبارات التقرّب والتودّد التي يستعملها الكاتب أقرب إلى أن تكون مما يخاطب به الملوك في العادة. وأما من حيث المضمون فهي ضرب من ضروب طلب الصفح للمذنبين مما كنا وقفنا عنده في مكان آخر من هذا الفصل. على أن ذلك لا يغير كثيراً من طبيعة هذه الرقعة الاستشفاعية، ذلك أن الذي يكتب له شافعاً لإمداده بوسائل الرزق، يمكن أيضاً أن يكتب شافعاً له في سبيل تأمينه واستصدار الصفح

---

(1) الوزير الكاتب أبو محمد بن عبد البر، تقدم التعريف به. أخباره وأدبه في ذ: 1/3، ص: 125 - 226.

(2) هو الذي سماه صاحب الذخيرة: «ابن حمّاد» وقال عنه «من أفراد القواد». وانظر ذ: 1/3، ص: 208.

(3) نفسه.

له من أميره الساخط عليه. وعلى ذلك كان بوسعنا أن ندرس هذه الرقعة هنا على أنها كتاب شفاعة، كما كان بمقدورنا النظر إليها هناك، من حيث هي رسالة في طلب العفو والأمان.

* - **أعيان المجتمع**: إذا انتقلنا إلى الشفاعات التي كتبت في سبيل التوسل لأعيان المجتمع من ذوي العلم والجاه والثراء فيه، فإننا نجد مجموعة من الرقاع التي تدل على أن الحوادث كانت تصيب هذه الفئة أيضاً، فَتُغَيِّر حالها من يسر إلى عسر، وتجبرها على التماس العون عن طريق التوسط بكتب الشفاعات.

وأعيان المجتمع الذين أحوجهم الزمان إلى الاستشفاع كثرة كثيرة لا يمكن أن نطيل في إحصاء أعدادهم، واستقصاء أحوالهم، وإنما نذكر لهم مثالاً واحداً يصح أن ينطبق عليهم جميعاً، وهو الذي ذكره الكاتب ابن الدباغ[1] في رقعة لا نعرف إلى من هي موجهة بالضبط.

هذه الرقعة في غاية الإيجاز والاختصار، وهي بعباراتها القصيرة قد استطاعت أن تطرح معضلة هذا الوجيه بكل بساطة ووضوح. بل إن الأديب الكاتب يذكر لمراسله أنه لا يريد أن يتطرق إلى ما تحدثه تقلبات الأيام، وما تتركه من وخيم العواقب في حياة الأفاضل، لأن مثل هذه الأحوال معروفة لديه. وكأنما أضحت مثل هذه الأمور من كثرة الحدوث، بحيث لم يعد يحتاج الكاتب إلى التمهيد بها في ما يكتب من الرسائل، والإلحاح عليها لاستدرار عطف مراسله.

ويجعل ابن الدباغ كل ذلك في هذه الكلمات القليلة: «معرفتك بتقلب الأيام بذوي الفضل، وحكمها (فيهم) بغير السَّوِيَّة والعدل، تُغني عن عرض ذلك

(1) أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ كاتب شاعر، كان في خدمة المقتدر بن هود صاحب سرقسطة ثم حدثت وحشة بينهما ففر منه إلى المعتمد بن عباد... أخباره في الذخيرة 1/3 ابتداء من ص: 251.

عليك، وتقريره لديك»[1]. ثم يدخل بعد ذلك رأساً في الحديث عن المشفوع له، وهو الذي يبدو، من عبارات ابن الدباغ، أنه رجل ذو شهرة واسعة، يعرف المخاطب ما كان ينعم به من عريض الجاه وواسع الثراء. وفي ذلك يقول الكاتب: «وفلان ممن عَرفتَ حالَه في الثروة والمنعة، ورُتْبَته في الجاه والرفعة، لكن أساءت إليه بعد الإحسان[2]، وامتحنته بأنواع من الامتحان، حتى ذهبت بجميع وفره، واضطرته إلى بني دهره»[3].

فهذه هي مأساة هذا الرجل وقد أحسن الكاتب عرضها، وكما كان حريصاً على بسطها في منتهى الإيجاز واليسر، فإن الهدف المرجو، أو الغرض المنشود من هذه الشفاعة قد جاء أيضاً دقيقاً، واضحاً، صريحاً مع أنه في قالب الإطلاق، والإجمال، والإشارة البعيدة، إذ يقول: «وقَصَدَكَ مُسْتَجِيراً من عثرته، ومثلك بادر إلى مشاركته، وحضّ على إسلاف البرّ إليه، ورغب في وضع الصنائع لديه»[4]، فما هي الاستجارة من العثرة؟ وكيف يريدها أن تكون؟ وَمَع ذلك فهل للواقع من عليائه هدف أشدّ وضوحاً وأكثر دقة من النهوض؟...

وهناك سؤال قد يتبادر إلى الذهن، وهو من هم هؤلاء الوجهاء والأعيان الذين تحوجهم الأيام إلى استصراخ ذوي النفوس الكريمة، والاستجارة بالأفاضل الماجدين؟ والذي يبدو من أغلبية النصوص التي بين أيدينا أنهم رجال من الثغور، وهي بلاد المسلمين الواقعة على الحدود مع دول أعدائهم من النصارى الإسبان، وهي حدود غير قارّة لأنها كانت تتقهقر كلما تقدمت جيوش الإسبان وسقطت في أيديهم العواصم والمدن والقلاع. ولعله يحسن بنا أن نشير إلى بعض هذه الحالات إشارة خاطفة للتمثيل بها لكل الحالات الأخرى المضاهية لها.

---

(1) ذ: 1/3، ص: 309.

(2) فاعل «أساءت» هو «الأيّام» الواردة في بداية الرقعة.

(3) نفسه.

(4) نفسه.

فهذا الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر يكتب إلى مراسل لا نعرف من هو، في شأن رجل «من أهل شلب ممن كانت له حال بذلك الغرب، إلا أن عادة الأيام في مثله مبلوّة، ومنازلهم عندها مجفوّة، ونَبَذَتْه عن الوطن والصميم، كما ينبذ الكراع من الأديم: . . . وأنت مَحَط أمله، ويد عمله. . .»[1].

إن الأديب ها هنا ينبئنا ببلدة المشفوع له وهي شلب، إحدى مدن الغرب الأندلسي، ولكنه لا يخبرنا، بدقة، عما إذا كان سبب خروجه منها يعود إلى اجتياح النصارى لها. أما ابن الدباغ[2] فإنه يمنحنا تفصيلات هامة عن أحوال المشفوع له، أولها أنه من أعيان تلك الجهة ووجهائها المعروفين، ثم ينبئنا بأنه شيخ هرم. ومن المعلوم أن المحن في مثل ذلك العمر تكون أشد وأقسى على أصحابها، وأكثر إثارة للرفق والشفقة لدى الناس. وكأن هذه المحن لم تستوف ما تريده من تعذيبه حتى ابتلته بالسجن عند الكفار، واستصفاء المال في فديته، وفوق كل ذلك فإن أولئك الغالبين قد احتفظوا بأولاده رهينةً عندهم ليضمنوا دفع ما ضربوه عليه من المغارم، مما لم تستطع كل ثروته الماضية أن تفي به. . ! أليست هذه مأساة إنسانية حقيقية يدمى لها الفؤاد. ولنستمع إلى أبي المطرف بن الدباغ وهو يقصها بهذه العبارات الموجزة: «وموصل كتابي رجل من الثغر ووجوه الأطراف، امتحنته الأيام في النعم، أَوَانَ الشَّيخ والهرم، وابتلته بذل الأسر، وطول الشقاء في دار الكفر، وبحسب حاله في الثروة، ومكانه من النجدة، اشتُطَّ عليه، وأُخذ منه في الفِداء جميعُ ما في يديه، وارتهن أولاده في بقايا بقيت عليه»[3].

إننا نرى أن الكاتب لا يحاول على الإطلاق إضفاء زينة خاصة على معانيه للتأثير فينا أو في مراسله، واستفزاز أحاسيس الرحمة والإشفاق فيه، ذلك أن هذه الحالة نموذج من نماذج المأساة العربية الإسلامية في الأندلس. فالسرد

---

(1) ذ: 1/3، ص: 62.

(2) أبو المطرف عبد الرحمن بن الدباغ، سبق التعريف به منذ قليل.

(3) ذ: 1/3، ص: 311.

العادي للوقائع والعرض المجرد للحوادث يكفيان وحدهما لبلوغ أقصى غايات التأثير.

هذه نماذج ثلاثة أوردناها للتمثيل بها على مضامين النثر الأندلسي حين يدور على الشفاعة للأعيان المنغَّصين في أوطانهم إثر الحوادث والنكبات، وهي حالات لم تكن نادرة الوقوع ولا قليلة الضحايا، وقد استدعت العدد الجم من كتب الشفاعة، بيد أن الذي بدا لنا من ترتيب هذه النصوص أن الأدباء قد نالوا حظ الأسد من هذه الشفاعات.

* ـ **رجال الأدب**: لو أردنا البحث عن تفسير لوفرة النصوص الاستشفاعية التي دارت على التوسل للأدباء من شعراء وكتاب، لوجدناه ـ ربما ـ في عاملين اثنين: أولهما: أنهم يعرفون قيمة الأدب، ومدى تأثيره في المشفعين أكثر من غيرهم، وثانيهما: ـ وهو الأهم ـ أنهم يملكون الأداة الكفيلة باستنهاض أولائك المشفَّعين لمساعدتهم، وإغرائهم بِمَدِّ يَدِ المساعدة إليهم، وتخفيف بعض ما يعانونه من المصائب، ونعني بها المدح والثناء بالمنظوم والمنثور. ولعلّنا لاَ نَشُطُّ عن الحقيقة إذا أضفنا إليهما عاملاً ثالثاً، لا يستهان به، وهو استخدام التضامن الذي لا بد أن تستدعيه أحوالهم من «زملائهم» الأدباء الذين ينتدبونهم للشفاعة لهم، فيميلون إلى الاستجابة لهم، حتى ولو لم تسبق بينهما علاقة ولا صلة.

وإذا كانت الشفاعات للأدباء على هذه الدرجة من الكثرة، فإننا نكتفي باستعراض بعض نماذجها المعبرة.

من ذلك ما كتبه أبو القاسم بن الجد[1] في الشفاعة لأحد الشعراء. وهو يصفه بأنه ممن اضطره كلب الحرمان ونوب الزمان، إلى اعتماد الكرام واسترفاد الأعيان»[2]، وهو مدخل مألوف كما رأينا. وإنما الذي يمكن أن يستلفت الأنظار في وضع هذا الشاعر أنه ذو سابقة في طرق باب هذا الوجيه الذي تطلب منه

---

(1) أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد. سبق التعريف به. أخباره في ذ: 1/2، ص: 285.

(2) ذ: 1/2، ص: 309.

إعانته. فقد كان حل ساحته في زمن مضى وجنى من ثمار حديقته الغناء، وهو رَأى ـ كما قال الكاتب ـ أن «العود أحمد». والغريب أنه يصوّره في شكل الرجل القنوع الذي يرضى بالقليل، ولا يلح في الطلب ولا يثقل بإدامة القرع للأبواب الموصدة. وفي ذلك يقول الكاتب: «وليس ممن يسأل شططاً، ويتعسف غلطاً، وإنه ليتبلغ بالنسيم ويستنجز الوعد بالتسليم، وحسبه ما يرقع جانب خلته، وينقع بعض غُلّته، وأنت بفضلك تُشْفِق لِمَا مُنِيَ به من الاغتراب والاضطراب...»[1].

ما الذي دفع الشفيع إلى ذكر هذه الصفات، التي يعدها من الفضائل، في المشفوع له؟ لعل السادة المشفَّعين صاروا يقلقون من إلحاح الأدباء المحرومين في الطلب، ويتضايقون من كثرة ترددهم عليهم استنجازاً للوعد، أو طلباً للمزيد، فلذلك أراد ابن الجد من مراسله أن يطمئن، من هذه الناحية، فلن يكون المشفوع له مصدراً للإحراج والإزعاج...

هذه شفاعة لشاعر لا نعرف بالضبط ظروف كربته، وإنَّما قد نستشف بعض جوانبها من الإشارة الواردة في الفقرة السابقة إذ ذكر فيها «الاغتراب والاضطراب...» وعندنا من إنشاء أبي القاسم بن الجد نفسه رقعة أخرى في الشفاعة لشاعر أيضاً، أورد لنا بعض المعلومات الكافية عن طبيعة تلك الظروف. وأول ما يدعو إلى التوقف في هذه الرسالة أن المشفَّع نفسه يبدو وكأنه قد طرأ على أحواله ما غيرها وتصرف بها من حسن إلى سيء، ولذلك فالكاتب يومىء إلى ذلك قائلاً: «لئن كانت الأيام ـ أعزك الله ـ قد قلصت أذيال أحوالك، وسلطت هجيرها على برد ظلالك، وكدرت بأقذاء صروفها صفو زلالك»[2] إلا أنه يحمله مع ذلك على المعروف ويحفزه إلى ذلك بمثل هذه الأمثال وما تتضمنه من مدح: «فقد يجري الجواد وهو منكوب، يتجَمَّل الحرّ وبه ندوب...»[3].

هذا جانب من ظروف المنتدب للمعروف والإحسان. أما ظروف الأديب

---

(1) ذ: 1/2، ص: 309.

(2) ذ: 1/2، ص: 302.

(3) نفسه.

المشفوع له فهي نتيجة مباشرة للآفة المستشرية في جسم الأندلس العليل: زحف الاحتلال النصراني. وهو زحف تتوالى أخباره ويعرف الناس كلهم أي نوع من الفظائع كان يُرتكب فيه. ولذلك نرى الكاتب يشير إلى علم مراسله بذلك. يقول له: «وفي علمك ما دهي به وطنه من خطوب الزمن، وضروب المحن، وتغلب[1] عباد الوثن، ودَفَعَتْه الضرورة إلى استرفاد الأحرار والتكسب بالأشعار...»[2].

ظروف النكبة واضحة أشد الوضوح، وحال الشاعر هي نفسها حال جموع الأدباء الذين لا حيلة لهم في اكتساب القُوت لهم ولأهلهم إلا باسترفاد الأحرار. هذا صحيح، ولكن ألم يكونوا قبل الكارثة أيضاً يتكسبون بالأشعار؟ ذلك سؤال لا يبدو الجواب عنه بديهياً كما يظهر من كلام ابن الجد!...

وهناك حالة أخرى، لا تخلو من طرافة وجدنا فيها نص شفاعة، وهو الذي صدر عن الكاتب أبي محمد بن عبد البرّ[3]. ووجه ذلك أنه كتب يرجو المساعدة لأديب طاعن في السن بلغ الثمانين من عمره. وهي رسالة مؤثرة بالفعل لأنها تتصل بهذه الطائفة من الناس: المسنين الذين كثيراً ما تعزلهم ظروف الحياة، وينشغل الناس عنهم بصخب الدنيا فلا يلتفتون إلى مصابهم وما يقاسونه في شتاء العمر البارد من حرمان وعذاب. ولقد أحسن الكاتب في التعبير عن حال هذا الرجل الذي كان ينطق الصم بياناً، فإذا به كتلة مهملة في بعض زوايا النسيان. وقد قال في ذلك: «قد تَحَيَّفَتِ الأيام قواه، وتخونت الحادثات عراه، وقربت الثمانون خطاه، فاختلج بنانه حتى كأنه لم يتعلق من الكتابة بأطناب الإطناب، ولا تصرف من البلاغة في سهوب الإسهاب، ولا عُدّ في الدواوين من صدور الكتاب»[4].

---

(1) في النص «وتقلب» بالقاف، ويبدو أنه خطأ مطبعي.

(2) ذ: 1/2، ص: 302.

(3) سبق التعريف به في هذا الفصل.

(4) ذ: 1/3، ص: 211.

تعددت الأسباب والبؤس واحد. فهذا الرجل الأديب الكاتب لا يبدو أنه يشكو نزوحاً عن الوطن، أو اغتراباً عن الأهل، أو احْتِلَالاً لبلاده، ومع ذلك فإن حاله تبعث على التألم والحزن الشديد. ولسنا ندري أكان عليه ـ كباقي الأدباء ـ أن ينتدب ذوي الجاه من الكتاب للشفاعة له لدى من يقوون على تقديم العون والمساعدة، أم أن ابن عبد البرّ هو الذي التفت من تلقاء نفسه إلى معاناة هذا الزميل المسن، فسعى لتخفيف الحمل عنه، أم أن طرفاً ثالثاً، من المبادرين بالإحسان، هو الذي نبهه إلى الشفاعة له وحثه عليها؟...

ومع أن في ما أوردناه من هذه الرقع ما يكفي لبيان مختلف الحالات التي كانت تتم فيها الشفاعة للأدباء، فإننا لا نريد أن ننهي الكلام في هذا الجانب دون الإشارة إلى شفاعة أخرى من نوع خاص. لقد كنا نتصور مختلف أنواع الاضطرار التي تجبر أهل الأدب على استرفاد ذوي الجاه واليسار من رجال الدولة وكبراء المجتمع، ولكننا لم نكن نظن أنه يمكن أن يُعَدَّ من بَيْنِهَا الغَرَضُ الذي يشير إليه الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر[1] في رقعته الآتية.

فلقد كتب إلى أحد الأصدقاء يوصيه بأحد أصفيائه من الأدباء، وهو الذي سمّاه «الأستاذ أبو القاسم عبد الدائم»[2] ولم يكن هذا الأديب في حاجة إلى مساعدة أو إسعاف بالمال، لأن الأمير ابن طاهر هو مستضيفه، وهو يقول عنه: «وقد كانت استقرت به الدار عندي، وأضاء به أفقي وزندي»[3]. مما لا يترك أدنى مجال للشك في أنه كان مَكْفِي الحاجة، مُعَزَّز الجانب، لا تدفعه إلى الضرب في الأرض الحاجة المادية أو إرادة الكسب. فما الذي تطلّب شفاعة الشفيع حينئذٍ؟ إنه سبب صحي بحت يتمثل في السعي إلى ظروف استشفائية أحسن للتداوي من علة ألمت به لا يذكرها لنا الكاتب. وقد جاء ذكر هذا السبب

(1) أمير مرسية، وسبق التعريف به.

(2) يرجح محقق الكتاب أن يكون من الطارئين على الأندلس، وفي رسالة ابن طاهر في ذ: 1/3، ص: 59، ما قد يؤيد ذلك.

(3) ذ: 1/3، ص: 60.

في رقعة الأمير على النحو التالي: «حتى أوجدته النفس أدواء، وآثر بمكانك لها شفاءً، حيث المحل فسيح، والهواء صحيح، والطبيب موات، غير آبٍ ولا عاتٍ. . .»[1].

وقد يتسرب إلى النفس شك في أن لا يكون هذا الكلام على الحقيقة، فيحمل على المجاز، وتلتمس لـه التأويـلات والتفاسيـر التي تخرجـه ذلك المخرج. والواقع أن خلاصة تلك الرقعة لا تترك أي مجال للشك، حيث أن الكاتب يقول: «وقد دعوت الله أن يبرئه من وصبه، ويرعاه في تقلبه، وأنت بمجدك تؤمن على الدعاء، وتبتدر هذا العلق بالاحتواء، وتلزمه من مهرة الأطباء، كل محمود النقيبة، مأمون الضريبة. . . .»[2].

فلم يبقَ إلا أن نعترف بأن الشفاعة للأصدقاء، ولو كانوا من الأدباء، قد تنقلب إلى نوع من طلب العناية المعنوية بهم، واستضافتهم، مما ينأى بها بصفة كلية عن الطابع المادي للاستشفاع للذي يسعى بالدرجة الأولى إلى تحصيل المعونة المالية أو الوظيفة الإدارية للمشفوع له.

هذه طوائف من الراغبين في المعونة، والساعين إليها قد استعرضناها بعد أن ألممنا قبل ذلك بطوائف من المنتدبين لهذا العون. ولعلنا استطعنا أن نكوّن لأنفسنا فكرة لا تخلو من دقة ووضوح عن هذه العلاقة الثلاثية ذات الأبعاد الإنسانية والسياسية المختلفة بين مستغيث، ووسيط، ومستغاث به. بيد أن في الصورة عنصراً مفقوداً قد لا تكتمل ملامحها إلا به وهو: كيف كان المستغاث بهم يستقبلون هذه الشفاعات وماذا كان ردّ فعلهم إزاءها؟.

وإذا كنا لا نملك من النصوص ما يتيح لنا أن نستقرىء جميع الحالات، فإنه يمكننا أن نوضح، بما لدينا منها، موقفين على الأقل:

أما الأول فهو موقف الإهمال، واللاّمبالاة، وعدم العناية، ولسنا نعرف إن

---

(1) ذ: 1/3، ص: 60.

(2) نفسه.

كان هذا الموقف شائعاً لدى المسترفدين؟ ولكن لدينا منه حالة واضحة وهي التي اضطر فيها الأديب ابن الحداد[1] إلى قرع باب مراسله من جديد، ليستسفر عما حال دونه ودون تحقيق المرغوب فيه، بل ليحثه مرّة أخرى على قضاء حاجة من أرسله إليه، وذلك في كلام لا يخلو من لهجة عتاب، ونبرة غضب. يقول: «قد كنت خاطبتك في أمر فلان... وشكوت إليك عُجَري وبُجَري... فما أصرت بنهرك زَبَداً ولا حَبَباً... ولا سلكت لشعبك صُعُداً ولا صَبَباً... فما الذي عاق بدارك إلى رغباتي، وسكن مثارك في طلباتي، فَعَوْدَاً إلى مُعْتَرَفَاتِك، وجرياً على قديم عاداتك... الخ»[2].

أما الموقف الثاني فيشير صراحة إلى الامتناع، بل إلى إعلان الرفض والمغالاة في ذلك. ومن العجيب أن يكون صاحب هذا الموقف هو الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر الذي طالما وجدناه شفيعاً لطوائف شتى من المحتاجين والمحرومين. قد تكون له أسبابه. وهو على كل حال يبوح لنا بالظاهر منها، وهي التي يجملها في قوله: «ثم رأيت ما نشرته من الرغبة في جبر فلان، قبحه الله من إنسان، وعاء فسوق، له في البغي أكثف سوق»[3] وهي تُهَم عامة لا تدل على شيء محدد، ولكنها مع ذلك تصلح دليلاً على أن المشفعين كانوا أحياناً يرفضون الشفاعة لسوابق المشفوع له عندهم، لما اشتهر به من نقائص غابت عن الشفيع، ولأسباب أخرى لا يمكن حصرها..

وقد تبلغ العداوة بين المستغيث والمستغاث به حداً يجعل الأول لا يرى في الثاني إلا كتلة من العيوب. فابن طاهر يتحدث عن المشفوع له بهذه اللهجة القاسية، بل يحذر الكاتب منه، ويدعوه إلى معاداته ومحاربته. «فليكن عندك نسمة حرب، وقرارة ريب، ليس كما نَحَلْتَه من الخلال... ووصفته بالحج وإنما

---

(1) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد. سبق التعريف به، انظر ذ: 2/1، ص: 691.

(2) ذ: 2/1، ص: 703.

(3) ذ: 1/3، ص: 58.

حجت العير، وبالفقه وإنما هو منه الخلي الفقير، وبالقراءة وما يحفظ التنزيل، ولا يميز المحرف من الحروف ولا المستطيل»[1].

هذا الموقف الصارم يقفه الأمير ابن طاهر من المشفوع لـه، لا من الشفيع، ويعني ذلك أن الأمير لم يضق بالشفاعة نفسها، ولم يعترض عليها من حيث هي، وإنما رفض أن يستجيب بها لرغبة فرد معيّن من الناس، له فيه أسوأ الآراء، دون أن نعرف اليوم دوافع هذا الغضب عليه والنفور منه، وقد تضمنت رقعة الأمير هذا التفريق الدقيق بين الرفض العام، والرفض الخاص بهذه الحالة المعروضة، وذلك حين قال لمراسله: «وكل شفاعتكم عندي مقبول، فالقلب على مَوَدَّتِكم مجبول، لكنها معوذة من أن يدنّس بذلك الساقط طاهرها»[2].

أَمَّا الموقف الثالث الذي لم تشر إليه النصوص، ولم ترد في عرض حالاته، فهو موقف القبول، والاستجابة، وتحقيق الحاجة. وهو أشمل، وأوسع، وأكثر عدّاً من أن تخلده النصوص. بل ما لنا لا نقول إنه هو الحالة العادية، والتصرف المألوف، وإلا فلم استمر الناس في التخاطب من أجل قضاء حاجة هؤلاء المحرومين والمنكوبين؟ وإذا كانت المصادر قد خلدت هذه النماذج القليلة بل النادرة من الرفض وعدم الإسراع إلى الإجابة، فلأنها حالات شاذة تثير التساؤل، وتسترعي الانتباه، وتستحق التقييد.

والواقع أن النثر التوسلي هو نافذة الأدب على قلب الإنسان، وأحاسيسه الدفينة، وواقعه الذي قد لا يرتاح دائماً إلى التصريح به. أما القسم المتصل بالشفاعة منه، فلئن كان يمثل مشاهد دامية من الجسم الأندلسي الجريح، فإنه يرمز إلى مقدار عمق المشاعر الإنسانية في الناس، وقدرة الأدب على التأليف بينهم، والمشاركة في التخفيف على المصابين منهم، حين تتلاشى أو تضعف الروابط الأخرى.

* * *

(1) ذ: 1/3، ص: 58.

(2) نفسه.

وهكذا نصل إلى خاتمة حديثنا عن النثر التوسلي. وقد وجدناه إنتاجاً أدبياً شديد الصلة بأصحابه، وثيق العلاقة بالبيئة الأندلسية وظروفها التاريخية. فلقد حمل عن أهله مهمة التودد إلى الحكام، واستعطافهم لنيل رضاهم من أجل الفوز لديهم بمنافع مادية أو معنوية. فأتاح ذلك للنثر أن ينافس، منافسة قوية، الفن الشعري في غرض المدح الذي هو من ألصق الأغراض به، وأقربها إليه، منذ العصر الجاهلي. وإذا لم يخرج الشعر خاسراً من هذه المنافسة، فظل ذا وجود كثيف في كل مناسبات إظهار أبهة الملك، والتغني بمجد الحكام، وإطراء فضائلهم، فإنه يكفي النثر علوّ مكانة، أن صار الشعراء المبدعون. أمثال ابن زيدون وغيره، لا يجدون في المدح الشعري ما يستوفي كل حاجاتهم، فيقبلون على تدبيج الرسائل الكثيرة في التقرب من بلاطات الملوك، والتودّد إلى مختلف طوائف الحاكمين والأثرياء بالرقاع النثرية.

وكما عبر الشعر، منذ أقدم الأزمنة، عن بؤس البائسين، وحرمان المحرومين، فقد عبر النثر أيضاً عن واقع هذه الفئات المستضعفة في المجتمع. واتخذه الكتاب وسيلة للتكسب والارتزاق، تماماً كما صنع الشعراء بالشعر. فلقد استجدى الكتاب ملوك زمنهم، ورجال دولتهم. وذوي اليسار من أعيان الناس، بإنشائهم، واستعانوا بهم على شقاء دهرهم، وبلوا أخلاقهم بهذه الوسيلة، فكان منهم الأجواد الكرماء، وكان منهم أهل الشح الذين لا يرون في مالهم أي حق للسائل والمحروم.

أما أدب العنايات والشفاعات، فهو من الظواهر الفنية المستلفتة للانتباه، لأنها ردّ فعل أدبي متميز، اقتضته ظروف الأندلس التاريخية وما شهدته من البلايا والمحن التي اصطلى الناس بنارها، فكانت فرصة أظهرت مدى التضامن الاجتماعي بين الأدباء. ومقدار حساسيتهم لما كان يعانيه المصابون من أنواع الويلات.

لقد نهض الأدباء، في حركة إنسانية نبيلة، يدبّجون تلك الرقاع المؤثرة، إلى من يعرفون ومن لا يعرفون من الملوك والوزراء، يتوسطون ببلاغتهم الأدبية،

وبراعتهم الإنشائية لأولئك البائسين، يرجون لهم المساعدة المالية، أو الخدمة السلطانية، أو الالتفاتة المعنوية التي تعيد الأمن إلى نفوس الخائفين منهم، وتبعث في حناياهم شعاعاً من الأمل والرجاء في عتمة ذلك اليأس والقنوط.

* * *

الفصل الثالث

النثر الاجتماعي

ماذا نقصد بالنثر الاجتماعي؟

مما لا ريب فيه أننا لا نعني، بحال من الأحوال، كل نثر يطرق في مضامينه جانباً من جوانب إصلاح المجتمع، أو وصف أحواله، أو تحليل الحوادث التي تقع في رقعة الأرض التي يحيا عليها. لو حاولنا أن نفعل ذلك لكنا أقرب إلى الدارس الاجتماعي، منا إلى الدارس للإنتاج الأدبي، والمتتبع لمضامينه، وفنونه، وأساليب التعبير فيه.

والواقع أن أهمّ ما ينبغي أن يفهم من النثر الذي ينسب إلى المجتمع أنه العلاقات الإنسانية التي يقتضي تعايشُ الجماعة البشرية إقامَتها على شكل يكاد يكون واحداً في جوهره، لدى كل الأمم والشعوب، وإنما يكون الاختلاف في الطرائق، والأساليب، ومناهج تعهد تلك العلاقات، ونوعية الانفعالات التي تَحدُث لدى الأفراد عندما يكون التقصير في صيانتها، أو عدم الوفاء بمراسيمها على الوجه الذي أقرته التقاليد العريقة، والمثاليات الراسخة في الذاكرة الجماعية.

ومن البديهي أن أنواع العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع قد تطلبت مجاملات ومبادلات مختلفة ليس باختلاف المناسبات فقط، فأوجدت لكل مناسبة صيغاً تلائمها دون غيرها، بل إنها تختلف، بشكل خاص، حسب نوعية الصلة التي تربط بين الأطراف. وهكذا فإن نوعية العلاقة بين من نسميهم «الأصدقاء» لا تشبه تماماً العلاقة التي تكون بين «زملاء» العمل الواحد. وهذه لا تشبه

الوشائج التي تكون بين المتجاورين. وهكذا، فإن للتعبير الاجتماعي سَلاَلِمَ عديدة يؤدّي عبر درجاتها المتنوعة. . .

فإذا كان قد اتضح لنا ما نعنيه بكل دقة حين نبتغي الحديث عن نثر المبادلات الاجتماعية والمجاملات الإخوانية، فإنه يمكن حصر المضامين التي نتناولها في المحاور التالية التي استخلصت من جملة النصوص النثرية التي درسناها. وهي خمسة محاور:

أ ـ في الصداقة والأصدقاء.

ب ـ في الهدايا.

جـ ـ في التهاني.

د ـ في التعازي.

هـ ـ في العتاب والهجاء.

ولعلنا نخرج من دراستنا لمجموع هذه العناوين بصورة تامة الملامح، واضحة القسمات للنثر الأندلسي ذي الطابع الاجتماعي، ومن خلاله لجوانب هامة من حياة المجتمع الأندلسي.

* * *

أ ـ في الصداقة والأصدقاء:

ليس من السهل أن نحيط بمجمل النصوص التي أنشئت في معنى من معاني الصداقة والأصدقاء، وأن نلم إلماماً مفصلاً بكل المضامين التي تطرقت إليها تلك النصوص. فالصداقة ـ كما هو معلوم ـ علاقة إنسانية معقدة تثير في النفس مختلف المشاعر، وتؤدي إلى انفعالات يختلف الناس اختلافاً كبيراً في الإبانة عنها. ولذلك فإننا نكتفي بالأغراض التي تساعدنا على تصور عام لبعض مظاهرها الأساسية كما بدت من خلال الأدب الأندلسي. وقد يكون أحقَّ هذه الأغراض بالأسبقية، رأيُ الأدباء في الصداقة، والأوصافُ التي مدحوا بها الأصدقاء والخلان.

ولعلّ أحسن من عبر عن هذه الأوصاف، الأديب أبو حفص بن برد

الأصغر[1] الذي أوردها في مجموعة من العبارات جاءت غاية في الدقة والتركيز والاختصار، مثل قوله: «بيننا خصائص وِدَادة، كأنها وشائج وِلادة ـ رَعَيْتُ به السَّعدان، وأخذت من ريب دهري به الأمان ـ أمضى لساني، وبل ريقي، وأشاد باسمي، وأعلى قدري. . . ـ ناصري إذا تكاثرت الخطوب عليّ، ومُجيري إذا أثخنت الأيام جانبيّ. . . ـ يحسن عشرة الجار، ويسيء عشرة الدرهم والدينار. . . الخ»[2].

إنها معانٍ تدور ـ كما نرى ـ على صفاء المودة، والإخلاص، والاطمئنان إلى أخلاق الصديق، وائتمان جانبه، وحسن معاشرته، وهي كلها مما تمتلىء به القصائد والرسائل التي يتبادلها الإخوان وقت صفاء الود، مما لا نريد الإطالة فيه. وإن كنا لا نحب أن نترك ابن برد الأصغر قبل أن نشير إلى أن له ـ كذلك ـ مجموعة من العبارات في عكس تلك الأوصاف. وهي هامة من حيث أنها ترينا الصورة السلبية للصداقة عنده، ونقيض تلك الأوصاف الحميدة المتقدمة.

يقول: «بَيْضُ الأُنُوق من رفده أمكن، وصفا المشقّر من خده ألين. ـ منزور النوال، رث الفعال ـ أحاديث وعده لا تعود بنفع، ولا هي من غرب ولا نبع. . . ـ غني من الجهل، مفلس من العقل. . . ـ غربال حديث، إذا وَعَى سرّاً قطر منه. . . ـ شرّ بقعة لغرس المودة، وبذر الإخاء. ـ قصير الوفاء للإخوان، عون عليهم مع الزمان. ـ هو كدر الدنيا وسقم الحياة. . الخ»[3].

هذه أوصاف شائعة في ذم الأصدقاء حين يخونون عهد المودة، وينقلبون عوناً مع الزمان على من كانوا يبادلونه الودّ والإخاء. ولسنا ندري في أي سياق جاءت هذه العبارات المقتضبة، المتلاحقة، المدحية منها والهجائية، ولا ما هو موقعها من إنشاء ابن برد الأصغر؟ وعلى أية حال فإن لها قيمة محدودة في رسم

---

(1) الوزير الكاتب أبو حفص بن برد الأصغر ـ جده أبو حفص الأكبر ـ، انظر الذخيرة 1/1، ص: 486، وهامش المحقق فيها بأهم مراجع ترجمته.

(2) ذ: 1/1، ص: 504.

(3) ذ: 1/1، ص: 505.

الصورة التي وعدنا بجمع ملامحها، لأنها أحكام مطلقة، مجرّدة، تدل على رأي صاحبها ـ بكل تأكيد ـ ولكنها لا تصدر عن تجربة حية، أو معاناة واقعية، وهو ما نجده أوضح وأبين، في الرسائل المتبادلة بين عبد المجيد بن عبدون[1]، وأبي القاسم بن الجد[2]. فقد نشطت بينهما صداقة ما كادت تنبعث أول مرة حتى رسخت وتأصلت، وخلّفت لنا عدداً من الرسائل، هي من أجمل ما تخاطب به صديقان، ومن أحسن ما تناجى به متحابان، وإذا كان المقام لا يتسع لاستعراض تلك الرقاع البديعة، فلا أقل من أن نورد بعض الجمل الواردة في وصف كل منهما لفضائل الآخر.

فَأما ابن عبدون فيقول: «يا أعظم من لو سريت بأنواره لاهتديت، وأفخم من لو اقتديت بآثاره لاكتفيت، ومن أبقاه الله لِفَخْرِ آبائه يَفْضُله إلا من بنيه، ولسِتْرِ إغْضَائه يُسْدِله على مستحقيه»[3]. وأما ابن الجد فمما يجيبه به قوله: «تمهدت لك يا عمادي أكناف الهمم، ودَرَّت عليك أخلاف النِّعم، وألقت إليك مكنون ضمائرها ومصون جواهرها أصدافُ الحِكَم، فما أتمَّ فضائلَك وشمائلَك، وألمَّ بأنوار المحاسن خمائلَك، وأسمحَ بكل جوهرة ثمينة ولؤلؤة نفيسة بحارك. . . الخ»[4].

وقد يظن أن هذه الصيغ الفضفاضة ليست إلا تعبيراً عما اقتضته تقاليد المجاملة، عند التراسل، بين أديبين كبيرين، لهما شأنهما الخطير، وقتئذٍ، في بلاد الأندلس. ونحن وإن كنا لا نريد أن نقلل من أثر التقاليد الأدبية التي بسطت سلطانها على فنّ الترسل كله، إلا أننا نرفض أن نرى في هذا التعبير الحار عن عواطف المحبة بين صديقين، مجرّد اصطناعٍ لأساليبَ جاهزة، ومناهِجَ مطروقة،

---

(1) أبو محمد عبد لمجيد بن عبدون من أكابر وزراء الأندلس وأدبائها. انظر أخباره في الذخيرة 2/2، ص: 668، وفيها هامش المحقق وفيه ثبت طويل لمراجع ترجمته.

(2) أبو القاسم بن الجد، تقدم التعريف به في الفصول السابقة.

(3) ذ: 2/2، ص: 674.

(4) نفسه، ص: 677.

في متناول كل من أُوتي القدرة على تأديتها بألفاظ بليغة. ذلك أن الصنعة شيء، والصدق شيء آخر، واللهجة الصادقة لا يكاد يخطئها الدارس المتأني. وربما كان من المناسبات التي يستبين فيها صدق المشاعر، إظهار الكتّاب لما يجدونه من المسرة والابتهاج عند ورود كتب أصدقائهم، وذلك مثلما نراه عند الأديب الكبير أبي القاسم بن الجد الذي كتب في وصف تلك المسرة يقول: «قد يرد من تحف الإخوان ما لم يُرَاقَبْ له مورد، ولا ضُرب فيه موعد، ولا غازله ضمير، ولا تقدّم فيه بشير، فيكون لجامع الأُنس أجلب، ولمجامع النفس أذهب، وعلى صفحات الفؤاد أندى وأبرد، وإلى تَلَعَات الفؤاد أهدى وأقصد...»[1].

وقد ضاعف من إحساس ابن الجد بالسعادة، عند وصول هذا الكتاب إليه أنه صادف انقباضاً في نفسه، وجرحاً في قلبه، لا يذكر لنا سببهما. ومن المؤكد أن الصديق الذي يذْكُر صديقه في مثل تلك الأوقات يفاجئه بقدر من السرور لا يمكن أن يُحاط بجميع أبعاده، فكيف إذا كان الصديق المراسِل قد انقطعت أخباره منذ أمد بعيد، كما يفهم من هذه الرسالة. ولنعد إلى ابن الجد، فنسمع إليه وهو يحدثنا عن كل ذلك: «لا سيما إذا ورد وللوحشة جثوم، وبين الجوانح كلوم، كمورد خطابك، فإنه هجم ولا تأهب له خَلَد، ونجم وفي جَفن الأنس رَمَد، فأَذْكَرني حسنُه زمنَ الصِّبا، ونَفَس الصَّبا،... وجدّد من رسم الصَّبابة والمِقَة قديماً، وأحيا من شخص القرابة رُفَاتاً رميماً... فلله درّ عهدك ما أجمل مُحَيّاه، وأنم في روض الوفاء رياه... الخ»[2].

أيخالجنا أدنى شك في أن الرجل هنا إنما يصدر عن قلب طافح بسعادة حقيقية، ويصف من نفسه موقع الارتياح العظيم لهذه الالتفاتة التي أكرمه بها صديق قديم في الوقت الذي لم يكن ينتظرها، بل في الوقت الذي كان منطوياً على جرحه، وهو ظرف يكون الإنسان فيه ـ عادة ـ مُفرِط الحساسية، كثير الانتباه لأدنى تظاهرات الودّ والوفاء...

---

(1) ذ: 1/2، ص: 297.

(2) نفسه، ص: 298.

بيد أننا لا نستطيع أن نقول مثل هذا الكلام ـ لأسفنا الشديد ـ عن كل الفقرات الترسلية التي ورد فيها وَصْفٌ لكتب الأصدقاء. ذلك أن أغلب الأدباء الذين تناولوا هذا الوصف إنما اعتنوا بالجوانب الخارجية، لا يَتعدَّوْنَها إلى الأثر المتروك في نفوسهم، فأقبلوا على تلك الرقاع يُطرُون بلاغة كتابها، ويُثنون على مهارتهم الأدبية، وقدرتِهم البيانية... ومع أن الأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، فلا بأس من إيراد هذا النموذج لمجرَّد بيان ما نعنيه.

ففي رسالة لأبي محمد بن عبد البرّ، إلى بعض أصدقائه، ورد هذا الوصف للرسالة التي كانت قد وصلت إليه: «ورد كتابك، فلحظت منه فجر البيان، وشجر الإحسان، وثمار البديع المزرية، واستخفني بإعجابه، واستفزني بإطرابه، فأشهد لو كان خلقاً لكان إنساً، أو نوراً لكان شمساً، أو روضاً لكان حزناً، أو ماءً لكان مزناً...»[1].

مما لا ريب فيه أننا لا نحتاج إلى تحليل طويل لبيان الفرق الشاسع بين النصين، فهنا كلام صناعي لا يعبر عن عاطفة، ولا ينبىء عن إحساس، وإنما هو مجاملة جوفاء، وإطراء كاذب، لا طائل فيه من أمثال «فجر البيان» و«شجرة الإحسان» و«لو كان خلقاً لكان إنساً»، وهناك كلام يؤثر في القلب لأنه صادر عن القلب، على الرغم مما فيه من تأنق لفظي، ومسايرته لمقتضيات التعبير الشائعة قوالبها يومئذٍ، في كل بلاد العرب...

ومما يتصل بغرض «الصداقة» وملاحقها، إن جاز لنا التعبير، المواقف العاطفية التي تمليها المناسبات التي يغيب فيها أولئك الأصدقاء، لشأن من شؤون الحياة، الكثيرة المتنوعة، وما يكون لعودتهم من أثر في نفوس أصدقائهم المحبين.

وممن عالجوا هذه المعاني الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر[2] الذي له

---

(1) ذ: 1/3، ص: 206.

(2) أبو عبد الرحمن بن طاهر أمير إمارة مرسية، وكاتب بليغ. سبق التعريف به.

جملة رقاع في هذين المعنيين كليهما. فمما يندرج في باب الحزن لغياب الأصدقاء، واضطرارهم إلى السفر والهجرة قوله: «. . . فلا تنكرنَّ من مقالي، ما يُمليه لسانُ الشوق من حالي. لما تحققت (خبر) تَغَيُّبك، لاعدمت الأنس بسببك، هَاجَني من ذكرك هائج، ومسَّني منه حرق واهج، شرّد لي منامي، وردّد قعودي وقيامي، وأقرح المآقي، وبلغ بالنفس التراقي، تأسفاً لبعدك ومحالفة للهموم من بعدك»[1].

في هذه الرقعة من معاني التأسف والألـم لغياب هذا الصديق ما هو ظاهر للعيان، ولا يحتاج إلى من يبينه أو يدلّ عليه. أجل إنها معاني الحزن، لا عواطفه. والواقع أن الأمير ابن طاهر لا يحس في قرارة قلبه بشيء مما يقوله لسانه، ويكتبه قلمه، وإنما هي أضرب من المجاملات اقتضتها ظروف لا نعرفها، وربما كانت سياسية أو من نحو ذلك، أما الصدق فلا حظَّ له ولا نصيب. .

ولابن طاهر هذا نفسه رسالة في التعبير عن عودة صديق وانتهاء غربته، يقول فيها وقد جمع بين معاني الحزن لفراقه، ومعاني الابتهاج بعودته: «. . . وإنك ـ أحسن الله مقامك وظعنك ـ لما امتطيت ركاب النوى. . . كحل السهاد جفني، وتمكّن الإشفاق مني، وأخذت نفسي في الذهوب، وشمس أنسي في الغُرُوب، حتى طلع البشير بالقُفول، فجعلت أقول:

لِـلَّه نُـذرٌ وَاجِـبٌ   وَلَكَ البِشَارَةُ يَا رَسُولُ

وثابت إليّ المسرّة كأوّل مرة، وظلت أمرح في أثوابها وأنّى لي بها، فالحمد لله على صنعه الكريم. . . الخ»[2].

هذا نموذج آخر من المعاني التي يتبادلها الأصدقاء، وقت عودة بعضهم من السفر، ودخولهم إلى مواطنهم بعد الهجرة والاغتراب. وليس لدينا ما نقوله

---

(1) ذ: 1/3، ص: 52.

(2) نفسه، ص: 51.

عنه بعد الذي قلناه آنفاً، فما نكاد نلمح في ما يكتبه الأمير صدقاً، وإنما هي مراسيم المجاملة بين الإخوان قضاها بهذه الرسالة، أما المشاعر الحقيقية فلا وجود لها. وليست مبالغات التعبير، كيفما كانت، بقادرة على أن توهمنا بخلاف ذلك.

رسائل الاستزارة والاستدعاء إلى مجالس الأُنس:

تقوم الرسائل، بين الأصدقاء المتباعدين، بدور الوسيط الذي يسعى بينهم بما يريد أن يُبلِّغه بعضُهم بعضاً. فإذا لم تفرق بينهم المسافات، فللصداقة طرائق أخرى تُقْضَى بها واجباتها، منها التزاور، ومنها الاجتماع في مجالس يأنس فيها المتصادقون، بعضهم ببعض، ويقضون فيها ما شاؤوا من أوطارهم في اللذة والاستمتاع.

وليس في هذا شيء يدعو إلى الاستغراب، فمثله وقع، ويقع في كل وقت، وفي كل البيئات التي اجتمعت فيها عوامل الحضارة والفراغ. وإنما الذي لا يخلو من طرافة هو أن يكون الأصدقاء، في هذه الظروف بالذات، محتاجين إلى التراسل وتبادل الرقاع المكتوبة، وأن ينشط عندهم لون مستحدث من ألوان الأدب النثري يتمثل في تلك المجموعة التي وصلت إلينا من الرسائل التي فيها استدعاء الإخوان والرفاق إلى مجالس الأُنس التي كانت تعقد في رياض الأندلس الجميلة، بين منابت الزهر الفواح، ومجاري المياه الرقراقة.

وفيما يلي رقعة لابن خفاجة[1] ليست في الاستدعاء ولكنها في وصف مجلس من هذه المجالس التي يعقدها البعض من الرفاق ثم يكتبون إلى إخوانهم الغائبين يطلبون منهم الالتحاق بهم. قال: «ولما أكبَّ الغمام إكباباً، لم أجد معه إغباباً، واتصل المطر اتصالاً، لم ألف معه انفصالاً، أذن الله تعالى للصحو أن يطلع صفحته، وينشر صحيفته، فقَشَعت الريح السحاب... وطفقت السماء

(1) أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة كاتب شاعر، من أشهر شعراء الأندلس توفي سنة 533 هـ، وأخباره في الذخيرة 2/3، ص: 541. وانظر هامش المحقق فيها وقائمة وافية بمراجع ترجمته.

تخلع جلبابها، والشمس تحط نقابها، وتطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت، وقد تحلّت، ذهبتُ في لمة من الإخوان نستبق إلى الراحة ركضاً، ونطوي للتفرج أرضاً، وننشر أرضاً، فلا ندفع إلا إلى غدير نمير، قد استدار منه في كل قرارة سماء. . . وانساب في كل تلعة حباب. . . »[1].

ليس هذا إلا الإطار الطبيعي، للمجلس الذي يبدأ ابن خفّاجة في وصفه بقوله: «فاحتللنا قبة خضراء، ممدودة أشطان الأغصان، سندسية رواق الأوراق، وما زلنا نلتحف (منها) ببرد ظل ظليل، ونشتمل عليه برداء نسيم عليل. . وقد حضرنا مُسمِعٌ يَجري مع النفوس لطافة، فهو يعلم غرضها وهواها، ويغني لها مقترحها ومناها، فصيح لسان النقر، يشفي من الوقر. . . الخ»[2].

فها هو ذا مجلس قد اجتمعت فيه كل لوازم الراحة وأدوات السعادة والحبور من طبيعة باسمة، وأرض مضيافة، وفن كما تشتهي النفوس وتتمنى الأرواح. أليست ساعة يتذكر فيها المرء خيرة رفاقه، وأقرب أصدقائه، فيبعث في طلبهم، لأن النفس الآدمية قد جُبِلت على طبيعة لا تكتمل فيها سعادة الإنسان إلا إذا امتدت ظلالها الوارفة إلى كل من يحبهم قلبه؟ بلى، وإن الأدباء الأندلسيين قد أوجدوا نمطاً خاصاً من الأدب هو ذلك الذي يستدعون فيه أمثال أولئك الرفاق والأصدقاء إلى مشاركتهم ملذات تلك المجالس.

فممن مارسوا أدب الاستدعاء: ابن برد الأصغر[3] الذي كتب إلى صديقه مبتدئاً بوصف الطبيعة كما هي القاعدة العامة في معظم هذه الرقاع، فقال: «اليوم يوم بكت أمطاره، وضحكت أزهاره، وَتَقَنَّعَتْ شمسه، وتعطر نسيمه، وعندنا بلبل هزج، وساق غنج، وسلافتان: سلافة إخوان وسلافة دنان، قد

(1) ذ: 2/3، ص: 543.

(2) نفسه، ص: 544.

(3) أبو حفص بن برد الأصغر كاتب، شاعر، من أسرة قرطبية مجيدة. أخباره في ذ: 1/1، ص: 486 وفي هامشها ثبت لمراجع ترجمته كما أحصاها المحقق.

تشاكلتا في الطباع، وازدوجتا في إثارة السرور. . .»[1].

هذا هو المدخل الوصفي الذي يمّهد به الأديب ابن برد الأصغر للغرض الرئيسي وهو استدعاء صديقه إلى الحضور للتمتع مع الرفاق. ونحن نلاحظ أن عناصر المتعة هي هي: طبيعة جميلة، وخمر موفورة يبذلها «ساق غنج»، وأنغام لطيفة يقوم على أدائها «بلبل هزج».

أما صيغة الاستدعاء نفسه - أو الدعوة كما نقول اليوم - فتأتي في هذا القالب من الإغراء والاستفزاز: «فاخرق إلينا سرادق الدجن، تَجدْ مرأى لم يحسن إلا لك، ولا يتم إلا بك»[2].

ويبدو أن بعض هذه المجالس ربّما عُقد لجماعة متجانسة لا تريد أن تخلط بين أنواع الملاذ، ولا أن تعدد مصادر سرورها، وإلا فبماذا نفسّر قول أبي محمد بن السيد البطليوسي[3] حين قال لصاحبه الذي كتب يستدعيه: «نحن - أعزك الله - في مجلس مدام تديرنا أفلاكه. . .»[4] فهل ينبغي لنا أن نفهم أن هذا اللقاء لا مكان فيه إلاّ للخمر، فلا حاجة لأصحابه «بالساقي الغنج» و«البلبل الهزج» كما قال ابن برد. أم أنهما من متممات كلّ المجالس، ولذلك لم يجد أبو محمد حاجة إلى ذكرهما؟. . .

ومهما يكن من أمر، فإن الأديب المذكور لم يغفل الإشارة إليهما في نصّ آخر حين كتب إلى صديقه يقول، مغرياً له، مستفزاً لكل مراكز الانفعال فيه: «ما ظنك - أعزك الله - بعروس لهو، تختال في ثياب عجب وزهو، وتصبي القلوب بحسن قصف وشدو، قد سفرت من وردها عن خد خجل، ورنت من نرجسها

---

(1) ذ: 1/1، ص: 502.

(2) ذ: 1/1، ص: 502.

(3) الشيخ أبو محمد بن السّيد البطليوسي، شاعر كاتب من شلب، أقام ببطليوس فنسب إليها. انظر أخباره في ذ: 2/3، ص: 890.

(4) ذ: 2/3، ص: 896.

بطرف غير مكتحل، ونحن بين فرش مرفوعة، وأكواب موضوعة. فبادر إلينا»[1] .

من الواضح الجلي أن هذه الرقعة تدل بوضوح على أن الكاتب قد منح الجانب الأكبر من عنايته للخمر. ومع ذلك فإنها لا تحتكر قائمة المسرات في ذلك المجلس الموصوف، لأن فيه مكاناً «للقصف» و «الشَّدْو» وإن ورد الحديث عنهما كما لو كانا مجرد أتباع وخدم لعروس اللهو المختالة.

ومن ناحية أخرى نستطيع أن نلاحظ، في هذه الرسالة أيضاً، ما كُنا لاحظناه قبلُ، من الاعتماد على الاختصار الشديد عند الوصول إلى صيغة الاستزارة نفسها. بل إنها هنا جاءت غاية في الاختصار حتى كأن الاستدعاء الحقيقي إنما هو الوصف المتقدم، وما يحمله من عناصر الإغراء والاستثارة، لا قوله: «فبادر إلينا». الذي جاء في آخر الكلام كأنه «برقية» استعجال.

ولعلّنا لاحظنا أن أكثرية النماذج التي أشرنا إليها من هذه الرقاع تنبئنا بأن تلك المجالس ـ الموصوفة فيها ـ قد عقدت بعد انقشاع الغيوم، وعودة الصحو مباشرة، مما قد يدل على أن الأمطار العارضة الخفيفة التي يعقبها الصحو سريعاً، لم تكن لتعوق أصحاب هذه المجالس عن عقد لقاءاتهم.

أما عند اعتدال المناخ، وشيوع الصحو واستمراره، فيبدو أن تلك المجالس تكثر وتتعدد لأن الإطار الطبيعي الملائم يشجع على عقدها، واستنهاض الأصدقاء إليها.

فممن تحدث عن مجالس الصحو هذه، وكتب في الاستدعاء إليها الأديب أبو المطرف بن الدباغ[2] الذي كتب في وصف يومه ذاك: «طلع علينا هذا اليوم فكاد يُمطِر من الغضارة صحوه، ويَغْشَى من الإنارة جوّه، ويُحيِـي الرميمَ

---

(1) ذ: 3/2، ص: 896.

(2) أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر بن الدباغ. سبق التعريف به. كاتب خدم المقتدر أمير بني هود ثم ساءت العلاقات بينهما فخشيه وفر من بلده والتحق بالمعتمد بن عباد. انظر أخباره في ذ: 1/3، ص: 251، وهامش المحقق بها المتضمن قائمة بمراجع ترجمته.

اعتدالُه، ويصبي الحليمَ حسنُه وجماله»[1] ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف المكان الذي اختاره القوم لمسرتهم فينعته بهذه العبارات: «في روضة خلعت عليها السماء سبائبها، ونثرت علينا كواكبها، ووفد عليه النعمان بشقيقه... وبَكَّرَ إليه بابل برحيقه...»[2] وبعد أن يفرغ من هذا الوصف يصل إلى دعوة الصديق المخاطب بهذا الكلام، فإذا هو يمدحه ويثني عليه بمجموعة من الفضائل تجعله أحد العناصر الفلكية التي يزيد تألقها في جمال المنظر وبهائه، ولنستمع إليه وهو يقول له: «وتمنينا ـ أعزك الله ـ أن يتبلج صبحك من خلال فروجه، وتحل شمسك في منازل بروجه، فإن رأيت أن تطلع علينا الأنس بطلوعك، وتهدي الفرح بوقوعك، فلن تعدم نوراً يحكي شمائلك طيباً وبهجة، وراحاً، تخال خلالك صفاء ورقة، وألحاناً تثير أشجان الصبّ، وتبعث أطراب القلب، وندامى ترتاح لهم الشمول... ويقصر بمجالستهم الليل الطويل»[3].

فها نحن هنا إزاء صيغة أخرى من صيغ الاستدعاء تضمّنت غير قليل من الإطراء والتودّد الممزوجين بالهيبة، مما يجعلنا نجنح إلى الاعتقاد بأن هذا الرجل المخاطب ليس صديقاً عادياً، فربما كان وزيراً أو أحد كبار رجال الدولة. وليس ذلك بالأمر العجب فإن وجهاء الدولة وكبار رجالاتها كانوا يعقدون هذه المجالس، ويدعون لها، ولم يكن أحد يرى في إقامتها أو في حضورها ما ينتقص من قيمتهم أو يسيء إلى سمعتهم لدى الناس. ذلك أن الملوك أنفسهم ـ والناس على دين ملوكها في كل وقت ـ كانوا يعقدون مثل تلك المجالس، ويحرصون على توفير ما يلزمها من المباهج والمسرات.

فمن ذلك مجلس الناعورة بطليطلة الذي ورد وصفه على هذا النحو: «في المنية المتناهية البهاء والإشراق، المباهية لزوراء العراق، التي تنفجر أبداً

---

(1) ذ: 1/3، ص: 305.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

وتقطر، وتكاد من الغضارة تمطر، والقادر[1] قد التحف الوقار وارتداه، وحكم العقار في جوده ونداه، والدولاب يحن كناقة إثْر الحوار، أو كثكلى، من حر الأوار، والمجلس يروق كالشمس في الحمل، وأهله يبتهجون بمثل الأمل، والجو قد عنبرته أنواؤه، والروض قد بللته أنداؤه. . . الخ»[2].

فهذا وصف لمجلس ملكي من مجالس الأُنس، وقد رأينا أنه يشتمل على ما في المجالس الأخرى من خمر وغناء وما يصحبهما من تظاهرات الطرب والسرور. . . وليس صاحب هذا المجلس أحد الأمراء المغمورين، بل إنه من إحدى أشهر الأسر المالكة في الأندلس خلال عهد الطوائف، وهو حفيد وسمي ملك عظيم هو: يحيـي الملقب بالمأمون[3].

هذه مجالس متنوعة، يجمع بينها أنهـا كلها قـد ائتلفت بين أحضان الطبيعة، إمّا لأن الصحو قد عم الأرض، وإما لأن الشمس قد تغلبت أشعتها المتوهجة على جحافل الغيوم، وغلبت دموع المطر. ولكن ماذا يفعل رُوَّاد هذه المجالس إذا حالت ظروف الطقس دون الخروج إلى الحقول، والذهـاب إلى الرياض؟ لعلّنا نظن أنهم يؤجلون مجالسهم تلك، ويحتمون بأمل عقدها عند أول ما يسمح الطقس بذلك. . . والواقع أن الحل عند هؤلاء أبسط من هذا الانتظار، لأنهم يميلون بأفراس لهوهم إلى الدور المسقوفة، والبيوت المحمية من أذى المطر والبرد، حيث يصلون فيها ما انقطع من أسباب سرورهم. وهذا ما يخبرنا به أبو حفص بن برد الأصغر[4] حين بعث إلى أحد أصدقائه يستدعيه إلى

---

(1) القادر: المقصود هنا هو يحيـى بن إسماعيل بن المأمون بن ذي النون. أحد ملوك طليطلة تولى سنة 467 هـ. وقد ثار الناس عليه وخلعوه فتحالف مع النصارى لاستعادة عرشه ولكن هذه المحاولة لم تثمر. راجع ما كتبناه عنه في الباب الأول.

(2) عن ذ: 2/3، ص: 894. والظاهر أن ابن بسام هو صاحب الوصف.

(3) لعل في انصراف هذا الملك إلى اللهو ما يفسر المصير الذي لقيته طليطلة عاصمة هذه المملكة إذ سقطت في يد النصارى بعد حصار سنة 474. على أن القادر ليس بدعاً بين ملوك عصره. .

(4) أبو حفص بن برد الأصغر: تقدم التعريف به منذ قليل.

هذا المجلس «المغلق» إن صح التعبير: «نحن من منزل أبي فلان بحيث نلتمس سناك، ونتنسم رياك، وقد راعنا اليوم باكفهرار وجهه، وما ذرّ من كافور ثلجه، فادرعنا له بالستور. . . وأحببنا أن نشهد جيش الشتاء كيف يهزم، وأنفاس البرد كيف تكظم»[1].

هذا مجلس شتائي، في يوم لم يكتفِ فيه الشتاء بأن يهجم بالمطر، فثنّى بالثلج، ولكن طُلاَّب هذا النوع من الملاذ أكثر تصميماً على نيلها من أن يقوى الشتاء على صرفهم عنها، كيفما كانت جيوشه. . .

ولعل مثل هذا الحل: اللجوء إلى البيوت، هو الذي عناه أبو المطرف بن الدباغ[2] حين استدعى صديقاً له إلى مجلس، فمهّد له بوصف ظروف انعقاده قائلاً: «يا سيدي. . . يومنا يوم تجهم محياه، ودمعت عيناه، وبرقعت شَمْسَه الغيوم. . . وملأ الخافِقَيْن دخانُ دَجْنه، وطبّق بِساطَ الأرض هَمَلانُ جفنه، فأعرضنا عنه إلى مجلسٍ وجهُه كالصباح المُسفِر. . . وندّه يتضوع. . وأباريقه تركع وتسجد، وأوتاره تنشد وتغرد، وبُدُوره تستحث أنجمها محيية، وتُقَبِّل أنملها مُفَدِّية. . .»[3] أما صيغة الدعوة إلى هذا المجلس فقد حررها الكاتب على هذا النحو: «وأقصى أملنا، ومنتهى جَذَلنا أن تحث خطاك، حتى يلوح سناك، ونشتفي بمرآك»[4].

لعله اتضح لنا الآن كيف جعل أدباء الأندلس، في هذا العصر، من الدعوة إلى حضور مجالس اللهو فنّاً نثرياً قائماً بذاته، لا يخلو من ملامح تميزه عن غيره، وأنه إذا كان دائماً مطية لوصف الطبيعة، ونعت مباهجها، فقد يغدو، في مناسبات أخرى، مطية للمدح والثناء حين يكون المخاطب من رجال الدولة، أو من أكابر المجتمع وقد رأينا أن هذا الإنشاء يقع في الصميم من أدب المبادلات

---

(1) ذ: 1/1، ص: 503.

(2) أبو المطرف بن الدباغ: تقدم التعريف به أيضاً منذ قليل.

(3) ذ: 1/3، ص: 304.

(4) نفسه.

الإخوانية، لأنه يجسد هذه العاطفة التي تجعل الصديق يصبو إلى الاجتماع بمن يصادقه، في تلك اللحظات التي تجد فيها النفس مبتغاها مما تتصور أن فيه أسباب سعادتها وحبورها، فلا يكتمل الإحساس بالسعادة إلا إذا اجتمع شمل الأصدقاء وَٱلْتَأَم، فإذا تخلف أحدهم عن حلقة الأنس، أكب صديقه على تحرير رقعة إليه، يستدعيه فيها بعد أن يصف له الإطار الخارجي والداخلي لذلك المجلس، وصفاً يغريه ويستفزه.

تلك جوانب أخرى من مظاهر التحابِّ بين الناس، والتعبير عن العواطف التي يكنها بعضهم لبعض، حين ترسخ المودة بينهم. وقد يتبادل اثنان من الناس التقدير والاحترام، وحتى الحب، ولكن من بعيد، ودون أن يكون قد أتيح لهما التعارف الذي يجعل منهما صديقين بالمعنى المألوف للكلمة. فإذا بلغت الرغبة عند أحدهما غايتها في عقد المودة، والارتباط بميثاق الأُخوة الصادقة، بادر بعرض مودته على الطرف الآخر. وذلك ما يسمّى عندهم: «خطبة الودّ»، أو «استفتاح الخلطة».

خِطبة الوُد:

من ذلك ما كتبه الأديب أبو محمد بن عبد البرّ[1]، مشيراً إلى معاني حصول المودة بين الناس على ما بينهما من بعد الشقة. يقول الكاتب: «قد يتراسل الناس وإن لم تتقدم مباسطة، ولا سلفت مخالطة، لأسباب تصل أهواءهم، وأحوال تجمع آرَاءَهُم، فتأتلف قلوبهم، وتعود ذات بينهم كأن لم تزل ملتئمة. . .»[2] ثم يتحدث عن أسباب الرغبة في الاتصال، وإبرام عقد المودة، فيلخصها في سببين اثنين: «أحدهما: ما أُرج إليّ من طيب أخبارك، وجُلِيَ عليّ من محاسن آثارك. . . (و) الفضائل حيث كانت مرغوبة محبوبة، والهمم نحوها

---

(1) الوزير الكاتب أبو محمد عبد الله بن الفقيه أبي عامر بن عبد البرّ. أخباره في ذ: 1/3، ص: 125.

(2) ذ: 1/3، ص: 191.

جانحة طامحة. . . والسبب الآخر: مكانك من سيدنا الملك الأعظم. . . وحظك الرفيع من أثرته، وحالك المشكروة في خدمته. . .»[1].

لقد كان ابن عبد البرّ صريحاً، غاية الصراحة، حين جعل لاتصاله بالمخاطَب، في رسالته هذه، هدفين: أحدهما: حصول المودة بينهما، والثاني: الاستفادة من صحبته للدُّنوِّ من «الملك الأعظم». ولعل الهدف الأوّل نفسه ليس - في هذه الحالة - إلا فرعاً من الهدف الثاني الذي يرجو الأديب تحقيق مرغوبه بالوصول إليه.

على أن هذا ليس هو دائماً شأن ابن عبد البرّ، فقد تكون مثل هذه الحالة شاذة، نادرة عنده، أما القاعدة العامة فهي طلب الصداقة في حد ذاتها، أو ذلك ما يفهم من رسالة أخرى له، يقول فيها: «. . . إن توق النفس إلى استصفاء الفضلاء، واقتناء مودات الأوفياء، أقوى أسباب الارتباط، وأدعى أبواب الاختلاط. . . وقد تخلت مخاطبتي لك من الأسباب إلا من سبب المحبة فيك، والمعرفة بجميل مذاهبك ومساعيك، والرغبة في اقتناء خلتك، وادخار صداقتك، لما شهر من أحوالك الجميلة. . . ومن كان على ما أنت عليه، فمرغوب فيه، منجذب إليه، مطلوب إخاؤه، مخطوب صفاؤه. . .»[2].

هذا نموذج من رقاع خطبة الودّ، وقد رأينا لكاتب واحد صنفين منها، أحدهما لا يخلو من طابع «مصلحي» لأن الكاتب إنما يرجو الاتصال والمودة للاستفادة ممّا للمخاطب من علاقة بالملك الحاكم، والثاني يبدو خالصاً لوجه الصداقة لا تشوبه شائبة من المطامع والمنافع.

وربما كانت من أشهر المراسلات التي تمت بين متباعدين، وعبرت عن مقدار ما يكنه كل واحد للآخر من عواطف الحب والتقدير، تلك الرسائل البليغة التي تبادلها أديبان مشهوران وهما الوَزِيرَان أبو محمد عبد المجيد بن عبدون[3]،

(1) ذ: 1/3، ص: 191.

(2) نفسه، ص: 192.

(3) الوزير الكاتب أبو محمد عبد المَجِيد بن عبدون: سبق التعريف به. وانظر، ذ: 2/2، ص: 668.

وأبو القاسم بن الجد[1]، وقد احتفظ لنا كتاب الذخيرة بعدد هام منها[2]. وهي شاهد بليغ على مدى الألفة التي يمكن أن تنشأ بين اثنين من الناس لم يتح لهما أن يجتمعا أبداً.

ها نحن وقفنا ـ من خلال الصفحات الماضية ـ على بعض مظاهر الصداقة، في الأدب النثري الأندلسي، وقد لاحظنا مقدار تعلق الأندلسيين بأسبابها، وحرصهم على اقتنائها حتى إنهم ليبادرون بالسعي إلى تحصيلها بواسطة المراسلة حين لا تمكن الظروف من فرص اللقاء المباشر، وكل ذلك دليل، لا يرد، على ثراء الحياة العاطفية عند الناس، ولدى الأدباء منهم بوجه خاص. وقد نجد أكبر شاهد على هذه الحساسية البالغة، في العناية التي كانوا يولونها لتبادل الهدايا فيما بينهم، وإنشاء الرقاع المصاحبة لها، والشاكرة عليها.

* * *

ب ـ في الهدايا:

الهدية ظاهرة اجتماعية تُعَبِّرُ ـ وهي الملموسة المادية ـ عن علاقة روحية، لأنها نوع من التجسيد لمشاعر الحب، والمودّة، والصداقة، بين الناس، كيفما كانت نوعية وطبيعية الصلة أو القرابة بينهم. وهي تختلف اختلافاً جوهرياً عن الجائزة أو العطية، ذلك أن الجائزة مكافأة مادية، أو مساعدة مالية لمن استحقها بالمدح، أو بتقديم الخدمات المختلفة، أو بما هو عليه من حال العوز والاحتياج. أما الهدية فليست إلا صدى التقدير الذي يحمله المُهْدِي إلى المُهْدَى إليه، سواء بلغ ذلك التقدير درجة المودة والصداقة، أو هو في مرحلة الإعجاب و«الاحترام».

ثم إن الهدية ـ فوق ذلك ـ ظاهرة حضارية، بمعنى أنها تصدر عن قيم ثقافية معينة، قد يكون من بينها تقوية المودة، وتعزيز أواصر الصداقة بين الناس. ذلك أن الهدية تدل ـ في جملة ما تدل عليه ـ على أن المهدي يستطيع أن

---

(1) الوزير الكاتب أبو القاسم بن الجد: تقدم التعريف به. وانظر، ذ: 1/2، ص: 285.

(2) ذ: 2/2، ص: 669.

يضحي بالمادي المفيد، المستنفع به، من أجل تعهد هذا الجانب الروحي، المجرد، الذي يطلبه في صداقة من يصادق. وبالجملة فإن الهدايا هي نوع من التحايا، وهذا ما فهمه الأندلسيون أنفسهم[1].

وقد عبر النثر الأندلسي، في الفترة المدروسة، تعبيراً واسعاً ومتنوعاً عن هذه المظاهر المتمثلة في الهدية، ورصد الكثير من معانيها وقيمها. ولعلّ أول ما يحسن بنا الإلمام به هو فكرة «الاستهداء». ذلك أنه قد يبدو غريباً، نوعاً ما، أن يكتب، صديق إلى صديقه طالباً منه أن «يُهديه» شيئاً ما، فقد يكون في هذا الطلب ما يُهدر معنى الهدية أصلاً، إذ ينبغي أن يبادر المُهدي بإرسالها إلى من يريد إهداءها إليه، وإلّا صارت نوعاً من أنواع العطايا التي يحصل الناس عليها بالطلب والمناشدة.

ويبدو لنا أن الذي يفرق في النهاية بين «الاستدهاء» و«الاستعطاء» إنما هو طبيعة الشيء المرغوب فيه. فإذا كان مالاً، أو ذا قيمة مادية واضحة، فلا يمكن أن يكون طلبه إلا من قبيل الاستعطاء والاسترفاد. أما إذا كان ذا قيمة معنوية اعتبارية كأن يُطلَب لتوفره عند صاحبه، أو لجودة نوعه عنده،مع إمكان الحصول عليه بزهيد المال، فهذا استهداء لا يؤذي كرامة المستهدي، ولا يحسن أن يخرج من عند المطلوب منه، إلّا على أنه هدية.

وخير ما يصلح أن يكون شاهداً على ما أسلفنا ما كتبه ابن خفاجة[2] حين بعث إلى أحد أصدقائه يستهدي منه ماء ورد، فقال: «وإني وجهت رقعتي هذه خاطبة إلى صفو ودّك، كريمة من (بنات) ماء وردك. وقد سقت إليها الشكر مهراً، وأنفذت الإناء للزفاف خدراً، والطّول لك في قبول نقد الثناء، وتعجيل الجلاء والهداء، موفقاً إن شاء الله»[3].

والذي يُعطينا دليلاً قاطعاً على الجوانب الروحية التي تحدثنا عنها هو أنواعُ

---

(1) هذا من قول ابن خفاجة: «إن خير الهدايا ما جرى مجرى التحايا». ذ: 2/3، ص: 545.

(2) أبو سإحاق إبراهيم بن خفاجة: كاتب شاعر. تقدم التعريف به. وانظر، ذ: 2/3 ص: 541.

(3) ذ: 2/3، ص: 546.

الهدايا التي كانت تُتَبادَلُ بين الناس، وهُوَ ما يكشف لنا في الوقت نفسه عن رِقّة الأندلسيِّين، ومُرْهَف إحساسهم.

فهذا ملك دولة بَني هُود: المقتدر[1]، يكتب إلى أخيه[2] صاحب لاردة يشكره على هدية أرسلها إليه. فإذا قرأنا الرسالة علمنا أن الهدية كانت أنواعاً من الزهر بعث بها إليه. منها: الآس «الذي أذاع ما حمل من طيب الأنفاس» والذي هو «سَيِّد الزهر والنوار، بدوام عُهْدته، وبقاء جِدَّتِه»[3] ومنها «مُبَكِّر البَهار الجَنِيّ» الذي وجده المقتدر «ممتعاً بمنظره البهي، وعرفه الذكي، قد شخصت أحداقه وراقت أوراقه...»[4] وغيرهما مما هو مذكور في الرسالة.

فإن لم تكن الهدية من أنواع الورود والزهور، فقد تكون من الفواكه، ولا سيما تلك التي رسخ الأدب العربي، منذ القديم، جوانبها الرمزية، كالتفاح.

فممن أهداه إلى الأصدقاء الأديب أبو عبد الله البزلياني الذي كتب مع الهدية الرقعة التي يقول فيها: «لو لم تكن نفسي لك لأهديتها إليك... لكن لك الإبداء بالفصل والإعادة، ولي الاقتداء والجري على العادة، في إهداء الحقير إلى الخطير. وَلِكَلَفِي بشمائلك الشمولة، وشَغَفِي بخلائقك المعسولة، بعثت بما يَحكيها ولا يدانيها... تفاح قطعت حمرته وصفرته من خجلات الخدود.... وختم على أَلَذَّ من سلوى النحل، وأعذب من جني النخل...»[5].

وممن أهدى التفاح أيضاً أبو إسحاق بن خفاجة، فقد بعث منه واحدة إلى صديق له مع رقعة يقول فيها: «إن أفضل سفير سفر بين صديقين، وتردّد بين

---

(1) المقتدر بن هود. حكم دولة بني هود في سرقسطة وتوفي سنة 474. سبق التعريف به. وانظر ما كتبناه عنه وعن بني هود في الفصل الأول من الباب الأول.

(2) أخوه هو يوسف المسمّى حسام الدولة المظفر. تآمر عليه المقتدر مع النصارى وقضى عليه.

(3) ذ: 1/3، ص: 469.

(4) نفسه.

(5) ذ: 2/1، ص: 642.

عشيقين، سفير أشبه المحب خفّةَ روح، والمحبوب عَبَقَ ريح، ولما طال ـ يا سيدي ـ العهد فأحببت أن أجدده... لم أرَ أن أجعل رسولي وأجشم في اقتضاء سولي مثل حمراء عاطرة، كأنها دمعة صبّ قاطرة، أو جمرة تصطلى واقدة، أو خمرة تُجتلى جامدة... بعثت بها بين تحية لك، ورسول إليك، معتقداً أنها سَتُقَبَّل عندما تُقْبَل وتُفدّى حين تتصدّى، فوددت أن أكونها، وأحظى بتلك الحال دونها»[1].

ومن الواضح أن ابن خفاجة لم يهد إلاّ تفاحة واحدة، ولو كان الأمر في الجانب «المنفعي» من التفاح لما صلحت واحدة منه أن تكون هدية. وكأن التفاحة الواحدة نفسها وما فيها من رمز المودة والإخاء ليست إلا ذريعة لكتابة الرقعة المرافقة. فالهدية الحقيقية هي في الثناء والتحية اللذين يشتمل عليهما الكتاب.

وقد يختار الصديق فاكهة أخرى تحمل عنه ما يريد من رموز الوُدّ والمحبة. كالأديب عبد العزيز بن خيرة المنفتل[2] الذي بعث إلى أحد أصدقائه بأُترجّة، مع رسالة يقول له فيها: «وقد بعثت إليك من بنات الثمار أجملها، ومن نتائج البستان أَفْضَلَها... فلمّا تكامل حسنُها، وماد بها غُصْنُها، وارتوت من ماء الجمال... هتكت سترها، وطرقت خدرها... وآثرتك بها على جميع الإخوان، فبحرمة الكأس التي رضعنا، وأمير الظرف الذي بايعنا، إلا ما رفعت قدرها، وجعلت القبول مهرها... يا لها من أُتْرُجَّة غضة، قد صُوِّرت من ذهب وفضة، قد سرقت من العاشق سيماه، ومن المعشوق طعم ثناياه... الخ»[3].

هذا نموذج آخر من مخاطبة الأصدقاء بالرقاع المرافقة للهدايا، ولئن اختلفت الهدية هنا عن الهدية هناك، فإن طابع الرقعتين هُوَ هو: وصف للفاكهة

(1) ذ: 2/3، ص: 545.

(2) المنفتل: هو أبو أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبي. تقدم التعريف به وانظر، ذ: 2/1، ص: 754.

(3) ذ: 2/1، ص: 754.

المهداة، وربط في المعنى بين نعوتها وشمائل المهداة إليه، وتحميلها التعبير عن ألوان من المودة الخالصة، وفي النهاية الرجاء الحار في أن تحظى لدى المخاطب بالقبول.

ويبدو لنا ـ أكثر فأكثر ـ أن معاني التحية هي الغرض المقصود من وراء عملية الإهداء هذه، والدليل على ذلك أننا وجدنا من يلجأ إليها حتى في حالات التعبير عن معاني الألم، والمشاركة في المصاب. ففي كتاب الذخيرة أن المقتدر بن هود أرسل إلى أخيه المظفر[1] رقعة، وقرن بها «ظرف بَلُّور (أحمر) مملوءاً خمراً مع باقة آس، يسليه عن ابن تُوفي له، واشتد حزنه عليه»[2]. فما مكان الخمر هنا والآس إذا لم يكونا رمزاً لعواطف الأخ الذي يريد أن يبلغ أخاه أنه متأثر لمصابه وأنه مع ذلك يدعوه إلى الالتفات إلى ما في الدنيا من مباهج تنسي المهموم بعض همه، وتصرف عنه جانباً من حزنه، كما هو وارد فعلاً في الرقعة المذكورة[3].

وإذا كان المُهدي، لا يكاد يفعل إلا أعدّ الرسالة التي ترافق هديته، فإنه من الطبيعي أن نجد المخاطبين الذين يتلقون الهدايا، يسارعون بالكتابة إلى أصدقائهم، أو أولياء نعمهم لتقديم واجب الشكر. وكثيراً ما يكون ذلك فرصة لوصف الهدية، وإبداء الإعجاب بها، والرفع من قيمتها، مما يعد أحد التقاليد الراسخة في مثل هذا الباب. وكما خلفت لنا عملية الإهداء لوناً من الرسائل المتميزة، وقد استعرضنا بعضها منذ حين، فإن تقاليد شكر المُهدي، ووصف الهدية والثناء عليها، قد خلفت لنا أيضاً نوعاً من الرقاع الأدبية لها خصائصها الفنية الواضحة.

---

(1) عرفنا، قبل قليل، بالمقتدر وأخيه المظفر.

(2) ذ: 1/3، ص: 473.

(3) نفسه.

فممن كتبوا في شكر الهدية الأديب أبو محمد بن عبد البرّ[1] الذي أهدي إليه غزال وشطرنج، فبعث إلى صديقه صاحب الهدية يقول له: «ورد كتابك، ففضضت ختمه عن رياض تفتحت عن أزاهر كلمك، ونشرت طيه عن جواهر حكمك... ووصل معه الغزال الأهيف، وكأن عينيه عينا وسنان مالت به نشوة الراح، وثنى عطفه هزة الارتياح، كأنما كحلا سحراً، وأشربا خمراً، ينظر بهما نظر المريب، ويعرض إعراض الحبيب...»[2].

وبعد أن يوسع الغزال وصفاً، ويطيل في نعته بهذه الطريقة التمثيلية الجميلة، ينتقل إلى الحديث عن الشطرنج فيقول عنه: «وقرنت إلى هذه الهدية الرائقة، والمنحة الفائقة، شطرنجاً صغيراً كأن إقليدس قسم أجزاءه، ورقق أشكاله وأنحاءه، يحار في لطيف صنعه الوهم، ويضل في كيفيته الفهم...»[3].

وتنتهي الرسالة بعد وصف طويل لهذه اللعبة، دون أن نجد فيها شكر المُهدي كما كنا نتوقع، خلا بيتين من الشعر، يشير الشطر الأخير من البيت الثاني منهما إلى أن المهدي «جَمَعَت محبَّته عُرى الأكباد»[4]. ومما لا ريب فيه أنه ما كان لمثل هذه الرسالة أن تخلو من الشكر، بل إن الشكر هو الباعث الأول على كتابتها، وربما كان قسماً طويلاً فيها تنتهي الرقعة به، وإنما حذفه صاحب المصدر الذي ننقل عنه، لأن مظهر البراعة الأدبية عنده إنما يكمن في ذلك الوصف الجميل حقاً، لا في المدح أو الثناء الذي له مواطن خاصة به من المصدر المذكور.

وقد نكون أحياناً أخرى أمام رسائل ليس فيها إلا الشكر على هدية لا يذكر شيء عن طبيعتها، ولا يتناول الكاتب شيئاً من أوصافها، وإنما يستفرغ أقصى

---

(1) تقدم التعريف به، وأشير إليه في بداية هذا الفصل.

(2) ذ: 1/3، ص: 214.

(3) نفسه، ص: 215.

(4) نفسه، ص: 216.

طاقته في بيان قيمة المتبرع بها، وذلك ما فعله الأديب أبو عُمَر بن الباجي[1] الذي يبدو أنه يخاطب بالرقعة الآتية أحد رجال الدولة، إن لم يكن الملك نفسه، لأن في الرسالة من آيات الخضوع والإذعان ما لا يجوز أن يكون بين الصديقين المتآلفين، ومع ذلك فإن لبعض الكتاب طرائق في التعبير، وأساليب في المبالغة والتعظيم، يستخدمونها مع كل المخاطبين، حين المدح والثناء، دون تمييز كبير بين المواقع والرتب...

قال ابن الباجي: «بأيّ لسان ـ أعزك الله ـ أناجيك على بعد الدار، وقد أخْرَسْتَ عن واجب الشكر لساني، وطَمَسْتَ عليّ وجوه بياني، بما أضْفَيتَ من حلل برك التي أخجلتني، وطوقتني من مننك التي ألجمتني، بالهدية السّنية التي لا يزال الدهر ينثرها، وأيدي الثناء تنشرها، فكم من علق نفيس شافهني منها بلسان بغداد وعدن، ولاحظني بمقلة مصر واليمن... وحق لهدية أهدتها أناملك المستهلة السحائب... أن يَعْنُوَ لها القمران، ويُحاسِنَ بها زماننا كل زمان...»[2].

فمما لا نكاد نشك فيه أن في رقعة ابن الباجي مبالغات كبيرة. وأن هذه الهدية بالغة ما بلغت، لا يمكن أن يعنو لها القمران، ويحاسن بها «زمانه» كل زمان. والمهم أن هنا أسلوباً آخر من أساليب الثناء على صاحب الهدية، فإذا استخدم الأديب تارة معاني الثناء المباشر الذي هو مدح للمُهدي بالخلال العربية المعروفة، فقد يتوصل أديب آخر إلى هدف الشكر بالمغالاة في تعظيم قيمة الهدية، انطلاقاً من أن في ذلك تعظيماً مؤكداً لقيمة مهديها..

هذا لون آخر من ألوان التبادل بين الإخوان، وهو ذو أثر بين في تنمية المودة بين الناس، وتعهد نبتها. وإذا رأينا أن الملوك قد يسمُّون عطاياهم هدايا،

---

(1) هو أبو عمر يوسف بن جعفر المعروف بابن الباجي: كاتب بليغ، أخباره في ذ: 1/2، ص: 186، وانظر، هامش المحقق فيها.

(2) ذ: 1/2، ص: 191.

وأَنَّ الأدباء قد يمدحونهم على تلك العطايا واصفين لها بأوصاف الهدايا، ناعتين لها بذلك، فإن مثل هذا التجاوز في التعبير لا يكون إلا بين طرفين لم تحل مراتب السياسة من أن تقرب بينهما، وأن تجعل العلاقات القائمة بينهما قريبة من الصداقة.

وإذا كانت الهدايا في حقيقتها ـ كما رأينا ـ سفارة بين الطرفين المتوادين وتحية مجسّدة من صديق إلى صديقه، حتى إننا لا نكاد نستعير أوصافها لما يكون من العطايا الأخرى، إلا بشيء من التجوز، واشتراط أن يكون بين من يعطي ومن يأخذ ضرباً من العلاقة، إلَّا يَكُنْ هو الصداقة عينها، يكنْ شيئاً يقرب منها أو يُذَكِر بها. . . فإن من ضروب التعبير الاجتماعي ما يكون في آنٍ واحد من قبيل المبادلات الإخوانية، والمجاملات التي يعرب الناس عنها بعضهم لبعض، بقطع النظر عن فوارق الرتب، واختلاف الأوضاع. ولعل ذلك يظهر أكثر من غيره في مناسبات التهاني، والتعازي.

* * *

جـ ـ في التهاني:

التهنئة مظهر من المظاهر الاجتماعية الموغلة في تاريخ الإنسانية، لأنها تعبير مباشر عن عواطف الاجتماع البشري التي اقتضت منذ أقدم الحقب، أن يُسر الإنسان بما يُسرّ به صديقه، أو جاره، أو قريبه. . . وقد عرفنا، من ناحية أخرى، أن الإنسان لا يمكن أن تكتمل له سعادة بحادث سار طرأ عليه، إلا إذا وجد من يقاسمه المسرة به من جموع الإخوان والأصدقاء المقربين. من هذا المنطلق كان حرص المجتمعات، في مختلف البيئات، على توطيد علاقات التبادل الاجتماعي، وترسيخ أساليب التجامل بين الناس، بتقديم التهاني، وإظهار البِشْر وإعلان السعادة، عندما يحدث ما يكون سبباً للسُّرُور والابتهاج عند الذين يحبونهم، أو يرتبطون معهم بسبب من أسباب الخلطة والاتصال.

ومن أقدم المناسبات الموجبة للتهنئة، وأكثرها وقوعاً: ميلاد الأطفال، وما يُحدِثه مجيئُهم إلى هذه الدنيا عادة من ألوان الابتهاج.

فممّن طرق هذا الباب: الكاتب أبو محمد غانم[1] الذي بعث إلى بعض إخوانه بغرناطة يهنئه بمولود له، وكان قد تأخر عن فعل ذلك لأنه فاته أن ينتبه إليه فقال: «ومِمَّا أغفلته بقلة اليقظة، وسألت الله أن لا تكتبه عليَّ الحَفَظة، تَهنِئَتُك بالفارس المولود، والفرع المودود، والنجم السعيد، الذي تطلّع في أفق سمائك، وتلفع بلفاع ضيائك مُلِّيَتهُ ولداً بَرّاً، ووفياً حُرّاً»[2].

هذه الأسطر القليلة، في رسالة يبدو أن التهنئة ليست هي الغرض الرئيسي لها، تحتوي على معظم عناصر المجاملة في هذا الباب: من ذكر للمولود، وإشادة بشريف مُنتماه، والدعوة له بأن يكون قُرّة عين والده... والذي لا نجده في هذه الرسالة من العناصر التقليدية الأخرى هو إظهار السعادة بقدومه. ومع أن الرقعة ليست أصلاً في التهنئة، كما أسلفنا، فإن لذلك سبباً آخر، فيما نقدر، وهو أن المولود قد جاء إلى الدنيا في بيت لا ينقصه الأولاد، فقد يكون تقدَّمه إخوة كثيرون، منهم الذكور، ومنهم الإناث، فليس في مَقْدَمِه ما يكون مدعاة لفرح استثنائي، زيادة على الفرح الذي يكون عند كل ولادة.

أما إذا كان المولود مُنتَظراً، مُرتَقباً، تتطلع إلى مجيئه همم الوالدين ومن يرتبط معهما بسبب من أسباب القرب والولاء والصداقة، فالفرحة لا يمكن إخفاؤها، والسرور طافح لا يمكن أن تخطئه عين ولا أذن..

وممن هنأ بمثل هذه المواليد: أبو القاسم بن الجد[3] الذي بدأ رسالته، إلى صديقه، ببيان معاني الانتظار والترقب هذه في قوله: «إن أحق ما انبسط فيه للتهنئة لسان... أمل رُجّي فتأبّى زماناً، واستُدعِي فلوى عِناناً، وطاردته المنى

---

(1) قال صاحب الذخيرة: «الأديب العالم الناثر، الناظم، أبو محمد غانم». وهو غانم بن الوليد بن محمد بن عبد الرحمن المخزومي. توفي سنة 470 هـ. وهو من أدباء مالقة. وانظر أخباره وأدبه في ذ: 2/1، ص: 853، وهامش المحقق بها، والثبت الذي أورده بمراجع ترجمته.

(2) ذ: 2/1، ص: 855.

(3) أبو القاسم بن الجد: تقدم التعريف به: وزير فقيه، كاتب. انظر ذ: 2/1، ص: 285.

فأتعبها حيناً، وغازلته الهمم فأَسْعَرها حنيناً، ثم طلع غير مرتقب، وورد من صحبة المباهج في عسكر لَجِب. . . »[1].

هذه عبارات جليّة المعنى في الدلالة على أن المولود لم يكن عزيز المَقْدَم فحسب بل إنه كان مطلوباً، مرغوباً فيه، مُتَشوَّقاً إليه، وأنه أتعب الأهل والأحباب بتمنعه وتأبّيه. . . حتى كادوا منه ييأسون. فلا غرو حينئذٍ أن تتجاوب أصداء الفرحة بمجيئه في كل مكان: «فكان كالمُشير إلى ما بعده من مواكب الآمال، والدليل على ما وراءه من كواكب الإقبال، أو كالصبح افترّت عن أنوار الشمس مباسمُه، والبرق تتابعت إثر وميضه غمائمُه. . . »[2].

وبعد وصف ما أحدثته هذه الولادة من السعادة في المحيط القريب، يستوفي الأديب باقي معاني التهنئة من ثناء على العرق الكريم والأصل الشريف وحمد الله على ما أعطى، وتمني المستقبل المشرق للوليد. . .

هذان نموذجان، لعلهما يكيفيان في الدلالة على ما نقصد إليه من المضامين الفرعية التي تتطرق إليها التهنئة بالمواليد وما يأتي في سياقها من الثناء والمدح، للوالد المخاطَب، والتمنيات للوليد.

وإذا كان ميلاد الطفل مناسبة سعيدة تلهج فيها الألسن بالتهاني، فمما يسعد الناس به أيضاً، ويقدم الإخوان والأصدقاء على التهنئة به: تقلّد مناصب المسؤولية العليا في الدولة.

ليست الإطالة في تفسير معاني التهنئة بتقلد المناصب الرسمية من موضوعنا، وإنما نكتفي بالإشارة إلى أنها ذات منطلقات عديدة، ربما كانت كلها مقصودة عندما يهنىء أحد الناس صديقاً له، في تلك المناسبة. فمن هذه الاعتبارات المقصودة ثقة الملك التي وضعت فيه وهي رأس مال لا يستهان به. ثم هناك الجاه، أي المكانة الاجتماعية التي تتيح للإنسان أن ينعم بامتيازات

---

(1) ذ: 1/2، ص: 292.

(2) نفسه، ص: 293.

مادية وأخرى معنوية لا تأتي إلا من خلال أمثال تلك المناصب. وأخيراً فربما كانت الكفاية والمهارة والنباهة، التي تم الاعتراف بها، وتوّجت بإسناد منصب المسؤولية إلى صاحبها، من المعاني المقصودة بالتهنئة.

وقد كان الأندلسيون يعيرون انتباهاً خاصاً لهذه المسؤوليات، وكان ذَوُو الكفاية والسياسة منهم يرون بلوغها هدفاً شرعياً يجدّون السير إليه، ومكافأة طبيعية لهم على ما حصلوا من العلم والمعرفة والمهارة في التصرف. ولذلك كانوا يسعدون أكبر السعادة بالوصول إلى تلك المناصب، وكانوا يهنئون عليها، ويكثرون من الثناء على أصحابها.

وكانت الوزارة منصباً راقياً لا يبلغه من رجالهم، في العادة، إلا من حَصَّل قدراً كافياً من الحكمة، والحنكة، والنبوغ. فإذا قُلِّدَها واحد منهم أقبلوا عليه يشاركونه سروره وابتهاجه بمثل هذه التهنئة التي كتبها الأديب أبو محمد بن عبد البرّ[1] والتي يقول فيها: «أطال الله بقاء الوزير الأوحد، الخطير الأمجد مسروراً بسموّ الأحوال والرُّتَب معصوماً من طوارق الأحداث والنُّوَب»[2].

وهو يصف ووقوع نبإ البُشرى عليه في العبارات التالية: «ولما طلع البشير عليّ بتصيير الوزارة إليه ودَوْرِ رَحَى الخلافة عليه، جدّدت لله تعالى حمداً وشكراً، ولنعمه الجزيلة ذكراً ونشراً، وأخذتني هزة الجذل والارتياح، وأسفر لي وجه الأمل والاقتراح، فانتشيت من فرح وطرب، ونيل مراد وأرب، ودعوت الله أن يجعلها ولاية، تبلغ من السعد نهاية، وتُضَاعِف للدين حماية... الخ»[3].

هذه المقاطع التي انتخبناها من رسالة ابن عبد البرّ تبين مقدار السرور الذي كان على المهنىء أن يظهره بتقلد المخاطَب منصب الوزارة، وفي ذلك ما يشير إلى عظيم قيمتها. وكما أنها تأتي إلى صاحبها في موكب مَهيب من الجاه،

---

(1) أبو محمد بن عبد البرّ، تقدمت الإشارة إليه.

(2) ذ: 1/3، ص: 217.

(3) نفسه.

والسلطان، والعزة، والأُبَّهة، فإنها قد تُؤخَذ منه، فيفارقُها في موكب رهيب من الأذى والإهانة، والإذلال، والأوجاع التي قد تؤول إلى استصفاء المال، والتنكيل بالأحياء، والتمثيل بالجثث... ولذلك فنحن نفهم الدعوة التي صاغها الكاتب حين تمنى لصاحبه المستَوْزَر أن يكون «معصوماً من طوارق الأحداث والنوب».

وربما أتيح لبعض الناس أن يتقلدوا أكثر من منصب، في آنٍ واحد، فيدل ذلك على مبلغ مالهم من الفضل، ويسرع الرفاق إلى التهنئة بكل ذلك، متّخذين منه ذريعة للإغراق في المدح والثناء، ونعت صاحب الولاية بكل الصفات الحميدة.

وقد كان لابن خفاجة صديق عين قاضياً، وثنيت له الوزارة، أي سمي ذا الوزارتين، دُفعةً واحدة، فبعث إليه برسالة يهنئه فيها على هذه الرتب العالية. فقد كان لخطة القضاء شأن عظيم فكيف إذا قرنت بالوزارة، وكانت الوزارة منصباً خطيراً فكيف إذا جاءت بالتثنية. ولكن الكاتب يرى أن صاحبه أعلى من جميع الرتب، ذلك «أن القضاء وإن شرف مرتبة، وكرم مأثرة... ليضيق عن نصل فضلك غِمدُه ويغرق في بحر فخرك مَدُّه، ويزدان بنحر مجدك عِقدُه»[1] ولذلك فإن ابن خفاجة يهنىء القَضَاءَ على فَوْزه بالمخاطَب ويهنىء الوزارة على أن حَظِيَت برجل مثله، وفي ذلك يقول: «فَليهنه أن تسربلت طَوقَه، وتحملت أَوقَه، وليهنىء الوزارة أن شُدّت بجيدك عُراها، ونيطت بنحرك حُلاَها»[2]. أما عن تثنيتها فليست إلا إحدى نتائج فضله، وثمرات مجده: «وشفع لها فضلك، فأصار وترها شفعاً، وجمع إلى بصر بها سمعاً...»[3].

وإذ كان الموضوع هو التهنئة، فإن الرسالة كلها تأتي في قالب بيّن من المدح والإطراء، وحشد النعوت والأوصاف التي توهم أن الممدوح ملك عظيم،

---

(1) ذ: 2/3، ص: 556.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

أو بطل له في كل أفق مَوْقِعَة، وليس مجرّد موظف كبير، رُفع إلى رتبة سياسية ـ إدارية يملك فيها ولي نعمته حق موته وحياته. . .

كانت هذه المناصب، في الواقع، عُرضة لكثير من التقلبات. وكانت النعمة بها كثيراً ما تنقلب إلى نقمة يغص بها المصاب، وتنغص عليه صفو الحياة، فإذا نجا الإنسان من محنة، أو سرح من سجن، أو زال عنه غضب السلطان، اعتبر الأصدقاء هذه الحوادث مناسبات للمسرّة والابتهاج، وسارعوا إلى التهنئة بها.

فممن لهم رسائل في هذا الغرض الكاتب أبو القاسم بن الجد[1] الذي بعث إلى الوزير الفقيه أبي القاسم الهوزني[2] يهنئه بالنجاة من نكبة كادت تحل به، أو ما سماه صاحب الذخيرة: «نبوة خلصت إلى غربه، وروعة كادت تطير بسربه»[3] ويبدو من هذه العبارات، ومن المعاني المفهومة في الرسالة أن أبا القاسم الهوزني هذا قد صدر عنه ما يغضب السلطان، فساءت أحواله لذلك، ثم رضي عنه السلطان، أو زالت أسباب غضبه، فبعث إليه الأصدقاء برسائل التهنئة، كهذه التي يقول فيها أبو القاسم بن الجد: «قد يُجْتَنَى ـ أعزك الله ـ من شجر المَسَاءَة ثَمَرُ المسرّة، ويُجْتلى وجه المحبوب غبّ المكروه، مشرق الأسرّة. . .»[4].

ونحن لا ندري ما هو سبب الوحشة، ولا ما هي المآخذ التي أثارت نقمة السلطان عليه، ولكننا نفهم من الرسالة أنه امتحان عسير مرّ به، كاد يعصف بكل حياته. وهو أمر يكاد يكون شائعاً أو مألوفاً في بلاطات الملوك، أُولئك الذين إذا

---

(1) أبو القاسم بن الجد: سبق التعريف به أكثر من مرة.

(2) أبو القاسم الهوزني: حفيد أبي حفص بن عمر الهوزني الذي قتله القاضي ابن عباد في إشبيلية سنة 460 هـ. وانظر، تفاصيل ذلك في ذ: 1/2، ص: 81 فانتقم له أبو حفص هذا بتحريض يوسف بن تاشفين على المعتمد بن عباد.

(3) ذ: 1/2، ص: 291.

(4) نفسه.

أعجبوا بالواحد من الناس، رفعوه إلى أعلى المراتب في وقت قصير، ثم قد يغضبون عليه، لغير سبب مفهوم، فيبالغون في إهانته، ويذيقونه ألواناً من العذاب.

ولابن حيان[1] رقعة «يهنىء بها بعض العمال بخلاصه من نكبة» يقول فيها: «كتابي عن نفس قد أشرق وَجْه صباحها، وهبت رياح ارتياحها، وسرى نفس السرور فيها، بما طلع علينا من البشائر السارة بخلاصك، وجميل انفكاكك ومناصك»[2]، وهو مدخل يظهر فيه الكاتب، كما نرى ابتهاجه بخلاص هذا الوالي من النكبة التي كادت أن تُودِيَ به. ثم ينتقل إلى ذكر ما بأصحابه من الحزن عليه، ملماً ـ من خلال ذاك ـ ببعض المدح لهذا الوالي المنكوب، حين ينسبه إلى الفضل الذي دأبت الأيام على مناهضته، ومناصبته العداء منذ أقدم الأزمان. ويختم الرقعة بما ينتسب أيضاً إلى المدح، حين يذكر معاني الصبر الذي أبداه الوالي المصاب، والجَلَد الذي واجه به الأيام المتنكرة. وفي ذلك يقول له: «بل صادفت منك الإبريز الذي لا يزيده السبك إلا تخليصاً، والمُبَرِّز الذي لا يُعقِبُه حُؤُول الأحوال نكوصاً، تَتلقَّى الخطوب بصدر وَسَاع، وصبر منفسح الباع، وتسبر الدهر بمسباره، وتعرف من مكنونه حقيقة إيرَاده وإصداره»[3].

والذي يحسن بنا أن نشير إليه، في هذا المقام، أن المدح الذي يأتي في سياق التهنئة يختلف تماماً عن أنواع المدح التي يكون فيها التمجيد مقصوداً لذاته، أو لكسب مصلحة مادية أو أدبية من ورائه. ذلك أن المدح الوارد في سياق التهنئة هو جزء من المجاملة التي يقصد إليها المهنىء من حيث يبتغي

---

(1) هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان، شيخ المؤرخين في الأندلس، توفي سنة 469 هـ. تحدث عنه ابن بسام في ذ: 2/1، ص: 573. وبها ثبت للمحقق بمراجع ترجمته وأخبار كتبه.

(2) ذ: 2/1، ص: 584.

(3) نفسه، ص: 585.

إظهار قيمة المخاطب، وأن تنكّر الأيام له لا يعدو أن يكون خطأ منها، بالإضافة إلى أن مظاهر النكبة لم تنل شيئاً من مجده وسؤدده. فكأنها حين تكالبت عليه إنما أصابت منه العَرَض الذي لا يضر ضياعه، أما الجوهر فباقٍ كما هو.

هذان نموذجان تقدما لنا من الكتب التي هنأ فيها أصحابها من نَجَوْا من نكبة، وتخلصوا من ورطة. وهما كافيان في الدلالة على هذا النوع من الترسل الاجتماعي، لولا أننا لا نريد أن نختم الحديث في هذا الموضوع من دون أن نشير إلى واحدة من تلك الرقاع الكثيرة التي دبجتها أقلام الأدباء عندما أُطلِق سراح الأمير أبي عبد الرحمن بن طاهر من سجنه عقب النكبة التي حلّت به[1] وقد اخترنا منها الرسالة التي كتبها الأديب أبو جعفر ابن جرج[2] الذي بدأها بهذه التأملات العامة في الأيام وصنيعها: «ما أعجب الأيام! ـ أُعْقِبْتَ منها السلامة والسلام ـ فيما تقضي، وكيف تمضي، تتعاقب بتلوين، وتتراءى بين تقبيح وتحسين، وهي تَعتِب وتُعْتِب، وتعتذر كما تذنب، وتصدع وتشعب، كما تجدّ وتلعب»[3]. هذا هو رأي الناس، والعاقلين منهم بوجه خاص، في الدنيا أو الأيام، أو الدهر، وغيرها من الأسماء التي ترجع إلى مسّمى واحد... ولكن الناس لا يكادون يرون هذه الصفات في الأيام إلا حين تكشر لهم عن نابها، وتذيقهم كأس أَوْصَابها، أما قبل ذلك فما أعظم غفلتهم عن مكرها، وانقيادهم لأساليب خداعها...

ويأخذ ابن جرج بعد ذلك في التهنئة، مازجاً فيها بين معاتبة الأيام على ما

---

(1) هو محمد بن أحمد بن إسحاق بن طاهر، صاحب إمارة مرسية، وقد احتلها أبو بكر بن عمار وزير المعتمد بن عباد، ثم استقل بها، وسجن بها أبا عبد الرحمن بن طاهر هذا ولم ينقذه إلا شفاعة أبي بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية. انظر تفاصيل ذلك في ذ: 1/3، ص: 24 وما بعدها.

(2) الوزير الكاتب أبو جعفر بن جرج كان وزيراً لأبي بكر بن عمار حين ثار برمسية. وانظر أخباره في ذ: 1/3، ص: 448.

(3) ذ: 1/3، ص: 449.

فعلته بالمُهَنَّإ، وحمدها على ما آلت إليه من تفريج كربته. ومن هنا يتجلى لنا أنه كان قد أحسن افتتاح هذه الرقعة حين بدأها بذكر ما تأتي به الأيام من حسن الصنيع وقبيحه. وفي ذلك يقول: «وإن صنيعها عندنا فيك وإن كان ألاَمَ، فقد أَحْمَد، إذ أخمد ما أوقد، فعاد غيث[1] على ما أفسد. . .»[2].

ويمزج التهنئة بالمدح، مسلياً في آنٍ واحد عما أفسدته الأيام من ذلك الشمل الملتئم، والنظام المكتمل للأمير المنكوب فيقول: «وعند مثلك للقدر التسليم، فأنت الخبير العليم، أنه ما اختلف الليل والنهار، إلا بنقض وإمرار، ولا دار الفلك المدار إلا بطوالع ومغار، وكنت في الأرض من أسنى مطالعها الباهرة الأنوار، فلا غرو أن أدركك ما يدركها من الأفول حيناً والسرار»[3].

هذه نبرة تعزية واضحة، تختلط بالتهنئة. والواقع أن الحاجز بينهما دقيق للغاية في مثل هذا السياق. ذلك أن المرء ليحار، حين يخاطب ابن طاهر في مثل هذه المناسبة التي تشتبك فيها المواقف المتناقضة: أيعزّيه على ضياع ملكه، أم يهنئه بخروجه من سجنٍ ربّما كان ينتهي بموته؟ ومع ذلك نرى الكاتب أبا جعفر يرفع زاوية من الحجاب الكثيف ليطل منه بصاحبه على شعاع الأمل، فيقول: «فقد تُكسَف البُدور، ثم تعاودها الإضاءة والنور»[4]، ولكنه أمل ضعيف جدّاً ولذلك تَغلبُ الكاتِبَ عواطف الابتهاج بالنجاة على معاني التطلع إلى استعادة ما فات. وتبقى نغمات التعزية هي المسيطرة في مثل قوله: «ولا تأس على أعراض الدنيا، فهي رهينة بزوال وذهاب، وكل الذي فوق التراب تراب»[5].

وقد فهم الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر غاية الفهم معاني هذه الرسالة،

---

(1) كذا في المطبوع.

(2) ذ: 1/3، ص: 450.

(3) نفسه.

(4) نفسه.

(5) نفسه.

وأدرك مرامي صديقه أبي جعفر، فعرف أنه يريد التسلية في قالب المشاركة والتهنية، فقال له حين كتب إليه جواباً على رقعته تلك: «وافي كتابك الكريم رائداً في جناب التسلية، ومنيراً من أفق المشاركة والتهنية. . .»[1] ولذلك كنا نرى أن التهنئة في هذا السياق لا تخلو من أن تكون ذات صلة ما بالتعزية والبحث عن الأساليب الملائمة التصبير المصاب، وإدخال العزاء إلى قلبه.

ومما يلتحق بالتهاني التي تكون فرعاً من تبادل المجاملة بين الإخوان إظهار الابتهاج والمسرة بأداء فريضة الحج التي كانت مناسبة حقيقة بالتعبير عن عواطف المحبة والوفاء، لما يمثله أداؤها من قيمة في عمر الإنسان المسلم، ثم لما كان يكتنفها من مشاق وأهوال وأتعاب في ذلك الأوان. فإذا عاد الحاج وقد فاز بالحج وسلامة الإياب، كان في ذلك غرض واسع لإظهار الحبور، والتعبير عن التهاني.

وممن طرق هذا الباب: الأديب أبو القاسم بن الجد[2] حين بعث إلى أحد أصدقائه العائدين من الحجاز رقعة يقول في مفتتحها: «كتبت وقد هزني وافد البشري، واستخفني رائد المسرة الكبرى، بما سنّاه الله من قدومك محوط الجوانب والأرجاء، منوط الفخار بذوائب الجوزراء، محطوط الأثار في مواطن الرسل ومواطىء الأنبياء. . . .»[3].

لقد ضمن الكاتب هذه المقدمة الموجزة مجمل المعاني التي أشرنا إليها قبل حين عند إظهار المسرة بالبُعْدَين اللذين تنطوي عليهما مثل هذه التهنئة وهما: سلامة الأوبة، وقضاء الفريضة وما فاز به، لذلك، من عالي المنزلة وعظيم الفخار. ثم ينصرف الكاتب في باقي الرسالة، وهي طويلة نسبيّاً، إلى تتبع الحاج وهو يتنقل عبر كل مراحل حجه: من الإحرام، إلى الطواف، إلى

(1) ذ: 1/3، ص: 451.

(2) هو الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد: تقدمت الإشارة إليه عدة مرات.

(3) ذ: 1/2، ص: 288.

السعي بين الصفا والمروة، إلى الوقوف بعرفة ورمي الجمار. . . دون أن ينسى زيارة قبر الرسول قبل ذلك، أو بعده. . .

والطريف في كل ذلك أن هذه التهنئة ذات الموضوع الديني قد أخرجها الكاتب مخرج المدح والثناء، ورفع فيها الحاج المهنأ إلى مكانة سامقة من العز والمجد، مما قد يوحي بأنه لم يكن صديقاً عادياً لابن الجد، وأنه ربما كان من الأئمة الكبار أو القضاة، أو أهل الحكم والسياسة. وقد يُقوي هذا المذهب أننا وجدناه يقول في آخر الرسالة: «ولما قعد بي عن قصدك ما قعد، ولم يمكنّي الوفود عليك في جملة من وفد، استنبت كتابي منابي»[1]. إن الاعتذار عن عدم القيام بالزيارة وتقديم التهنئة حضوراً، لا كتابة، مما قد يدلّ على أن المهنَّأ ليس من عامة الناس. ولكن ذلك لا يعني مطلقاً أن الصديق لا يزور صديقه، إثر عودته من الحج، ولو ارتفعت بينهما الكلف، وسقطت كل دواعي الحرج والاحتياط.

كانت كل أنواع التهاني التي تناولناها إلى حد الآن ذات طابع إخواني، كيفما كانت الفوارق الاجتماعية أو السياسية بين الكاتب والمخاطب. بيد أن لنا رِقاعاً أخرى وجهها أصحابها إلى الملوك في أغراض التهنئة. ولو كان الكاتب يصدر فيها عن منطلق رسمي ما، لما وجدت هذه الرسائل مكانها في هذا الفصل، لأنها تكون حينئذٍ من الإنشاء الديواني. ولذلك لم يكن بوسعنا أن نجد لها مكاناً يلائمها أكثر من هذا الفصل. والحق أنها رسائل إخوانية باعتبارٍ ما، وإلا فما الذي يبيح لرجل، مهما علا شأنه أن يخاطب الملك مخاطبة المهنِّىء، المشارِك له في الفرح والسرور.

فمن هذا الصنف من التهاني ما كتبه أبو محمد بن عبد البرّ[2] إلى المعتضد بن عباد[3] مهنئاً بأخذ مدينة شلب، وانتصاره فيها على خصومه، حكام

---

(1) ذ: 1/2، ص: 289.

(2) أبو محمد بن عبد البرّ. من الوزراء الكتاب في بلاط المعتضد. وقد سبق الحديث عنه.

(3) المعتضد بن عباد: ابن القاضي أبي القاسم بن عباد مؤسس الدولة في إشبيلية. والمعتضد هو والد المعتمد، وقد حكم من 433 إلى 461 هـ.

الغرب الأندلسي[1] : «أعزز به من صنع جميل صنع الله لك بحصول قاعدة شلب وذواتها في قبضتك، واستظلال ذلك الأفق بظل طاعتك، وخروج صاحبها عنها من غير عقد عاصم، ولا عهد لازم، قد خاب ظنه في التماسك، وأخلفه أمله في التهالك، فأي نعمة ما أجلّها وأجزلها. . .»[2].

في هذه الرقعة نبرات من الأدب الرسمي الذي تتجلى فيه هيبة الكاتب من المخاطب فلا مجال فيه للمداعبة، ولا لاستعمال الصور البلاغية التي توهم بنوع من الصحبة بين المتخاطبين. وإذا كان لا بد من إظهار مشاعر السرور والإبهاج، فليكن ذلك في قالب المتابعة للملك، والنسج على منواله. كأن يقول له: «فظهوري منوط بظهورك، وسروري مَوْصول بسروروك، واتصال حالي بأحوالك، وحبلي بحُبالك، هَنَّأَك الله وإياي ما خوَّلك، وقرن بالزيادة آلاءه قِبَلَك»[3].

ولا غرابة في أن تظهر على الكاتب سيماء هذه الهيبة التي هي من الخوف لأن المخاطب هو ذلك الملك العنيف الشديد: المعتضد بن عباد الذي أرسى دعائم المملكة، والذي بلغ من قسوته أن قتل ابنه إسماعيل حين أخذ يتآمر عليه[4] ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نخلي العلاقة بين الرجلين من كل معاني الصداقة وإن كان لا بد لها من أن تكون من نوع خاص، فالكاتب وزير للملك، ومقرب منه، وهو من أدنى رجال حاشيته إليه.

وثمة نص آخر يشتمل على مثل هذه التهنئة بين كاتب وملك، وهو الذي بعث به الوزير الكاتب أبو عبيد البكري[5] إلى المعتمد بن عباد يهنئه فيه:

---

(1) وهم بنو الأفطس، وعاصمتهم: بطليوس. راجع ما كتبناه عنهم في الفصل الأول من هذا البحث.

(2) ذ: 1/3، ص: 129.

(3) نفسه.

(4) انظر أخبار ذلك في البيان المغرب، ج 3 ص: 244 وما بعدها وفي ذ: 1/3 ص: 143.

(5) الوزير الفقيه أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز البكري، أديب، فقيه له تآليف في اللغة والجغرافية، توفي عام 487. وانظر، ذ: 1/2، ص: 232.

«بالفتح الذي كان سنة تسع وسبعين وأربعمائة»[1] وقد جاء فيه: «أطال الله بقاء سيدي ومولاي... وهنأ ما منحه من فتح ونصر، واعتلاء وقهر. بطالع السعد يا مولاي أُبْتَ، وبسانح اليُمْن عُذْتَ، وبكَنَفِ الحرز عُذْت. وفي سبيل الظَّفر سِرت، وبقَدَم البِرّ سعيت...»[2].

ونحن نلاحظ في هذا المدخل أن التهنئة نفسها تبدو وكأنها مجرد ذريعة تتيح للكاتب أن يمدح مولاه، ويثني عليه وهو في نظره الملك الظافر في معركة حاسمة. على أننا ما إنْ نتقدم شوطاً في قراءة الرقعة حتى نرى معالم التهنئة أكثر وضوحاً، وذلك من خلال بيان الآثار الإيجابية لهذا الفتح على الإسلام والمسلمين: «فغدا الدين جديداً، والإسلام سعيداً، والزمان حميداً، وعمود الدين قائماً، وكتاب الله حاكماً، ودعوة الإيمان منصورة، وعين الملك قريرة»[3].

ثم لا يلبث الكاتب أن يعود إلى صيغ المدح التي يبدو أنه ذو مهارة عالية في تنويعها، وإخراجها مخارج جديدة، كأن تأتي مثلاً في سياق حمد الله على سلامة الملك «بعد أن صَلِيَ من الحرب نيرانَها، فكان أثبت أركانها، وأصبر أقرانها»[4]. والواقع أن التهنئة في هذه الحالة، كما في الحالة السابقة، لا تعدو أن تكون فرصة يبرهن فيها الأديب المقرب من الملك، أو الوزير الطائع لسلطانه، عن عظيم الولاء عبر ألوان من المدح، وصيغ من الثناء، يحتال للوصول إليها كيفما كان الغرض الذي يتناوله. وأي غرض أصلح لمدح الملوك من مناسبات انتصارهم في المعارك والحروب؟ فكيف إذا كان الانتصار في حجم ذلك الذي تمّ في الزلّاقة!...

* * *

---

(1) المقصود هنا هو معركة الزلاقة التي انتصرت فيها جيوش المسلمين بقيادة يوسف بن تاشفين على النصارى في التاريخ المذكور (479 هـ) الموافق لسنة 1086 م، وهي التي يعرفها التاريخ الإسباني باسم «ساكرالياس».

(2) ذ: 1/2، ص: 235.

(3) نفسه، ص: 236.

(4) نفسه.

هكذا نستطيع أن نقول إن أدب التهاني قد «غطّى» مجمل مناسبات التهنئة الإخوانية والسياسية، فشارك أصحابه أصدقاءهم وأولياء نعمتهم في ابتهاجهم وسرورهم، وقاسموهم أسباب الانشراح والارتياح بميلاد الأطفال، وتولي المناصب السامية في الدولة، والنجاة من محن الزمان ومصائبه، ولا سيما تلك التي تأتي عن طريق الملوك وأرباب السلطان... وكانت التهاني في كل مناسبة مَطِيَّةً ذَلُولاً يركبها الأدباء للمدح، والثناء، والتغني بفضائل المهنإ وصفاته الحميدة. وإذا كانت التهنئة تعبيراً عن سرور، فإن السرور بطبيعته لا يمكن أن يدوم في هذه الدنيا، والأيام التي تضحك في وقت ما، تبكي في وقت آخر، و«من سرّه زمن ساءته أزمان» ولذلك، وكما حمل النثر في باب المجاملات أعباء التهنئة وإظهار المسرة، فقد حمل أيضاً هموم التعزية وإبداء عواطف المشاركة في مناسبات البؤس والحيرة والحزن.

* * *

د ـ في التَّعَازي:

إن ما كنا قلناه عن المظهر الاجتماعي للتهنئة ينطبق تماماً على التعزية، خلا أن تلك تعبير عن عواطف المشاركة في مناسبات المسرّة والابتهاج، وهذه مشاركة في الأحزان، والأتراح، وأثناء الحوادث المختلفة التي تأتي بما لا يحب الإنسان. ولعلّ التعازي أكثر من التهاني تأثيراً في العلاقات الاجتماعية، وتكييفاً لها، لأنها ركن هام من أركان التضامن والتكافل، فإذا كان الإنسان يبتغي أن يشاركه من يحب لحظات السرور، ويقاسمَه السعادة في أوقات راحته وهنائه، فإنه حين يفاجئه من دهره ما يكره، أو تتبدّى له الدنيا بوجه العداوة الذي كانت تخفيه... ينتابه إحساس غامر بالكآبة والبؤس، فإذا قل المؤاسون من الرفاق والإخوان في مثل هذه الظروف الصعبة، وتفرق الصحب والخلان، في الوقت الذي تشتد حاجته إليهم، فَقَدَ الأمل، واستسلم لليأس والقنوط.

لهذه الاعتبارات كانت أوقات المحن وأزمنة البلاء أحسن مقياس لمعرفة مدى إخلاص الأصدقاء، ووفاء الخلان بعضهم لبعض، إذ كان الإعْراب عن

المحبة، وتقديم البراهين على الإخلاص سهلاً ميسوراً في فترات الرخاء، لا يكاد أحد يقوى على التمييز فيه بين المودة الحقيقية ومواقف المداهنة والنفاق. . .

لقد سبق لنا أن تحدثنا عن كثرة التقلبات التي كانت حياة الناس، والأعيان منهم بخاصة، عرضة لها في الأندلس خلال الفترة المؤرخة، إذ كان عدم الاستقرار السياسي، وانتقال السلطة فجأة من يد إلى يد، وطمع كل أمير في ما عند جاره، وسعيه إلى احتواء أرضه وسلطانه، كل هذه الظروف كانت تقوض أمجاد الكبراء في زمن قصير، وتقضي بَغْتَةً على ما كان لهم من عظيم المنزلة، ورفيع المكانة. وحينئذٍ تتفرق عن المُصاب الجموع التي كانت تبدي له من التقدير ما يضاهي العبادة والتقديس، فلا يبقى بجانبه إلا عصابه قليلة من الأوفياء ترثي لحاله، وتعزّيه على ما قد حلّ به.

من هذا القبيل ما كتبه أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال[1] إلى أحد الوزراء المنكوبين نَكْبَةً «أنبأت بتعذر أوطار ذوي الأخطار، وأعلنت بكساد الفضل، واستشساد النذل»[2]. وقد بدأ رقعته إليه بالثناء على صلابة عوده، وشدّة جلده في المكاره وهو ما نعبر عنه اليوم برفع «المعنويات»، وذلك في قوله: «مثلك. . . يَلقَى دهره غير مكترث، وينازله بصبر غير منتكث، ويبسم عن قطوبه، ويفل شباة خطوبه»[3] ثم يُعقب بعد ذلك بالتبشير بقرب انجلاء الظلمة عن فجر لا ريب فيه. وهو معنى لا يكاد يستغني عنه كاتب يعزي في مثل النكبة التي أصيب بها الوزير المعني، لأن في ذلك تعبيراً عن الأمل الذي لا يفارق نفس المنكوب في تحسّن الأحوال، وتصرف الأيام بالإحسان بعد الإساءة. بيد

(1) هو أبو عبد الله محمد بن مسعود بن طيب بن أبي الخصال من أدباء كورة شقورة، في الجانب الشرقي من الأندلس. عاش ما بين 465 - 540: شاعر كاتب، أخباره في الذخيرة 2/3، ص: 786. وانظر هامش المحقق بها، ففيه ثبت بمراجع ترجمته.

(2) ذ: 2/3، ص: 806.

(3) نفسه.

أن الكاتب لا يلح كثيراً على هذا المعنى، وكأنه يراه بعيد المنال فيكتفي بالإشارة الخاطفة إليه في قوله: «فما هي إلا غمرة ثم تنجلي، وخطرة ويليها من الصنع الجميل ما يلي»[1]. ثم يقبل على صاحبه لينسيه خمول حاضره بترقيص المعالم المَجيدة من ماضيه، فيثني عليه في لهجة من يريد أن يقنع غيره بشيء، لا من يذكر البديهيات المتفق عليها، كما هو الشأن عادة في المدح المقصود لذاته. ويختم الرقعة بإظهار التوجع من صنيع الأيام، وتوبيخها على ما تقترفه من الذنوب في حق الكرام، بينما تُنْزِل اللّئام المنازل الرفيعة...

وقد تكون تعزية ابن عبد البرّ لأحد أصدقائه من هذا القبيل أيضاً، وإن لم يذكر لنا طبيعة النكبة التي أصيب بها. والطريف في الأمر هنا أن المعزِّي ـ ابن عبد البرّ ـ نفسه منكوب بما سبب له الحيرة والألم. فهو يقول لصاحبه: «واتفق لي ما قد علمت من الانزعاج والاضطراب، والتغرب والإياب، لا والله ما جرى من حركاتي شيء على مرادي واعتقادي، وإنما هيأتها الأقدار والآثار»[2].

غير أن ظروفه الخاصة لا تمنعه من أن يسارع إلى مشاركة المعزَّى في مصابه بتوجيه هذه الرقعة إليه، وهو يعلمه فيها بأنه علم بعد عودته من غربته بما أصابته به «صروف الأيام من الامتهان والائتلام»[3]، وهكذا أصبح الموجوع يَرُوم التخفيف عن موجوع آخر، والمتألم يسعى إلى تسلية متألم آخر من رفاقه، وقد صحّ له أن يقول: «فقد جمعتنا حوادث الأيام وصروفها، وقد اختلفت أنواعها وصنوفها»[4] وإن كان ابن عبد البرّ يعترف بأن مصيبته أقل من مصيبة صديقه، فلذلك يقول له: «على أن الذي أصابك أثقل عبئاً، وأعظم رُزْءاً»[5].

والحق أننا إذا استثنينا الجمل الدعائية القصيرة في آخر الرسالة ـ من مثل

---

(1) نفسه.

(2) ذ: 1/3، ص: 128.

(3) نفسه.

(4) نفسه، ص: 129.

(5) نفسه.

قوله: «والله يعظم أجرك، ويجزل ذخرك» ـ فإننا لا نجد فيها الصيغ التقليدية للتعزية، ولعلّ مردّ ذلك إلى أن الكاتب المعزِّيَ نفسه منكوب، يتألم من مصابه، ويجد في مصاب صديقه ما يعينه على التأسي، وتصعيد حزنه نحو منافذ التأمل والتفلسف، وهو ما كان بدأ به الرقعة. وفي ذلك يقول: «من صحب الدهر ـ أعزك الله ـ وقع في أحكامه، وتصرف بين أقسامه: من صحة وسُقم، ووجود وعدم وفناء وهرم، وبعاد واقتراب، وانتزاح واغتراب»[1].

من الواضح أننا هُنَا أمام صوت الوقار والحكمة حين يعبر عن حوادث الدهر القُلَّب. وفي هذا التأمل تعزية قوية لأصحاب العقول، لأنه يخرج النوازل المؤلمة مخرج الشيءِ العادِيِّ الوُقُوع، ففي طبيعة الأيام أن تفعل ما فعلت، فما معنى الغضب والجزع حينئذٍ ولكن أمزجة الناس مختلفة، وطبائعهم في مواجهة الخطوب متباينة. ومن مناسبات التعزية ما لا تكون فيه للمعزّي قدرة على امتلاك انفعالاته، كما هو الشأن في كثير من حالات الموت.

إن حتمية الموت حقيقة مطلقة لا يرقى الشك إليها أبداً، ولا تحتمل أيّ وجه من وجوه الخلاف بين الناس. ثم إن الإنسان ـ منذ أن خلقه الله ـ لم يعتد وقوع حادث كما اعتاد وقوع الموت، الذي هو جزء من مظهر الحياة نفسها. ومع ذلك فلا شيء أكثر تأثيراً في النفس، ولا مصاب أفعل في وجدان الإنسان منه. فهو الكارثة الكبرى التي يهون أمامها كل خطب، وتصغر عندها كل مصيبة.

وقد احتفظت لنا المصادر بمجموعة كبيرة من رسائل تعزية الأحياء في من يموت لهم من الأقارب والأصدقاء، بعضها يركب فيها كتّابها أسلوب الجزع، والانفعال، والتألم، كما فعل أبو عمر بن الباجي[2] حين كتب معزياً فقال: «كتابي عن نفس مستطارة بلوعتها، وكبد مذابة بروعتها، وعن قلب شعاره برح الجَوَى، وأعشاره نهب الأسى، تفجُّعاً لما فَجَعَك، واشتراكاً في عظيم المصاب معك. . . .»[3].

---

(1) ذ: 1/3، ص: 128.

(2) سبق التعريف به.

(3) ذ: 1/2، ص: 190.

وابن الباجي هذا نفسه يقول في تعزية أخرى، وقد استخدم فيها الأسلوب المتقدم ذاته: «بأي لسان ـ أيدك الله ـ أخاطبك مذكّراً، أو بأي مقال الاطفك مصبّراً، وقد أذهلتني فجأة الخطب، وتركتني طائر القلب واللّبّ، وقد رماني ساعد الزمان حين رماك وأصْماني سهمُه كما أصماك...» إلخ من هذه التعابير التي يخلع فيها الكاتب لباس الأناة والصبر، ويأوي إلى ركن التفجع والتحصر، وذكر ما أحدث فيه نبأ موت الفقيد من عميق الجراح...

أما بعض الكتّاب الآخرين فيفضلون أسلوب التأمل والحكمة الذي يصف من حال الدنيا ما يجعل الموت فيها أمراً عادياً، أو يلح على فكرة حتميته وشموله. فممّن انتهج هذا الطريق في التعزية: الأديب أبو العباس أحمد بن قاسم المحدث حين كتب إلى بعض الأعيان يعزيه في إمرأة ماتت له، فقال: «قد علم ـ أطال الله بقاءه... ـ أن سكان هذه الدار، وإن تراخت بهم الأعمار، ينتقلون منها تنقل الأفياء.... فإنّ مَن وقع تحت الكون والفساد، وانبعث من الأضداد في مركز الأضداد، غير بديع في طباعه أن يَنحلّ جرمه ، إلى مَا مِنْه تألف حجمه... فتعود عند ذلك الطبيعة الترابية إلى أصلها، والشعلة النورية إلى شكلها...»[1].

أليس عجيباً أن يكون هذا الكلام في تعزية رجل بامرأة هي منه ـ كما يقول الأديب نفسه ـ: «كالبنان من اليد والزند من العضد»[2]، وهو يعترف في مكان آخر من هذه الرسالة، بأن المعزّي ممن يعرف بالتفصيل مثل هذه الأمور التي تحدث للحيّ والميت. ولكنه أسلوب في التفلسف غمر التعزية حتى إنّ القارىء لينسى أن هذا الكلام موجه إلى من فقد عزيزاً عليه...

غير أن أغرب الغرائب في هذا الباب رسالة التعزية التي كتبها أبو محمد ابن عبد البرّ، إلى بعض أصدقائه يعزيه في والدته التي قضت نحبها، فإذا به يحاول إقناعه بأنه لا شيءَ أليق بالنساء ـ ومنهن والدته التي يبكيها ـ من الموت،

(1) ذ: 2/1، ص: 912.
(2) ذ: 2/1، ص: 912.

ولا شيء أحسن لهنّ من ظلمة القبر!! وها هي عباراته: «والنساء كيف كانت مراتبهنّ، والحُرَم وإن جَلّت منزلتهن، لم يُغلق عليهن كأبواب التراب، ولم يُسدل دونهن كستور القبور»[1] وليس تفسيره لهذا الموقف بأقل غرابة من الموقف نفسه، فهو يقول: «وربّ أم مبرورة، وأخت كبيرة، قد نزعت منزعاً من الصيانة، وذهبت مذهباً من مباح الديانة، ودّ ابنها وأخوها قبل ذلك لو طواها كَفن، ووَارَاها جنن، فتقدُّمهنّ أصون لهنّ، وأولى بهنّ»[2]!!.

على أنه من الإنصاف أن نسارع إلى التنبيه إلى أن هذه اللهجة قد اقتصرت على صاحب هذه الرقعة، وأن سائر الأدباء قد أظهروا من الألم والتفجع في التعزية بموت النساء، مثلما أظهروا منهما عند التعزية بموت الرجال. ولذلك كنا نظنّ أن بعض الظروف الشخصية الخاصة التي مرّ بها الأديب ابن عبد البرّ، هي التي ربما دفعته إلى هذه المضائق التي لا غناء وراءها.

ونجد في بعض التعازي عناية كبيرة بوصف مآثر الفقيد، وذكر ماله من عظيم القيمة، بصفة مجملة، دون أدنى تحديد، وهي تَعَازٍ تذكِّرنا بقصائد الرثاء العربية وما فيها ـ عادة ـ من المبالغة والتهويل في الحديث عن الأثر الذي يجدر بموته أن يُحدثه في عالم الإحياء. وذلك نظير ما في قول أبي عبد الرحمن بن طاهر، حين عزّى بعض أمراء الأندلس بموت أبيه: «كتبت لهفان وقد أسمع الناعي، فأضرم نار الأسى بين أضلاعي، للرزية العظمى التي رمى سهمها فأصمى، بوفاة من جُمعت فيه المحاسن والخلال، وزال كما تزول الجبال، وقلّ له المشابه والنظير، ومات بموته البشر الكثير، الحاجبِ ذي الرياستين أبيك، ربِّ الشرف الصميم...»[3].

ويتجلّى هذا المنهج عند ابن طاهر في رقعة أخرى هو فيها أبين وأظهر

(1) ذ: 1/3، ص: 218.

(2) نفسه، ص: 219.

(3) ذ: 1/3، ص: 75.

حيث يقول عمن يُعزِّي بموته: «وكان البقيَّة التي يؤنس لبقائها، ويعشى إلى أضوائها، فاختلسته المنية، وفجعت به الدنيا الدنية. . . وأما عهدنا فقد درس منه العهد، بخطوب يُتمنى منها الفقد: بلاد لحقها التغيير، واستولى عليها التدمير، وأكلت الجوعة بنيها، وتعطل الشرع والدين فيها، فلا صلاة تجمع، ولا منبر يرفع، والكل ذاهل، وفي حوض الرَدَى ناهل، فلينُحْ على الإسلام نائح، وليجبه صدًى من جانب القبر صائح»[1].

وواضح أن هذا النوع من التعزية يكاد أن يكون وقفاً على أصحاب الرياسة من رجال الممالك، وهو في حقيقته جعجعة فارغة إن كانت ترضي مراسيم المجاملات اللائقة بأصحاب السلطان، فإنها عديمة الفائدة من الناحية العاطفية، لأنها لا تمثل بصدق حال المعزِّي وطبيعة انفعالاته. بل إن فيها من المبالغة ما يحجب عن القارىء كل أثر للصدق فيها، فهي مجرّد لوحة فنية يُظهر فيها الكاتب مهارته «التقنية» في التعبير عن حالات التفجع الصناعية، أو رصف الصفات التي تليق بمنزلة المُعَزَّى فيه، ومكانته في سلم السلطة. . . .

وهكذا استخدم الأدباء هذا الغرض في التقرّب من الملوك والحكام، ولم يمنعهم جلال موضوعه عن تسخيره لقضاء مآربهم، حتى كأن موت الميت فرصة أتيحت لهم، فكل واحد يريد أن يُظهر بمناسبة ذلك مقدار وفائه وإخلاصه بتدبيج التعازي واستمطار شآبيب الرحمة على الفقيد، سواء كان من أقارب السلطان، أو حتى من خدامه، ورجال دولته.

فمن أمثلة التعزية، في الحالة الثانية، ما كتبه أبو عامر التَّاكُرُنِّي[2] إلى بعض الأمراء يعزيه في فقد قاضي دولته، في حادثة ما، لعلها كمين نصب

---

(1) ذ: 1/3، ص: 76.

(2) أبو عامر محمد بن سعيد التاكرنّي، نسبة إلى تَاكُرُنَّا من قرى رُنْدَة. وكان أبوه من وجوه الدولة العامرية. فلما قامت الفتنة لجأ إلى بلنسية حيث دولة مظفر ومبارك فلما زالا وتولّى مكانهما عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر صار أبو عامر عماداً لدولته، وموضعاً لثقته. انظر ذ: 1/3، ص: 226.

لجماعة من رجال الأمير، ذهب القاضي ـ فيمن ذهب ـ ضحية له.

قال الكاتب: «واتصل بي الحادث على القاضي أبي العباس ـ رحمه الله ـ فقصم ظهري، وجَلَّ مُصابُه عندي، وعلمت موضع فقده من نفسك العزيزة ـ حرسها الله ـ وأشفقت من ذلك أشد الإشفاق، واحترقت نفسي (لـه) أبلغ الاحتراق»[1].

ويورد في سياق هذه الرسالة ما يفيد بأن الملك لا يرى في القاضي الفقيد مجرّد خادم، كسائر الخدم من سامي الموظفين في دولته، وأنه يخصه ببعض اعتبار ربّما كانت له صلة بالصداقة والمودة. ولذلك كان في الرسالة نصيب من التعزية التقليدية كما في قوله: «وعلمت أنه لا بد، في مفارقة الإخوان، وثقات الخدمة والأتباع... من لوعة تلذع الكبد، وتفت العضد، لكنّ من كان في قوى نفسه على خَليقتك، وجرى في اعتبار الدنيا على طريقتك، فهو يلقى خطوب الدهر بمجنّ من الصبر، إذ قد ذاق حلوها ومرّها...»[2].

وكيفما كانت عاطفة الكاتب في حقيقة أمرها، ومبلغ صدقه في التأثر لفقد القاضي فإن غرض المدح، والتقرب من الملك، وتقديم براهين الولاء له، مما لا يمكن أن تخطئه العين في كتاب أبي عامر. ويكفي في الدلالة على ذلك أنه يختم الرقعة بهذا الثناء الجم في قوله: «وكل جليل يصغر عند الدفاع عن حَوْبائك، وكل خطير محتقر مع سلامتك وطول بقائك»[3].

وربما وجد الأدباء ـ المساكين ـ أنفسهم في حيرة من أمورهم حين تتصرف الأيام بشؤون ملوكهم، وأولياء نِعَمهم، تصرفاً تمزج فيه بين ما يبهج وما يحزن، وتخلط فيه مناسبات السرور بمناسبات البؤس والألم. وإذ كان لا بدّ لهم من مشاركة أُولئك الملوك في انفعالاتهم بحوادث دهرهم، فإنهم يجتهدون للمزج بين السعادة والشقاء حين تُسفِر الأيام عن حوادثها التي يكون فيها ما يبكي وما

---

(1) ذ: 1/3، ص: 244.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص: 245.

يضحك، أو ما ينبغي أن يتلقاه الخدام الطائعون، الحريصون على رضى الملك، بالبكاء والضحك في آنٍ واحد.

وكثيراً ما يكون هذا في ظروف أضحت معروفة لدى أدباء العربية في المشرق والمغرب وهي حين يموت الملك ويخلفه على العرش ابنه، فيخاطب الملك الجديد بعبارات التعزية بوفاة الوالد، وبعبارات التهنئة لانتقال الخلافة إليه.

ومن هذه الحالات التي تمتزج فيها أيضاً دواعي التعزية بدواعي التهنئة موت وليّ العهد، وعقد ولاية العهد لابن آخر مكانه. وهذا ما أراد أبو محمد بن عبد البرّ أن يعبر عنه في رسالة مزج فيها بين هذين الغرضين. وقد بدأ رسالته ممهداً لها بما يناسبها من المداخل، حين تَحدَّث حديثاً طويلاً عن أحوال الدنيا وما فيها من تناوب للمسرّات والمساءات، فالأيام تتنقل بين حادثة تسعد الإنسان، وأخرى تملأ قلبه كرباً وشقاءً. ثم يدخل إلى موضوع رسالته فيقول:

«أنهي إليَّ من تقليدك العهد، وإمضائك العقد للناصر، (سيدي، وأسنى عددي، أبقاه الله) ـ على بلنسية ـ. . . . مكان المعتصم ـ رحمه الله ـ فقلت مُلْك تردد في عنصر، وخَاتَم تنقل من خنصر إلى خنصر، وقد سَدَدْت ـ أيدك الله ـ ثَلْماً، وشفيت كَلْما، وسُمْتَ الخطوب رَغْماً، وأوسعتها همّاً»[1].

ونحن نلاحظ أن هذه الرقعة تخلو من كل أثر للعاطفة الحقيقية، والانفعال الصادق بالحادث المزدوج. فلا هي تنطوي على شيء من المسرة بولاية العهد الجديد، ولا هي تتضمن أيّ قدر من الحزن على ولي العهد الذي فارق الدنيا في مقتبل عمره، وإنما هي رسوم من المجاملة كان على الأديب أن يُنشِيء فيها رقعة فأنشأها. وكل ما فيها من عمل إيجابي للأديب الكاتب إنما هو المهارة «التقنية» في الجمع بين غرضي التعزية والتهنئة، وهو ما لفت انتباه من يجمعون الأدب ويكتبون تاريخه، وربما كان ذلك هو السبب الذي حفظها لنا، إذ أن

---

(1) ذ: 1/3، ص: 216.

صاحب الذخيرة قد أوردها في كتابه، مقدماً لها بقوله: «وله من أخرى جمع فيها بين التهنئة والتعزية»[1]. ومن يدري، فربما لم يكن فيها ما يستحق الاهتمام، لولا هذه الثنائية الدالة على المهارة الفنية.

ويمكننا أن ننهي الحديث عن التعازي بملاحظة أن هذا الغرض قد استوفى معظم المعاني التي نعرفها في التعزية والرثاء بالشعر. وقد خاطب الأدباء بالتعزية أصنافاً عديدة من الناس. أغلبهم من الحكام، وعزّوهم في طوائف كثيرة من المفقودين... ولكن عواطف المشاركة الحقيقية لم تكد تظهر في النماذج الكثيرة التي استعرضناها، وكأن الكتّاب أقاموا حاجزاً منيعاً بين قلوبهم وعواطفهم، وبين الحوادث التي ينقلون أخبارها، ويكتبون، في الأصل لإظهار مدى انفعالهم بها. ولعل خير ما كتبوه في هذا الغرض إنما هو تلك التعابير «الفلسفية» التي قدّموا بها، غالباً، لرسائلهم، والتي جاءت طافحة بالحكم البليغة، والتأملات العميقة، في تصرفات الأيام وتقلباتها المحيرة.

* * *

هـ - في العتاب والهجاء:

كاد العِتاب - في مسار العلاقات الإنسانية - أن يكون لازمة من لوازم المودة حين يعرض لها ما يعكر صفوها، وضريبة لا تكاد تنجو منها الصداقة المكينة الراسخة حين تواجه، في ظرف من ظروفها، عواصف الزمان وتقلباته. ولعل الشاعر قد أحسن ما شاء في التعبير عن هذه الحقيقة حين قال:

أعاتب ذا المودَّة من صَديق إذَا مَا رَابني مِنْهُ اجْتِنَابُ
إذا ذَهَبَ العِتَابُ فلَيْس وُدّ ويبقى الودّ ما بقيَ العتَابُ[2]

فالعتاب بهذا المعنى، يصبح شكلاً آخر من أشكال التعبير عن المودة بين المتصافيين، وحارساً لها يحميها من الذبول والتلاشي. وتفسير هذا التأويل

---

(1) ذ: 1/3، ص: 216.

(2) راجع مادة «عتب» في لسان العر.

الإيجابي للعتاب أنه يأتي نقيض الإهمال واللامبالاة، فالإنسان لا يعاتب من لا تربطه به علاقة صداقة أو قرابة، لأنه لا يكاد ينتبه لتصرفاته. أما الذي ينتمي إليه بصلة ما، فإنه لا يفتأ يتحسس ما يصدر عنه وما لا يصدر، فإذا تغيرت أساليبه في التعامل معه، أو بدر منه ما ينم عن برود عاطفة، أو فتور علاقة، سارع إلى استنكار هاتيك التصرفات، والتشكي منها، وطلب التفسير لها. وذلك هو الذي نسمّيه: العتاب.

ومن الأدلّة على فعالية العتاب في تحريك العواطف الساكنة وتسخين المودة الفاترة، ذلك التأثر البالغ الذي يكشف عنه الأصدقاء الذين يتلقون كتب العتاب، فيسارعون إلى الردّ عليها، والتبرُّؤ مما فيها من المآخذ، كما فعل الأديب أبو عمر بن الباجي[1] حين بعث إلى صديق معاتب يقول له: «المودات ـ أعزك الله ـ إنما تثبت دلائلها، وتصح مخايلها، بمضمرات الفؤاد، لا بمزورات المداد. . . . وفي علمه تعالى أني من الاعتداد بمَجْدِك، والاعتلاق بحبل ودّك، والإسناد إلى كرم عهدك، بمنزلة لا يتعاطى إدراكَها أحد، ولا تَطُول يدَ صفائي فيها يد. . .»[2].

إن هذا المدخل الرقيق الذي فيه هذا المقدار من إظهار المودة، والاعتزاز بالصداقة، يخفي تأثراً بالغاً بالعتاب الذي وصل إليه من صديقه، وهو تأثر سرعان ما يحمله على امتطاء أعنف الأساليب في الردّ عليه، ولا سيما حين يقول له «وقد ورد كتابك ففضضته عن مثل عقارب لاسبة، وسهام نافذة صائبة، من عتاب صدع قلبي، وفتّ في عضدي، وتقريع لم أقف ببابه، ولا جذبت بأسبابه»[3].

ما أعظم انفعال أبي عمر بعتاب صديقه، وما أشدّ ما وصفه به حين جعله «عقارب لاسبة، وسهاماً صائبة». فلا عجب أن يكون العتاب محيياً للمودة إذا

---

(1) أبو عمر بن الباجي تقدم التعريف به.

(2) ذ: 1/2، ص: 192.

(3) ذ: 1/2، ص: 192.

صفا مبعثه، لأنه يستثير الصديق ويستفزه، فيكون في ثورته تمكين للمودة وترسيخ لها.

وبعدُ فإذا كنا حاولنا أن نتبيّن موقع العتاب من مسار العلاقات الاجتماعية بين الناس، ونقف عند مثل واحد من أمثلة التأثيرات البالغة التي تحدثها كتب العتاب في الأصدقاء حين يصيرون موضوعاً للّوم والتقريع، والأمثلة على ذلك كثيرة متنوعة[1]. . . فإنه يتعين علينا أن نستجلي أنماط العتاب من خلال بواعثه لنعرف أهم مضامينه ومحتوياته في أدب هذه الفترة المدروسة.

ويبدو أننا لن نكون في حاجة إلى بذل الكثير من الجهد لنعرف أن أهم محاور العتاب، وأكثرها وروداً، تدور ـ بشكل رئيسي ـ على مسألة التنكر للصداقة، والتفريط في بعض ما تستلزمه من واجبات، والتقصير في ما ينبغي للأصدقاء من التأييد والمساعدة. وربما جاء العتاب في قالب الرد على كتب الأصدقاء العتابية، لدحض التهم، والتنصل من الأسباب التي كانت وراء غضبهم. وقد يرمي بعيداً فيفقد طابعه الأول: حماية المودة من الذبول، ويصبح نوعاً من أنواع الهجاء، لا يقل عنه في شيء.

ولأبي حفص بن برد الأصغر[2] قطعة بينة الدلالة على هذا المذهب من العتاب المخلص الذي مبعثه الحرص على اتصال المودة. يقول في بداية رسالته «أظلم لي جوّ صفائك، وتوعّرت عليّ أرض إخائك، . . . فليت شعري ما الذي أقسى مهجة ذلك الودّ، وأذوى زهرة ذلك العهد؟ عهدي بك وصلتنا تَفْرَقُ من اسم القطيعة، ومودتنا تسمُو عن صفة العتاب ونسبة الجفا»[3].

ويبدو أن ما طرأ على العلاقة بين أبي حفص وصاحبه من تغير قد دفع

---

(1) انظر على سبيل المثال رسالة ابن الحداد في «الجواب عن كتاب عتاب» في ذ: 2/1، ص: 693.

(2) تقدم التعريف به، وانظر ذ: 1/1، ص: 486.

(3) ذ: 1/1، ص: 501.

بالكاتب دفعاً إلى أن يضع مستقبل هذه الصداقة ضمن ثلاثة آفاق لا رابع لها، وذلك على النحو التالي: «وأنا الآن على طرف من إخائك معك، فإما أن تدلي بحجة فأتنصل عنك، وإما أن تنبىء بحقيقةٍ فاستديم خلتك، وإما أن تأزم على فأسك فأقطع حبلي منك»[1] وهذا، كما نرى، موقف غاية في الصراحة والصرامة.

ولأبي حفص بن برد رأي في العتاب عموماً، يختم به رسالته وهو أنه «كثيراً ما يكون حيلة تُسبَر المودّة بها... كما يُعرض الذهب على اللهب، وتصفّق المُدام بالفِدام. وقد يخلص الود على العتب خلاص الذهب على السَّبْك. فأما إذا أُعيد وأُبدي، ورُدِّدَ وَوُولي، فإنه يُفْسِدُ غرسَ الإخاء، كما يفسدُ الزرعَ توالي الماء»[2].

وهكذا نرى الكاتب يحدث في المقولة الشعرية السابقة: «ويبقى الود ما بقي العتاب» تغييراً ملحوظاً حين يرى أن العتاب يستنهض المودة ويستفز الصداقة ما جاء قليلاً، نادر الوقوع، فأما إذا كثر وتوالى فإنه يؤدي إلى إفساد ذلك الود بكل تأكيد. ونحن نستطيع أن نضيف إلى هذا الرأي تصحيحاً يكمله - فيما نعتقد - وهو أن توالي العتاب يدل دلالة قاطعة على فساد ذلك الود، فهو يعبر عن ذلك الفساد - ولو في مرحلة من مراحله - أكثر مما يسببه أو يؤدي إليه...

الواضح من رسالة ابن برد أنه يرد على عتاب، فهو لذلك يعاتب ذلك الصديق الذي فاتحه بالعتاب. والكاتب الذي هذا شأنه يكون في موقف دفاع لا هجوم، وفي وضعية من يرد الفعل لا من يبدأ به. ولذلك فلعله يحسن بنا أن نقف عند بعض الرسائل التي بادر أصحابها فيها بهذا النوع من الخطاب، لندرس من خلالها لوناً من ألوان الأسى الذي مبعثه تنكر الأصدقاء لرسم المودة.

---

(1) نفسه، ص: 502.

(2) نفسه.

من هذا القبيل الرسالة المطولة التي بعث بها أبو عامر بن التّاكرنّي[1] إلى أبي جعفر بن عباس[2] يشكو فيها ما يلقاه من إهمال صديقه له وإعراضه عنه. يقول في مقدمتها: «كتبت عن نفس تفيض بمائها، وتجيش بدمائها، وتشكو إلى الله عظيم أدوائها، غيظاً على تقلب الزمان، وعجباً من تنكر الإخوان...»[3].

وكما هي عادة المصابين على هذا النحو في عواطفهم، فإنهم يحمّلون الحوادث ما قد لا تحتمله من التأويلات حين يجعلون أنفسهم غرضاً تتكالب الأيام على تسديد سهامها نحوه. فالكاتب يضيف بعد كلامه السابق: «لا يلفظني عجب إلا إلى مثله، ولا انتقل من مستغرب إلا إلى شكله، إن أبرمت حبلاً من الإخاء نقض المفسدون مريرته، أو ملأت يدي بمن اعتد به للشدة والرخاء، أفسد الواشون سريرته...»[4].

وكان من شأن هذا العتاب بين الرجلين أن طال حتى غدا حواراً مسلسلاً في حلقات. وقد بدا أن لكل واحد منهما على الآخر مآخذ تتجاوز ما يكون عادة بين الصديقين، عند تقصير أحدهما في ركن من أركان الصداقة. والذي يبدو لنا أن الخلاف السياسي بين إمارتي المرية وإمارة بلنسية[5] قد ألقى بظلاله على المودة التي كانت بين الرجلين، فحجب عنها شعاع الطمأنينة التي تكون بين المتصافيين... ففي رسالة ثانية لأبي عامر ابن التاكرني - يرد فيها على الرقعة التي ردّ بها ابن عباس على رسالته المتقدمة، إشارة واضحة إلى أن واحداً من الأسباب البارزة للفتور الحادث في العلاقة بينه وبين ابن عباس مرجعه إلى تردد

---

(1) هو أبو عامر محمد بن سعيد التاكرني، خدم إمارة بلنسية عندما كانت تحت حكم مظفر ومبارك، ثم قامت دولة المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن، فاصبح أبو عامر من أشهر رجالاتها. انظر ذ: 1/3، ص: 226 وهامش المحقق بها.

(2) أبو جعفر بن عباس أديب ورجل سياسة، وزر لزهير الفتى الصقلبي حتى قتلهما باديس صاحب غرناطة. انظر خبر هذه الواقعة عن ابن حيان في ذ: 2/1، ص: 656 وما بعدها.

(3) ذ: 1/3، ص: 229.

(4) نفسه.

(5) يراجع ما كتبناه في الباب الأول عن إمارة المرية وإمارة بلنسية.

بعض الناس من «غير المرغوب فيهم» ـ على حد تعبيرنا في هذا العصر ـ على أروقة الحكم في إمارة بلنسية. ولكننا لا نعرف هل هؤلاء «المكروهون» هم أعداء لأبي جعفر بن عباس، تلقاهم ابن التاكرني بالمودة والترحاب، أم أنهم أعداء أميره زهير الفتى، حظوا عند أمير بلنسية بالعطف والتقريب، فعادى وزير هذا وزير ذاك، لأن الوزير لا يملك ـ في الغالب ـ إلا أن يكون على دين مليكه[1].

ما أغرب شأن الحكام! يملكون الأرض ومن عليها ثم يضيق براحتهم الأفق الرحيب إذا لقي أحد الذين يسخطون عليهم موطىء قدم، أو فاز برغيف الخبز وابتسامة الأمان عند حاكم آخر، فلا يرتاح لهم قلب ولا يطمئن لهم بال حتى يسعَوا في تشريده، وإثارة الدنيا عليه، أو تكون العداوة والبغضاء جزاء كل من يسكّن رَوْعَه، ويزيل أساه.

فإذا كان هذا شأن الحكام في التعامل مع نظرائهم من رؤساء الدول الأخرى، فكيف يكون تصرفهم مع رجالهم، وأعيان دولتهم حين يكون لهم أي نوع من أنواع الاتصال بمن لم يحظَ برضاهم من الناس؟ ذلك ما نستبين بعض جوانبه في رسالة كتبها الأديب أبو المطرّف بن الدباغ[2] إلى صديق له من أعيان الناس فاجأته الدنيا بما يأتي في أذيال الجاه والسلطان من أمور ينتشي بها الكائن الضعيف فينسى منشأه الأول، ومنبته الأصلي، والمحيط الذي كان يألفه أيام المنزل الخشن. . .

ويبدو أن هذا السيد من الأعيان قد نسي صديقه القديم، حين غضب عليه السلطان، وتنكرت له الدنيا فخاطبه بقوله: «لشد ما ألهتك الدنيا ـ أبا عليّ ـ

(1) الإشارات إلى هذا السبب السياسي واضحة كل الوضوح في رسالة ابن التاكرني، ذ: 1/3، ص: 237. فلا حاجة بنا إلى إيراد شيء منها.

(2) أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ. كان من رجال دولة المقتدر بن هود، ثم استوحش منه، فخرج من البلاد فاراً ولحق بالمعتمد بن عباد في إشبيلية. ولم تخل حياته هناك من تنغيص ففر منها أيضاً. انظر أخباره في ذ: 1/3، ص: 251.

بإقبالها، وشغلتك بأحوالها، فما تفكر في صلة، ولا تَبْتَـدِىءُ بمكاتبة، أو تراجع عن مخاطبة»[1].

ولسائل أن يتساءل أهي شؤون الحكم وأمور السياسية تشغل هذا الرجل عن التفكير في أصدقائه، وتصرفه عن تذكر ماله صلة ما بحياته الشخصية، وهو المستغرق في أداء الواجبات لقضاء حق الجماعة عليه؟ والجواب عند ابن الدباغ يكتب به إلى هذا الصديق، في قالب الاعتذار إليه: «ومن أين تجد سبيلاً إلى ذلك، وزمانك كله مقسَّم في أشغال، ومرتب على أحوال: تنام بالضحى مثقلاً من السكر، وتتململ على فراشك إلى الظهر، حتى يتكرر رسول فلان، فيوقظك من المنام، ويحركك إلى القيام، ثم تركب وتجد المائدة موضوعة، والأيدي، لإبطائك مرفوعة، فتدنو من الطعام بكسل... ثم تستلقي وتتمدد، وتتثاءب وتتوسد، وتستحضر جَنَّانك، فتسأله عن الجنة مَتَى سقاها...»[2] ويستمر الأديب في تعديد مشاغل هذا الصديق على هذا النحو، فبعد أن يطمئن على الأزهار، يسأل عن المزرعة وما جمع فيها، وما زرع، ثم يلتحق بمجلس الأمير، ويعقد دست الأنس فيأكل ويشرب ويلهو إلى أن يداهمه النوم، ويصل إلى النقطة التي بدأ منها بالأمس، وهكذا دواليـك...

هذا برنامج كفيل بأن يشغل صاحبه عن القريب والصديق. ولكن التفسير الملائم لإعراضه عن كاتب الرسالة بالذات مرجعه إلى أسباب دقيقة واضحة يلخصها في عبارات موجزة هي: «وأيضاً فإن السياسة تقتضي أن تُعرِضَ عَنْ ذِكر مِثلي وتلعَنَ وَقْتاً وَصَلتَ به حَبلي، لا سيما وقد دهيت من جهتي، وكاد السلطان يجفوك من أجل خُلطتي..» وتنتهي هذه الرسالة بهذه العبارة الرائعة: «أنت لعمري في أوسع العذر، فَاجْرِ مع الدهر»[3].

لا نظننا في حاجة إلى تعليق على هذه المقاطع البليغة من عتاب صديق لا

---

(1) ذ: 1/3، ص: 307.

(2) نفسه، ص: 308.

(3) نفسه.

يتذلل، ولا يستعطف، ولا يبيع كرامة بالمزاد، ولا يشتري مودة بالتزلف والنفاق.

ولم تكن مثل هذه المواقف نادرة في حياة الناس وقتئذٍ، فعلى كثرة ما كانت تسفر عنه الدنيا من الانقلاَبَات التي تضع هذا من عليائه، وترفع ذلك فجأة إلى المراتب التي ما كانت تخطر له على بال، وعلى كثرة ما كان يصدر عن أولئك المغترّين بابتسامات الدنيا العابرة لهم، فإنه من الإنصاف أن نلاحظ تميز العديد من ذوي الأصالة في الرأي، وانحيازهم عن ركب المنافقين الذين يسارعون بالمدائح والتهاني إلى أبواب كل من يجود عليهم السلطان بلقب من الألقاب.

وينبغي أن نذكر من هؤلاء المتميزين الشاعر الناثر أحمد بن هريرة القيسي المعروف بالأعمى التّطيلي[1]. فإنه يزيد في قيمة هذا الرجل أن صداقته القديمة الراسخة لمراسِله لم تمنعه من أن يتحسس موقف الأذى من خلال تصرفات ذلك الصديق، فكتب إليه يذكّره بعهد المودة، ويدعوه إلى إحياء رسم الألفة، في غير مس بكرامته، أو إهدار لماء وجهه، بل إنه يختم الرقعة كما سنرى بنبرة عالية من العزة والاعتداد بالنفس. يقول: «شاكرك أو شاكيك من لا يحمد ولا يذم الأيام فيك، يا سيدي ـ كناية عن ذكره، لا توخياً لبره، وإحياءَ رغبة في إنصافه، لا طمعاً في استعطافه ـ الذي عاطيته كأس الوداد فأَمَرَّها، وزففت إليه بنت الفؤاد فأضرّ بها وأضرّها، ومن أطال الله بقاءه ممتعاً بظل السلطان، وإقبال الزمان، فإن الرجل بسلطانه لا بإخوانه، وبإقبال زمانه لا بإحسانه...»[2].

ثم انظر إليه كيف يتحدث عن نفسه أمام هذا المخدوع بمظاهر منزلته الجديدة «إني ـ أعزك الله ـ وإن كان الدهر وضعني ورفعك، وضاق عني ووسعك، بين جنبي نفس عصام، وبين فكّي صارم بسطام...»[3].

---

(1) أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن هريرة القيسي المعروف بالأعمى التطيلي ناثر شاعر وصاحب موشحات. انظر أخباره في ذ: 2/2، ص: 723 وهامش المحقق يحتوي على ثبت وافٍ بمراجع حياته.

(2) ذ: 2/2، ص: 729.

(3) نفسه.

وبعد أن يذكره بما كان عليه من إبداء الحاجة إليه عند بداية ولايته، ثم كيف تغير له، وأعرض عنه، يصل إلى التنبوء له بالعودة إلى أصله، فيقول: «وولايتك خطر، وفي عملك نظر، إنما هو ظِلٌّ غمامة، وَمَبِيض حمامة، ثم تعود إلى استحلاس البيت، وأكل الخبز بالزيت»[1].

وهكذا كان عتاب فئة من الأصدقاء لمن ارتبطوا معهم بودّ قديم، ثم تنكروا لتلك الروابط. وقد جاء، كما رأينا، ملاماً رصيناً، لم يخرج عن حدود اللياقة، ولكنه كان واضح التعبير عن كرامة أصحابه، فيه ملامح الشخصية المحترمة، ونبرات الذات النبيلة التي ترفض التدني والسقوط.

وقد يكون العتاب في قالب التبرؤ من التهم ودفع الشبهات، كما فعل أبو محمد عبد المجيد بن عبدون[2] الذي كتب يلوم أحد أصدقائه، ففاتحه بهذا التقريع الشديد: «سلام على من نظر بقلبه لا بعينه، وحكم بيقينه لا بظنه، ونطق بعقله لا بهواه، وأخذ من دنياه لأخراه، ولم يستفزّه قال ولا قيل، ولم تهزه تلك الأباطيل»[3].

ويأتي إلى موضوع هذا العتاب فيقول: «بلغني قول من قضى عليّ بالظنة، وحكم بالشبهة، وللمقولات طرق لا يتعداها متعدٍ، إلا وكان وبال ذلك راجعاً عليه... لا سيما في ضربة توجب حدّاً، وتضرع خدّاً، وتفل من فاضل حدّاً»[4].

ويبدو أن هذه التهمة التي رُمي بها ابن عبدون قد أثرت فيه تأثيراً عظيماً، لأننا نجده في هذه الرسالة يحرص أشدّ الحرص على إبطالها، فهو يبدأ بتسفيه رأي من صدرت عنه: «لم يطلع مشيعها مني على ريبة، ولا وقف مذيعها على

(1) ذ: 2/2، ص: 730.

(2) أبو محمد عبد المجيد بن عبدون وزير بني الأفطس أصحاب بطليوس، تقدم التعريف به، وانظر ذ: 2/2، ص: 668 وما بعدها.

(3) ذ: 2/2، ص: 680.

(4) نفسه.

حقيقة، بل افتراء من مفترٍ، وادّعاء من مدّعٍ، في تلك التي لا أسميها، فإني طلقتها قبل الدخول ثلاثاً. . .»[1] ثم يعلل ذلك الطلاق بالظروف التي تكتنف اليوم حياته، ثم يخشى أن لا يصدقه الناس على ما في ذلك التعليل من صدق ونزاهة، فيقسم على وقوع ذلك الطلاق منه لها، بهذه العبارات: « وأعرف بما أقسم، والتزم من ذلك ما التزم، لقد تركتها خوفاً للمعاد، لا رياءً للعباد»[2].

إن هذه التي يبدي حرصه الملحوظ على التنصل منها، والابتعاد عن ساحتها هي الخمر التي طالما عاطى أكؤسها «والزمان مساعد، والسلطان مهاود». ويكاد المرء أن يستغرب حدة الانفعال الناجم عن هذه التهمة، وهو يعلم أن شرب الخمر لم يكن يومئذٍ يعتبر فضيحة يتجشم الرجل ـ كيفما كان وضعه في المجتمع ـ مشقة التَّنصُّل منها. فقد كان كثير من أهل الأندلس، حكاماً وسُوقَةً، رؤساءَ ومَرْؤُوسين. . . يشربون منها ما يشاؤون، ويتسابقون إلى وصف مجالسها ـ كما كنا رأينا ـ[3] بلا حرج. فما الذي دفع ابن عبدون إلى توجيه هذا اللوم العنيف، والتبرؤ بهذه الحرارة من جرم لم يكن المجتمع الأندلسي ـ فيما يبدو من أدبه ـ ينظر إليه على أنه كذلك؟ لعل التفسير الوحيد هو الذي ذكره الكاتب نفسه من أنه «خوف المعاد» الذي جاء توبة نصوحاً من رجل علته «أبهة الكبير، ووخطته واعظة القتير، وردّ ما استعار من الشباب إلى المُعِير»[4].

هذا عتاب فيه تكذيب لمضمون التهمة، ولكنه تكذيب لجانب محدد من هذا المضمون، إذ أن الكاتب لا يزعم أنه لم يشرب الخمر بتاتاً، وإنما ينفي أن يكون الآن من خطابها بعد أن «طلقها ثلاثاً» كما قال: فهو إذن تكذيب جزئي.

ومن وجوه العتاب على إشاعة التهم ما يكون فيه الكاتب في موقف من

---

(1) ذ: 2/2، ص: 680.
(2) نفسه.
(3) ينظر ما كتبناه في أدب الاستدعاء إلى مجالس الإنس حول محور «الصداقة والأصدقاء».
(4) ذ: 2/2، ص: 680.

ينفي وقوع ما يتهم به من الأساس، وهذا كثيراً ما يكون في الوشايات والنمائم التي يحرص الناس عادة، في كل الأحوال، على دحضها، وإبطال كل صلة لها بالواقع والحقيقة. ويكفينا من نماذج هذا الضرب من العتاب الرسالة التي كتبها أبو عبد الرحمن بن طاهر[1] وهي يقول في بعض أجزائها: «وأكرِمْ بخطابك الأثير، . . . . ولم أزل ألمحه، وأجيل طرفي وأتصفحه. . . إلى أن انكشفت لي أغراضه المبتدعة. . . عن ظن حكَّمْتَه في اليقين، وشك غلَّبته على الصبح المبين. أنا أنزه ميزك الثاقب، ونظرك الصائب. . . عن انتساب مثل ذلك إليك، واشتباه ما فيه عليك. . . ولا أدري له سبباً، ولا أعرف له موجباً إلا الإصغاء إلى من يضرب ويسعى بالفساد، ويدب بعقارب الأحقاد. . . وأنت أجل من أن تلتفت إلى غاشٍ، أو تعرج على ساعٍ بالنميمة واشٍ. . . .»[2].

إن هذه المقتطفات من رسالة ابن أبي طاهر تلخص غاية التلخيص منهج هذا الضرب من العتاب الذي تتوزعه الاهتمامات الرئيسية الآتية: البدء بالثناء على المرسل إليه وتعداد محامده، فالإشارة إلى سداد نظره وحصافة رأيه، ليتخذ من ذلك معبراً إلى التعجب من انطلاء زيف ما نُمِي إليه من الأخبار، وأخيراً التشديد على بطلان التهمة وبيان براءته مما عُزِيَ إليه، ونسبة المسألة كلها إلى النميمة والوشاية اللتين مبعثهما الحقد والغيرة وما إلى ذلك.

وكثيراً ما يتضمن العتاب، الذي يأتي على هذا النحو، قدراً كبيراً من السباب والهجاء الموجهين إلى أولئك الوشاة المسؤولين عن تعكير أجواء الود، وإفساد العلاقات الطيبة بين الإخوان. أما المخاطب نفسه فيبقى في محل الإجلال والاحترام. بيد أن هناك نوعاً من العتاب يمتطي من الأساليب ما يجعله في الحقيقة ضرباً من الهجاء الصريح، في بعض الأحيان.

ليس العتاب في الأصل وسيلة تمكن الصديق من إيذاء صديقه، أو توجيه

---

(1) أبو عبد الرحمن بن طاهر أمير كاتب، صاحب مرسية، وقد تقدم التعريف به في هذا الفصل.

(2) ذ: 1/3، ص: 31.

الضربات الموجعة إليه. وإنما هو منفذ لطيف يهيىء لأحد الأطراف المتعاقدة على المودة أن يصف ما يجده من ألم أو حزن أو مرارة.. من جراء تصرفات صادرة عن الصديق المخاطَب، آذَتْ، دون قَصْد مُبَيَّت من صاحبها، أو كانت وليدة سوء الفهم والتأويل. فإذا جنح العتاب إلى الإساءة، وقصد إلى إهانة «الصديق» وجَرْحِه، خرج عن غرضه إلى شيء آخر.

ولننظر، في ضوء هذه المعطيات، إلى رسالة كتبها ابن الدباغ[1] إلى بعض أصدقائه[2] حيث يوجه إليه في أولها هذا السؤال الجارح: «فمن أين حدث هذا التعالي، وما سبب هذا التغالي، عَرِّفْني ـ جُعلت فداك ـ وكأني أراك تتوقد في قعدتك، وتَتَشَاوَش في نظرتك، فما تُكلِّم إلا إن ابتسمت...»[3] ثم لا يكفيه هذا القدر من الإشارات المؤذية والعبارات الجارحة، بل يشرع في تفسيرها بإرجاعها إلى عواطف الطمع الملتهبة في صدر هذا الصديق، تلك التي زينت له أن يطمح إلى نيل خطة القضاء السَّنِيَّة في عاصمة المملكة. وهذا التطلع ليس عيباً في الحقيقة وأيّ حرج يكون على رجل فاضل أن يتوق إلى نيل منصب عظيم يرى نفسه كفؤاً له. ولكن ابن الدباغ يبلغ قمة العنف، وينزلق بخطابه من العتاب إلى أقبح أنواع الهجاء حين يعرّض بماضي صديقه هذا، ويقول له: «وهبك تحلَّيت بهذا السَّمْت، وتهيأت لهذا الدَّسْت، ما تصنع في قصة السَّبْت»[4]. ذلك أن هذا الصديق كان يهودياً أسلم، وحَسُن إسلامه، وتبّحر في فقه الشريعة الإسلامية. فلو كان طموحه إلى هذا المنصب أمراً ثابتاً، وليس مجرّد فرض أو احتمال، أفكان يجوز للكاتب أن يقول مثل هذا الكلام لصاحبه لو

(1) الوزير الكاتب أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ. انظر ذ: 1/3، ص: 251.

(2) يبدو أنه خاطب بهذه الرسالة ابن حسداي الذي كان يهودياً وأسلم، وانظر الهامش 6 في ذ: 1/3، ص: 307.

(3) نفسه.

(4) نفسه.

كان في معرض هجائه؟ فكيف وهو فيما يبدو لم يكن ينوي أكثر من العتاب. إنه لعتاب ألطف منه بعض الهجاء!...

وتشارك هذه الرسالةَ في طابعها المشوب بالهجاء، رسالةٌ كتبها أبو عبد الله البزلياني[1] إلى واحد من أشهر وزراء دويلات الطوائف في هذا العهد، وهو أبو جعفر بن عباس[2]. والذي أثار عواطف السخط لدى الكاتب إنما هو الكبرياء التي أبداها الوزير المذكور عندما وفد أبو عبد الله عليه. ولذلك نراه يفتتح الرسالة بالتشديد على ذم الصفات التي تلتقي بالكبر أو تتفرع عنه. قال: «كُلَفُ المروءة ـ أبقاك الله ـ صعبة إلا على الكرام، وطرق الجفاء رحبة لسلوك اللئام، والأحمق يرى البرّ خسراناً، ويعتقد إكرام الوافدين نقصاناً... (فـ) يجعل الكبرياء رِدَاءَه... والكبرياء رِدَاءُ الله الذي من جاذبه إياه قصمه...»[3].

ونحن هنا لا نظن أن البزلياني يفتري على ابن عباس الكذب، أو يتهمه بما ليس فيه، فقد شهر بالكبر حتى عدَّه صاحب الذخيرة من صفات أربع تقدم فيها سائر الناس وهي: «المال... والعجب... والبخل... والكتابة: وهي أقل أربعته...»[4]. وقد بلغ من عجبه أن أهان رجلاً أديباً لامعاً كالبزلياني إهَاناتٍ لا يَقْدِرُ ذو نفس كريمة على احتمالها. وهو يعرض علينا هذا الجانب منها في قوله: «وجئتك زائراً فكأني جئتك آملاً، وأردت مصافحتك فما مددت يداً، وطلبت معانقتك فخلتك مُقعداً...»[5].

على أن الهجاء الصريح الذي يقصد إليه الكاتب قصداً، ولا يبغي له تلطيفاً أو تخفيفاً بإخراجه مخرج اللوم والعتاب، إنَّما نجده في نماذج متميزة،

---

(1) أبو عبد الله البزلياني تقدم ذكره. انظر ذ: 2/1، ص: 624.

(2) أبو جعفر أحمد بن عباس: وزير لزهير الفتى، وقد تقدم ذكرهما والإشارة إلى ما وقع لهما مع أمير غرناطة.

(3) ذ: 2/1، ص: 633.

(4) نفسه، ص: 643.

نفسه، ص: 633.

لعلى أشهرها، وأكثرها تمثيلاً لهذا النوع من الأدب: الرسالة التي أنشأها أبو الوليد بن زيدون[1] في هجاء ابن عبدوس[2] والتي عُرفت عند الأدباء بالرسالة الهزلية. ذلك أن طابع السخرية هو الذي أدخلها في نوع الهجاء، من بابه العريض.

ولسنا نريد أن نطيل في استعراض فقراتها، وإنما حسبنا أن نلم بأهم محاورها. فهي تبدأ بوصف ابن عبدوس بالجهل والتفاهة والحقارة: «البَيِّن سَقَطُه، الفاحش غَلَطُه.... الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفَراش في الشهاب...»[3].

ثم يبدأ الاستهزاء عن طريق سيل من «الومضات»[4] التاريخية تهدف كلها إلى التحقير الكلي بواسطة التعظيم الساخر. ويتأتى ذلك بفعل المقابلات التي تُظهر المهجوّ في قالب المتفوق على النماذج المثالية، كلّ في الميدان الذي شهر به عبر الحقب المتطاولة من التاريخ.

وهكذا يعرض شريط متصل من وجوه التاريخ الإنساني وعُظَمائه، وذوي الثراء فيه، فإذا بابن عبدوس كأنه العملاق الفرد المتميز الذي لا يدانيه أحد في جاه ولا في علم ولا في سلطان. والمنهج الواضح عند الكاتب هو بلوغ منتهى التحقير والتصغير عن طريق التعظيم الاستخفافي، والمبالغة الاستهزائية.

من هذا القبيل قول الكاتب لمَهْجُوِّه: «انفردت بـالجمال، واستـأثرت بالكمال حتى... إن يوسف ـ عليه السلام ـ حاسنك فغضضت منه، وأن إمرأة العزيز رأتك فسلت عنه، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت،... وكسرى حمل

---

(1) أبو الوليد بن زيدون، من ألمع أدباء الأندلس ورجال الحكم فيها. أخباره في ذ: 1/1، ص: 336، وما بعدها. وبهامش المحقق ثبت لمراجع ترجمته.

(2) أبو عامر بن عبدوس غريم ابن زيدون ومنافسه على ولادة، توفي سنة 472 هـ.

(3) عن الأدب الأندلسي، لمصطفى الشكعة، ص: 595.

(4) نستعمل هنا كلمة ومضات مقابلاً للكلمة «فلاش» في اللغات الغربية.

غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك، والإسكندر قتل دَارًا في طاعتـك. . . .»[1]
ويمضي الكاتب في هذا الاستعراض، فيطيل فيه، وينتقل خلاله من مشاهير الفرس، إلى مشاهير اليونان، ومنهم إلى رجالات العرب، وأدبائهم، وعلمائهم، ومن اشتهر منهم بخصلة من الخصال في كل زمان ومكان. فإذا ما فرغ من ذلك أخذ في عدّ الفتوحات التي تهيأت لمهجوّه في كل باب من أبواب المعرفة. وهكذا، فبعد بلوغ التحقير بالمقابلة المعكوسة التي يظهر فيها المهجو هو المنتصر الفائز على من لا يمكن أن يتصور أنه يفوز أو ينتصر عليه، يبدأ رَمْيَه بأوصاف الجهل والغباوة عن طريق المبالغة في الإيهام بالذكاء والعلم والسبق إلى كل فن: «وإنك الذي أقام البراهين، ووضع القوانين، وحدّ الماهية، وصنف الأسماء والأفعال، وبوب الظرف والحال»[2]. وكأن هذا القدر وحده من التحقير بواسطة التعظيم الكاذب لا يكفي، فإذا به يجعله قادراً على صنع الخوارق والمعجزات، وفعل كل مستحيل من الأعمال، فيقول: «وإنك لو شئت خرقت العادات، وخالفت المعهودات، فأحلت البحار عذبة، وأعدت السلام رطبة، ونقلت غداً فصار أمساً، وزدت في العناصر فكانت خمساً. . .»[3].

ثم يظهر على ابن زيدون الإعْيَاء من هذا الرصف المتواصل، وهذا التكلف والالتواء في النيل من عدوه، فيغيّر من أسلوبه فجأة، ويأخذ في الهجاء الصريح المباشر الذي لا يكون عنده في البداية إلا أَتِيًّا مندفعاً من الأوصاف الذميمة، والنعوت القبيحة من مثل قوله فيه: «هجين القذال، أرعن السّبال، طويل العنق والعلاوة، مفرط الحمق والغباوة، . . . ظاهـر الوسـواس، منتن الأنفاس، . . . كلامك تَمْتَمَة، وحديثك غَمْغَمَة، وبيانك فَهْفَهَـة، وضحكك

(1) الرسالة في شرح العيون لابن نباته المصري (686 - 768 هـ) نشر دار الفكر العربي عام 1964. وهي في كتاب «الأدب الأندلسي» للشكعة، ص: 596. وفي «ابن زيدون» لشوقي ضيف، ص: 93 وما بعدها.
(2) عن «الأدب الأندلسي»، ص: 599.
(3) نفسه.

قَهْقَهة. . . ودينك زَنْدَقة، وعلمك مَخْرَقة»[3].

وبعد غمز كثير، ووخز متصل، تنتهي الرسالة بإنذار شديد لا يترك له فيه إلا الخيار بين سبيلين: إما التوبة، وإما العقاب الشديـد بنفيه إلى الحقول والمزارع حيث يغدو لعبة يتسلى بها جموع المزارعين.

هذه باختصار أهم مضامين الرسالة الهزلية المشهورة. وهي في الحق سباب رخيص، وتهجم من النوع المرذول، الذي ليس فيه غناء للأدب، ولا إيذاء حقيقي للمهجوّ به. والواقع أننا لم نجد في هذه الرسالة شيئاً تكون من أجله جديرة بالبقاء والخلود، ولعلّها تخلو من كلّ مقوّمات الفنّ الصحيح في موضوعها. ويبدو أن قيمتها كلها لا تعدو كونها برهاناً على ثقافة ابن زيدون، ومعارفه الواسعة، وإطلاعه الكبير. ولكن الذي يلفت الانتباه أن الكاتب لم يحسن توظيف هذه المعلومات ليبعث الروح في كائن ذميم نمقته لجهله، أو غبائه، أو جبنه، أو حقارته. . . وإنما جاءت الرسالة سرداً رتيباً، وتدافعاً مُمِلاً للأمثلة التاريخية، وأسماء الأشخاص، والصفات الجوفاء. . . أما معالم الإبداع الفني، فهي غير واضحة إن لم تكن عديمة الوجود على الإطلاق. ولذلك فينبغي أن تُلْتَمس البراعة الفنية عند ابن زيدون في عينات أخرى من نثره الجميل وشعره الرائق. وعزاء ابن زيدون أنه قلّ الناجحون في موضوع الهجاء والسخرية في كلّ آداب العالم، ذلك أنه من السهل على ذي الموهبة أن يُبكي الناس، وأن يستدر منهم دمع الإشفاق والاكتئاب، أما أن يدفعهم إلى أن يضحكوا ضحكاً صُراحاً عن طريق الاستهزاء والسخرية بالنماذج الحقيرة التافهة من البشر فذلك ما لم يَتَأَتَّ إلا لعدد قليل جدّاً من عباقرة الأدب في العالم، أتقنوا التصرف في هذا الضرب من الأدب الاجتماعي الذي يتغلغل في طوايا النفس الإنسانية، ويكشف خباياها ويجعل المجتمع يكتشف بعض عيوبه ويضحك منها مجسّدة في العينات التي يحركها الأديب وينفخ فيها الحياة.

* * *

(1) نفسه، ص: 601.

هكذا نأتي إلى نهاية هذا الحديث الذي كان نثر المبادلات الاجتماعية موضوعاً له. وقد رأينا من خلاله ألواناً من السلوكات، والانفعالات، وردود الفعل التي مبعثها هذا الضرب أو ذاك من ضروب التعبير عن «الجوهر» الاجتماعي للإنسان، وحرصه على تلقي أو تبليغ العواطف التي تُشعر بهذا الانتماء في مختلف المناسبات.

والذي يمكن أن نستخلصه من هذا الاستقراء الواسع لثمار هذه المبادلات الاجتماعية المتنوعة، هو أن المجتمع قد أبدى حرصاً ملحوظاً على التماسك والتضامن في تلك الآونة العصيبة من تاريخ البلاد. وذلك دأب الأمم العريقة ذات التراث الحضاري الأصيل، فإنها، على ما يكون في ظروفها الداخلية من أسباب الفرقة، والشحناء، والخلاف والتمزق... تستشعر الحاجة إلى أن يكفل أفرادُها بعضُهم بعضاً، ويقفوا في وجه الحوادث العاصفة بهم متكاتفين متعاضدين.

بيد أنه من السذاجة أن نظن أن عراقة هذا التراث ـ كيفما كانت ـ ورصيد الأمة من الأخلاق ـ مهما كان مبلغه ـ يعصمان المجتمع، حين تُلح عليه أمثال تلك الظروف الإنقلابية، وما كان يصحبها من فواجع وكوارث، تَقْلِب الأوضاع رأساً على عقب، في يوم أو بعض يوم، يعصمانه من السلبيات المعهودة، والآفات التي كثيراً ما تجد طريقها السهل إلى صفوف المجتمع في مثل هذه الأحوال.

والحق أنه كما قويت دواعي التلاحم، والتضامن، والتمسك بحبل الجماعة، والبحث عن صلاحها، كَثُرت في الوقت نفسه الأسباب المستَحِثة على الأنانية، والكسب الحرام، والإعراض عن أخلاق المروءة النبيلة، والتنكر للصداقة، والانسياق في تيارات النفاق والخداع الجارفة، والتهافت على أصحاب المراتب والمناصب. وكان من نتائج هذه الحوادث ومضاعفاتها الاجتماعية أن استنسر الذباب، واستأسدت الذئاب، وساد تفهاء الناس وجبناؤهم، فارتفعت إلى أجواز السماء، وتسنمت المراتب العليا خَلائِقُ من

البشر: منحطة الأخلاق، دنيّة الطبيعة، وجدت نفسها، على حين غرة، في مراتب لم تكن تخطر لها على مجرد البال، فأساءت التصرف في البلاد، وأساءت معاملة البقية الباقية من أفذاذ الرجال، الذين أظلمت آفاق دنياهم، وعَبَسَت في وجوههم أيامُهم، فمنهم من ذاق ويلات البؤس، ومرارة الجوع والحرمان، ومنهم من دفعته ضرورات الحياة دفعاً إلى التقرب من أولئك الكبراء المتغطرسين ، فعاملوهم معاملة اللؤماء الأراذل. . .

ومهما يكن من أمر، فإن النثر، في هذه الفترة، كان آلة تسجيل حسّاسة، استطاعت أن ترصد سيلاً من الانفعالات والمشاعر الغنية المتنوعة. فقد وقف إلى جانب الصداقة يذود عن حرمتها لأنها واحدة من أبرز ظواهر الاجتماع الإنساني، فتغنى بها، ووصف أجمل لحظاتها، ودعا إلى تعاطي أصفى وأحلى كؤوسها. فإذا طغت الغرائز الحيوانية، واضمحلّت إنسانية الإنسان، وتغلبت نواحي البهيمة فيه، وأزرى تصرفه بأنقى وأرقى ما فطر الله الإنسان عليه: المودة الصادقة، والسعي إلى خير الجماعة، وقف النثر ينافح عن القيم النبيلة، ويرد عنها السهام الجائرة.

وكم سعى النثر إلى توطيد علاقات المودة بين الناس، ونشر أعلام التراحم بينهم، فَهَنَّأَ في مختلف المناسبات التي يسر بها الناس ويسعدون، وعزّى في كل أنواع المصائب المداهمة، والمناسبات الباعثة على الحزن والاكتئاب.

ومن ناحية أخرى، تحسس النثر ـ بصفة واسعة ـ كل ما ولدته تلك الظروف التاريخية المشار إليها، من دواعي الضيق والحرج عند جماعات كثيرة من الأقران والزملاء، وسائر الناس الذين طوّحت بهم النوائب ونثرتهم في كل الأصقاع، فأوصى بهم أصحاب الجاه والسلطان، وحث على إكرامهم، ودعا إلى توسيع مضائقهم، وتفريج بعض كربهم، لتخفيف ما يعانونه من البؤس والحرمان، في ظروف قاتلة من الضياع والاغتراب. فخط الأدب النثري بذلك، أجمل الصفحات في سجل التضامن الذي مبعثه العاطفة الإنسانية، والشعور

بوحدة المُنتَمَى، فدلّ على أن الأدب يستطيع أن يرتفع بأصحابه إلى هذه المراتب العليا من النبل والخلق القويم.

وكما وجدنا النثر يرصد الخير، فينبه إليه، ويحث عليه، ويمدح به، فقد رصد بنفس الحرارة والوعي السلوكات السلبية، والتصرفات الجانحة، فحذّر ووعد حين كان يكفي لردعها مجرد التحذير والوعيد، فإذا لم يرَ ذلك مجدياً سلك سبيل العتاب الشديد، يقرّع المتنكرين للصداقة، والمنسلخين من عقد المودة، يجلدهم بسياط ملهبة من اللّوم والتوبيخ. وقد ينقلب العتاب إلى هجاء صريح، يجسد الذنوب، ويخرج المهجوين في صورة كريهة من أثر ما ألحقه بها من المسخ والتشويه، صورة تدعو ـ في أكثر الأحيان ـ إلى الإشفاق عليهم، إن لم يكن إلى الضحك منهم والسخرية بهم.

وخلاصة الرأي عندنا، أن الأدب النثري قد أبقى صفحات خالدة في هذا السجل الاجتماعي من تاريخ الأندلس. ونحن إذا استثنينا عدداً من المناسبات التي كان التجامل الاجتماعي فيها يجري وفق المناهج التقليدية، التي لا مجال فيها للتعبير عن مشاعر النفس وخلجاتها الحميمة، فإنه قد عبّر ـ في سائر ما لدينا من النماذج ـ بحرارة، وعمق، ونزاهة، عن أنبل المشاعر الإنسانية، ووصف تلك اللحظات المشحونة بانفعالات الحقد والتسامح، والغضب والرضى، والرجاء واليأس. . . التي مرَّ بها الناس في ذلك الزمن المليء بالأزمات، الحافل بأنواع الكوارث والملّمات.

* * *

الفصل الرابع

النثر الاستعراضي

دار كل واحد من الفصول الثلاثة الأولى من هذا الباب على مضامين متجانسة من حيث طبيعتها، إذ تلتقي الأغراض الأدبية فيها، وإن تعدّدت، عند هدف كبير واحد، تسعى كلّها إلى بلوغه.

أما المضامين التي تأوي إلى العنوان الذي اخترناه لهذا الفصل، فإنها لا تتمتع بمثل هذا القدر من الإنسجام، في الظاهر، ومرجع ذلك إلى أن النثر ـ في العصر الذي نؤرخه ـ قد بلغ حدّاً من التنوع، والتفرع، جعله يستعصي على الحصر، ويضيق بذلك التصنيف التقليدي الذي لم يكن يرى فيه إلا طبيعته الديوانية الرسمية، أو مناحيه الإخوانية والاجتماعية.

وإذْ كان واضحاً أنه يتعين علينا أن نحرص على استقراء كل ما نظفر به من مظاهر الأدب النثري، في أقصى ما يُتاح لنا الوقوف عليه من نماذجه، أكثر من الحرص على مجرد توزيع تلك النصوص على عدد محدّد من الفصول، فإننا لم نحتفل كثيراً بما قد يفضي إليه هذا المنهج، في هذا الفصل وفي غيره من الفصول، من مجافاة للتقسيم الشائع، وخروج عن العناوين المألوفة، وتجاوز للتصنيفات المعتادة. . .

وهكذا، فبعد استفراغنا القول في المضامين الثلاثة الكبرى التي أدرنا عليها الفصول المتقدمة، وجدنا أمامنا طائفة صالحة من النصوص، لا يمكن أن ندرجها بصفة منطقية في أيّ واحد من هاتيك الفصول. ولم يكن بوسعنا أن

نهمل هذه النماذج فنضرب عنها صفحاً لما تتميز به من أهمية المضمون، وطرافة المحتوى، إذ يتناول قسم كبير منها موضوعات جديدة، بل إنّ بعضها يعد من المكاسب الملحوظة للأدب النثري، وواحداً من أهم ملامحه، وأبرز سماته في هذا العصر.

ولقد أطلنا الوقوف عند هذه النصوص بالذات، وتروّينا في جوهر محتوياتها، فتبيّن لنا بشكل جلي أنها، على ما بينها من اختلاف لا مراء فيه، تنزع كلها منزعاً استعراضياً واضحاً، أبرز ما فيه جنوحها إلى التعويل على المجادلة والاحتجاج، وميلها إلى حشد الأدلة والبراهين، أو النعوت والأوصاف، لتصوير حالة مادية مجسدة، أو تصرفات معنوية مجرّدة، وكل ذلك لبلوغ التأثير في النفس، أو الانتصار للرّأي، أو تعليل موقف، أو الإقناع بصواب رأي ما. . .

ومعلوم أن القالب العام قد يأتي، في بعض الأحيان، ذا طابع وصفي. ذلك أن العرض، كيفما كان، لا يخلو من معطيات وصفية. ولكن، شتان بين حالات الوصف الصريح التي يقصد بها رسم صورة واضحة المعالم لكائن ما، في الأحياء أو الجمادات، نريد تقريب صورته من الأذهان؛ وبين مختلف الحالات الاستعراضية الأخرى التي لا تندرج ضمن الإطار الوصفي بالضرورة، وإن استخدمت بعض أدواته الفنية. وسيتبين لنا ذلك جليّاً عندما نتناول بالتفصيل المحاور الثلاثة الرئيسية التي ارتأينا أن ندير عليها هذا الفصل والتي هي:

1 ـ النثر الوصفي.

2 ـ نثر المنازعات والمفاخرات.

3 ـ نثر الوعظ والإصلاح.

* * *

1 ـ النثر الوصفي

من أقدم «الكلام» لدى كل الأجناس البشرية: الحديث عن المشاهد الغائبة التي يراد نقل «صورتها» إلى من لم يروها من الناس. فالذي يحكي عن وقعة من الوقائع، أو يروي حادثة من الحوادث، ذاكراً خصائص المكان الذي تمّت فيه، نَاعِتاً هيأة الذين شاركوا في تلك الوقعة أو الحادثة، وما كان بأيديهم من أدوات، وما صدر عنهم من أقوال أو أفعال... إنما يمارس في الحقيقة صورة من صور الوصف. فإذا أتاح له تطور اللغة، ونضج المسيرة الحضارية أن يتأنق في ذلك النقل، بأن يستعمل له «فنيات» خاصة تحدث له صدىً في النفوس، وتأثيراً في القلوب، وتتجاوز به مجرّد الإفادة إلى إكساب المتعة الجمالية... كان ذلك أدباً وصفياً بأدق معاني الكلمة.

وهكـذا يمكن أن يكون «الوصف»، بأبسط معانيه، من أقدم مضامين النثر الأدبي، لأنه، كما رأينا، واحد من الأغراض الرئيسية للكلام، بوجه عام. والواقع أن النثر الوصفي ـ بهذا المعنى ـ قد وجد في الأندلس منذ بداية الإنشاء فيها. أما النثر الوصفي، ذو الطابع الفني، المكتمل الأدوات، الذي يغلب فيه جانب الإمتاع الجمالي على جانب تحقيق المنفعة الإخبارّية... فإنه لم يبدأ إلا أواخر القرن الرابع الهجري. ثم نُهِّجَت سبلُه في القرن الخامس، وبلغ عندئذ أقصى مراميه.

ولما كان من باب المتعذّر أن نحاول الإحاطة بكل تفاصيل الأدب الوصفي في هذا العصر، لكثرة نصوصه، وتنوعها، فإنه يتعين علينا أن نقف عند عدد من

النماذج، تتمثل فيها الأغراض الكبرى لهذا النثر. ويمكن تلخيصها في ثلاث اتجاهات هي:

أ ـ وصف المحيط الطبيعي.
ب ـ وصف الحالات النفسية والأوضاع الإنفعالية.
جـ ـ وصف المسالك والممالك.

أ ـ في وصف المحيط الطبيعي وأدواته:

سحرت الطبيعة الإنسان العربي منذ أقدم حقب تاريخه. وكان من علامات هذا السحر، إعجابه الشديد بمظاهرها المختلفة، حتى إنه عبر عن الإحساس العميق بجمالها في أقدم ما وصل إلينا من آثاره الأدبية.

ثم جاء العرب إلى الأندلس، فوجدوا فيها طبيعة تغاير ما ألفوه في بلادهم، فتذوقوا هذا الجمال الطارىء، وتغنوا به في أشعارهم. وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب، فإن الشعر والطبيعة توأمان لا نظنّ أنهما افترقا طويلاً لدى أمة من الأمم. إنما الجديد على الأدب العربي في الأندلس هو أن ينافس النثرُ الفنِّيُّ الشِّعْر في مثل هذا الميدان الذي كان مختصاً به، حتى غدا حكراً عليه.

وقد رأينا كيف بدأ النثر يقترب من هذه المجالات على استحياء في أخريات القرن الرابع. أما في القرن الخامس فلقد تناول الإنشاء وصف الطبيعة تناولاً واسعاً حتى وجدنا هذا الوصف يمازج الكثير من الأغراض المتصلة بحياة اللهو والفراغ التي كنا وقفنا عند جانب منها عند الحديث عن المجالس التي كانت تعقد لشرب الخمر وسماع الموسيقى في الحدائق والمروج.

وقد لا نبعد عن الصواب إذا ذهبنا إلى أن للمطر ـ من بين كافة المظاهر الطبيعية ـ مكانة خاصة في تصورات العربي، ومنزلة متميزة في سلم قيمه الجمالية. ذلك أن المطر في البيئة العربية الأولى كان يعني الحياة ـ ولذلك سموه حَياً وغيثاً ـ، بينما يعني انقطاعه الموت المحقق، والفناء المؤكد. فإذا كان في الماء معنى الحياة لكل الناس، في كل مكان، فإنه عند العربي بديهية تتصل

بالذات، وحقيقة بسيطة يعانيها بنفسه، ويقف على صدقها كل يوم. وقد وصف الشعر العربي المطر في أقدم ما وصل إلينا من نماذجه[1]. ولكن الذي لا يخلو من طرافة هو أن نجد للأندلسيين في القرن الخامس عناية ملحوظة بوصف المطر، تجاوزت الشعر إلى النثر، حيث نرى ثلاثة من ألمع الكتاب يتنافسون على ذكر ما يكون للغيث من أثر بعدالقحط والجفاف.

لقد سبق الأديب أبو القاسم بن الجد[2] إلى هذا الغرض حين أنشأ فيه رسالة ابتدأها بالحديث عن الحكمة الإلهية وأسرارها في العباد. ثم أخذ يصف ما أشاعه القَحْط من علامات الحزن في الطبيعة فقال: «ولما ساءت بتثبيط الغيث الظنون، وانقبض بتبسط الشك اليقين، واسْتَرابت حياض الوِهاد، بعُهُود العِهَاد، وتأهبت رياض النجاد، لبُرود الجِدَاد، واكتحلت أجفان الأزهار، بإثْمِد النقع المُثار، وتعطلت الأنوار من حلي الدِّيمَة المِدْرار. . .»[3].

لقد جاء الحزن شاملاً لكل بقعة كانت مكاناً للبهجة، وكل نبتة كانت مصدراً للسعادة والسرور. وهو وصف لا يتناول أبداً كآبة الإنسان بصفة مباشرة، وإنما يصورها لنا أدق تصوير حين ينشر هذه الأعلام السوداء من الحيرة والحزن على كل المعالم التي ترمز إلى حبوره وهنائه.

ثم ترتفع في الآفاق بشائر الخلاص التي تأتي الرحمة العميمة في موكبها الجليل، فيحدثنا عن ذلك بقوله: «أرسل الله تعالى بين يدي رحمته ريحاً بَلِيلَة الجناح، سريعة الإلْقاح، فَنَظَمت عقود السحاب نظم السخاب. . .» ثم انهمرت الأمطار، فلا يطيل الكاتب في هذه المقدمات وإنما يستعجل الوصول إلى ما خَلَّفه هذا الغيث من آثارٍ في الطبيعة وقد تقابلت دموع المطر بضحكات الروض.

---

(1) انظر معلقة امرىء القيس ابتداء من قوله: «أصاح تَرَى بَرقاً أُرِيكَ ومَيضَهُ. . إلخ. . .».

(2) محمد بن عبدالله بن يحيى بن فرح بن الجد: كاتب فقيه، وزير في دولة المعتمد ثم تفرغ للقضاء في بلدته «لبلة». توفي سنة 515. وانظر أخباره ذ: 1/2، ص: 285 وهامش المحقق فيها.

(3) ذ: 1/2، ص: 289.

قال: «فاستغربت الرياض ضحكاً ببكائها، واهتزت[1] رُفَاتُ النبات طرباً لتغريد مُكّائها. . . وخيل للعيون أن زواهر النجوم قد طلعت من مواقع التخوم»[2].

وإذْ كان غرض وصف المطر، والحديث عن آثاره في الطبيعة يرتبط بذكريات العرب، وماضي حياتهم في مهدهم الأول: الجزيرة العربية، فإن الكاتب ينغمس في هذا الإطار الطبيعي، ويعبر فنّياً عن هذا الانغماس باستعارة صوره من محيط العرب الأصلي، وإذا بالأديب يقول في تشبيه ما أحدثه المطر من أثَرٍ في الخمائل الأندلسية: «كأن صنعاء قد نشرت على بسيطها بساطاً مُفَوَّفاً، وأهدت إليها من زخارف بَزِّها ومطارف وشيها ألطافاً وتحفاً». أليس عجيباً أن لا يجد ابن الجد ما يشبه به جنة الأرض الأندلسية غِبَّ الأمطار المُحْيِيَة إلا سوق صنعاء الأغبر وما فيه من الأقمشة ذات الأصباغ والألوان المختلفة؟ ولكنه المضمون الضارب بجذوره في أعماق الذاكرة الجماعية للعرب يجر معه الأساليب البلاغية، والأدوات الفنية المرتبطة به منذ أن قال امرؤ القيس: «نزولَ اليماني ذي العِيَابِ المُحَمَّل»[3].

ويختم ابن الجد هذه الرسالة بوصف السعادة التي غمرت النفوس عقب نزول الغيث، في نبرات شعرية رائعة. يقول: «فيا برد موقعها على القلوب والأكباد، ويا خلوص ريها إلى غلل النفوس الصَّوَاد. كأنما استعارت أنفاس الأحباب، أو ترشفت شَنَباً من الثنايا العِذَاب، أو تحملت ماء الوصال إلى نار البلبال، أو سرت على أنداء الأسحار، وريحان الآصال»[4].

---

(1) كذا بالأصل، والمعروف أن «الرفات» مذكر، وهو حطام الشيء المكسر. وهو لفظة قرآنية «أئذا كنا عظاماً ورفاتاً».

(2) ذ: 1/2 ص 290.

(3) البيت في المعلقة، عن «شرح المعلقات السبع» للزوزني، كما يلي:

وألقَى بصَحراءِ الغَبِيطِ بَعَاعَه ... نزولَ اليَماني ذِي العِيَاب المُحَمَّل

ويقصد باليماني: التاجر اليماني المحمل بالعياب وهي الثياب.

(4) ذ: 1/2، ص: 290.

إن المعاني التي تضمنتها هذه الفقرة أشبه بالشعر، وأقرب إلى طريقته، ولكنه نثر القرن الخامس حين يعبر عن هذه المعاني الرقيقة، يغدو شعراً خالصاً دون أن يحتاج إلى الأوزان . . .

والذي يبدو هو أن رسالة أبي القاسم هذه قد نالت ضرباً من الشهرة لدى الكُتّاب المعاصرين، إذ وجدنا أديباً كبيراً هو أبو عمر بن الباجي[1] يلاحظها بعين الإعجاب، وينشىء في معارضتها رسالة على منوالها، تتحدث عن سقوط المطر بعد قحط طويل. وهو يبدؤها بذكر الحكمة في التصرفات الإلهية، ذات العدالة المطلقة تماماً كما فعل أبو القاسم بن الجد، فيقول في ذلك: «إن الله تعالى قضايا واقعة بالعدل، وعطايا جامعة للفضل، ومنحاً يبسطها إذا شاء انعاماً وترفيهاً ويقبضها إذا أراد إلهاماً وتنبيهاً»[2].

ويترسم خطى الرسالة التي يعارضها فيشرع في ذكر آثار الجفاف البادية على مشاعر الإنسان ومعالم الطبيعة. فلقد كان من انحباس المطر «مارِيعَ به الآمن، واستُطِير به الساكن، ورجفت الأكباد فزعاً، وذهلت الألباب جزعاً، . . . واكتست الرياض غُبرة بعد خضرة، ولبست شحوباً بعد نضرة، وكادت برود السماء تُطوى، ومدود نعم الله تُزْوَى»[3].

وواضح أن المعاني هنا هي نفس المعاني هناك، فالمقصود في الحالين هو بيان مدى ما ألمّ بالإنسان من حيرة من جرّاء امتساك السقيا، وما أصاب الحقول والرياض من زوال معالم حسنها وآيات جمالها، على أنه ينبغي أن نلاحظ أن «النفسَ الشعري» أوضح في رسالة ابن الجد منه في كلام ابن الباجي.

---

(1) أبو عمر يوسف بن جعفر الباجي: أديب عاش في بلاد ابن هود المقتدر صاحب سرقسطة.
انظر ذ: 1/2 ص: 136.

(2) ذ: 1/2، ص: 196.

(3) ذ/ 1/2، ص: 196.

ثم يعبر الكاتب إلى القسم الرئيسي من مكتوبه وهو وصف ما آلت إليه الأحوال حين استجابت السماء لآمال الخلق، وجاءت الرحمة الإلهية بالغيث العميم، فيقول في ذلك «ثم نشر تعالى رحمته، وبسط نعمته، وأتاح مِنَّتَه، وأَزَاح مِحنَتَه، فبعث الرياحِ لَوَاقِحَ، وأرسل الغَمَام سوافح، بمَاءٍ دَفَقٍ، ورِوَاءٍ غَدَقٍ، من سماء طَبَقٍ، استَهَلَّ جَفنُها فدَمَعَ، وسَمَح دَمعُها فهَمَع... فزينة الأرض مشهورة، وحُلة الزهر منشورة...، والوجوه ضاحكة بعد عبوسها، وآثار الجزع مَمْحُوَّة، وسُوَرُ الشكْر مَتْلُوَّة...»[1].

وتنتهي رسالة ابن الباجي بعبارات قصيرة في الدعاء، شأنها في ذلك شأن الرسالة المتقدمة عليها. ونحن نرى أنها جاءت دونها في وصف المشاعر والتعبير عن صور الطبيعة في حالي حزنها وحبورها. ويكفي لتبين ذلك أن نقارن بين نعت ابن الباجي لمحاسن النبات بعد نزول الغيث، ومثل ذلك النعت عند ابن الجد. ولسنا ندري إلى أيّ شيء ينبغي أن نرجع هذا؟ فإن الرجلين يعدان من الشعراء، وقد روى لهما صاحب الذخيرة نماذج من شعرهما[2].

أما المعارض الآخر لرسالة ابن الجد، فهو الوزير الكاتب أبو محمد عبد الغفور[3] والحق أنه يعارض الرسالتين المتقدمتين معاً، وذلك ما يفهم من قول ابن بسام في التقديم لإنشائه: «وعرضَت عليه رسالة أبي عمر الباجي وأبي القاسم بن الجد المتقدمتين في صفة المطر بعد القحط فعارضهما برقعة»[4].

والرسالة تتقيد ـ بوجه عام ـ بمخطط الرسالتين السابقتين، ولكنها تختلف

---

(1) ذ: 1/2، ص: 196.

(2) انظر شيئاً من شعر ابن الباجي في ذ: 1/2، ص: 197، وابن الجد ص: 313منه.

(3) الوزير الكاتب أبو محمد عبد الغفور، ابن ذي الوزارتين الكاتب أبي القاسم محمد بن عبد الغفور، الذي كان صاحب المعتمد. وقد نشأ أبو محمد في دولة المعتمد وبعد زوالها يبدو أنه خدم دولة المرابطين فقد شوهد في مراكش سنة 531. وانظر ذ: 1/2، ص: 325، وهامش المحقق فيها.

(4) ذ: 1/2، ص: 342.

عنهما في البنية التي تظهر بها، والهندسة التي تقوم عليها. من ذلك أنه يبدأ كزميليه بالإشارة إلى الحكمة الإلهية في طوايا التصرفات الكونية التي يلاحظها البشر إلا أنه يخرجها مخرج الإجلال لعظمته سبحانه وتعالى، ويبين من غموض أسرارها على الناس ما لا نجد مثله في الرسالتين السابقتين. من ذلك قوله: «ولله جلت عَظَمَتُه أوامر تحيل المنيرة عن طباعها، وتَسْلُب من حصى المعزاء فَضْل شُعَاعِها... لا تُلْحق بسوابق الرِّهان، في ميادين الأذهان، ولا تُدْرَك بقِدَاح القِمار، من معليات الأبصار، تُطْلِع المِنَح من ثنيات المِحَن... حِكمَةٌ بَهرتْ حقيقتُها زَوَاهِر الأفكار...»[1].

إن المدقق في ما كتبه أبو محمد عبد الغفور ينجلي له الفرق بينه وبين صاحبيه من وجهين: أحدهما هو ذلك التصرف في مخطط النص كما كنا أشرنا إليه، والثاني هو عنايته بالتدقيق والتفصيل، وحرصه على استقصاء المعاني التي يكتفي زميلاه بالإلمام العابر بها.

ولنقف مثلاً عند القسم الثاني من رسالته، وهو الذي يدور على بيان ما لحق الناس والطبيعة من الحزن هنا، والذبول هناك، نتيجة لِانْحِبَاس الحَيَا، وإلْحَاح الجفاف. فأول ما نلاحظ فيه أنه يفتتحه بحمد الله وشكره على أن أتاح نزول المطر بعد مدة القحط التي ألحقت ضرراً كبيراً بالخلق والطبيعة. ومن هنا يأخذ في وصف هذه الأضرار، فيقول على سبيل المثال: «وإنَّ أحق النعم بالشكر... نُعمى أَحْيَتْ بالسُّقْيَا أرضاً مَوَاتاً... وقد غَبَطَ طَيرُ الماء ضِبَابَ اليَهْمَاءِ، وحجب كاسِفُ الرجاء نَيِّرات النُّعْمَاء، وشابت مفارق الرياض، وغاضت مُفْعَمَات الحِياض... وباتت أزهار الغِيطَان، عليلات الأجفان، تستسقي نجوم السماء، وتَتَوَسَّل بالشُّبَه إلى ذوات الأَنْواء...»[2].

وتتميز معاني هذه الرسالة، في هذا القسم وفي غيره بشيء من الغموض،

---

(1) ذ: 1/2، ص: 342.

(2) نفسه، ص: 343.

لأنّ صاحبها يبالغ في التعمق فيفضي إلى الإبْهام والتعمية. فهو في القسم الثالث يصف نزول المطر بهذه الطريقة المشوبة بشيء من الغموض فيقول: «أرسل الله تلك النعمة، بين يدي الرحمة، رِيحاً لَيّنَةَ هُبوُبِ النسيم، في الروض الهَشِيم، شديدةَ حَفْزِ الغَمَائم لِتَدارُك ما في الكَمائِم... فلما لَمَّتْ قَزَعَها، ووَصَلت بقُدرة الخلّاق قِطَعَهَا، سَفَحَت عيونُ تلك النجوم... رحمةً لعليل النبات، ورقة لِأَلِيل المُهَجَات...»[1].

أما ما تركه هذا المطر من الآثار الحميدة في الأرض والطير والناس، فيحدثنا عنه بقوله: «وضحك ثغر الروض بعد عبوس، ونُقِل إلى سَعَة الرحمة من ضَنْكِ البُوسِ، وسَحَبت فَواهِق الأنهار مَذَائِبَهَا ونَشَرت عرائسُ الأزهار ذَوَائِبَها... فترمي الذَّاهِل بريّاها، وتحيِّي النائم وما حياها... وقام من مُتَرَنِّم الأطيار على منابر الأشجار خطيبٌ يتلو ما حَبّر من الثناء على سَابِغ النَّعْماء... فيالها نِعمةً ما أحسنَ مَوْقعَها ورحمة ما ألطف محلَّها من النفوس ومَوْضِعَها، لقد بَرَّدَتْ حرَّ الأكباد، وشفت غليل القلوب الصَّوَاد... إلخ»[2].

وهو قسم تضاهي الروح الشاعرية فيه روح ابن الجد، ملهم هذه المعارضات، وإنَّما بدا لنا أبو محمد أشدَّ غوصاً على الأفكار، وأكثر إجهاداً لنفسه في سبيل الحصول عليها، فإذا هي تأتي جميلة عميقة يلفها شيء من ضباب الغموض.

وتنتهي الرسالة، كما انتهت سابقتاها، بعبارات قصيرة في حمد الله وشكره على ما أنعم به وأسداه.

والذي ينبغي أن نستخلصه من هذه الرسائل الثلاث أن المضمون فيها يبدو منفصم الصلة بالواقع، مبتور العلاقة به، لا يدل على قحط معين، ولا على مطر محدد وإنما هي حالة من الجفاف يمكن أن تكون في أية بقعة من أراضي العرب

---

(1) ذ: 1/2، ص: 343.

(2) نفسه، ص: 344.

الشاسعة المترامية، أعقبتها حالة من المطر يمكن أيضاً أن تصدق على أصقاع لا تحصى من بلاد الله الفسيحة، وحتى لو سلمنا بأن إنشاء ابن الجد، باعث هذا الوصف، يدل على شيء واقع في بيئته، فإن الكاتب كان مشدوداً إلى معاني عامة يريد أن يظهر من خلالها انتقال الطبيعة من حال إلى حال، أكثر من عنايته بوصف قحط جاء بعده غيث نافع في مكان بعينه من البيئة الأندلسية المتميزة. أما مُعَارِضاه: ابن الباجي، وابن عبد الغفور، فمن الواضح أنهما طرفان في منافسة فنية بحتة، لا صلة لها بقحط ولا بغيث حقيقيين[1]. ولو بحثنا عن وصف أصيل لطبيعة الأندلس في الأدب النثري لوجدنا واحداً من أجمل نماذجه في رسالة ابن الدَّبّاغ[2].

كان الأديب أبو المطرف بن الدباغ قد أقلع عن شرب الخمر، فصرف نفسه عنها، وعن الجماعات التي تتعاطاها، ولكنه لم يحرم نفسه، ذات الوثبات الشعرية، من المحيط الطبيعي الجميل الذي كانت تنعقد في إطاره مجالسها. ولذلك بقي يتردد على الخمائل والمروج، وكتب منها ذات يوم إلى جماعة من قدماء الأصدقاء العاكفين على معاقرة العُقار، فقال: «كتابي هذا من وادي الزيتون، ونحن فيه محتلون، ببقعة اكتست من السندس الأخضر، وتحلت بأنواع الزهر، وتخايلت بأنهار تَتَخَلَّلُهَا، وأشجار تظللها، تحجب أدواحها الشمس لالتفافها، وتأذن للنسيم فيميل من أعطافها، وما شئتم من محاسن تروق وتعجب، وأطيار تتجاوب بألحان تُلهي وتُطرب...»[3].

---

(1) ولكن ليس معنى ذلك أن الأديب لا يَصدُق وصفه أو يَحْسُن إلا إذا كان متصلاً بما وقع تحت حواسه؛ إنما الواقعية التي نقصدها شيء آخر، تتمثل بخاصة في القدرة على تصور الوقوع المراد وصفه.

(2) أبو المطرف، عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ وزير كاتب في دولة المقتدر ابن هود وحدثت بينهما وحشة، ففرّ بسببها إلى إشبيلية، ولم تصلح حاله مع وزير المعتمد: ابن عمار، فالتحق بالمتوكل في بطليوس.

(3) ذ: 1/3، ص: 282.

إن أول ما يستوقفنا في هذه القطعة أن صاحبها يقول فيها متحدثاً عن وادي الزيتون الذي يصفه: «ونحن فيه محتلون» مما يوحي بأن الناس كانوا يخرجون في جماعات إلى هذه الحدائق الغناء، والمروج الخضراء، ويعقدون فيها مجالس ليست الخمر من شروطها. والذي يرجح عندنا ان ابن الدباغ لم يكن وحده في وادي الزيتون عبارته السابقة التي فيها «نحن»، والتي لا تدل في رأينا على ضمير المعظم نفسه لأن الرسالة قد بدأت بقوله: «كتابي» ولو كان يعظم نفسه ويتحدث عنها بضمير الجمع لقال: «كتابنا».

أما إذا عدنا إلى المضامين المتصلة اتصالاً وثيقاً بالوصف فالذي يبدو ظاهراً للعيان أن طبيعة ابن الدباغ طبيعة «مَعْلُومَة»، ذات هُوِيَّة تميزها، و«شخصية» واضحة السمات: فهي ذات أنهار تتخللها، وأشجارها تحجب الشمس ولكنها تأذن للنسيم بأن يهبَّ من خلالها. وهي بالإضافة إلى هذه الحيوية مأوى للأطيار التي تشترك، بتجاوب الألحان، في إكساب هذه الطبيعة ما ينبغي لها من انسجام يمنح المشهد كله ذلك الإحساس بالراحة والسعادة اللتين يطلبهما كل من يقصد الطبيعة، ويلوذ بها. . .

فلعله استبان لنا الفرق الكبير الذي أشرنا إليه بين الرسائل الثلاث التي وصفت الطبيعة من خلال نزول الغيث بعد القحط، وبين هذه الرسالة في وصف مقطع حي من الطبيعة الأندلسية المتأنقة. . . على أنه ينبغي أن نعرف أننا قلما نجد ـ في النثر ـ وصفاً مستقلاً للطبيعة ومشاهدها المختلفة، مثلما نجد ذلك في الشعر. وأكثر ما يكون منه في النثر، إنما يأتي في سياق أغراض أخرى، لعل أشهرها وصف مجالس اللهو التي تقدّم الحديث عنها في فصل سابق.

*** في وصف بعض أنواع الحيوان:**

وكما وصف الكتّاب مثل هذه المناظر الطبيعية، فإنهم وصفوا أيضاً ما في محيطهم من المخلوقات الأليفة أو التي يسخِّرونها لأغراض منفعتهم ولَهْوهم، كالطيور الجارحة التي يستخدمونها في الصيد والقنص، والتي منها هذا الطائر

القناص الذي يصفه ابن خفاجة[1] بقوله: «. . . طائر يستدل بظاهر صفاته، على كَرَم ذاتِه، طَوْراً ينظر نَظَرَ الخُيَلاء في عِطْفه، كأنما يُزْهَى به منه جبار، وطوراً يرمي نحو السماء بطَرْفه، كأنما له هنالك اعتبار»[2].

هذا الجانب من وصفه بتناول هيأته العامة، وأصالة ذاته التي تترجم عنها تصرفاته ذات الهيبة والجلال. وبعد أن يلخص الكاتب في عبارات قليلة مبلغ قدرته على أداء الوظيفة التي يُقتَنى من أجلها: «وأخلق به أن ينقضّ على قنصه شهاباً، ويلوي به ذهاباً، ويحرقه توقداً والتهاباً». يأخذ في تفصيل نعوته الجسدية والروحية، مازجاً بينها هذا المزج الطريف الذي يكاد ينسينا أن الكاتب إنما يصف لنا واحداً من الطيور وليس فارساً مغواراً تُحرِّكه، في معركة حاسمة، مُثُلٌ عليا، وأهداف إنسانية نبيلة. . .

يقول ابن خفاجة في هذا الطير: «وقد بعثت به سابغ الذنابي والجناح، كفيلاً في مطالبه بالنجاح، حميد العين والأثر، حديد السمع والبصر، يكاد يحس بما يجري ببال، ويسري من خيال، قد جمع بين عزة مليك وطاعة مملوك، لَوْ سُبِقَ له النجمُ قَنصاً، أو جَرَى بذكره البرق قَصَصاً، لاختطفه أسرَعَ من لحظة. . . قد أقسم بشرف جوهره، وكرم عنصره، لا توجّه مُسفِراً، إلا غادر قنيصه مُعَفَّراً، وآب إلى مُرسِله مظفّراً، مورِّد المِخلب والمِنقار، كأنما اختضب بحِنَّاءٍ، وكَرَعَ في عُقار»[3].

هذه ليست ملامح كل طير جارح، وإنما هي ملامح هذا القنّاص بعينه الذي أرسله ابن خفاجة إلى صاحبه. وهو كما لاحظنا ذو سمات دقيقة، وقد خلع عليه الكاتب من الأوصاف ما جعله أميراً في فصيلته من الطيور، وهو يتمتع

---

(1) أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة جنان الأندلس، وواصف طبيعتها الخلابة في منثوره ومنظومه. توفي سنة 533 هـ وقد تنسك وتاب بعد خلاعة ومجون.
وانظر ذ: 2/3، ص: 541.

(2) نفسه، ص: 645.

(3) نفسه.

بخصال روحية تقرِّبه إلى الصور البشرية المحبَّبة. . . ولا عجب أن يكون هذا شأن موصوفات ابن خفاجة فإنه من أقدر الأندلسيين على الوصف شعراً ونثراً.

*** في وصف بعض الأدوات:**

وكما وصف النثر الأندلسي المحيط الطبيعي وظواهره، والحيوان الذي سخره الإنسان لمآربه، فإنه وصف أيضاً بعض الأدوات التي تستخدم في الحياة اليومية. من ذلك ما ورد في صفة السوط، وهو ـ في حدود ما نعلم ـ لم يحظ بعناية سابقة ولا لاحقة من قبل الأدباء، فإنه ليس من الأدوات ذات «الوجه» الأدبي إن صحّ التعبير، فلا هو مما يستخدمه الجمهور الواسع من الناس، ولا هو مما يصلح أن يتضمن معنى رَمزِياً يوظفه الأدباء في غرض من الأغراض، ومع ذلك وُجد في هذا العصر من يصفه.

ونحن حين نقرأ مقدمة الرسالة التي ورد فيها هذا الوصف نتبين أن الكاتب إنما هو يتحدث عن سوط قدمه هدية إلى الفقيه الذي يخاطبه، فلذلك نعته في رقعته.

والنص الذي فيه هذا الوصف لأبي عبدالله الطُّغْنَري[1]. ويقول صاحب الذخيرة إنّ هذا السوط «يُجلَب لحث الخيل من المغرب»[2]. وفيه يقول الكاتب: «وتوأم هذا الجواب ـ أعزك الله ـ البعثة بالمِحَثَّة، وقد تخيرتها عقيلة أتراب كريمة أصحاب، تسمو بالنسب البحري، وتتيه بالنصاب الملوكي. قد أشبهت سرق الحرير لمساً، واشتقّ اسمها منه، ودعج الآبنوس لبساً، محكيّ لونها عنه، كأنما استُلَّت من ظهر حيّة. . . أبهى في أيدي الصِّيد، من طُرَر الغِيد، وأحسن على أعناق الجرد، من قطاطي المرد. . .»[3].

---

(1) هو أبو عبدالله محمد بن مالك الطغنري، من أدباء غرناطة. وقد ذكر ابن بسام أنه لم يقف له على نماذج كثيرة من أدبه وأنه مع ذلك «صدر أدب ذو حفظ كثير، وأدب غزير» ذ: 2/1، ص: 805.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

وهكذا نرى أن هذا الوصف ليس غرضاً مقصوداً لذاته وإنما شاء هذا الأديب أن يُطرِف صديقاً له ويُتحِفه بهذا السوط ذي النوعية الجيدة، المستورد من بلاد المغرب، فقدمه له هدية، وبعث معه برقعة يتحدث في بعض فقراتها عن هذه «المحثة» بأسلوب بارد، عديم القدرة على الإثارة، لأن الموضوع لم يستخدم ذلك الاستخدام الرمزي القادر على التأثير.

ووجدنا لابن برد الأصغر[1] كلاماً في وصف القلم والمداد والكتابة وهي موضوعات غنية للغاية بالمعاني المعبرة لما ترمز إليه من المثاليات في مسيرة الإنسان الحضارية، وما يتصل بها من قيم العلم والقراءة والكتابة ذات المحتويات المقدسة لما ترتبط به ـ لدى المسلمين بشكل خاص ـ من الدلالات الدينية، والإشارات القرآنية. ولكن الذي كان لنا بمثابة المفاجأة، أننا لم نر كلام ابن برد يرتفع إلى مستوى هذه المعاني العظيمة، بل ظل مشدوداً إلى الأرض، مقيداً بكَبْل ثقيل يمنع عنه كل حيوية، ويحرمه من عناصر التأثير الحقيقي في النفس.

لقد جاء كلام ابن برد الأصغر في شكل عبارات قصيرة متتابعة، كأنها أمثال تضرب، وذلك على هذا النحو:

«الكتاب من حلية الملائكة، قال الله تعالى: «كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون»[2].

ـ «المداد كالبحر والقلم كالغواص، واللفظ كالجوهر، والقرطاس كالسّلك».

ـ «الدواة كالقلب، والقلم كالخاطر، والصحيفة كاللّسان...»[3].

ـ «ما أعجب شأن القلم يشرب ظُلمة ويلفظ نوراً...»[3].

---

(1) أبو حفص بن برد الأصغر ـ تمييزاً له من جده أبي حفص الأكبر ـ كان بارعاً في النثر والنظم، وقد اتصل بعديد من ملوك الطوائف منهم مجاهد العامري. والمعتصم ابن صمادح. وقد ألف في الفخر بأسرته المشتهرة بالبلاغة كتاب: «سرّ الأدب، وسبك الذهب».

(2) ذ: 1/1، ص: 495.

(3) نفسه، ص: 496.

ـ «لولا القلم ما عُبِّئت كتائب، ولا سرِّيت مقانب، ولا انتضيت سيوف، ولا ازدَلفت صفوف»[1].

إن الكثير من المعاني الجيدة التي ترد على الخاطر عند ذكر القلم والحبر والكتابة قد أشار إليها الأديب ابن برد في هذه الأقوال، ولكن الذي قصّر به أنه لم يستخدم طريقة الإنشاء الاسترسالي، الذي هو الملائم لطبيعة الكلام، الكفيل بإتاحة التحليل والتفكيك للمعاني، وتقليبها على مختلف وجوهها، فتكتسب الكتابة ذلك العمق المؤثر، وتحظى بتلك «السيّولة» التي تغري السامع أو القارىء بالاستسلام لمنطقها، والانسياق وراء ما تدعو إليه، وذلك هو الذي نسميه الانفعال. . .

ومما لا نكاد نشك فيه أن الأدباء قد وصفوا الكثير من أدوات محيطهم، وأمتعته التي يحتاجون إلى استعمالها في شتى مجالات الحياة، وأنه إذا لم يبق لنا اليوم بين أيدينا إلا نماذج قليلة من الرقاع النثرية التي كتبت فيها، فما ذلك إلّا لأن كثرتها الكثيرة قد ضاعت، لأن الذين دونوا هذه النصوص واحتفظت لنا كتبهم بها، ربما، لم يكونوا يولون عناية فائقة لهذه الأدوات المتاحة للجميع، والتي هي في نظرهم سُوقية لا فائدة في نقل أوصافها أو الاحتفاظ بها. ودليلنا على ذلك أن معظم ما وصل إلينا من تلك الأوصاف قد جاء في سياق عام أدرج فيه ذلك الوصف إدْراجاً، ولم يكن الوصف هو الغرض المقصود بذاته كما هو الشأن في القلم والحبر والكتابة، لأن هذه ليست من الأدوات العادية وليست من أمتعة العوام.

ومهما يكن من أمر فإن واحداً من أجود وأبرع النصوص التي كتبت في نعت مثل هذه الأدوات، قد جاء معترضاً في سياق أشمل منه وأعم، ونعني به وصف السِّراج للأديب ابن أبي الخِصَال[2].

---

(1) ذ: 1/1، ص: 496.

(2) أبو عبدالله محمد بن مسعود. . . بن أبي الخصال (465 - 540) كاتب شاعر، وكان من =

كان ابن بسام قد أرسل إلى هذا الأديب يطلب منه نماذج من شعره ونثره لإيداعها كتاب الذخيرة، فأجابه إلى ما طلب، وكتب إليه يعتذر عن الاكتفاء بتلك النماذج من أدبه، لما يلقاه من صعوبة في الكتابة بين نوم يغازل الأجفان، وريح تعبث بمصدر الضوء الذي يكتب عليه. فكان وصفه للسِّراج. ويفتتح ذلك بقوله: «. . . وعذري إليك ـ أَعَزَّكَ الله ـ في أني خططتُ والنوم مغازل، والقرّ منازل، والريح تلعب بالسّراج، وتصول عليه صولة الحجاج»[1].

هذا هو المدخل الذي يكشف فيه النقاب عن الطريق الذي أوصله إلى الحديث عن ضوء هذا السراج. ثم يشرع في نعته ذلك النعت العجيب فيصف عبث الريح بـه وإصرارها عليه، كما يصف مقاومته العنيدة لها، فيقول: «فطوراً تسدده سِناياً، وتارة تحركه لساناً، وآونة تَطويه حبابة، وأخرى تنشره ذُؤَابَة، وتقيمه إِبْرة لهب، وتعطفه بُرَة ذهب، أو حُمَة عقرب، وتقوِّسه حاجب فتاة ذات غمزات»[2].

ويبدي الكاتب قدرة مدهشة على تتبع الحالات التي يصير إليها ضوء السراج، واجداً بينها وبين أشياء متنوعة في محيط الإنسان وفي أجزائه، أدق التشبيهات، مقيماً بينها أوثق الصلات، في تدفق، واسترسال، لا نكاد نعرف لهما نظيراً في هذا الموضوع. وهكذا، فبعد تلك الأوصاف الكثيرة، لا ينفد له زاد، بل يواصل قائلاً: «وتتسلط على سليطه، وتزيله عن خليطه، وتخلفه نجماً، وتردّه رجماً، وتَسْتَسِلّ رُوحَه من ذُبَاله، وتعيده إلى حاله، وربما نصبته أذن جواد، ومسخته حدق جراد. . .»[3].

وينتهي بعد هذه الأجزاء الممتعة من رسالته إلى موطن العذر الـذي

= أعيان الكتاب في ديوان السلطان المرابطي أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين. وانظر المعجب ص: 237، وذ: 2/3، ص: 736، وهامش المحقق عليها.

(1) ذ: 2/3، ص: 792 ـ والرسالة أوردها أيضاً صاحب المعجب في كتابه ص: 239.

(2) ذ: 2/3، ص: 792.

(3) نفسه.

يستشفع به إلى صاحب كتاب الذخيرة، وهو صعوبة الكتابة في مثل هـذه الأوضاع، وعلى ضوء مثل هذا السراج، فيقول: «فلا حَظَّ منه للعين، ولا هداية في الطرس لليدين، والليل زنجي الأديم، تِبْرِيُّ النجوم، قد جَلَّلَنا ساجُه، وأغرقتنا أمواجه. . . والكلب قد صافح خيشومُه ذَنَبَه، وأنكر البيتَ وطُنُبَه، والتوى التواء الحُباب. . . فحِمَاه مباح، ولا هَرِيـرَ ولا نبـاح، والنار كـالصديق أو كالرَّحيق، كلاهما عَنْقَاء مُغرِب، أو نجم مغرب»[1].

وبذلك تنتهي هذه الرسالة البديعة وقد عرج كاتبها في أخرياتها على بعض حال الطبيعة في تلك الليلة الحالكة التي استكان فيها الكلب للنوم، وغابت فيها أخبار النار.

إن الذي نستخلصه من هذه الرقاع التي أدرجناها هو أن النثر الأندلسي لم يبد عناية ملحوظة بوصف الطبيعة وصفاً مستقلاً عن الأغراض الأخرى، لسببين يبدوان واضحيـن لنا: أولهما أن رسائل الإستزارة، ووصف مجالس الأُنس قد وفت هذا الغرض حقه، ورسمت لنا مشاهد مؤثرة من الطبيعة الأندلسية الممتعة. والثاني أن الكثير من أوصاف الزهور، والأحاديث المتصلة بها قد وردت في أشكال أدبية أخرى، غير الوصف البحت، المباشر، وهو مـا سنتناولـه في صفحات قادمة.

وإذا كان هذا حظ الموصوفات المادية من عناية الكتّاب الأندلسيين، فلعل حظ المعنويات والحالات النفسية أوفر وأغزر. وهو مجال يبدو أن النثر نافس فيه الشعر منافسة جدية، فنقل إلينـا ما اعتلج في قلوب المغضوب عليهم من سجناء ومنفيين، وما أحدثته أصنافٌ من النكبات في نفوس أصحـابها من الحيـرة والمرارة، وما شعر به بعض الناس من محاربة الزمان لهم ومعاداته إياهم، فشكوه، وحملوه مسؤولية ما يلقَوْنَه من العنت في دنياهم. وربما التفت الكُتَّاب إلى مناسبات السرور فوصفوا وقعها عليهم، وأثرها السعيد في مسار حياتهم.

---

(1) ذ: 2/3، ص: 792.

ب ـ في وصف الحالات النفسية:

الواقع أن الحزن أقدر على توجيه الإنسان نحو نفسه، فيفحص خباياها، ويفتش في طواياها، ويصغي إلى ما ينبعث من أناتها المكتومة، وبثها الخفي. ذلك أن الإنسان يُشغَل ـ عادة ـ في أوقات سروره، عن الانتباه إلى مشاعره. فهو يحيا السعادة، ولا يفكر فيها، ويعيش أوقات المسرة، ولا يتأمل أحوالها. ولذلك سجل أدبه من مناسبات الحيرة والحزن والألم أكثر مما سجل من مناسبات المسرة والابتهاج والحبور.

ومن الحالات التي وجدنا الأدباء يُعْنَوْن بالحديث عنها، وتسجيل ما يشعرون به فيها، تلك الحالات التي تُفرَض عليهم فيها العزلة، وتُضرَب عليهم الوحدة فينطوون على نفوسهم يتحسسون أدنى دبيب فيها للمشاعر... ومن أشهر حالات العزلة والوحدة والانفراد، السجن.

وربماكان من أشهر الذين كتبوا رسائلهم الشجية من سجونهم وأماكن اعتقالهم: الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر[1]، الذي قضى بنو عبّاد على دولته وضموا أراضيها إلى مُمْتَلَكَاتهم. فكتب إلى وزيرهم النافذ ذي الجاه والسلطان أبي بكر بن عمار[2] رقعة، يُروى أنه خطها بقطعة فَحْم على ظهر آجُرَّة[3]. فإذا صدقت هذه الرواية فإن هذا العنصر يضاعف من المحتوى المأساوي لهذا النص، ويضفي على اعتقال الأمير صبغة «درامية» تليق بمكانته، بوصفه حاكماً وأديباً في آن واحد...

يقول في بداية هذه الرقعة: «قد كنت أعزك الله أتيقن من حسن طويتك، وكرم سجيتك، أنك لي أسرع في الملمة من اليمين إلى الشمال، فارتقبت ورودك ارتقاب الصائم للهلال، فلما وافيت تحدثت بملاقاتك، واطلعت إلى

---

(1) أبو عبد الرحمن بن طاهر: سبق التعريف به.

(2) أبو بكر بن عمار: وزير المعتمد وصديقه. كان شاعراً بارعاً. استقل بأعباء دولة ابن عباد ثم تغير ما بينهما فقتله في حكاية طويلة ثابتة في ذ: 1/2، ص: 405.

(3) ذ: 1/3، ص: 28.

مراعاتك، فأبطأ ذلك من سنائك، ولزمني أن استعلم السبب الموجب له من تلقائك»[1].

في هذه الأسطر تلهف واضح من الأسير إلى ملاقاة الوزير ابن عمار، وهو تلهف ليست الصداقة وحدها باعثة له، بل أن الباعث الحقيقي هو مكانة ابن عمار لدى الملك ـ المعتمد بن عباد ـ ومنزلته في هذه الدولة. فهو بتعبير آخر يملك من وسائل الإفراج عن الأمير السجين ما لا يملكه إنسان آخر.

وتمضي بقية الرسالة على هذه الوتيرة، فيقسم ابن طاهر على أنه لم يمتنع عن مخاطبة الوزير المَهيب، وإنما لم يُمَكَّن من وسائل الكتابة، فلا ورق ولا حبر، وهذا ما قد يعطي رواية الكتابة بالفحم على الآجرة شهادة بالصدق. ثم هو يتنصل من تهم يبدو أنها ألصقت به، مؤداها أنه كان شريكاً في التخطيط لفتنة أو شيء مما يشبه ذلك. . .

أما حاله النفسية فيصفها بهذه العبارات القليلة الموجزة، والتي تحمل، مع ذلك، ما تحمل من وطأة الهم، وثقل التنكيد: «ولولا صدع بالفؤاد، وقلب مليء من الخطوب الحداد، لنبذت إليك ما بالنفس نبذ النواة، فأنت موضع السر والمناجاة. . .»[2].

وقد يحق لنا أن نعجب من أمر هذا السجين الذي لا تظهر لوعته إلا بهذا القدر الذي تنبيء عنه العبارات القصيرة المتقدمة. ولكن ابن طاهر ليس سجيناً عادياً، إنه أمير ينبغي له أن يحفظ على النفس كرامتها، وأن لا يتصرف إلا وفق ما يرضي النفس الكبيرة، تلك التي لا يمكن لها أن تُري الناس إلا جَلَداً وصبراً، فإذا كشفت عن بعض ما تعانيه كان ذلك في إطار صارم من المهابة الخلِيقة بوقار الملوك، المناسبة للصورة الثابتة عنهم في الأذهان. . .

فإذا كنا نبحث عن نغمات الحزن الشجية، ونبرات الألم المتصاعدة من

---

(1) ذ: 1/3، ص: 28.

(2) نفسه، ص: 29.

كتابات الأسرى ذوي النفوس الملتهبة، والعواطف المتأججة، فإننا نجد معظم هذه الملامح في أدب أبي المطرف ابن الدباغ[1] الذي صاغه في منفاه.

إن أفظع ما يمكن أن يصاب به رجل له حساسية أبي المطرف، هو أن يحشر في هذا المكان الضيق الذي تشمئزّ منه النفس، وتختنق فيه الأنفاس. ولنسمع إليه وهو يصفه لنا في قوله: «فَرْقُ ما بين المكان الذي وَرَدتُ عليه، وبين القبر الذي مَآلُ الإنسان إليه، أن المقيم به والساكن فيه يُدفَن حياً، ولا يعلم من نور الدنيا شيّاً»[2].

فأي شيء أفزع للإنسان، وأقدر على إثارة الرعب فيه من مكان يذكِّره برهبة القبر، بل إن هذا المكان هو عند الكاتب أرهب، لأن الساكن يدفن فيه حيّاً...

على أن قلق النفس من هذا المكان لا يعد شيئاً إذا قيس بجوّ العزلة القاتلة المفروضة عليه. وأي معنى للسجن والنفي إذا لم يكن فيهما ضيق المكان، وضراوة الوحدة؟ تلك الوحدة التي ينزف منها ابن الدباغ دماً، ويعبر لنا عن وحشيتها وقلة صبره على أذاها في قوله:

«وأنا... أفرغ من حجّام ساباط، آركل واضرب الآباط، وتارة ألعب بشطرنج ونَرد، وتارة أُطالع أخبار بِشْر وهِند، وأخرى أيضاً أُضَلُّ رِدَائي فوق رأسي قاعداً، أعدّ الحصى جاهداً، وأرمي بها صادراً وارداً»[3].

ما أقسى حياة هذا الرجل المعزول، المحروم من العشرة التي تسعده، فهو قلق مضطرب، يلعب بالشطرنج والنرد، فلا يجد لذة اللاعب، ويطالع فلا

---

(1) أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ، كان في خدمة أمير بلده المقتدر بن هود، ثم تغيرت المودة بينهما ففرّ من عنده والتجأ إلى دولة ابن عباد. انظر ذ: 1/3، ص: 251.

(2) ذ: 1/3، ص: 274.

(3) نفسه.

يحِس بلذة المطالع، ويهرَب من الدنيا بتجاهلها فلا يُفيد ذلك في شيء. . .

إن شِفاءه في محادثة إنسان يسمع منه بعض ما يمتلىء به ذلك الفؤاد المشحون، فإذا لم يكن ذاك، فإنه يستعيض عنه بالكتابة إلى من يتوسم فيهم القدرة على تخفيف مصابه، والتهوين عليه من فظاعة المأساة. ولكن أين الأصدقاء الذين يثبتون على عهد الوفاء، ويستجيبون للنّداء في الوقت الذي تشتد فيه الحاجة إلى الاعتماد عليهم، وشد الأزر بصدقهم زمن الصدق. وإخلاصهم زمن الإخلاص. يكتب أبو المطرف، فلا يجني من ذلك إلا الندم المحرق، والحصرة المُمِضّة، على مخاطبة من ليس أهلاً للمخاطبة والمراسلة.

ويقص علينا ابن الدباغ قصة خيبة أمله هذه بقوله: «كانت راحتي في مخاطبة صديق أجاذبه الكلام، وأقطع بمناجاته الأيام، ولكن من محن الدنيا ألّا أجد من يتحمل لي كتاباً. ولقد ظفرت بمن تَوجَّه إلى تلك الناحية فكتبت مخففاً عن صدري، وطالعتك أنت والإخوان ببعض أمري. وانتظرت صدر ذلك الإنسان، بأجوبة تفيد بعض السلوان، فلم يكن منهم إلا كل جَافٍ جلف، لم ير في دينه المراجعة بحرف، فساء بذلك ظني، وقرعت على ما فعلته، بالندم، سني. . .»[1].

لقد ألحت الأيام على أبي المطرف بالإساءة، فهو منكوب بتغير الأمير عليه، وهو يصف هذه النكبة وصفاً مؤثراً. ويتحدث عنها حديث شاعر «ينظم نثراً» تماماً كما ينظم غيره موجدة النفوس شعراً. وقد ضاق هو نفسه بكثرة حديثه عن هذه النكبة، وطول شكواه من الرزايا المتكالبة عليه، فقال:

«ليت شعري متى افتتح بالرضى، وهل أكتب وقتاً من الدهر ولا أتَشَكّى، فإني أحمد الله على حياة أقطعها في شدائد لا تنثني، وسكرات غمّ لا تنجلي، ونكد أخلاق لا يشوبه ابتهاج، وضيق أحوال لا يتخللها انفراج، ولئن كان باقي

---

(1) ذ: 1/3، ص: 274.

العمر كماضيه، وعوائد العيش كبواديه، فالحِمام أعذب مورداً، والوفاة أحسن مشهداً. . . »[1].

إنها لنفس تتألم حقاً، وتحيا كلّ دقائق مأساتها بمواجهة عنيفة وإصرار على تحديد المسؤولية الملقاة على من يتحملون تَبِعَات ما هو فيه من الكرب. فهو يتحدث عن أمير بلده[2] بهذه الحدة، وهذا الحقد اللذين نُحسّ بهما في قوله:

«لكل زمان طاغية يُشقى به ويُعبأ له، وربما خُصَّ بتسلطه، وانقبض في تبسطه، ولم يَصْلَ بِضِرَامِه إلا من ضايق في خطامه، فهذا المعهود، ولا كمن جَمَعَنا به عصر، وضمنا معه مِصْر، فإنه جاهر الكلّ بالقِلَى. . . وامتُحِنتُ أنا منه وممن معه بأشد محنة. . . فمن أيدٍ تستبيح الحِمَى، وألسنة تنطق بالخَنا. . . »[3] فلعلّنا لاحظنا كيف يجعل طغيان أمير بلده فوق كل طغيان، وظلمه أكثر من كل ظلم.

وربما بلغت شدة العذاب بالكاتب هذه الدرجة التي يصبح فيها الإنسان فاقد الحسّ، عديم الإنفعال، لا يريد أن يرى فرقاً بين وجهي الحياة، لأنها عنده، دائماً، ذات وجه واحد: هو وجه الحيرة والعذاب. وهو يصف حاله بهذه الكلمات الدامية التي تنبئنا بذلك القدر العظيم الذي يضطرم في أحشائه من الأسى والكرب اللذين يورثان هذه اللامبالاة المزعومة أمام تصرف الزمان، والتي لا تدل في حقيقة الأمر إلا على يأس عميق. يقول: «أنا في هذا الوقت بحكم الزمان، نِعْمَ مُستودع الهَوان، أضحك لمن شتم، واعتذر إلى من ظَلَم، وأُغضِي لمن نَمَز ولَمَز، وأتعامى على من أشار وغمز، وأتلقى المكروه والأذى، بطلاقة التقبل والرضى، فمثلي إن ابتُلِي صَبَر، وإن أُوذِي شَكَر، أو أسخطته الأقدار

---

(1) ذ: 1/3، ص: 265.

(2) هوالمقتدر بن هود واسمه أحمد. حكم دولة بني هود في سرقسطة، وتوفي 474 هـ. وانظر ما كتبناه عن هذه الدولة في الفصل الأول من الباب الأول.

(3) ذ: 1/3، ص: 262.

تجمّل، أو حُمّل ما لا يُستطاع تحمّل...»[1].

ولو أننا شئنا أن نستقصي مثل هذه النماذج عن ابن الدباغي لطالت بنا الحال، وخرجنا عن القصد، ونحسب أننا بينا بقدر كافٍ كيف استطاع النثر في هذا العصر أن يرصد الحالات النفسية، وأن يعبر عن كل ما يختلج في نفس المَرْء المصاب في حُرِّيته وفي كرامته، والمحروم مما لا بدّ منه لاكتمال إنسانية الإنسان.

ولما كان كل موجود إلى زوال، وكل مبدوء إلى انتهاء، فقد شاء الله أن تنفرج أزمة ابن الدباغ مرّتين: مرة بعفو المقتدر ابن هود عنه، ومرة أخرى بالتحاقه بدولة بني عباد التي كان يرى أن الأيام ستعوِّضه عندهم عن كل ما سلف لها من الإساءة بحقه. وكما سجل مشاعر الحزن، ورصد دبيب الألم في نفسه المُرْهَقة، فإنه حاول أن يسجل كذلك مسرى نشاط السعادة في أوصاله، فكتب عندما وصل إلى قرطبة ـ وهي من أملاك بني عباد ـ يقول: «كتابي من قرطبة وقد وردتها بحمد الله على رحب وسعة، وأخلدت منها إلى سكون ودعة، وذَهَبت، بحمد الله، تلك الحيرة، وانجلت تلك الغمرة، واستقال الجد من عثاره، ولاح قَمرُ السعد بعد سِراره...»[2].

وقد لا تكون بنا حاجة إلى التعليق على هذه الفقرة لبيان الفرق في دقة الوصف وحرارته بينها وبين الفِقَر السابقة، مما يعزز الرأي الذي كنا أبديناه، والذي فحواه أن الأدب بوجه عام، أقدرُ على وصف الشقاء، منه على وصف السعادة...

كانت هذه نماذج من النثر الذي اعتنى بوصف حالات النفس المختلفة، وأوضاعها في تصرف الزمان بها ما بين لين وشدة، وسعادة وشقاء. وقد كنّا بدأنا هذا الفصل ببعض ما كتبه أدباء الأندلس في وصف الطبيعة، وما يقع تحت

---

(1) ذ: 1/3، ص: 263.

(2) نفسه، ص: 293.

حواسهم من مناظرها المختلفة. بيد أن الكلام عن الوصف في النثر الأندلسي، خلال العصر الذي نؤرخه، لا يكتمل، ولا يستوفي كل شعبه إلاّ إذا ألممنا بنوع منه لا يخلص لقسم الموصوفات المادية، ولا للموصوفات المعنوية المتصلة بأحوال النفس، لأنه جاء جامعاً للقسمين، متضمناً للفنين، وهو ما يمكن أن نسميه، في الحالة التي سندرسها: نثر المسالك والممالك.

جـ ـ وصف المسالك والممالك:

بِأَيْدينا من هذا النوع من الإنشاء رسالة طويلة، عمل صاحب الذخيرة جهده في تلخيصها واختصارها، ولكنها جاءت، مع ذلك، تربو على عشرين صفحة من مطبوع كتابه وهي لكاتب سماه «الوزير أبا عبدالله محمد بن مسلم»[1] وقد كتب هذه الرسالة إلى أغلب صاحب مَيُورْقة[2].

إن المتأمل في هذه الرسالة يراها أقرب إلى صيغة تقرير مفصل عن مهمة يكون هذا الوزير الكاتب قد كلف بالقيام بها في عدد لا يحصى من ممالك الطوائف. وقد جاء هذا التقرير المفصل، المُطِنِب، في شكل مذكرات ضمنها الكاتب كل ما تجمع لديه من أوصاف المدن التي زارها، والمعالم التي وقف عليها، وتحدث بإسهاب عن اتصالاته بالحكام، فوصفهم، وذكر الكثير من أخلاقهم، ونوعية علاقاتهم فيما بينهم. وكل ذلك يجعلنا نرجح أن يكون محمد ابن مسلم هذا يعمل طوال عشرين سنة ـ كما قال ـ «لحساب» إقبال الدولة، والجهات العسكرية من دولته، التي نرى أن «أغلب» هذا، ربما كان من ركائزها المتينة.

أما الرسالة نفسها، فإن ابن بسام يخبرنا بأن صاحبها سماها: «طيّ

---

(1) أبوعبدالله محمد بن مسلم من أهل دانية، وهي قاعدة إمارة مجاهد وابنه إقبال الدولة الصقلبيين. أخباره قليلة جداً. وانظر ذ: 1/3، ص: 427 والمغرب 2/ ص: 405.

(2) أغلب المذكور هنا كـان والياً على ميورقة في زمن مجاهد وابنه.

المراحل»[1]. وهو يبدؤها بإظهار الحنين إلى لقاء «أغلب»، والتشوق إلى مشافهته. ثم يحرص على أن يبين له مدى ما يلقاه من العناء في هذه الرحلة المضنية، مذكراً بأن «السفر قطعة من العذاب، والمسافر ومتاعه على فلك الذهاب»[2]، ثم يحدثنا بما استغرقته هذه الرحلة من سنوات طوال فقال: «ولي منذ أجول البلاد، وأجوب الصخر بالواد، ما يزيد على عشر حجج نصفها، وعلى سبعة أعوام ضعفها، لم ألق إلا يوماً يجعل الولدان شِيباً، والجبال كَثِيباً مهيلاً»[3].

هذه أكثر من عشرين عاماً قضاها هذا الجوّال الغريب، وسط أهوال كثيرة. ومحن متصلة، أفلا يكون أمره أهمّ مما يمكن أن تصوره لنا المعلومات القليلة التي نملكها عنه؟ هل يجوز لنا أن لا نرى فيه إلا «رسولاً إلى بعض ملوك الطوائف عن إقبال الدولة بن مجاهد حين نازعه المقتَدِر أحدَ الحصون»[4]؟ وهل تقتضي سفارة من هذا النوع مدة من الزمن كالتي ذكر هذا الرسول أنه قضاها في التطواف بين ملوك الأندلس، والولاة الحاكمين من قبلهم، ووزرائهم النافذين؟.

والرسالة تتضمن فصولاً عديدة في وصف الماديات نورد منها فقرة واحدة لمجرد التمثيل وهي قوله: «حتى وصلنا إلى دار منفرجة الأقطار، مستوفزة الأنوار، متدفقة الأنهار، هواؤها جلاء للغم، وزيادة في العمر، وضياؤها شفاء للكظم، وانشراح للصدر... وميل بنا إلى «التاج» وهو مصنع على مفرق القصر، من جانب البحر، مُرَّد من قوارير، وأُلبِس الصبح المستنير، ... فمن يقول هو قبة الفلك، ومن يقول هو السماء ذات الحُبُك...»[5].

والحق أن أبا عبدالله محمد بن مسلم وصّاف بارع، دقيق الملاحظة، ذكي

---

(1) ذ: 1/3، ص: 428.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) هذا رأي الدكتور إحسان عباس في هامش الذخيرة رقم 1 من ذ: 1/3، ص: 427.

(5) ذ: 1/3، ص: 431.

الإشارة. وهو كما يصف الماديات ويحسن في وصفها، فإنه من أقدر الناس على رصد تموجات النفس ونعت أحوالها المختلفة. ولنسمع إليه، هنا أيضاً، في نموذج واحد من إنشائه لبيان ما قلناه. «فجئنا فلانة[1]، وقد سُدّ بابها، ونام بَوَّابها، والسيل قد طمى، يحمل غُثَاء أحوى، فلم تشك القلوب أن نفوسنا ذائقة الموت، حتى إذا بلغت النفوس التّراق، والتفت السّاق بالسّاق، وقيل من راق، وأشعر صاحب الحصن بمكاني، وقصّ عليه شاني، فأمر بفتح باب المدينة، وآواني إلى دار حصينة، وتقدّم بالضّرام فأجّج، وبالطعام فروّج، وبالمدام فشَبَّ وأسْرَج...»[2].

إن رسالة «طي المراحل» ضرب ممتع من الإنشاء، وهو بكل تأكيد نوع من أنواع أدب الرحـلات، ولكن أين ذلك السرد الرتيب للفراسخ والأميال، والعد الممل للمدن والمحطات، والوصف الآلي لمـا تعج به الساحات العمومية، والأسواق التجارية... من فصول بليغة، في قالبِ مذكرات يدون فيها السفير المتجول، ذو المهمة السرية الخطيرة، فيما نقدر ، كلَّ ما تلتقطه عين مدربة على المناظر البديعة، وكل ما تلقاه نفس مرهفة الحس من ضروب المشاعر، وما تعيشه من المغامرات والأهوال.

وبحديثنا عن رسالة أبي عبدالله ننهي الحديث عن النثر الوصفي، على أن هناك نوعاً آخر منه يأتي في قالب التفاخر والتنازع بالأوصاف والنعوت بدل الوقوف عند مجرّد الحديث عن وجودها. وهو ما نريد أن نتناوله في الصفحات القادمة.

---

(1) اسم مدينة حذفت، على عادتهم في تعمية أسماء الناس وما يمكن أن يشير إليهم أو يدلّ عليهم.

(3) ذ: 1/3، ص: 430.

2 ـ نثر المنازعات والمفاخرات

من المعلوم أن النثر الفنّي الذي يستحق الدراسة من الناحية الأدبية هو ذلك الذي يتجاوز مجرّد الإبانة عن المعاني، إلى إحداث المتعة الفنية التي يتوصل إليها عبر ضروب من الأساليب والطرائق التعبيرية، والصيغ البلاغية، والتمويجات الموسيقية. ومن المعلوم أيضاً أن النثر كلما زادت أصالته الإبداعية، وتمكنت من النفوس مناهجه الفنية، رمى إلى المزيد من التحليق في عالم المجردات، وتناول أكثر فأكثر، المثل العليا، والقيم الأخلاقية، والمذاهب الفكرية، فولج أبوابها، ووقف كُتَّابه من خلالها مكافحين عن آرائهم، منافحين عن اتجاهاتهم، يحاولون عرضها «والدعاية» لها، والتبشير بها، في إطار لا يخلو من الحماسة وحتى من الشدة والعنف، حين يتناول هذا النوع من الأدب النضال عن المقدسات، والعقائد، والمنازع السياسية وما إلى ذلك... وكثيراً ما يحتاج كُتَّاب هذا اللون من الإنشاء إلى التصدي إلى نظريات الغير بغية هدمها، وتقويض أساسها، ليبنوا على أنقاضها ما يتجردون لتقريره من المذاهب والآراء.

وعرف النثر الأندلسي هذا اللون من الإنشاء الذي يندرج في إطار المنازعات والمفاخرات، وحفظت المصادر نماذج متنوعة منه، تدل على توسع في استخدامه، ولجوء في كثير من المناسبات إليه. وقد درسنا أهم هذه النماذج فوجدناها تنقسم إلى قسمين متمايزين: أما الأول منهما فيتناول قضايا فكرية على جانب كبير من الخطورة في حياة الأندلس من حيث انتماؤها، وتاريخها الثقافي والعلمي. وأما الثاني منهما فهو يمثل طفرة نوعية أخرى في مسار نضج النثر،

وتطلعه إلى الخوض في كلّ مجالات التعبير الإنساني. ومن أرقى صور هذا التعبير المرحلة التجريدية التي يغدو فيها الإنشاء النثري صالحاً، لا للحديث عن أحاسيس الجمال التي توحي بها الجوامد والكائنات المتضمنة لرموز الجمال، كالأزهار، والنباتات المعطرة الأخرى، وهو ما كان الشعر يحتكره حتى بدأ النثر يغزوه منذ أواخر القرن الرابع، كما كنا رأينا، بل إن النثر في هذه المرحلة المتقدمة من مسيرة النضج يصبح فيها لغة لهذه الرموز فيما بينها، وأداة لتحاورها بالذات، وذلك منتهى التطور. أليس ارتقاء مدهشاً للنثر في القرن الخامس أن لا يكتفي النثر بوصف هذه الرموز، والحديث عنها، بل يصبح لساناً لها تتحدث به، وتتفاخر وتتباهي، من خلاله، بما تُنْتَقى لـه، وتُفَضَّل من أجله، وتُحَبُّ بسببه...

وبدون الخوض في القيم الفنية لهذه الأشكال الجديدة في النثر الأندلسي، لأننا سنتناول كل ذلك بالتفصيل في الباب الأخير من هذا البحث، فإننا سنتحدث عن القسمين اللذين رأينا أن هذا الضرب من الإنشاء ينقسم إليهما، بادئين بالمنازعات ذات الطابع الفكري.

أ ـ المنازعات ذات الطابع الفكري:

يبدو أن القرن الخامس الهجري هو العصر الذي بعثت حوادثه الخطيرة تساؤلات مختلفة ما كان أحد يجرؤ على أن يرفع صوته بها، أو ما كانت تخطر له أهميتها على بال، حسب موقع المتسائل من تاريخ الأندلس، ومكانته من خصائص شخصيتها. وقد حفز على ذلك ـ فيما نظن ـ شيئان:

أحدهما أن كل أمة تتعرض فيها الحياة العامة إلى هزات لها عمق ومدى تلك التي تعرضت لها الأندلس في هذا القرن، يُقبِل أفرادها على التفتيش في ذواتهم، واستنطاق ماضيهم، والتحصّن بخصوصيتهم التي يرون في التشبث بها، لاستثارة دوافع النضال من أجلها، سبيلاً لا غِنَى عنها لتحقيق الاستمرار لوجودهم الجماعي، والإنقاذ لمصيرهم المهدّد.

وهكذا تساءل الأندلسيون عن حقيقة أصلهم، واستنطقوا في سبيل ذلك

كل مكونات بيئتهم، فكانت النتيجة التي تظهر للعيان في كل ما كتبوه، مما له أدنى اتصال بهذا الشأن، أنهم أندلسيون. ومعنى هذه الحقيقة التي تظهر اليوم بديهية، لا تحتاج إلى عناء البحث والتدليل، معناها أوّلاً أنهم ليسوا أشتاتاً من الناس، وخليطاً من البشر، جاؤوا إلى هذه الأرض من آفاق مختلفة: منهم عرب الجزيرة، ومنهم عرب الشام ومصر، ومنهم المغاربة البربر، ومنهم طوائف الإسبان... أجل إنهم من أصول مختلفة، ولكنهم بعد أربعة قرون من الحياة المشتركة، صاروا شعباً واحداً كثيراً ما يعبرون عنه في ما يكتبون بـ«أهل الأندلس». والمعنى الثاني لهذه الحقيقة أن هذا الشعب الواحد، له تراث ثقافي وعلمي واحد، انصهرت فيه وحدة هذا الشعب، وتجلت فيه، فلذلك ينبغي أن يعتزّ الجميع به، وأن يدافعوا عنه كما يدافعون عن وجودهم التاريخي بالذات على أرض هذه الجزيرة المتطرفة في جسم العروبة والإسلام. وكان من هذا المنطلق تأليف الأديب الفاضل ابن بسام لموسوعته الجليلة التي سماها «الذخيرة...».

وكان من هذا المنطلق أيضاً تلك المرارة التي كان بعض المثقفين يشعرون بها وهم يرون مجتمعهم كثير الإقبال على الأدباء المشارقة وعلمائهم، قليل الالتفات ـ أو ذاك ما بدا لهم ـ إلى أدبائهم وعلمائهم الذين يشاركونهم الحياة على نفس الأرض، ويتنفسون معهم نفس الهواء.

في هذا السياق تستوقفنا الرسائل التي كتبها أصحابها لبيان فضل الأندلس، والتباهي بأمجادها، والرد على من ينتقص مزاياها، ويقلل من شأنها. وتأتي في طليعة ما كُتب عن هذا الموضوع رسالة الإمام أبي محمد بن حزم[1]، وهي رسالة لها حكاية لا بد من إيرادها لفهم سياقها والظرف الذي أنشئت فيه.

---

(1) أبو محمد علي بن حزم (383 - 456 هـ). من أسرة عريقة. وهو شخصية علمية، شاركت بعشرات التآليف في الأدب، والفقه، والفلسفة، وعلوم الدين... وكان من أقطاب الظاهرية في الأندلس.

* رسالة ابن حزم في فضل الأندلس:

لقد بدأ الأمر برسالة كتبها أحد المغاربة من أبناء تاهرت، واسمه ابن الربيب[1] إلى أحد الأدباء الأندلسيين واسمه أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم[2]، يلوم فيها علماء الأندلس ومؤرخيها على تقصيرهم في حق تراثهم، «لم يُتعِب أحد منهم نفساً في جمع فضائل أهل بلده، ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه، ولا بَلَّ قلما بمناقب كتّابه ووزرائه، ولا سوّد قرطاساً بمحاسن قضاته وعلمائه...»[3].

وقد ردّ أبو المغيرة على رسالة ابن الربيب، ردّاً جميلاً، فأكثر الثناء عليه، وشكره على عنايته بالأندلس، واعترافه بفضلها. ثم شرع في ما يمكن أن يسمّى ردّاً على مراسله، فإذا به يعترف له بعض الاعتراف بما ذهب إليه، وإن كان هو يثير المسألة من جانب آخر، له صلة بإغفال الأندلس للأحياء من عظمائها. وفي ذلك يقول: «وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرها يعلن، يتعب أحدنا نفسه، ويرهف حسه، ويعارض السيف بفهمه، والبحر بعلمه... ونتائج فكره محجوبة، وبنات صدره غير مخطوبة...»[4].

ويبدو أن أبا المغيرة قال ما قال في عتاب أهل زمانه على أَسَاسٍ ما يُحِس به كل ذي فكر من أنه مضطهد بالتغافل عنه وتناسي فضائله... ثم مال إلى الردّ الحقيقي على ابن الربيب، في فصول مطولة احتج فيها لعلماء الأندلس، وبين

---

(1) أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب التميمي، المنسوب إلى القيروان وهو من تاهرت. انظر هامش النفح، ج 3، ص: 156.

(2) أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن... بن حزم. ابن عم الإمام أبي محمد علي بن حزم وكانت بينهما مشاحنة (انظر ذ: 1/1، ص: 161 - 166). لحق أبو المغيرة ببلاد الثغر، وتولى الكتابة هنالك لعدة أمراء. وذكر ابن حيان أنه «اعتبط شاباً». وقد مات سنة 433 هـ.

(3) الرسالة في النَّفح: 157/3، وفي الذخيرة 1/1، ص: 133.

(4) ذ: 1/1، ص: 138.

أنهم لم يقصروا، مثلما زعم الأديب التاهرتي، في حق عظماء البلاد. ولكن ابن بسام استطول ـ للأسف ـ هذه الفصول، فحذفها كلها، وحرمنا منها.

وتناهت رقعة ابن الربيب إلى أبي محمد علي بن حزم، وقد وجدها، حسبما يُفهم من رسالته، مُدرَجة بين مجموعة من الكتب والوثائق في بيت لصاحبه الوزير أبي بكر بن إسحاق المهلَّبي. ثم لما حضر مجلس «يُمْن الدولة»[1] طلب منه هذا الأمير أن يكتب شيئاً في الرد على رقعة ابن الربيب، فكتب هذه الرسالة في بيان فضل الأندلس، والحديث عن أمجادها العلمية والأدبية، وهذه هي حكايتها. وهي تستلزم في البداية بعض التعليقات:

أولاً ـ أن هذه الرسالة يوجهها الإمام ابن حزم إلى صديقه السالف الذكر: أبي بكر (محمد بن إسحاق المهلبي الوزير)، ولكنه يقصد من ورائه كل الذين يهمهم الاطلاع على أحوال الأندلس. وفي ذلك يقول ابن حزم: «فإنك وإن كنت المقصود والمواجه، فإنما المراد من أهل تلك الناحية مَنْ نَأى عنه علم ما استجلبه السائل الماضي».

ثانيا ـ أن هذا «السائل الماضي» ليس إلا أبا علي بن الربيب الذي بادر إلى مخاطبة أبي المغيرة بن حزم في مسألة تقصير الأندلسيين. وقد أدركته منيته قبل أن يتصدّى الإمام أبو محمد بن حزم لكتابة هذا الرد. فلذلك نراه يتحدث عن موت ابن الربيب بقوله: «فتناولت الجواب المذكور بعد أن بلغني أن ذلك المخاطب قد مات رحمنا الله تعالى وإياه، فلم يكن لقصده بالجواب معنى، وقد صارت المقابر له مغنى، فلسنا بمُسمِعين مَن في القبور...»[2].

ثالثاً ـ أن الإمام أبا محمد كان يجهل ـ فيما يبدو ـ أن ابن الربيب كان يخاطب ابن عمه وأبا المغيرة بن حزم، ذلك الذي كنّا أشرنا إلى ما بينهما من

---

(1) أحد أمراء بني قاسم الذين أسسوا دولتهم في «البونت» من أعمال بلنسية. وحكم يمن الدولة من 421 إلى 434 هـ.

(2) نفح الطيب: 160/3.

مشاحنات. فمن باب أولى وأحرى أنه كان يجهل أيضاً ردّ أبي المغيرة على رسالة ابن الرَّبيب. وهذا هو الاحتمال المعقول الذي يستخلص من قول أبي محمد «... خطاب لبعض الكُتَّاب من مصاقبينا في الدار، أهل إفريقية... إلى رجل أندلسي لم يعيّنه باسمه، ولا ذكره بنسبه»[1].

أما الرسالة نفسها فهي تبدأ بمخاطبة الكاتب لصديقه مخاطبة يعرب له فيها عن شوقه إليه، ثم يشير إلى الظروف التي مكنته من الاطلاع - صدفة - على رسالة ابن الربيب، وكيف طلب منه أمير البُونت أن يرد عليها. وهو مدخل يشكل تمهيداً مفيداً لصُلْب الرسالة. ثم يشرع في مناقشة الرأي القائل بأن مآثر الأندلس لم تخلَّد في كتاب هام، ويذكر أن ما ألفه أحمد بن محمد الرازي التاريخي[2] يفي بهذا الغرض.

ويترك أبو محمد هذا الحديث، حتى ليوهم القارىء بأنه لن يُعنى بعدُ بمؤلفات الأندلسيين، ويأخذ في شيء آخر: وهو فضل الأندلس. ويبدأ بأفضليتها من الناحية الدينية، فيشير إلى حديث رسول الله ﷺ، الذي وصف فيه جماعة من المجاهدين «يركبون ثَبَج هذا البحر ملوكاً على الأسرة، أو مثل الملوك على الأسرة...»[3]، ويرى أن المقصودين به هم أسلاف الأندلسيين الذين فتحوا الأندلس مجاهدين. ويورد ما لديه من البيانات التاريخية، والمنطقية... على أن الأندلس هي المقصودة بالحديث النبوي الشريف وليست قبرص، ولا إقْرِيطَشْ، ولا صِقِلّية...

ثم يتحدث عن موقع الأندلس من الناحية الفلكية، ويستدل بهذا الموقع

---

(1) نفح الطيب 159/3.

(2) من آل الرازي بالأندلس ثلاثة مؤرخين: أولهم محمد بن موسى وهو الوافد إلى الأندلس سنة 249 هـ، واشتغل بالتاريخ. وثانيهم وأهمهم ابنه أحمد بن محمد (وهو الذي قصده ابن حزم) 264 - 324 هـ. وكان كاتباً شاعراً له تآليف كثيرة في تاريخ الأندلس وثالثهم ابنه: عيسى بن أحمد بن محمد، وقد عاش في عهد هشام المؤيد.

(3) النفح: /161.

على ما لها من نتائج إيجابية في حقل التمكن من العلم، حسب رأي الخبراء بالأحكام المستنبطة من الكواكب...

وبعد أن يقرر هذه النظرية التي يرى أن الواقع يؤيدها، وينبىء بصدقها يَلْتَفِتُ إلى ابن الربيب، فيقول إنّ ما أبداه من رأي في علماء الأندلس، ينطبق على القيروان نفسها. فهو لا يعرف عن أخبارها تأليفاً إلا كتاب «المعرب عن أخبار المغرب»[1]، وما كتبه محمد بن يوسف الوراق[2] للحكم المستنصر من مؤلفات تتصل بتاريخ إفريقية ومسالكها وممالكها... على أن محمداً هذا «أندلسي الأصل والفرع، آباؤه من وَادِي الحِجَارة، ومدفنه بقرطبة، وهجرته إليها، وإن كانت نشأته بالقيروان»[3].

وإذْ وصل إلى هذه النقطة فإنه يثير مسألة على جانب كبير من الأهمية، ما زال الجدل حولها قائماً إلى اليوم، حين يختلف الناس في نسبة هذا الأديب أو ذاك العالم مِمَّنْ وُلدوا في بلدٍ ما، ورحلوا وعاشوا ببلد آخر. وخلاصة رأي ابن حزم لا يخلو من عمق، وهو مبني على رأي الأئمةالسابقين الذي يلخصه بهذه الكلمات «إن جميع المؤرخين، من أئمتنا السالفين والباقين، دون محاشاة أحد، بل قد تيقنا إجماعهم على ذلك، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقرّ بها، ولم يرحل عنها رحيل تَرِكٍ لسكناها إلى أن مات»[4]. والقاعـدة العامة عنده هي: «من هاجر إلينا من سائر البلاد، فنحن أحقّ به،

(1) ذكر محقق النفح (521/8) أن هذا الكتاب لليسع. وترجم المقري في الجزء الثاني منه، ص: 379، لليسع بن عيسى... بن عبدالله الغافقي «فقال إنه صاحب كتاب «المعرب في أخبار محاسن أهل المغرب» وأنه جمعه لسلطان مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. وقد هاجر إليها ومات فيها سنة 575. ونحن نعلم أن الإمام ابن حزم مات سنة 454 هـ. فمن المحال أن يكون كتابه هو المقصود.

(2) محمد بن الوراق، ويعرف بالتاريخي 291 - 362 هـ. وما قاله عنه ابن حزم هو كل ما نعرفه عنه.

(3) النفح: 163/3.

(4) نفسه، ص: 164.

وهو منّا. . . ومن هاجر منّا إلى غيرنا فلا حظّ لنـا فيه والمكان الذي اختاره أسعد به»[1].

ثم يعود إلى ندرة التآليف بوجه عام، وأن الأندلس ليست بدعاً في المدن والممالك فهذه بغداد العظيمة «حاضرة الدنيا، ومعدن كل فضيلة. . .» وهذه البصرة «وهي عين المعمور في كل ما ذكرنا» لا يُعلم في أخبارها تآليف كثيرة غير كتب قليلة مفردة يذكرها بأعيانها. ومثل ذلك يقال في الكوفة. وأما «خراسان، وطبـرستان، وجـرجان، وكـرمان، وسجستـان، والري، والسنـد، وأرمينيـة، . . . وتلك الممالك الكثيرة، فلا أعلم في شيء منها تأليفاً قُصِد به أخبار ملوك تلك النواحي وعلمائها وشعرائها وأطبائها[2].

وبعد هذه المقدمات كلها يصل الإمام ابن حزم إلى رأي يفاجئنا به، وهو بكل بساطة: مسايرته، على وجه من الوجوه، لرأي ابن الربيب، وإن كان شأنه شأن ابن عمه أبي المغيرة يخرجه مخرجاً ذاتياً، لأنه يُشتَمُّ منه غَضَبُه على أبناء وطنه، وما يُعرَف عنه من لَوْمٍ لهم على ترحيبهم بالعلم الذي يأتيهم من بعيد، وإهمالهم للعلم الموجود بين ظهرانيهم. وفي ذلك يقول: «وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر: «أزهَد الناس في عَالِمٍ أهله» . . . ولا سيما أندلسنا فإنها خُصَّت من حسد أهلها للعَـالِم الظاهـر فيهم، الماهـر منهم، واستقلالهم كثيرَ ما يأتي به، واستهجانهم حسناته، . . . وأكثر ذلك مدةَ حياته بأضعاف ما في سائر البلاد»[3].

على أن أبا محمد إن كان يبدو كمن يساير ابن الربيب، فإنه في الحق يجنح برأيه إلى سبيل آخر، وهو أنه يرى احتقار الأندلسيين لعلمائهم، مع أن هؤلاء من العباقرة الذين لم يتركوا باباً في العلم إلا ولجوه، ولا فنّاً من فنونه إلا ألّفـوا وصنفوا فيه.

---

(1) النفح: 164/3.

(2) نفسه، ص: 165.

(3) نفسه، ص: 166.

ومن هنا تنفتح أمامه طريق الحديث عن مؤلفاتهم، ويأخذ في عَدِّها بادئاً بالفقه، مثنياً بتفسير القرآن الكريم، مُثلِّثاً بالحديث الشريف، دون أن يحترم هذه القسمة لأنه بعد قليل يعود إلى الحديث، ثم إلى تفسير القرآن من جديد، ثم يعدد ما أُلّف من كتب اللغة، والتراجم، والأخبار، ثم يذكر الطب والفلسفة، والعدد والهندسة، وعلم الكلام، وهو في أثناء ذلك يقارن بين كتب الأندلسيين وكتب المشارقة، ولا سيما في ميادين الشريعة الإسلامية، وتفسير القرآن، والحديث، فيميل إلى تفضيل كتب الأوّلين. أما إذا قيست الأندلس بالممالك الإسلامية الأخرى من أمثال: فارس، والأهواز، وديار مضر، واليمن، والشام، فإنها تبدو المَجَلِّيَةَ السابقة التي لا يُشق لها غبار. ولذلك فالذين نسميهم «المشارقة» هم عنده أهل العراق ثم أهل مكة والمدينة في باب العلوم الإسلامية. وهو على كل حال يعتبر العراق «دار هجرة الفهم وذويه، ومراد المعارف وأربابها»[1].

بذلك تنتهي هذه الرسالة، وهي في الحقيقة منازعة من جانب واحد، لأن الرسالة التي اقتضت هذا الردّ ليس فيها ما يُفهم منه أنه إنكار لفضل الأندلس، أو تنقص من قيمة علمائها، بل إن كل ما فيها هو اعتراف بهذا الفضل، وإجلال لذلك العلم، وإنما كتب ما كتب من باب الغيرة على الأندلس، فقد كان يحب أن يقرأ كتاباً جامعاً في علمائها وملوكها. كان يودّ أن يجد في الأندلس كتاباً كالعقد الفريد[2] تكون مادته مأخوذة من أخبار الأندلس وتاريخها السياسي والثقافي، وليس من المشرق. وفي عمل ابن عبد ربه يقول ابن الربيب بكل وضوح: «على أنه يلحقه فيه بعض اللوم لا سِيَّمَا إذْ لم يجعل فضائل بلده واسطةَ عِقده، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه، أكثر الحز وأخطأ المفصل، وأطال الهز لسيف غير مقصل»[3].

(1) النفح: 177/3.

(2) مؤلفه: أحمد بن عبد ربه (أبو عمر): شاعر، كاتب، اتصل بالخليفة عبد الرحمن الناصر، وتوفي عام 323 هـ.

(3) النفح 158/3.

والذي منح الموضوع هذا الطابع الجدلي، وأضفى عليه صبغة المنازعة إنما هو مزاج أبي محمد الحاد الذي لا يكاد يتناول موضوعاً من موضوعات العلم إلا من زاوية الرّد الذي لا يخلو من خصومة وعنف.

كان هذا مظهراً من مظاهر المنازعات التي تنشأ بين رجال الفكر حول موضوعات أدبية أو علمية. ولكن هناك جانب آخر، لعله أهمّ من هذا الذي تناولناه لأنه متصل ببيئة الحرّية التي أتاحها القرن الخامس في الأندلس للناس، فعبر كل عن رأيه بطريقة ربما لم تكن تخطر لأحد على بال قبل هذه الفترة من التاريخ. ومن الطبيعي أن تجد بعض الفئات الاجتماعية، في هذه الأجواء، فرصة تمكِّنها من إخراج ما بين ضلوعها من الحقد على العرب، والكره لهم. وهي حالة عُرفت في التاريخ العربي باسم «الشعوبية».

*** الموقف من الشعوبية في الأندلس:**

لو شئنا الدقة في الحديث لقلنا إنه يمكننا أن نسمّي القرن الخامس الهجري، من بعض الوجوه، «عصر القوميات» مع ما ينبغي من الاحتياط عند إطلاق هذا المصطلح على فترة تاريخيه كالتي ذكرناها. ورَأَيْنا أنه كما أَوَى الأندلسيون إلى أصالتهم، وإلى مميزات كيانهم الجماعي، وملامح شخصيتهم، يتشبّثون بها، ويدافعون عنها، ويدعون إلى التمسك بها، وقد ظهر ذلك جلياً في صورة الدعوة إلى العناية بتاريخ الأندلس، وأخبار ملوكها، والعناية بعلمائها، ... فإن بعض الفئات التي لم تنصهر في المجتمع الأندلسي، ولم تستطع الانسجام مع خصائصه، ومميزاته، وجدت في عهد التفكك، والانقسام، والاضطراب، فرصة مواتية تثبت فيها تطلعاتها العميقة إلى التخلص من الحكم العربي، وإرجاع الأوضاع العامة في البلاد، من الناحية السياسية والثقافية، إلى ما كانت عليه قبل الفتح الإسلامي. وقد كانت انتصارات الممالك المسيحية وخضوع الدويلات الإسلامية لها حافزاً قوياً على مثل تلك التطلعات، فظهرت إلى السطح أفكار ما كان بإمكانها أن تظهر أبداً أيام سلطان المسلمين وقوتهم الفعلية.

ومن الطبيعي أيضاً أن لا تبرز هـذه الأفكار في شكل عداوة للإسلام والمسلمين، لأن في ذلك ما يجهضها، ويقضي عليها قبـل الأوان، بإثـارة الحمية، وإكساب الصراع طابعاً دينياً استفزازياً. ولذلك كان الأسهل والأيسر أن تبـدو في شكل مُعَـاداة للعـرب، وتحقيـر لتـاريخهم، واستهـزاء بـأنمـاط معيشتهم... وهل كانت الشعوبية في المشرق عند أبي نواس، أو عند بشار ابن برد شيئاً آخر غير هذا[1] ؟ ومن الغريب أن الإسلام يُضرَب ضرباً مُوجِعاً عن طـريق ضرب «العـروبة» فـلا يحس بعض المسلمين ـ الذين لا شـأن لهم بالشعوبية، ولا يمكن أن ينسبوا إليها ـ بشيء من الغيرة، لأن «العروبة» تبدو في نظرهم شيئاً كالمنافس للإسلام، أو كالمُضايق له...

أما الأندلسيون فقد فهموا مقدار الصلة بين العروبة والإسلام، وفطنوا إلى أن الذي يهدم هذه إنما يروم هدم ذلك، ولهذا تصدّوا إلى من أظهر تلك الأفكار الشعوبية ببيان «المآثر العربية والمفاخر الإسلامية» على حد قول ابن بسام[2].

* رسالة ابن غرسيّة الشعوبية:

كان أول من أثار نغمة الشعوبية في الأندلس، بشكل واضح صريح، وعبر عن احتقاره للعرب، وحقده عليهم في رسالة مطولة: هو رجل أصله من نصارى البشكنس اسمه أبو عامر أحمد بن غرسية[3]، وقد وجه رسالته الشعوبية إلى الأديب أبي جعفر بن الخرّاز[4] وهو يلومه فيها على «تركه مدح مجاهد واقتصاره على مدائح ابن صمادح التجيبي»[5] وهذا نفسه هو السياق الملائم للنغمـة

---

(1) وهل هي اليوم شيء غير هذا؟.

(2) ذ: 2/3، ص: 705.

(3) أبو عامر أحمد بن غرسية كان صبياً نصرانياً من البشكنس سُبي صغيراً، ورباه مولاه مجاهد الصقلبي أمير دانية والجزائر الشرقية، وعاش في دولته.

(4) أحمد بن محمد أبو جعفر ابن الخراز. وسماه صاحب المغرب «ابن الجزار الشاعر» (407/2)، وجعله صاحباً لابن غرسية.

(5) ذ: 2/3.

الشعوبية، لأن مجاهداً صقلبي، لا يتحرك فيه وَتَر للعروبة، وإن كان لا يُنكِر جهاده ضد النصارى في إطار حملاته البحرية. بينما ينتمي بنو صمادح إلى التّجيبيّين، وهم من أصل عربي أصيل[1]. أفكنا ننتظر من مجاهد أن يعاقبه على تحقير العرب كما كان يفعل لو أنه حقّر الصقالبة، وسخر منهم؟.

وتبدأ رسالة ابن غرسية بإثارة حفيظة ابن الخراز على بني صمادح بإظهارهم في صورة المُقَصِّرينَ نحو شاعرهم! إذ لم يَكفُوهُ حاجتَه، وألْجَأوهُ إلى أن يضرب في الأرض القاحلة اليباب. وكان عليه أن يقصد الجيل النجيب الذي يتألف من «الصُّهْب الشُّهْب» الذين «ليسوا بعُرْب ذوي أينق جُرْب، بل هم القياصرة الأكاسرة»[2]. وهذا هو المدخل الذي يتيح له أن يشرع في الفخر بالأعاجم، وأن يذم العرب في أثناء ذلك.

وطريقة ابن غرسية في الفخر بالعجم هي إيراد الفضائل في صورة صفات إيجابية لهم، ثم يعقبها بنفي صورتها السلبية، المخالفة أو المناقضة لها، وهي التي يجعلها من نصيبُ العرب دون أن يصرح بذلك أحياناً. كأن يقول مثلاً: «مُجُدٌ نُجُدٌ: بُهَمٌ لا رعاةُ شُوَيْهات ولا بَهَم، شُغِلُوا بالمَاذِيّ والمَرّان، عن رعي البُعْرَان، وبجَلْب العِز عن حلب المعْز. جبابرة قياصرة، ذوو المغافر والدروع، للتنفيس عن رَوْع المَرُوع، حُمَاة السُّرُوح، نُمَاة الصُّرُوح، صُقُورَة غلبت عليهم شُقُورة...»[3].

والغريب أن أكثر ما يفخر به ابن غرسية صفات تعودنا أن لا نتصورها إلاَّ للعرب، سواء حسنت في الأنظار أو ساءت، من نوع الإسراع إلى شنّ الغارة، والتعويل على السلاح وحده، والعناية بإعداد آلة الحرب، وحبّ الموت، والإقبال على المنية... فإذا بابن غرسية لا يكتفي بأن يجعلها من نصيب قومه

---

(1) جمهرة أنساب العرب للإمام ابن حزم.

(2) ذ: 2/3، ص: 706.

(3) نفسه.

العجم. بل يعمد إلى نفيها عن العرب. ولنسمع إليه يقول: «إذا قامت الحرب على سَاق، وأخذت في اتِّسَاق، وقُرِعَت الظَّنَابِيب، وأُشْرِعَت الأَنَابِيب، وقَلَّصَت الشِّفاه، وفَغَرَ الهِدَانُ فَاه، ووَلَّى قَفَاه، أَلْفَيْتَهُم ذَمَرَةَ الناس، عند إحمرار الباس، الطَّعْنُ بالأَسَل، أحلى عِندهم من العَسَل»[1]، وهو في أثناء ذلك ـ وهذا أيضاً من غرائب هذه الرسالة ـ يكثر من التمثل بأشعار العرب التي قيلت في الحماسة والشجاعة وصدق الإقدام في الحرب... من مثل قول أبي تمام الذي أورده مباشرة بعد الكلام السابق:

مُسْتَسْلِمين إلى الحُتُوف كأنما ... بين الحتوف وبينهم أَرْحَام

ويبلغ ابن غرسية قمة عالية في المغالطة حين يأتي إلى بعض ما عُرف للعرب دون غيرهم من سائر الأمم، أو هُوَ ما اشتهروا به حتى عُرفوا به، ونُسِب أكرمُه إليهم، فيجردهم منه، ويجعله من نصيب قومه!! من ذلك ركوب الخيل، وترتيبها، والمعرفة الدقيقة بِشُؤونها. أليس مدهشاً أن يقول، مبتدئاً بتأويل يناسب ادِّعَاءَه لبيت أبي العلاء المعري؟:

مِنَ الأُلَى غَيْرَ زَجْرِ ٱلخَيْلِ مَا عَرَفُوا ... إِذْ تَعْرِفُ العُرْبُ زَجْرَ الشَّاءِ والعَكَرِ

فالبيت قاله عربي في العرب وليس في العجم، وصاحب الشعر يقصد، كما قال شارحه: «إنهم قوم ملوك، فهم يزجرون الخيل، إذ كانت الإبل والشاء إنما يزجرها العبيد والصعاليك. أو هؤلاء أصحاب حروب ومغاورات»[2] أما صاحب الرسالة فهو، يستشهد به على أن العرب خلقوا لرعي الشاء والإبل. ثم يردف بعد ذلك قوله في قومه: «بُصُرٌ صُبُرٌ: تَزْدَان بهم المَحَافِل والجَحَافِل، كواكب المواكب، قُيُول على خُيُول، كأنهم فُيُول...»[3].

---

(1) ذ: 2/3، ص: 707.

(2) سقط الزند، 140/1 (شروح سقط الزند، طبعة الدار القومية، القاهرة 1964).

(3) ذ: 2/3، ص: 708.

ويذم العرب بأنهم أبناء «ذوات الرايات»[1]. وبسكناهم بيوت الشعر واستغنائهم بالبعر عن الحطب، وأكلهم الأحناش. . .

ويخلص بعد ذلك إلى الفخر بعلوم العجم، فيسميها بأسمائها اليونانية قائلاً في ذلك: «حُلُمٌ عُلُمٌ: ذَوُو الآراء الفلسفية الأريضية، والعلوم المنطقية الرياضيـة، حملة الأَسْتُـرُلُومِيقـي، والجُومَـطْريقي، والعلمة بـالأَرْتَمَاطِيقي، وأَنُولُوطِيقَا! والقَوَمَةُ بالموسيقى والفُوطيقا، والنَّهَضَة بعلوم الشرائع والطبائـع، والمَهَرة في علوم الأديان والأبدان ، ما شئت من تـدقيق وتحقيق ، حَبَسُوا أنفسهـم على العلوم الدينية والبَدَنِيَّـة، لا على وصف الناقة الفَدَنِيَّة»[2].

ويختم باستثناء الرسول عليه الصلاة والسلام فهو: «ابن عمنا، الذي بالبركة عمنا، الإسماعيلي الحسب، الإبراهيمي النسب. . .» ولا ينبغي أن يجني العرب أي فخر من كونه واحداً منهم، لأنه يقول لهم: «ولا غَرْوَ أَنْ كان منكم حِبْرُهُ وسِبْرُهُ، ففي الرغام يُلْفَى تِبره، والمسك بعض دم الغـزال، والنِّطاف العِذاب مُستَودَعاتٌ مَسْكَ العَزَال»[3].

وهو لا ينسى أن يمجد الرسول الكريم، لأنه كما قلنا يريد أن يفرق تفريقاً «تكتيكياً» بين العروبة والإسلام، فيقول: «بهذا النبيّ الأمّي أُفَاخِر من يَفْخَر، وأُكاثِر جميع مِن تقدم وتأخر، المُنِيف الطرفين، الشريف السلفين، المتلقَّى بالرسالة، . . . أُصَلِّي عليه عَدَدَ الرمل، ومدَدَ النمل. . .»[4].

وتنتهي رسالة ابن غرسية بمثل ما بدأت به: لوم ابن الخراز على تركه مَـدْحَ أمير دانية والجزائر الشرقية الذي يكيل له المديح قائلاً: «العلق الربيح، سهمنا النفيس، وشهمنا الرئيس، معز الدولة. . .» ويوجه هذا التهديد الصريح

---

(1) إشارة إلى البغايا في العصر الجاهلي، وقيل إنهن كن يرفعن رايات على بيوتهن لتكون علامات مميزة لهن.

(2) ذ: 2/3، ص: 711.

(3) نفسه، ص: 712.

(4) نفسه، ص: 713.

إلى هذا الشاعر: «نحن معشر الموالي لا نوالي إلا من هو لعظيمنا موالي فاستأخر أو تقدم، وحذار أن تقرع سن الندم. . .»[1].

هذه هي رسالة ابن غرسية الشعوبية، وقد حاولنا أن نلخص أهم الأفكار الواردة فيها، وهي إجمالاً لا تخرج عن فخر بالعجم الذين أخرجهم في صورة الشجعان الكرام، ذوي النسب الصحيح، والعيش الكريم، والخلق القويم، والفكر النير الذي أبدع في كل علم، أما العرب، فتبدو لهم صورة باهتة القسمات، لا مجد فيها ولا سؤود: حياتهم بؤس، ومعيشتهم شظف، ومسكنهم حقير، ورزقهم فقير. . . وبالجملة فإنهم أمة عقيم، لا تنبت فيها للشرف نبتة، باستثناء الدوحة النبوية التي جاءتِ فيهم، كما يجيء التبر في التراب. . .

* الردّ على رسالة ابن غرسية:

ولقد ردّ على هذه الرسالة عدد من الأدباء يذكر منهم صاحب الذخيرة ثلاثة هم، على الترتيب الذي أوردهم فيه: أبو جعفر بن الدودين[2]، فأبو الطيب عبد المنعم القروي[3] فابن عباس[4].

هذه الردود يجمعها، بطبيعة الحال، شيء أول، وهي أنها كلها تمجد العرب، وتفخر بهم، وتضيف إليهم شريف الأعمال، وتذكر أهمّ الأحداث المشرفة في تاريخهم القديم. وثاني شيء يجمعها أنها تسفه رأي ابن غرسية، فتردّ كيده إلى نحره، بتحقيره، وتحقير قومه العجم، وذكر سوآتهم، وتأويل معظم الأمجاد التي فخر بها بكشف جوانبها المخفيّة. وقد قلبوا أحاديث فخره

---

(1) ذ: 2/3، ص: 714.

(2) أبو جعفر أحمد بن الدودين البلنسي كاتب شاعر، لقيه صاحب الذخيرة، وشافهه سنة 477 هـ بالاشبونة، وأملى عليه فيها رسالته التي ردّ بها على ابن غرسية. وانظر ذ: 2/3، ص: 703.

(3) أبو الطيب عبد المنعم بن من الله القَرَوي، كاتب شاعر، توفي سنة 493 هـ.

(4) أبو جعفر أحمد بن عباس وزير إمارة «المرية» في عهد زهير الفتى. وقد قتل هو وأميره في غرناطة عام 429 هـ.

بهم، إلى رذائل ونقائص تدعو إلى الاستهزاء والسخريـة، لا إلى الإجلال والإعجاب.

وإذا كانت هذه الرسائل تلتقي عند النقاط التي ذكرناها، فإنها تختلف بعد ذلك في كل شيء: في طريقة تناول المعاني التي تردّ بها، وفي أسلوب تناولها، وفي مبلغ شدّتها على ابن غرسية وتعنيفها له، وفي اختيار الحوادث التاريخية التي تمثل بها لمجد العرب أو لمعايب العجم... ونحن لن نتناول شيئاً من ذلك لأنها مَعَانٍ يسهل علينا أن نتصورها. ولو أننا قمنا بتلخيصها، أو تتبعها والتعليق عليها لخرجنا إلى التطويل الممل دون فائدة معلومة[1].

وهكذا نختم هذا الحديث الذي حاولنا أن نبيّن فيه هذه المجـالات المختلفة التي شاء أدباء الأندلس أن يتناولوها في نثرهم ذي الطابع الوصفي. والظاهر أن الإنشاء قد وصف مظاهر الطبيعة فكان فيها طوراً تقليدي الطابع، بارد النَّفَس، حين صدر عن مجرّد المعارضة الفنية لبعض النصوص ذات الشهرة، ولكنه استطاع في مناسبات أخرى كثيرة أن يجمع بين دقة الوصف، وعمق العاطفة وصدق المشاعر، فأحسن التطرق إلى ما في المحيط من جمال، وعرف كيف يعبر عن النظرة الجمالية والدلالة الفنية في عدد من الأدوات لا يكاد الإنسان عادة يلتفت إليها، لأنها مما يستعمله في حياته اليومية.

بيد أن النثر الأندلسي في هذه الفترة قد حلق تحليقاً بعيداً حين تناول وصف الحالات النفسية، ونقل تلك اللحظات المشحونة بالإحساسات المتفجرة في أوقات الضيق والحرج.

---

(1) هذه الردود موجودة كلها في كتاب «الذخيرة». وأماكنها كما يلي من المجلد الثالث، القسم الثاني (2/3):

- رد أبي جعفر بن الدّودين، ص: 715.
- رد عبد المنعم القروي ص: 722.
- رد ابن عباس ص: 746.

وسنتناولها بالحديث في الباب الرابـع حين نتحدث عن أشكال النثر الأدبي، وقوالبـه الفنية في هذا القرن.

وقد دخل النثر حلبة الصراع الفكري، والنضال المصطبغ بالصبغة المذهبية ـ السياسية، فنقل إلينا جانباً معتبراً من ميلاد «القومية الأندلسية» ـ إن جاز لنا أن نستعمل مثل هذه المصطلحات الحديثة ـ وانبعاث المشاعر المعادية لها. فكشف لنا الأدب النثري عن عينات صالحة من طرائق الدفاع عن الحضارة التي يحس الفرقاء المختلفون بأنهم ينتمون إليها.

ولعلّ أغرب ما في ميلاد هذه «القومية» أنها نشأت على أساس ليس بعيداً عن فكرة معاداة الثقافة المشرقية المُمَثَّلة خاصة في رجالها المشهورين من علماء وشعراء وكتّاب، إحساساً من رجال الأندلس بأنهم ينافسونهم في عقر دارهم، ويستولون دونهم على قلوب وعقول مواطنيهم الأندلسيين. و لكن هذه «القومية» لا تتنكر لأصلها العربي، إذ نراها ما إنْ يَجْرُؤْ أحدُ الكتاب، من ذوي الأصول النصرانية الأوربية، على النيل من العرب، وتحقيرهم، انطلاقاً من مذهب شعوبي صريح حتى يتصدّى له نفر من ألمع أدباء العصر، برسائل مطولة يتغنون فيها بالأمجاد العربية، ويُعْرِبون فيها عن تعلقهم الشديد بهذا الركن من انتماءاتهم الأصلية.

وقد كشف هذا الصراع، فيما كشف، عن عوامل الهدم التي يُبدي أصحابها ـ نفاقاً ـ التشبث بالإسلام، لتخلو لهم سبيلُ النَّيل من «العروبة» وهي نفس العوامل التي سيأخذ شأنها في التعاظم شيئاً فشيئاً فتنخر المجتمع من داخله، وتوصل البلاد ومن فيها إلى ذلك المآل المشؤوم الذي نعرفه.

هذه كلّها مجالات دخلها النثر الأندلسي، ونهض ـ خير نهوض ـ بالتعبير البليغ عن مضامينها الثرية، ومحتوياتها المتنوعة. غير أن النقلة الكبيرة التي تحققت للنثر، والقفزة العظيمة التي أتيحت له في المجال الفني البحت، إنما هي ترشيحه لأن يغدو أداة للتخاطب لا بين الأزهار والورود فحسب، بل بين سائر المعالم الفنية التي يصنعها الإنسان لراحته ورفاهيته، فتتحاور وتتصارع فيما بينها، كما يتحاور الناس ويتصارعون.

ب ـ المفاخرات الخيالية:

كنّا، في نهايات الباب الأول من هذا البحث، قد وقفنا على نموذج من النصوص، دخل النثر الأندلسي بواسطتها ميداناً جديداً كل الجدة، وهو إنطاق الأزهار بما يجعلها تذكر محاسنها! وتفضل نفسها على أصناف أخرى من الزهور والورود[1]. أما في الفترة المؤرخة الآن فإن النثر قد تناول كل ما يخطر على البال من الأغراض التي لم يكن يلم بها مطلقاً، حتى لم يعد شيء من هذا القبيل يثير العجب، أو يستحق الاستغراب. وإنما الذي تجدر ملاحظته هو: أن هذه الصيغ من إجراء الحوار بين النباتات قد اتسعت حتى غدت ميداناً يتسابق فيه الكتاب، ويعارض فيه بعضهم بعضاً. ثم إن هذا الأسلوب قد تجاوز الأزهار إلى معالم أخرى من الفنّ والجمال توفر ظروف الراحة والرفاهية؛ أو إلى ما يحمل دلالات تاريخية ورموزاً اجتماعية، من الأدوات التي يستخدمها بعض الناس، ويمكن أن يراها الجميع في حياتهم اليومية. فإذا بهذه الكائنات العجماء تفصح عن فضائلها، وتتحاور فيما بينها، وتتباهى بمناقبها، كما يتحاور البشر ويتباهون.

ولقد حصرنا ما بأيدينا من هذه المحاورات والمفاخرات التي أجراها الكتاب بين تلك الموجودات المختلفة، فوجدناها تنقسم زمراً كما يلي:

1 ـ مفاخرات بين الأزهار.

2 ـ مفاخرات بين المباني.

3 ـ مفاخرات بين الأدوات.

* ـ المفاخرات بين الأزهار:

ليس جديداً علينا حبّ الأندلسيين للأزهار، وولوعهم بها، واعتناؤهم بحدائقها. . . وليس جديداً علينا اختلاف الناس، في تفضيل هذا النوع أو ذاك. فقد يميل هذا إلى البَهار، ويستحسن غيره النَّرجِس، ولا يرى آخر أحسنَ من

(1) نقصد رسالة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري (توفي عام 394 هـ) وهي في الذخيرة 1/4، ص: 48.

الورد. . . وإنما الذي يستحق الانتباه، من الناحية الأدبية، هو أن لا يكتفي الأدباء بالحديث عن هذا الميل، وتعليله بإبراز محاسن النوع المفضَّل من الأزهار، بل يشخصون هذه الأزهار ويُنطِقونها بالفخر، في منافسة فنية بديعة.

فمن أوائل أدباء القرن الخامس الهجري الذين سلكوا هذه السبيل: الأديب أبو حفص بن برد الأصغر[1] الذي كتب إلى أبي الوليد بن جهور[2] رسالة، لا ندري مناسبتها، أجرى فيها هذا الحوار الطريف. وقد بدأها بالإشارة إلى اجتماع عقدته الأزهار والأنوار بغية إيجاد حلف فيما بينها. فقام قائم منها يحمد الله ويشكره على ما منحه أنواع الزهر من حُسْنٍ جعلها تُحَب وتُقْتَنى. ثم يشرع فيما يشبه النقد الذاتي لعدم الاعتراف بالفضل لذويه. ويتمثل ذلك في إنكار الرئاسة على الورد مع «أنه الأكرم حَسَباً، والأشرف زَمَناً»[3].

ويجلس هذا الخطيب ـ الذي لم يبين لنا الكاتب جنسه ـ وكأنه حكيم الجماعة، وضميرها الحي، فيقوم البنفسج مؤيداً لهذا الرأي، مبايعاً للورد على الحكم والرئاسة، وينهض البهار بعده فيرى رأي البنفسج، ويذهب مذهَبَه. ويأتي الخَيْري آخر المتحدثين، فيُحقِّر نفسه، ويُعظِّم الورد، ويمد إليه يمين البيعة على الطاعة والولاء.

ويختم الكاتب رسالته بالإشارة إلى أن مجمع الأزهار هذا قد انتهى باعتماد وثيقة رسمية فيها: «هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر وضروب الزهر. . . عندما راجعت من بصائرها، وألهمت من مراشدها، واعترفت بما سلف من هفواتها، وأعطت للورد قيادها، وملَّكته أمرها. . . واعتقدت السمع والطاعة، والتزمت له الرق والعبودية، وبرئت من كل زهر نازعته نفسه المباهاة له، والانتزاء

---

(1) أبو حفص بن برد الأصغر، أديب قرطبي سبقت الإشارة إليه. وانظر ذ: 1/1، ص 436.

(2) أبو الوليد بن جهور، خلف أباه، أبا الحزم بن جهور على حكم إمارة قرطبة سنة 435 هـ، وزالت دولة بني جهوره، بقضاء المعتمد بن عباد عليها سنة 462 هـ، في خبر طويل، أوجزناه في الفصل الأول من هذا البحث.

(3) ذ: 1/2، ص: 128.

عليه في كل وطن، ومع كل زمن»[1].

وهكذا كانت أزهار أبي حفص بن برد تلجأ إلى النقد الذاتي، وتعترف بالخطإ، وتنحاز إلى الحق. ثم هي تحرص على أن تكون الأمور علـى وضوح تامّ فلا تفترق إلا بعد أن توقِّع ما يشبه «البيان المشترك» في مصطلحاتنا اليوم، فتنص على مبايعة فيها معنى الخضوع المطلق الذي يبلغ حد «الرق والعبودية». وهي أخيراً تتبرأ من كل من يشذ عن هذا العقد، أو يخرج عن بنوده، بمنافسة الورد في إمارته، أو عصيانه والانتزاء عليه.

وقد اطلع أديب أندلسي آخر على هذا المذهب في تغليب الورد، وتمييزه بالرئاسة وهو الأديب أبو الوليد إسماعيل بن محمد الملقب بحبيب[2]، فكتب رُقعة جعلها تتمة مباشرة لرقعة أبي حفص، وقد انتهج منهجه من التشخيص للأزهار، التي حدثنا عنها قائلاً إن نواوير فصل الربيع ـ المجاورة للورد مكاناً، والمعاصرة له زماناً ـ قد اطلعت على تلك «الوثيقة» وأنكرتْ على أصحابها ما جاء فيها، فاعْتَرَضَت على مبايعة من بايعوه فيها. وقد عزمت على إسقاط هذه الإمَامة المغتصبة، ونقض ما عقد منها، «فكتبت إلى الأُقْحُوان والخيري الأصفر كتاباً قالت فيه: لو استحق الورد إمامة، واستوجب خلافة، لبادرتها آباؤُنَا، ولعقدها أوائلنا. . .»[3].

وترى أنوار الربيع هذه أن الجدير بالرئاسة، والمُؤَهل الحقيقي لها. إنما هو نور البهار الذي تصفه بأنه «البادي فضله بُدُوَّ النَّهار، والذي لم يزل عند علماء الشعراء، وحكماء البلغاء مشبهاً بالعيون التي لا يحول نظرها. ولا يحور

(1) ذ: 1/2، ص: 129.

(2) أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب. أديب مات شاباً لم يتجاوز الثانية والعشرين من العمر. وقد توفي نحو سنة 440 هـ. انظر ذ: 1/2 ص 124، وهامش المحقق بمصادر ترجمتـه له كتاب «البديع في فصل الربيع».

(3) ذ: 1/2، ص: 131.

حَوَرُها. . . »[1] وأما الورد فَتُشَبَّه به الخدود. والفرق في القيمة واضح بين الخدود والعيون، فالعيون من الحواس، وليست الخدود منها، والشاعر يعبر عن هذا الرأي في قوله:

أين الخـدود من العيون نفـاسـةً ... ورِئـاسةً، لـولا القياس الفـاسـد

ولم يكن أبو الوليد، هذا بدعاً في تفضيل البهار، فقد ذهب فيه مذهبه أبو عمر ابن الباجي[2] وإنما اختلف بينهما الأسلوب الذي يعرضان فيه هذا التفضيل. فكل منهما أنطق الزهر بفضائله ومحاسنه، غير أن رسالة أبي الوليد جاءت في قالب قصصي بينما اكتست رسالة أبي عمر طابع السرد المباشر. فقد جعل البهار يُدَبِّج رقعة إلى ابن هود المقتدر[3]، يرجو فيها الإِنْعام عليه بإِدْنائه منه وتقريبه إليه. وتبدو في الرسالة هذه المنافسة الشديدة المُحْتَدِمة بين البهار والـورد. فإن البهار يقول في رسالته للمقتدر: «ولا أشمت بي عدوّاً من الرياض يناصبني، وحاسداً من النواوير يراقبني، وقد علم الورد موقع إمارتي. . . »[4].

ويبدو البهار في صورة من يعرف لنفسه قيمتها، ويرى أنها جديرة بعالي المراتب. ومما يفسر به هذه المنزلة التي هو أهل لهـا أنه «سابق حلبة النوار، وأول طلائع الأزهار» وهو «ناظر الفضل وعينه، ونُضَار الـروض ولجينه، وقائد الظَّـرْفِ وفارسه، وعاقد مجلس الأنس وحارسه»[5].

وفي خاتمة الرسالة يمدح الملك، ويُثْنِي عليه بعد التصريح بالرغبة في الدنو من مجلسه وهي رسالة رمزية تحمل الكثير من عواطف كاتبها، في شكر ابن هود، وبعض تطلعاته إلى مزيد من الحظوة لديه.

---

(1) ذ: 1/2، ص: 131.

(2) أبو عمر، يوسف بن جعفر، المعروف بابن الباجي أديب ينتمي إلى أسرة أنجبت عدداً من بلغاء الكتاب منهم جدّه الباجي. وكان أبو عمر كاتباً للمقتدر بن هود صاحب سرقسطة.

(3) المقتدر بن هود ملك سرقسطة بعد أن تغلب على إخوته. توفي سنة 474 هـ.

(4) ذ: 1/2، ص: 194.

(5) نفسه.

ويبدو أن المقتدر بن هود هذا له ولوع خاص بالأزهار، وشغف متميز بها، فبعد رسالة ابن الباجي إليه على لسان البهار، نجده يبعث إلى أخيه صاحب لاردة، باقة من الأزهار منها: «الآس»، الذي «أَذَاعَ ما حمل من طيب الأنفاس» ومنها «مبكر البهار الجني» الذي كان «ممتعاً بمنظره البهي، وعرفه الذكي» ومنها «غَضُّ الأُسْفَرْجِ» الذي جاء محملاً بما خُصَّ به البلد من «التراب» الدَّمِث والهواء السَّجْسَج»، بالإضافة إلى «الريحان المشموم» ومع الكل «رحيق مختوم»[1].

بيد أن الذي يعنينا أكثر أَنَّ هذا المقتدر نفسه يوجه إليه أحد أدباء بَلَاطِه رسالة على لسان النرجس. فبعد أن خاطبه البهار بقلم ابن الباجي، يخاطبه النرجس بقلم أبي الفضل بن حسداي[2] فيقول له، بادئاً بعرض خصاله، وما يمتاز به على سائر الأنوار من فضائل: «أنا... قائد النوار، ووافد الأزهار، وأنا لها جالب وهي طاردة، ومبشر بورودها، وهي مُيْئِسَة متباعِدة، فإني غلبت، بما في طبعي من التيقظ والذكاء، خُلْدَ التراب، وصُرَد الهواء»[3].

والنرجس ـ في هذه الرسالة ـ شأنه شأن الأزهار الأخرى، يعنيه بوجه خاص أن يسمو على الورد، وأن يفوقه حسناً وفضائل أخرى، يقول في سردها: «وفضلت الورد، سيد الأزهار طراً... فلي عليه فضل العيون على الخدود، وشرف السيد على المسود»[4] وهو ما كنا رأينا مثله عند أبي الوليد إسماعيل ابن حبيب. ثم لا بد أن ننبه أيضاً إلى أن النرجس يعترف للورد بأنه سيّد الأزهار طُرّاً فهو لا يقدم عليه إلا نفسه، كما هو واضح.

ولنرجس أبي الفضل قصة، كما كان لبهار ابن الباجي. فإن رسول الملك

---

(1) هذه العبارات مقتطفة من رسالة ابن حسداي في ذ: 1/3، ص: 469 و 470.

(2) أبو الفضل بن حسداي الإسلامي: أديب من أصل يهودي أسلم وقربه ابن هود. وكان واسع العلم، كثير الإطلاع. وانظر المزيد من أخباره في ذ: 1/3، ص: 457.

(3) ذ: 1/3، ص: 470.

(4) نفسه.

يقف على ما يعانيه النرجس من الظروف السيئة، فيخاطبه متسائلاً: «مالي أرى قضبك غُبْراً ذَابِلة، ومنابتك شُعْثاً ناحلة، . . . وقد ساءني ما عاينت من ضناك ونحُولك، فبادرت جناك إشفاقاً من ذُبُولِك»[1]، وهكذا يتلطف هذا الرسول الملكي بالنرجس، ويبالغ في الإشفاق عليه من مجاورة «النبات الهشيم» فينقله إلى «جناب السرور المقيم» حيث يسعد «بالفوز العظيم، باستلام راحة الملك الكريم»[2].

ويأخذ هذا الزهر عندئذ في التغني بمناقب الملك ومدحه، والثناء عليه، كما يأخذ في الفخر العريض على كل نبت أريج بهذه المكانة التي أتيحت له من بلاط المقتدر ابن هود. ولا ينسى أن يشكو ما يلقى من حسد على هذه المنزلة فيرجو من الملك أن يقسو ويشتد على من يكدرون مشاربه من الحساد.

وليس يخفى على أحد ما لهذه الرقعة من قيمة رمزية، فإن النرجس ليس إلا أبا الفضل بن حسداي نفسه، وقد أتاحت له هذه الصيغة الأدبية ذات الطابع القصصي أن يعبر عما يكنه من العواطف، وعما يعتلج في قلبه وفكره من الأحاسيس والآراء.

وقد تبين لنا بوضوح، من خلال هذه المجموعة من الرسائل التي وقفنا عندها مدى التنافس الواقع بين هذه النباتات العطرة، وما يعكسه هذا التنافس بينها من أهواء الناس ومُيولِهِمْ. وهي عواطف رمزوا لها بهذا الصراع الذي أنشأه الأدباء بين النباتات كما أنشأوه أيضاً بين المباني والعمارات.

*** المفاخرات بين المباني:**

وصل إلينا من هذه المفاخرات نصّان كتبهما الأديب أبو جعفر بن أحمد الداني[3] في مخاطبة نثرية تمت بين قصرين من قصور المعتمد بن عباد

---

(1) ذ: 1/3، ص: 471.

(2) نفسه.

(3) أحمد أبو جعفر بن أحمد الداني، أبوه «رجل من شرط ابن مجاهد بدانية، وقد نسبه =

بإشبيلية: أحدهما اسمه «المبارك»، والثاني اسمه «المكرم». وهي مخاطبة طريفة لما فيها من أساليب التخاطب الحضاري، وما يشيع فيها من المجاملة الرقيقة. ولذلك فإنه يتعين علينا الإسراع بالتنبيه إلى أن المفاخرة الواردة بين القصرين إنما هي مفاخرة ضمنية، تفهم من خلال الصفات التي يوردها كل طرف ويجعلها من نصيب الطرف الآخر. فهي في الواقع مفاخرة بحكم الموضوع، إذ ماذا ينبغي أن تكون «عاطفـة» مكان يهجره الملك إلى مكان آخر؟... فالمفاخرة مسجلة في صميم التبادل الأدبي الذي تمّ في المراسلة بين القصرين، وإن لم تفصح التعابير المستعملة، والصيغ الإنشائية المستخدمة عن هذه المفاخرة بصفة مباشرة.

يبادر القصر «المُبَارك» ـ وهو المهجور ـ فيكتب إلى القصر «المُكـرَّم»، وهو الذي انتقل إليه الملك، فيبدأ بحديث له طابع الوقار والرزانة والحكمة فيقول: «نحن أيها المحل السعيد، والقصر القديم الجديد، وإنْ نبضت فينا للنفاسة عروق، نعلم أنه لبعضنا على بعض حقوق، فما أحقنا بحقّ المشايعة والمتابعة لما... تشرّفنا به من ولاء المملكة المعتمدية....»[1].

وبعد هذه المقدمة التي فيها وعي تامّ بالقيمة الذاتية أولاً، وبضرورة الاطمئنان بعد ذلك إلى الأقدار التي تصرف كل شيء، لأن تحول الملك عن القصر المبادىء بالمخاطبة إرادة ينبغي عدم مناقشة نتائجها... يشرع في سرد شيء من التاريخ فيه تأكيد لقيمة «المكرم» ولكن فيه أيضاً، وهذا هو المهمّ، بيان قيمة «المبارك». فإن الأول أقدم الاثنين، وهو الذي اتخذه مؤسس الدولة العبادية ـ القاضي أبو القاسم بن عباد ـ مقراً له، ثم خلفه فيه ابنه المعتضد. ويضيف القصر المبارك قائلاً: «ولما ثاب من سعدي ثائب، وأسعدَ جدي قدرٌ غالب، درج عنك إليّ، وطلع من تلقائك بطالع الإقبال عليّ، المولى المعتمد، الذي

= صاحب الذخيرة إلى البطالة والاستهتار. انظر ذ: 2/3، ص: 757، والمغرب لابن سعيد 404/2.

(1) ذ: 2/3، ص: 759.

أحياك رُفاتاً قَدُم، وأشبّ منك كبيراً هرم، كما أحيا من ذكري، ونـوّه من قدري . . .»[1].

وهكذا فإن تحول المعتمد عنه اليوم، هو بإزاء التحول إليه في زمن مضى. وكما هجره إلى غيره، فقديماً هجر غيره إليه. فما أجمل هذه النفس الحكيمة التي لا تجد شيئاً يستحق الغضب والسخط في تقلبات الدهر وتصرفاته. ولكن هذا الاستسلام للمشيئة التي لا حيلة في تغييرها، لا يمنع هذا القصر الشامخ من أن يعرف لنفسه قيمتها.

وتعود المجاملة فتطغى على الخطاب إذ تتناول باقـي أقسامه محاسن القصر الذي انتقل إليه المعتمد فنجد وصفاً جميلاً لبساتينه وأزهاره. ويعقب ذلك ندم صادق يبديه «المبارك» على عدم الاتصال بزميله «المكرم» قبل اليوم، ويدس في أثناء هذه العبارة المشحونة بأنواع من الدلالات، ويقدمها على أنها تفسير لغفلته عن مواصلة هذا الزميل في القصور. يقول: «فإني كنت آنفاً في نَحْوِ مَا أنْتَ فيه اليوم زاهياً»[2].

وتخالف خلاصة هذه الرسالة ما اعتدناه، إذ يصرح القصر هنا بأنه بحث طويلاً عن كاتب يكتب عنه هذه الرقعة فاهتدى إلى منشىء هذه الرسالة الذي يرجو له وسيطاً يحدث عنه الملك، فلم يجد خيراً من هذا القصر الذي عمته الرحمة باختيار الأمير إياه مقراً لعمله وسكناه. وفي ذلك يقول: «واسألك فضل العناية به دوني، وصدق الشفاعة له عني، عند المولى المنعم . . .»[3].

وتنتهي هذه الرسالة بهذا المقطع ذي المنفعة البَيِّنِ صَاحِبُها، وهي بكل تأكيد غرض رئيسي من أغراض هذا الإنشاء التخيلي. فماذا يكون موقف القصر الآخر؟.

---

(1) ذ: 2/3، ص: 760.

(2) نفسه، ص: 716.

(3) نفسه، ص: 762.

يسارع القصر «المكرم» إلى الجواب عن كتاب «المبارك»، وتظهر عليه المسرة منذ الأسطر الأولى، مسرة بالنعمة التي حصلت لديه، وسعادة باشتهار أمرها، وحديث «الناس» عنها. ولكنها مسرة لا تفقده صواب الرأي، بل إننا نراه يبادل مجاملة رقيقة بمجاملة أرق منها، ويبادل صاحب الفضل فضلاً لا يقل عنه. فيمدح القصر المهجور، وبعض ما يقوله فيه: «لقد هيأت لك الهيأة العلوية، مراتب سنية، . . . سمت بك صُعُداً من الصعيد، ومنحتك من عزة السلطان، ما أناف بك على الأقران إلى العنان، فأين منك الجوزاء، وقليل لك أن أقول الأبلق الفرد وتيماء؟ أنت فلك نجوم الملك وسماء رجوم الشرك»[1].

بيد أن هذه الأخلاق النبيلة التي بدت في مخاطبَتِهِ القصرَ المهجور على هذا النحو، لا تُنسيه الفخر بفضائله، والحديث عن محامده التي تتجلّى في «روضة غناء، وحديقة خضراء، وبهجة زهراء»[2]، وهي في نظره «محاسن تأخذ بمجامع القلوب. وتحير صفاتها البعيد، فضلاً عن القريب: أشجار نجمت لحينها، وتفتقت أثناءُ رياحينها، نقلت عن ري إلى ري، فتجلت في أحسن زي. . . »[3].

وفي هذه الرسالة إعجاب ببراعة كاتبها، ومهارة منشئها الذي «أوجز وأعجز، واقتضب فكأنما أسهب»[4]. وهي مع ذلك لا تخلو من ملاحظة خَطَإٍ صدر عنه، صنفته ضمن الغفلة وعدم الانتباه، وذلك حين تعجب من تكامل القصر المكرم في زمن قصير. . .

إن المعاني التي تضمنها النصّان تومىء إلى عِبَرٍ كثيرة، وعِظَات حسنة حين يتدبرها المرء من زاوية تقلب الملوك، وتغيرهم على الناس، وتنقلهم بالحاشية من حال إلى حال. ولم يُخلِ الأديب هذين النصّين من المنفعة التي ربما كانت

---

(1) ذ: 2/3، ص: 762.

(2) نفسه، ص: 766.

(3) نفسه.

(4) نفسه.

منطلقه الأول، فأشار إلى ما يرجوه من حظوة وتقريب لدى المعتمد، وأثنى أجمل الثناء على نفسه بذكر براعته الأدبية، وقدرته الإنشائية.

وكما تحاورت الأزهار، وتحاورت العمارات، وتبادلت التحايا والمجاملات، في قالب المفاخرة والمباهاة، تحاورت كذلك الأدوات في أدب الأندلسيين. ولعل أروع ما خلفه لنا هذا الطراز من الإنشاء الحوار البديع الذي جرى بين السيف والقلم.

*** المفاخرة بين السيف والقلم:**

هي رسالة كتبها الأديب أبو حفص بن برد الأصغر[1] إلى الموفق أبي الجيش مجاهد[2]، وهي في حقيقتها لا تعدو أن تكون من الإنشاء المدحي، ولكن الكاتب اختار هذا الأسلوب فراراً من الطريقة التقليدية.

والرسالة مناظرة حقيقية بين طرفين متخاصمين اشتد بينهما الخلاف حتى أنساهما كل قصد في الاحتجاج، أو عدل في المجادلة. والذي يلفت الانتباه أننا لا نجد هنا ـ في البداية على الأقل ـ أثراً لتلك المجاملة التي كنا وجدناها في الحوار بين القصرين الذي سبق الحديث عنه. ثم إنَّ رسالة ابن برد هذه حِوارية مستوفية للشروط يتناوب فيها الخصمان على الكلام. يبدأ القلم بالتباهي بما ورد له من ذكر في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ن، والقلم وما يسطرون﴾ وفي قوله عز وجلّ: ﴿إقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم﴾.

غير أن السيف يحرص على المسائل البيِّنة، والفوائد المادية الملموسة، والصفات المجسدة التي لا يختلف اثنان على حقيقتها: وهي قدرته على التفريج عمن يحمله، وقيمته في نصرة الحق. ويحاول القلم أن يحرز نوعاً من السبق عندما يقرر أن الممالك تدور على الكتابة، وما تنتجه الأقلام من مخاطبات.

---

(1) أبو حفص بن برد الأصغر، سبقت الإشارة إليه منذ قليل.

(2) الموفق بالله أبو الجيش مجاهد: هو الفتى العامري الصقلبي الذي أقام دولة في دانية والجزائر الشرقية. توفي سنة 436، وقد حكم ستا وثلاثين سنة. انظر ما كتبناه في الفصل الأول من هذا البحث.

ولكنه ميدان لا يعدم فيه السيف فخراً فيذكّره بأنه هو أداة الملوك وحليتها، لا القلم.

في هذه الرسالة مناقشات طويلة يحشد لها الكاتب ضروباً من الحجج والبراهين، ويتفنن في تشخيص الأداتين حتى لينسى القارىء أنه حديث خيالي مصطنع، وذلك بما يبثه من الحيوية في الحوار، وما يصبغه على السيف والقلم من العواطف البشرية، وما يهيىء لهما من أنماط السّلوك الإنساني.

ولنستمع إلى القلم وهو يعدد بعضاً من مساوىء السيف، وأفعاله الذميمة. يقول له: «تُسَوِّد ما بَيَّض الصفاء، وتكدّر ما أَخْلَص الإخاء، وتُوَكِّد أسباب الفتن»[1]. وهو في نفس السياق يمدح نفسه بمثل قوله: «أُحكُم فأَعدِل، وأَشْهَد فأُقْبَل، وترحَل عزماتي شرقاً وغرباً ولا أرحل، أعِد فَأَفِي، واستكفي فأكفي، أحلُب الغنى من ضُروعه، واجتني الندى من فروعه»[2].

ويجيب السيف، ويكيل الصاع الصاعين، فيبدأ بالتحقير من محاوره قائلاً: «لقد تحاول امتداداً بباع قصيرة، وانتفاضاً بجناح كسيرة. أَمُسْتَغْرِبٌ والفلس ثمنك؟ ومستجلب وكل بقعة وطنك؟ جسم عار، ودمع بار، تَحفى فتُنعل بَرياً، حتى يعود جسمك فياً. إن الملوك لتبادر إلى دركي، ولتتحاسد في ملكي، ولتتوارثني على النسب، ولتغالي في على الحسب، فتكللني المرجان، وتنعلني العقبان...»[3].

وهكذا يتعاقب السيف والقلم على هذا المنبر يتبادلان من خلاله السباب، والتهم، ويُعرِّض كل منهما بالآخر، ناسباً كل فضل إلى نفسه.

ثم طال بينهما هذا الخلاف، واستفرغ كلٌّ جهده في النيل من صاحبه، فجنحا إلى السلم واعترفا بأنه يقبح بهما أن يستمرا في تشتيت شمل لا يتحقق

---

(1) ذ: 1/1، ص: 524.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص: 525.

المجد إلا بالتئامه. فاقترح القلم أن يُبرما عقداً يدوِّنان فهي مبادىء اتفاقهما على نبذ كل خصام، فوافقه السيف على ذلك، على أن يتولى القلم تحرير هذه المعاهدة، فارتأى القلم أن تكون شعراً، لأنه «شدو الحادي، وزاد الرائح والغادي» وهذا الشعر إنما هو في الحقيقة مدح لمجاهد:

قد آن للسيف أَلَّا يَفْضُل القلما　　　مذ سُخِّرا لفتىً حاز العلى بِهِمِا

ويصرح الكاتب، في هذه المقطوعة، بأن الغرض من إنشاء هذه الرسالة كلها إنما هو مدح الملك:

لَوْلَا طِلَابِي غَرِيبَ المَدْح فيك لَمَا　　　وَصَفْتُ قَبلَ عُلَاكَ السَّيفَ والقَلَمَا

وبذلك تنتهي هذه الرقعة الطريفة. والحق أنها، على الرغم من هذا المقصد المدحي المعلن عنه، تنطوي على دلالات لا يستهان بها لما فيها من رموز وإشارات تعكس ما هو موجود بالفعل، في الحياة الأندلسية وقتئذ من صراع مستحكم بين رجال القلم، وهم النخبة المثقفة الطامعة في احتكار السلطة، وبين رجال السيف الذين يعتقدون أنهم الأجدر بالحكم، لأنهم الأقدر على توفير شروطه، والمحافظة عليه والدفاع عنه. أما أهل القلم فليسوا عندهم أكثر من خدم وأتباع.

لقد استعرضنا، فيما مضى، نصوصاً مختلفة من الأدب النثري، يجمع بينها هذا الضرب من الخيال الذي يُمَكِّن الكائنات التي لا تنطق بلسان البشر، أن تستعير منهم أداتهم للتخاطب بها، وإجراء الحوار، فيما بينها، عن طريقها.

وقد تبين لنا أنها شكل فني متميز، سندرس خصائصه من هذه الناحية الفنية، في مكان آخر، وإنما الذي يعنينا هنا هو هذه المعاني التي اشتملت عليها، والتي ترتبط كلها، بشكل أو بآخر، بالملوك والأمراء، تهدى إليهم الرقاع، وتتصارع من أجلهم الجوامد اللطيفة المتصلة بهم. ولذلك كان من رأينا أن هذا الأدب يعكس القدر الأكبر من أحوال الكتاب الذين صاغوه، ويشتمل على الكثير من الدّلالات الرمزية المعبرة عن أوضاع أولئك الأدباء، من

حيث إنها تشير إلى تطلّعاتهم، وتَنِم عن جوانب من ذلك الصراع الذي لا بدّ أنه كَان مُحتَدِماً بين المتنافسين على رِضَى المَلِك، ونيل جوائزه، والفوز بقربه والانتماء إلى حاشيته.

وكيفما كان الأمر، فإن هذه النصوص، تُعَدُّ ـ من الناحية الفنية ـ من مكاسب النثر الكبيرة، في هذا العصر، وعلامة متميزة على طريق نموه، وتطويراً معتبراً لذلك الاتجاه الذي بدأ في أواخر القرن الرابع مع الأديب أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري[1]. ولكنه خطا بعد ذلك هذه الخطوات الملحوظة على درب الكمال...

كان هذا شأن النثر وهو يقوم بوظيفة استعراض المشاعر والمواقف الناتجة عن حالات الصراع الفكري، والتفاخر والتباهي، فماذا يكون من شأنه حين يعالج بعض مظاهر الحياة الدينية، وأوضاع الناس الأخلاقية، ومواقفهم إزاء المحن التي تتعرض لها البلاد؟ لا بد أن الأدب قد حاول مرّة أخرى أن ينهض بدور الواعظ والمصلح، فما هي حقيقة ذلك وآثاره في ما وصل إلينا من التراث الأدبي لهذا العصر؟.

* * *

---

(1) سبقت الإشارة إليه أكثر من مرة. وقد توفي سنة 394 هـ. والمقصود هنا رسالته التي ضمنها تنافس أزهار المنصور بن أبي عامر، وقد كنّى بها عن تنافس كرائمه عليه. انظر الرسالة في ذ: 1/4، ص: 43.

3 ـ نثـر الوعـظ والإصـلاح

كان الشعر عند العرب، منذ نشأته الأولى، في حدود ما وصل إلينا من نماذجه ـ وعاء لسلوكات مختلفة، من حيث قيمتها الأخلاقية: منها ما يرضى عنه المجتمع لما له من علاقة بالآداب العامة، والمثاليات التي آمن بها الناس، وتمسكوا بها، ومنها ما هو مناف لكل ذلك، منحرف عنه، يمثل السلبيات، والرذائل التي يحاربها الناس، ويُنزلون، بسببها، شر العقاب بمن يرتكبها، ويتمادى فيها، ويصر عليها[1].

ولم يكن النثر كذلك. فأقدم ما وصل إلينا من نصوصه وعيناته مرتبط بالفضائل، مقتصر على المظاهر الجدية للحياة، فهو مَثَل سائر، أو خُطبة محمِّسة، أو منافرة تشتمل على التفاخر والتباهي بالمناقب الموروثة، والأحساب الكريمة، والمجد التليد، أو هو رُقىً لشفاء الناس، وأحكام دينية نابعة من عقائد تلك البيئة وأساليب عبادتها لمقدساتها، كما هو الشأن فيما يسمّى بسجع الكهان. . .

وهكذا يصح لنا أن نقول إنّ النثر لم يدخل ميدان اللهو إلا بعد قرون طويلة من نشأته بين أحضان الحياة الوقورة، الرزينة، وحتى المتزمتة الجامدة في بعض الأحيان، بينما كان الشعر حيناً لهذه، وحيناً لتلك منذ أقدم عصوره. ومن هنا نتبين أن ميدان الوعظ، والإرشاد، وإصلاح ما فسد من الأخلاق، والحث

---

(1) نعني ظاهرة «الخلع» في العصر الجاهلي التي كانت تعاقِب بها القبائل بعضَ المارقين المنحرفين من أفرادها.

على الطريق المستقيم، من المضامين المتأصلة في الأدب النثري العربي في كل أصقاعة، لأنها من ملامحه التي ولدت معه، ولم تفارقه حتى حين جنح ـ بعد تقدم الحضارة ـ إلى اللهو، وأخذ ينافس الشعر في كل مجالاته.

وبإمكاننا أن ندرس نثر الوعظ والإصلاح الذي أنشأه أدباء الأندلس في هذا العصر على أساس ثلاثة جوانب هي أهم محاوره:

أ ـ الجانب التعبدي.
ب ـ الجانب الإرشادي.
جـ ـ الجانب السياسي ـ الاجتماعي.

أ ـ الجانب التعبدي:

من المعلوم أن النفس هي الأولَى والأحرى بإصلاح صاحبها، وأن الإصلاح الذي يَنشُده كل راغب فيه لدى الغير، لا يستقيم على الوجه المطلوب، ولا يؤتي ما يرتجى له من الثمار، إلا إذا صَدَرَ عن نفس أخلصت السير في منهاجه، وعملت بكل مبادئه ومنطلقاته.

وأي شيء أصلح للنفس، وأقْوَم لها من أن تَجد الطمأنينة التامة في حمد ربّها، وشكره على ما منحها من نعم؟ ولأمرٍ ما شاء المولى تعالى أن تكون الوظيفة الأساسية لمخلوقاته عزّ وجلّ، كل مخلوقاته، هي أن تسبح بحمده.

ولذلك عددنا من نصوص هذا المحور، تلك الفقرات القصيرة، التي أنشأها الأديب أبو حفص بن برد الأصغر في التحميدات، والتي منها على سبيل المثال قوله: «الحمد لله جالي الكُرب السود، وفاتح المبهم المسدود، الذي أقال العثرات، وأدال من الحسرات، وآنْتَاشَ من البأساء، وأعقب بالنعماء، وأراح من جهد البلاء»[1].

وهي فقرات عديدة، في نحو صفحتين من كتاب الذخيرة، كلها على هذا المنوال في حمد الله على بديع صنعه، وكبير علمه، وعلى خفي أسراره، وبهي

(1) ذ: 1/1، ص: 492.

أنواره. . . وتأتي نغمة الحزن والأسى، وطلب التأسي والارتجاء في بعض هذه التحميدات كحديث الكاتب في الفقرة السابقة عن الكُرب السود، وكقوله في مكان آخر: «الحمد لله وَإِنْ عثرت الجدود، وهوت السعود، المرجوّ للإدالة، والمدعوّ في الإقالة، والقادر على تعجيل الانتصار، والآخذ للإسلام بمُنِيم الثأر»[1].

وقد أورد صاحب «الذخيرة» هذه التحميدات بدون تفسير واضح لها، ولكن صاحب «المغرب» الذي أوردها أيضاً ذكر أنها مقتطفة من كتاب صنفه ابن برد، ورفعه للمعتصم بن صمادح[2].

وكما حمد الله وَأَثْنَى عليه، فإنه شكره على نعمه، والحمد والشكر متلازمان، فمن ذلك قوله «إن للنعم عيوناً إذا كُحِلن بالشكر أُرين المُنعَم عليه السبيلَ التي يأتي المزيدُ منها، وتنحدر المواد عليها، والمناهج التي تفضي بها إلى دار إقامتها، وتبلغها مأمَنها، ومُلقى عصاها»[3].

وقد جعل صاحب «المغرب» هذه الفِقَر في شكر النعم جزءاً من الكتاب الذي ذكر أنه صنفه لابن صمادح.

ومما يلتحق بهذا الضرب من التعبد، أداء الفرائض الدينية. وإذا لم يكن من سبيل إلى إظهار التعلق بها، عن طريق وصف الإنسان نفسه وهو يؤديها، فمن المناسبات المؤاتية أن يتحدث الإنسان عن أداء الغير لها، ويتلذذ بذكرها، وترديد الكلام فيها.

من ذلك الرسالة التي أنشأها الأديب أبو القاسم بن الجد[4]، والتي خاطب

---

(1) ذ: 1/1، ص: 493.

(2) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد 36/1. والمعتصم بن صمادح هو صاحب المرية، حكم فيها من 444 إلى 480 هـ.

(3) ذ: 1/1، ص: 494.

(4) أبو القاسم محمد بن عبدالله بن يحيى بن فرح بن الجد: فقيه أديب محدث تولى الإفتاء في بلده «لبلة» وقد تقلد وزارة في الدولة العبادية. توفي سنة 515 هـ.

بها من أدّى فريضة الحجّ. وإذا كان الجزء الثاني منهامدحاً خالصاً، ينتمي إلى الرقاع التي أنشئت في هذا الضرب من التقرب من الأمراء ورجال الدولة، وهو ما كنا وقفنا عنده في حينه، فإن الجزء الأول يدور على هذه اللّذة التي يجدها الكاتب وهو يعدّد تلك الأماكن المقدسة، ويصف تنقل الحاج بين معاهدها وَإنْ لم يخلُ من المعاني المدحية. يقول في ذلك: «اهتز البيت العتيق لطوافك واستلامك، ورضيت المَرْوَة والصَّفا عن كمال أشواطك، وتهلل بطن المسيل لسعيك فيه وانحطاطك، ثم بالموقف الأعظم من عرفة سطع عرف تخشعك ودعائك. . .»[1] أما الرقعة التي يبدو فيها الكاتب متفرغاً للتغني بالشعيرة الدينية، مقتصراً على التلذّذ بأدائها، فهي تلك الرسالة، ذات الطابع الخيالي، التي تصور فيها الكاتب أنه أدى فريضة الحج ، وزار المدينة المنورة، ثم خاطب الرسول، عليه الصلاة والسلام، قائلاً: «كتبت يا أكرم الأنبياء وسائل، وأعظمهم فضائل، وأعمهم فواضل. . . . وقلبي بحبك معمور ومأهول، وعلى الإيمان بك مفطور ومجبول. . . .»[2].

ثم يحدث الرسول عن مقدار الأسف الذي يملأ قلبه لمفارقة مزاره، فهو ما إنْ غادر جواره الشريف حتى أخذ يحن إليه ويفكر في العودة إلى قربه. وهو يقول في هذا الأمل المتوثب بين جوانحه: «وكيف لا أحن إلى قربك، وأتهالك في حبك، وأعفر خدي في مقدس تربك، وبك اقتديت فاهتديت. . . . بل كيف لا يتحرك نحوك نزاعي، ويتأكد انقطاعي، وبك استشفاعي، وإليك مفزعي يوم الداعي. . .»[3].

هذا جانب مما سميناه النثر التعبدي، وهو يدلّ دلالة واضحة على إصلاح النفس برفعها إلى هذه الأجواء الصافية، المطهرة. غير أن أوضح أدوات

---

(1) ذ: 1/2، ص: 288.

(2) نفسه، ص: 287.

(3) نفسه.

الإصلاح، عند الداعين إليه تتمثل في الإرشاد والوعظ، والحث على الاعتبار بما يكتنف الناس من عبر.

ب ـ الجانب الإرشادي:

ليس شرطاً أن يكون الكلام المتضمّن معاني الوعظ والإرشاد، مستقلاً عن غيره من الأغراض، قائماً بذاته، بل إنّه ربما حَسُن هذا الوعظ والإرشاد حين يرتبط بحياة الناس، ويأتي نتيجة للتعامل معهم، والاتصال بهم. فهذا أديب «من أفراد الزهاد»[1] يتعدى بعضُ الناس على أرضٍ له فيشكوهم إلى من بيده السلطة والحكم. وليس هذا بالأمر العجب، وإنما الذي فيه بعض الطرافة هو أن يأتي هذا التَّظَلُّم في قالب العِظَة والحثّ على الاعتبار بما في الدنيا من عبر تدعو إلى الزهد فيها، أو القناعة بما قسم الله منها.

فمن أمثلة الصيغ التي يخاطب بها الوزير الذي تُوجَّه الرسالةُ إليه قولُه: «إن للدنيا حرثاً والنـاس زارعون، وكلٌّ في مَعَادِه، يأكل من حَصَاده، وذو الجاه يُسأل في الآخرة عن جاهه، كما يُسأل ذو المال عن ماله»[2].

ومن الواضح أن هذا الوعظ يبدو مرتبطاً بمصلحة صاحبه، يخدم منفعته، ويقضي حاجته. ولكن هذا الكاتب نفسه، قد يوجه مثل هذا الخطاب الوعظي حتى حين لا تبدو له منفعة واضحة فيه، كما في قوله إلى بعض إخوانه، في سياق مدحه بالرشاد والصلاح، «إن لله، يا أخي، عباداً، أقام أرواحهم بِقَيُّومِيَّتِه على صراط مستقيم، فمشت بأقدام الصدق إلى الحق، فدنت منه، فنظرت إليه على جلاله، في اتساع كماله، فضعفت لكبر سلطانه، ثم أفاقت بالإسلام، ونطقت بالإيمان. . . »[3].

وإن ما يلفت الانتباه في هذا الوعظ أنه ينهج نهجاً إيحائياً، فهو لا يأمر ولا

---

(1) هو الفقيه أبو عمر أحمد بن عيسى الألبيري. انظر ذ: 2/1، ص: 847.

(2) نفسه، ص: 848.

(3) نفسه، ص: 849.

ينهى، ولا يعد ولا يحذر، وإنما يصف حال المرضيّ عنهم من الناس المنعّمين بما فازوا به من قرب الله. فمنظر سعادتهم الجلية هي لسان الحال الذي يستفز الكلّ إلى السير على طريقهم وترسم خطاهم.

أما الوعظ المباشر، الذي يعتمد صيغ التوجيه، والمنع، والنصح، والردع، فنجد مثالاً له في رسالة الكاتب أبي عبدالله بن مسعود[1] الذي كان له ولد توجه إلى الغرب، وأقبل هنالك على شهواته وملذّاته، فخاطبه بقوله: «فاز يا بُنَيَّ من استشعر البر والتقوى، واستمسك بالعروة الوثقى، واعتصم بحبل القناعة والرضى، وتحصن بالعفاف، وتبلغ بالكفاف...»[2]. وهذا ضرب تقليدي من الخطاب يَلجأ إليه كل إنسان وجد نفسه في معرض التوصية بالمحافظة على الأخلاق الكريمة، وتجنب مذموم الأفعال.

بَيْد أن أَجَلَّ ميدان يمكن أن يجول فيه المصلح ويصول، إنما هو أوضاع الأندلس السياسية والاجتماعية في هذا العصر العصيب من تاريخها. فكيف عالج النثر الإصلاحي هذه الأوضاع؟.

جـ ـ الجانب السياسي ـ الاجتماعي:

من البديهي أن يكون الحث على الجهاد، وتعبئة الصفوف في وجه النصارى المتغلِّبين، واستصراخ المسلمين لتخليص المصابين، هي المضامين الرئيسية لهذا النثر الإصلاحي.

كانت مدن المسلمين، وحصونهم المنيعة تتساقط تباعاً في أيدي النصارى، فيحزن الناس، ويتشاءمون من المصير المظلم الذي تُنذِر حال التفكك الشامل بوقوعه... ولكن الذي حدث لمسلمي «بَرْبَشْتَر» قد فاق كل وصف. فقد غزا النرمانديون هذا الموضع الأشم من بلاد يوسف بن هود، أمير

---

(1) أبو عبدالله محمد بن مسعود القرطبي، كان أديباً ظريفاً كثير الهزل في نظمه ونثره. وانظر «المغرب» 134/1، وبه هامش المحقق عن مصادر ترجمته.

(2) ذ: 1/1، ص: 549.

سرقسطة، وذلك سنة 456 هـ، وقد شددوا الحصار عليه، فلما اشتدّ بأهله الجوع والعطش، استسلموا للعدوّ مقابل تأمينهم على نفوسهم، ولكن المتغلب نكث عهده، وأخلف وعده، وأقبل على تقتيل المسلمين والتنكيل بهم، وفَضَح النساء أمام أقاربهنّ، فبلغ عدد القتلى، حسب بعض الروايات، نحو مائة ألف نسمة، بينما قدرته روايات أخرى بخمسين ألفاً[1].

أنطقت هذه الحادثة الأليمة أديباً كبيراً، من أشهر أدباء هـذا العصر ووزرائه[2] فكتب باسم أهل «بربشتر» رسالة مؤثرة جعلهم يستصرخون فيها إخوانهم المسلمين ويستحثونهم لتخليصهم من العذاب الذي هم فيه. وقد افتتحها كاتبها بهذا المدخل: «من الثغور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد... المعتصمين بعِصْمة الإسلام، المتآلفين على الصلاة والصيام، المؤمنين بالتنزيل، المقيمين على سنة الرسول... إلى من بالأمصار الجامعة، والأقطار الشاسعة، بجزيرة الأندلس من ولاة المؤمنين، وحماة المسلمين، ورعاة الدين، من الرؤساء والمرؤوسين...»[3].

وبعد هذه التوطئة التي تشدد على مدى قرابة المصابين بباقي الأمة، وتنص على معالم دينهم وإيمانهم، لتنتبه كل حاسة إلى ما سيقولون، يشرع الكاتب حينئذ في الخطاب، بادئاً بوصف عام لحال أولئك المنكوبين الذين يتحدث باسمهم، فإذا هم يقولون: «خاطبناكم مستنفرين، وكاتبناكم مستغيثين، وأجفاننا قَرْحَى، وأكبادنا حَرّى، ونفوسنا منطبقة، وقلوبنا محترقة، على حين نشر الكفر

---

(1) انظر أخبار هذه المصيبة في الذخيرة حيث أورد أخبارها المؤلف عن المؤرخ ابن حيان. ذ: 1/3، ص: 179 وما بعدها. وانظر خبر ذلك أيضاً عند ابن عذارى 225/3. وقد استرجع المسلمون بربشتر بعد سنة من ذلك عام 457 هـ. وانتقموا لقتلاهـم.

(2) هو الوزير الكاتب أبو محمد عبدالله بن عبد البر. توفي كما ذكر صاحب الذخيرة سنة 474 هـ.

انظر ذ: 1/3، ص: 125.

(3) ذ: 1/3، ص: 173.

جناحيه، وأبدى الشرك ناجذيه، واستطار شرر الشر، ومسّنا وأهلنا الضرّ. . .»[1].

وبعد وصف مستطيل لوقوع الحادثة، وتوسُّع في إيراد تفاصيل الكارثة التي حلّت بأهل «بربشتر»، وما عانوا من الويلات، يصل إلى الجانب الإصلاحي الذي يهمنا، في سياقنا هذا، أكثر من غيره، وهو الحديث عن الجهاد. غير أن الكاتب لا يأخذ مباشرة في الحث عليه، وإنما يمهد له بالحديث عن حالة التمزق التي يتميز بها المجتمع الأندلسي، وما صحبها من ضعف هوّن أمر المسلمين على النصارى، وأطمعهم في القضاء عليهم. وفي ذلك يقول: «ولولا فرط الذنوب لما كان لريحهم علينا هبوب، ولو كان شملنا منتظماً، وشعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً، لما طاش لنا سهم، ولا سقط لنا نجم، ولا ذلّ لنا حزب، ولا فلّ لنا غرب»[2].

ثم نصل إلى كلامه عن الجهاد، فإذا بالإصلاح المنشود ليس خطة لتتميم السعادة الروحية، أو لاستيفاء شروط الكمال الأخـلاقي، وإنما هـو المصير الجماعي كلّه في كفّة الميزان، وإذا الخطر الداهم ليس عِلّةً تُعمي أو تُصْمِي وإنما هي عاصفة الثأر تهب باللهب المحرِق الذي لا يبقى من الأمة شيئاً ولا يَذَر. وفي ذلك يقول: «الحَذَرَ، الحَذَرَ! فإنه رأس النظر، من بركان تطاير منه شرر مُلهِب، وطوفان تساقط منه قطر مُرهِب، قلما يؤمن من هذا إحراق، ومن ذاك إغراق، فَتَنَبهوا قبل أن تُنَبّهوا، وقاتلوهم في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغورهم قبل أن يجاهدوكم في دوركم. . . ولقد آن أن يبصر الأعمى، وينشط الكسلان، ويَسْتَيْقظ النومان، ويشجع الجَبَان»[3].

أليس هذا إصلاحاً له شأن عظيم في بلاد الأندلس التي تنهشها كلاب الأعادي من كل ناحية؟ أليس هذا الإصلاح طريفاً لأنه يرمي إل الإقْنَاع بالحجة

---

(1) ذ: 1/3، ص: 174.

(2) نفسه، ص: 178.

(3) نفسه.

والبيان، وإلى التأثير وبلوغ شِغَاف القلب عن طريق عَرض المناظر الرهيبة لمآسي المسلمين، والتخويف بالمآل الذي قد يَؤُول إليه الجميع إذا لم يبادروا إلى لمّ الشتات وتوحيد الصف؟.

وقد أَنطقت حادثة: «بربشتر» هذه أديباً كبيراً آخر هو الوزير الفقيه أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني[1] الذي خاطب المعتضد بن عبّاد برسالة طويلة يصف فيها حال المسلمين بعد تلك النكبة، ويدعو الأمير إلى الجهاد.

وتلتقي هذه الرسالة مع سابقتها في كثير من معانيها. فهي مثلها في تعظيم ما وقع: «وكتابي عن حالة يشيب لشهودها مفرق الوليد، كما يغبر لورودها وجه الصعيد، بلؤها ينسف الطريف والتالد، ويستأصل الوليد والوالد»[2] وهي كسابقتها تتعجب من سكوت إمارات المسلمين على ما وقع: «كأن الجميع في رقدة أهل الكهف، أو على وعد صادق من الصرف والكشف... إن حاربوا موضعاً أرسلناه، أو انتسفوا قطراً سوغناه»[3]. وهي مثلها أيضاً في كونها لا ترى ما وقع إلا بداية لن تنتهي إلا بحادث جَلَل، أو ذاك ما يفهم من قوله المقتضب: «وإن هذا الأمر له ما بعده، إلاَّ أن يُسَنِّيَ اللهُ على يديك دَفْعَهُ وصَدَّه»[4].

غير أن رسالة الهوزني تختلف اختلافاً بينا عن سابقتها ولا سيما من حيث النَّفَس الإصلاحي. ذلك أن هذه الرسالة جاءت في قالب المدح للملك العبّادي، فلذلك كان أسلوب الاستنهاض للجهاد والحثّ عليه هو إخراج المدوح في صورة المهيّإ وحده، لمهمة الدفاع عن المسلمين، والقادر، دون غيره، على الثأر من قاتليهم، ومضطهديهم.

---

(1) من كبار أدباء الأندلس وفقهائها. رحل إلى المشرق ثم عاد إلى الأندلس واستقر بِمُرْسِيَة. إلى أن دعاه المعتضد إلى إشبيلية حيث قتله بها عام 460 هـ.

(2) ذ: 1/2، ص: 84.

(3) نفسه.

(4) نفسه.

وتحدثنا المصادر الأدبية بأن المعتضد قد كلّف وزيره ابن المعلم[1] بِأَنْ يُجيبَ عن هذه الرسالة، فيخبرَ الفقيهَ ابنَ الهوزني بأنه (المعتضد) قد حاول جمع الِشتات وتوحيد الكلمة، فخاطب أمراء الطوائف بذلك، وأرسل إليهم رُسُله بهذه الرغبة، ولكن «صُمَّت المسامع، واتفقت في التَّثاقُل المَنَازِع. . . وتُجُوِّزَتْ الجَمْجَمَةُ في ذلك إلى الإعلان، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى»[2]. وفي آخر تلك الرسالة يدعو ابنُ عبادٍ الفَقِيهَ ابن الهوزني إلى أن يقيم عنده في إشبيلية حيث لن يعدم فيها «المحلّ الرفيع، والجانب المنيع، والسكون. . . إلى من لم يزل يعتمدك بإيثاره، ويشاركك في خاص أسراره، ويرفع أقدارك فوق أقدار الأكفاء. . .»[3]. ولم يكن هذا اللطف، في الحقيقة، إلا فخّاً، وقع فيه الفقيه، فكانت فيه منيته، إذ جاء إشبيلية وفيها قتله ابن عباد الذي كان يحرص، فيما يبدو، أشدّ الحرص على أن يسكت، إلى الأبد، هذا الصوت المزعج الذي يُذكِّر الأمراء بواجبهم في الدفاع عن رعاياهم. . .

ولم يشتغل كاتب بوصف ثغور المسلمين، والحديث عن مُصَابهم، وذكر ما يلقونه من أذى النصارى في أملاكهم وأرواحهم، كما فعل أبو عبد الرحمن ابن طاهر، صاحب مُرْسِيَة[4]، وقد أورد له صاحب الذخيرة مجموعة من الفقرات المقتضبة من رسائل، لم يشأ أن يوردها كاملةً، تحت عنوان «فصول. . . في وصف ثغور البلاد، والاستنفار للجهاد»[5]، إلّا أن أهم ما كتبه هو تلك الرسالة التي يقص فيها واقعة أسره، بعد المحنة العظمى التي أصابت بلنسية حين غزاها

(1) الوزير أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم. من وزراء المعتمد، كاتب شاعر. أخباره وأدبه في ذ: 1/2، ص: 112.
(2) ذ: 1/2، ص: 119.
(3) نفسه.
(4) ابن طاهر: ذو الوزارتين، صاحب المظالم، أبو عبد الرحمن بن طاهر. سبق التعريف به. وانظر د: 1/3، ص: 24، وما بعدها.
(5) ذ: 1/3، ص: 85.

واحتلها من يعرف بالسيد الكنبيطور[1]، وهي حادثـة لا تقل فضاعة عمّا وقع ببربشتر، إن لم تكن قد تجاوزتها. . . وفي ذلك يقول: «كتبت منتصف صفر، وقد حصلنا في قبضة الأسر، بخطوب لم تجر في سالف الدهر، فلو رأيت قطر بلنسية. . . وما صنع الزمان به وبأهليه، لكنت تندبه وتبكيه، فلقد عبث البِلَـى برسومه، وعفّى على أقماره ونجومه. . . »[2].

من الواضح أن ذكر هذه المصائب، ووصف بعض جوانبها، والوقوف عند جزئياتها وتفاصيلها، يقع في الصميم من أغراض الوعظ والإصلاح، لأن هذا هُوَ الإرشاد الإيحائي، الذي يبلغ من النفس البشرية، ومواقع الحساسية فيها، ما لا يمكن أن يبلغه الكلام المباشر، بَالِغاً ما بلغ من الزجر والتقريع، والإفزاع، والترهيب.

وقد يتحقق للكاتب غرض الإصلاح المطلوب عن طريق المدح نفسه، ولا سيما حين يكون الممدوح من أبطال المسلمين، فكيف إذا كانت المناسبة مرتبطة باستعادة المسلمين لمدينة كان العدو قد احتلها وبالغ في التنكيل بأهلها. ذلك ما فعله الأديب ابن بسام، صاحب الذخيرة حين قصّ ما وقع في بلنسية، ثم وصل إلى كيفية استنقاذها من يد «القنبيطور» فقال عن يـوسف بن تاشفين، ملك المرابطين: «وتجرّد أمير المسلمين ـ رحمه الله ـ لما بلغه هذا النبأ الفظيع، واتصل به هذا الرزء الشنيع، فكانت قذى أجفانه وجماع شأنه، وشغل يديه ولسانه، يسرب إليها الرجال والأموال، وينصب عليها الحبائل والحبال. . . حتى رَحَضَ عارَها، وغَسَل شَنَارَهَا. . . »[3].

إن أبا الحسن بن بسام لا يمدح، هنا، أمير المسلمين، ابن تاشفين، مدحاً تقليدياً، لأنه قد مات، وهو يشير إلى ذلك بقوله «رحمه الله»، وإنما كان

---

(1) انظر ما كتبناه عنه في الفصل الأول من هذا البحث. وانظر ما كتبه عنه ابن بسـام فـي ذ: 1/3، ص: 95، وما بعدها.

(2) ذ: 1/3، ص: 91.

(3) نفسه، ص: 100.

يسرد تاريخاً، فوجد الفرصة مناسبة للوقوف عند فضائل هذا الرجل البطل، ويده الطُّولَى في إغاثة أهل بلنسية والثأر لكل ما لقوه فيها من تعذيب وتقتيل[1].

وهكذا نتبين، من هذه النصوص المتنوعة التي استعرضنا منها بعض المقتطفات، المكـانـَةَ المتميزة التي يحتلها هذا المنزع الإصلاحي الوعظي من نثر الأندلس. ولكننا مضطرون مع ذلك إلى القول بأنه جاء دون ما كنّا نتوقع ـ حَجماً، وتنوعاً ـ بالنّسبة إلى ما نعرفه من ظروف الأندلس. ولعلّ ردّ الفعل على تيارات اللهو، ومذاهب اللّذّة لم يكن قد استفحل بعد. ثم إن المسلمين كانوا قد اطمأنوا إلى تنامي قوة المرابطين في الأندلس. وربما استنام، بَعْضَ الشيء وبفعل هذه الطمأنينة، ذلك الخاطر الذي يُبْقي تَوَجُّسَهُم من الخطر الداهم. ومهما يكن من أمر فإنه إصلاح صادق المصدر، سليم الطوية، ينبع من إيمان عميق لدى أصحابه بضرورة تغيير السلوك الاجتماعي لـلأندلسيين، وتبـديل أوضاعهم السياسية بصفة جذرية لتتحقق وحدة الشمل، وتُعَبّأ الأمة أحسن تعبئة، لمواجهة عدوها اللّدود.

ولقد كنا نستطيع، من ناحية أخرى، أن نوسع مدلول النثر الاستعراضي الذي أفردنا له هذا الفصل، حتى يشمل جوانب أخرى من أغراضه، ولا سيما محورين بَيِّنَيْن، كانت الخطة التي وضعناها، في الأول، تقضي بعدم إخلائه من بعض الحديث عنهما، وهما: النثر التأليفي، والنثر التقويمي. وقد جمعنا كل المعطيات اللازمة للكتابة عنهما. ولكن صرفتنا عن ذلك عند التّروّي اعتبارات موضوعية، وأخرى منهجية لم يكن بوسعنا إغفالها.

فأما بـالنسبة إلى النثـر التأليفي، فـإنه من العسيـر، إن لم يكن من المستحيل، أن نتحدث حديثاً له معنى عن مجموعة من الكتب المطولة، ضمن

---

(1) فتحت مدينة بلنسية، واستعيدت إلى حضيرة الإسلام سنة 494 (وكانت قد سقطت في يد «القنبيطور» سنة 487 هـ). وقد قاد الحملة لاسترجاعها القائد مزدلي، ابن عم يوسف ابن تاشفين وقد عيّن بعد ذلك والياً على تلمسان (497 هـ) ثم على قرطبة (500 هـ) وتوفي سنة 508 هـ.

فصل واحد من هذا البحث، ينبغي أن يتسع لها ولباقي أغراض النثر الاستعراضي التي أوردناها فيه، فلو فعلنا ذلك لما زدنا على تناول كل كتاب منها بفقرات قليلة لا تعرّف به حقاً، ولا تدلّ عليه. هذا إلى أن أهم الكتب التي كنا نجعلها موضوعاً لهذا الحديث قد حظيت بدراسات مطولة اقتصرت عليها[1].

وأما بالنسبة للنثر التقويمي، فنحن نقصد به النصوص التي تناولت قضايا نقدية لها علاقة بتقويم ما كتبه الأندلسيون، تقويماً فنياً، مما تُنْشَأ فيه الرسائل والرقاع المتنوعة. وقد استعرضنا ما تجمع لدينا من هذه الرقاع التقويمية، فوجدناها في الغالب تتناول الجوانب الشكلية والموضوعات الفنية الخالصة، فرأينا أن الباب الثالث من هذه الدراسة، أجدر بها، لأنه هو الذي خصصناه للحديث عن مثل هذه القضايا التي لها صلة بالأشكال الفنية. ولو تناولناها هنا لما خلا كَلاَمُنَا، بعد ذلك، من تكرار مملّ.

* * *

بهذا النثر الاستعراضي، نصل إلى خاتمة هذا الباب الذي استقرأنا فيه معظم مضامين النثر الأندلسي، في هذا القرن الخامس، استقراءً، لعلّنا استطعنا أن نتناول، من خِلاَلِه، كل الأغراض التي عبر عَنْهَا، في هذه المرحلة الغنيّة بالأحداث من حياة الأندلسيين.

والواقع أن مضامين الأدب هي صورة للاهتمامات التاريخية التي تبديها الأمة، ويعبر عنها المثقفون. ولذلك فإن الأغراض التقليدية ذاتها، تُكسبها الظروف والملابسات المتميزة خصائص تجعلها شديدة الإلتصاق بعصرها الذي أُنْشِئَت فيه، وثيقة الصلة بصاحبها الذي جاءت لتعبر عن آرائه، ومذاهبه، ومواقفه.

---

(1) أهم من كنا نذكر من المؤلفين ذوي الكتب التي تدخل في موضوعنا: الإمام ابن حزم، والفتح ابن خاقان، وقد دارت على إنتاجهما دراسات كثيرة للعرب والمستعربين؛ وابن بسام صاحب الذخيرة، وقد خصصنا له أطروحتنا: «ابن بسام وكتاب الذخيرة» (1976)، طبع «المؤسسة الوطنية للكتاب»، الجزائر 1989.

ولعلّنا تبينا الكثير من أحوال الأندلس من خلال أدبها، فعرفنا قدراً غير قليل من مشاعر أهلها أمام الخطر الخارجي، ووقفنا عند الكثير من ردود الفعل التي أفرزها تأملهم في هذا الخطر، فمنهم من دفعه ذلك إلى مزيد من الإقبال على ملذات الدنيا، وشهواتها، ومنهم من توجّه نحو المناصب السياسية يجدّ في السعي إليها، ويتنقل بين الأمراء الذين يأمل عندهم تحقيق بلوغها والوصول إليها.

وكما اختلفت نظرة الناس إلى الحوادث، اختلفت آثارها في نفوسهم، واختلفت كذلك تأثيراتها في مسار حياتهم. فكم من غني آل به الأمر إلى الفقر والحاجة، وكم من وجيه ذلّ، وكم من رفيع انحط، وكم ذليل عزّ، ووضيع ارتفع. وكما سخر الأدب من تقلبات هذه الدنيا، أذكى في النفوس عواطف التضامن، فتجلّت مواقف التكاتف والتكافل بين الإنسان وأخيه المصاب، في أبهى وأروع صورها.

وبالجملة، فقد عبر النثر تعبيراً واسعاً عن كلّ التحولات العميقة التي أحدثها الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي الناتج عن انهيار وحدة الجماعة، وقيام الدويلات التي يعرف أصحابها بملوك الطوائف.

وقد تحقق للنثر، طوال هذا القرن، من الاتساع، والتنوع، والتطور، ما لم يتحقق له قبل ذلك أبداً. وقد اقتحم الأدب النثري كل مجالات التعبير حتى لم يعد فيها ما يمكن أن يُعَدَّ بعيداً عنه أو غريباً عليه. ودلّ موقف الأدباء على هذا التطور حين أقبل الشعراء المبدعون منهم على ترك شعرهم لمناسبات عاطفية محدودة، واتخذوا النثر وسيلتهم للتعبير، وأداتهم المفضلة في كل أنواع الاتصال، فكانت قمة التلاقي والتوفيق بين الفنين حين أضحى النثر نفسه نوعاً من الشعر.

وبعدُ، فإذا كان النثر قد حقق هذا القدر من التطور في أغراضه ومضامينه، فهل رافق ذلك تطورٌ يسايره ويُضَاهِيه في صِيَغِهِ، وقوالبه، وأشكاله الفنية؟ أو،

بتعبير آخر، هل أصاب هذا النثر من الطرافة في المبنى مثل ما شهدنا له من الطرافة في المعنى؟.

ذلك ما ينبغي أن يجيب عنـه الباب الثالث من هذ البحث.

* * *

محتويات الجزء الأوّل

الموضوع الصفحة

الباب الثاني

الموضوع | الصفحة



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 90/10/2000/185

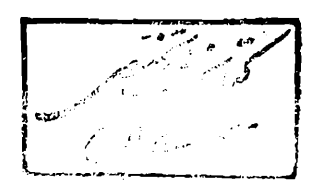
التنضيد : كومبيوتايب / بيروت

الطباعة :  مؤسسة جواد للطباعة والتصوير

هاتف: ٨٣٨١٥٢-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

LA PROSE LITTERAIRE ANDALOUSE

AU 5ème / XIème SIÈCLE



PAR

ALI BEN MOHAMED
(UNIVERSITÉ D'ALGER)

TOME I



Dar al-Gharb al-Islami

LA PROSE LITTÉRAIRE ANDALOUSE

AU 5ème / XI^{ème} SIÈCLE

1

Série Universitaire

LA PROSE LITTÉRAIRE ANDALOUSE

AU 5ème / XIème SIÈCLE

PAR

ALI BEN MOHAMED
(UNIVERSITÉ D'ALGER)

TOME I

